رواية



رواية

قمر على سمرقند

محمد المنسي قنديل

حكايات السهوب

ـ ١ ـ

مدينة زرقاء ونائية، يلفها ضباب هش في الصباح، وتتصاعد منه أعمدة من الغبار اللافح عند الظهيرة، ربما كنت الغريب الوحيد في موقف سيارات الأجرة الشاسع، يحيط بي جمع من السائقين، وجوه بيضاء لوحتها الشمس وأكسبتها حمرة متقدة، عيون لها نفس زرقة المدينة الباهتة، وفي كل فم يلمع سن من ذهب، يحاول كل واحد منهم أن يعلو بصوته على الآخرين، أشم رائحة عرقهم ولكنني لا أستطيع أن أفهم حرفا واحدا من كلماتهم، ما أفهمه فقط هي تلك الأرقام التي يواصلون كتابتها فوق زجاج السيارات المترب، خمسمائة، أربعمائة وخمسون، أربعمائة، ولا يفوتهم أن يرسموا علامة الدولار بجوار كل رقم، أعرف أنها أرقام مبالغ فيها، قبل أن آتي إلى هنا حذرني الجميع من المساومات المضنية في موقف السيارات، أتطلع إلى الحافلة التي تقف على مبعدة وهي تستعد للانطلاق إلى "سمرقند"، مكدسة بالبشر والحيوانات، حاولت أن أركبها قبل أن أقف هكذا في موقف السيارات، لم أطق مزيج الروائح العابقة بها،

لم أجد أيضا مسافة الفراغ أسكن فيها إلى نفسي، يتقدم واحد من السائقين ويضع يده على كتفي، يتحدث بلهجة عاطفية حميمة، أشم رائحة أنفاسه المختلطة بالكحول، يدق بيده على صدره ويقسم، أتصور ذلك لأن كلمتي الله والقرآن تترددان بالعربية وسط كلماته بكثرة، يطلب ثلاثمائة وخمسين دولارا مؤكدا أن هذا آخر رقم يستطيع التنازل عنه، قبل أن يكمل إقناعه لي يدفعه الآخرون بعيدا، تتحرك الحافلة مبتعدة بما فيها من بشر وحيوانات، تلوح لي طفلة صغيرة تجلس بجوار عنزة اكبر منها وهما تطلان معا من النافذة، تزداد وجوه السائقين اقترابا مني، لم أكن أريد سوى الوصول إلى "سمرقند"، وتحول هذا الطلب البسيط بسبب جهلي باللغة والمكان إلى نوع من المستحيل، أدخل الكراسة التي أدون فيها ملاحظاتي داخل الحقيبة وأضع الحقيبة على كتفي وأبحث عن مخرج من الطوق الذي يحيط بي.

تلتف حول معصمي أصابع ضخمة وقوية، ألتفت مندهشا فأجد جسده الضخم وهو يقف بيني وبين الشمس، يقول لي بثقة وبلغة عربية واضحة :

ــ سآخذك إلى "سمرقند" إن شاء الله.

تفاجئني لغته العربية الناصعة والطريقة المحكمة التي يقبض بها على معصمي، يتوقف الجدل فجأة، يصمت الجميع، يجرني خارج دائرة المساومة، لا يدرك السائقون للحظات أن الفريسة قد أفلتت منهم، ثم يعلو صخبهم فجأة، يلوحون بأيديهم في اعتراض، ولكن الآخر مازال قابضا على معصمي، يقف بي أمام سيارة روسية قديمة، زجاجها الأمامي مليء بالشروخ، يوشك أن يتداعى عند أول اصطدام بالريح، يهتف بي بصوته الأجش العميق وبنبرة لا ترد:

ــ اركب.

أقف مترددا شاخصا بصري إليه، اتأمله للمرة الأولى، لم يكن فارع الطول كما تخيلت للوهلة الأولى، ربما أوحى إلى بذلك صوته العميق، جسده أميل لأن يكون مربعا، أشبه بصندوق ملئ بالأصداء، وجهه محتقن البياض، مملوك قديم، مازالت أوداجه منتفخة ولكنه رث الثياب، عيناه زرقاواتان عميقتان، لحيته الكثة مزيج من الألوان البيضاء والحمراء، من فرط غرابتها تبدو كأنها مستعارة، ملامح غريبة منحوتة، أشبه برسم خيالي لشخصيات من الأسلاف الغابرين، تجمع بين القدسية والغواية، لطخات من فرشاة عفوية في لحظات

الخلق الأولى، كل ما يلبسه حائل اللون، البنطال والقميص المفتوح الأزرار بلا شيئ تحته، والطاقية "الأوزبكية " الملونة، وحتى النعل المتآكل السيور.

يفتح حقيبة السيارة ويمد يده ليتناول الحقيبة المعلقة على كتفي، أمسك بها وأتراجع خطوة إلى الوراء، أفيق من الحضور المفاجئ الذي فرضه علي، أقول وأنا أشير إلى السيارة :

ــ هل تقدر مثل هذه السيارة، على تلك الرحلة الطويلة؟

يقول في ثقة وهو مازال مادا يده نحوي :تقدر بإذن الله

أتطلع إلى الخلف، بقية السائقين يقفون في تحفز، ولكن لا أحد منهم يجرؤ على الاقتراب منا، أحاول أن أستشف من وجوههم ماذا يمكن أن يحدث لي لو لم أقبل بهذه الصفقة المفروضة، يضيق السائق بترددي الطفولي، يقترب خطوة وينتزع الحقيبة من فوق كتفي، لا أستطع مقاومته، يضعها في حقيبة السيارة ويغلقها. يفتح باب السيارة الأمامي ويهتف بي: تفضل، يقولها بصوت مفخم، يقلب فيه الضاد إلى ظاء، لا أجد مفرا من الدخول، يغلق الباب خلفي بعنف، يبدو أن

هذه الطريقة الوحيدة لإغلاقه لأنه يغلق بابــه أيضــا بــنفس العنف، يبذل أكثر من محاولة لإدارة محرك السيارة، تطــن تروسها في وهن دون أن يســتجيب المحــرك، أتمنــى ألا يستجيب أو يتأخر قليلا حتى أستجمع شتات أفكاري، ولكــن السيارة ــ مثلي ــ لا تستطيع أن تقاوم الضغط المتواصــل لأصابعه، يتقطع صوتها وترتج كأن المحرك يتقلــب علــى جنبيه، تنطلق منها حشرجة خشنة قبل أن تقفز فجأة متحركة ويتمتم هو :

ــ سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين.

نبدأ في الســير البطــيء وســط زحــام " طشــقند " الصباحي، كتل من المساكن الأسمنتية المتشابكة والمتشــابه في كل شئ، حتى في زجاج النوافذ المحطم، بقايــا حزينــة ومتداعية من أيام الاشتراكية الطويلة وحلم المســاواة الــذي تحول إلى كابوس، تزيحها أبــراج عملاقــة مــن الصــلب والطابوق، شواهد الانفتاح والعصر الجديد، تخترق الســيارة شوارع زاهية الخضرة، تظللنا أشجار عملاقة تكاد تحجــب السماء، تتوقف السيارة فجأة عند إحدى الإشارات، كأنه لــم يكن يتوقع وجودها، يشير إلى فتــاتين شــقراوين تعبــران

الطريق من أمامنا، تلبسان ثيابا بيضاء قصيرة تكشف عــن افخاذهما الناصعة، يقول في صوت خفيض :

ــ هل تحب أن تصحبانا في رحلتنا؟.

أحدق فيه مندهشا، لايبدو التعليق لائقا بهيئتــه، كأنــه يريد التصرف كدأب السائقين المحترفين، يضحك بخشــونة يدير وجهه ناحيتي فأرى سنته الذهبية، يضيف :

ــ ولكننا في هذه الحالة لن نجرؤ على الــذهاب إلــى سمرقند أو بخارى.

تنطفئ الإشارة، ننطلق إلى الشوارع مرة أخرى، تتابع خلطة الوجوه من أمامنا، أيام قليلة في المدينة جعلتني اعرف الكثير من قراءة وجوه أهلها، أوزبيك مقطبو الوجوه يبتسمون فقط نصف ابتسامة، يحرصون دائما رجالا ونساء على كسوة واحدة من أسنانهم بالذهب، وروسيات شــعورهن كأســلاك الفضة، وثيابهن بالغة القصر، غربت سنوات سطوتهن ولكن الرغبات الحسية مازالت متوهجة، استبدلن الجنس بالسياسة، تتار وكزاخ وطاجيك وكوريون، خليط أسيوي مــن الــدماء والأعراق يسري في عروق المدينة الصباحية، نصــل إلــى ساحة "تيمورلنك " ألتقط أنفاسي بصعوبة وأنا المح الحديقــة

المستديرة وهي تقترب، يطل علينا تمثال الأمير الغاضب، يتداخل مع وجه السفير وهو يتحدث إلي، كان رسميا وباردا، لا أعرف مالذي دفعني لمقابلته، يقول لي فجأة:" أنت تشبه والدك كثيرا، هل تعرف إنني عملت تحت إمرته في أيام حياتي العسكرية، كانت أياما جميلة"، هل كان يعرف الغرض من رحلتي، وهل يعرف أن أبي لا يشبهني ولكنه يسكن تحت جلدي، يغير السفير الموضوع ويبدأ في الحديث عن متاعبه في هذا البلد، ياالله..لماذا بقوا جميعا ورحل أبي؟ كانت المرارات ذائبة مثل يوم غائم، اسمع صوت السائق فجأة وهو يقول لي :

ـــ هل نتوقف؟

ألتفت إليه مندهشا، هل فضحني وجهي؟ هل امتلأت عيني بالدموع؟ أهز رأسي رافضا فيزيد من سرعة السيارة مستديرا مع الساحة، لا أظفر إلا بلمحة من قمة التمثال الحجري والنافورة التي بللت ثيابي بالأمس، تمضي السيارة مبتعدة، تسلك الطريق الطويل المؤدي إلى خارج المدينة، تتراجع المساكن وتبدأ أكواخ الصفيح في الظهور، تحيط بالمدينة مثل حزام صدئ، أسمع صوته وهو يقول لي :

ــ أخي، ما أسمك؟

ــ علي

ــ رضي الله عنه،اسمي "نور الله" أنت من مصر طبعا، هيئتك ولهجتك العربية توحيان بذلك.

أنظر إليه في دهشة وتوجس :هل تعرف مصر جيدا

يقول بلا اهتمام :لم أزرها كثيرا، ربما مرتين أو ثلاثا، كان هذا منذ زمن ولكني أكلت فيها كميات من الفول تكفيني لسنوات طويلة.

لا يبدو مثل رجل أعمال، وليس سائحا أو دبلوماسيا، فمن أين اكتسب اللغة العربية بمثل هذه السلاسة والمعرفة بتلك الدرجة من الفراسة؟ لا تتوقف السيارة عن التقافز فوق الإسفلت المحطم، ولا تأخذ "طشقند" في الابتعاد، تنفتح الطرق الخضراء، بين لحظة وأخرى تظهر أحد الشواهد الحجرية، مجد الاشتراكية السابق في تماثيل صامتة، شباب وبنات متماسكو الأيدي يرفعونها إلى أعلى في انتظار شمس لم تشرق أبدا، تحيط بنا حقول القطن من كل جانب، تتسلل رائحة الطين والجذور إلى أنفي، طفولة نائية تستيقظ، عندما كنت أنا وأبي نزور قريتنا النائية، عالم من نثار الذكريات

لازال مضطرما في أعماقي، يلاحقني السؤال: لمــاذا هــذه الرحلة؟ عن أي شيء أبحث أو بالأحرى من أي شئ أهرب؟ أنظر إلى مؤشرات السيارة، تتجه كلها إلى الصفر، الوقــود صفر والزيت صفر وحتى السرعة صفر، لا شيء يدل على أن السيارة تعمل إلا هذا الاندفاع المجنون إلى الأمام، يغوص وسط بساط من الخضرة لم اشهد له مثيلا، يقول:

ــ هل تناولت فطورك؟

ــ في العادة لا أتناول شيئا

ــ أمامنا رحلة طويلة ويجب أن نبدأ بشيْ، كل ما علينا الآن هو أن نعثر على المرأة الكازاخية التي تكون عادة فــي هذا المكان.

أتطلع حولي فلا أرى شيئا، على مبعدة يبــدو بعــض الفلاحين غائصين وسط حقل القطن المتوهجة، تعلــو بنــت صغيرة رأسها من بين شجيرات القمح وتلوح لنا، ثيابها خليط من الألوان الصاخبة والمتداخلة، يكشف السائق عــن ســنته الذهبية وهو يقول: إنها ترتدي ثوبا من الحريــر الأطلســي، وهذه ألوانه، قبل أن يكمل الجملة ينحرف فجأة بالسيارة فــي حركة عنيفة كعادته، اصرخ فيه أن يكف عن هذا الأســلوب

في القيادة وإلا سوف أتركه، تظهر المرأة العجــوز وهـــي جالسة بجانب إحدى الأشجار، ملامحها مغوليـــة، وجنتاهـــا دقيقتان وبارزتان ومليئتان بالتجاعيد الدقيقة، وعيناهـــا ذات حدقتين أميل للاستطالة، وثيابها السوداء المطرزة بـــالخيوط الملونة، تمسك في يدها قربة من الجلد لا تكف عن خضـــها، يهبط "نور الله" من السيارة دون أن يأبه باحتجاجي، يجلـــس بجانبها ويبدأ في حديث صاخب معها، يعود إلى لغته التي لا أفهم منها شيئا، تضحك العجوز في جذل وهي تضربه علـــى صدره، تخرج وعاء صغيرا من المعدن وتصب فيه ســـائلا من القربة، يحمل الوعاء بين كفيه ويتجه نحوي :

ـــ هل تريد أن تشرب؟

أتطلع إلى السائل الأبيض الباهت، تسبح على ســـطحه قطرات من الدسم الأصفر، أقول له: ما هذا؟

يبتسم و هو يقول : " قمبز"، لبن الخيل

أهتف وقد تقلصت أمعائي من فرط الاشمئزاز: يا لله، كلا

يظل ممسكا بالإناء بالقرب من وجهي، أشـم رائحـة صنان الخيل وهي تتصاعد من بين الذرات العائمة، أهتف به متوسلا:

ــ أبعده عني

يهتف مستغربا: وما العيب فيه، العثمـانيون هزمـوا أوربا كلها بواسطة هذا "القمبز"، كـان شـراب الانكشـارية المفضل.

أدير وجهي للناحية الأخرى، أسمعه وهو يتنهـد وقـد خاب أمله في، قبل أن يبدأ فـي التراجـع، اسـمع صـوت ضحكاته مختلطة بضحكات المرأة العجوز، أسـتدير فـأراه جالسا ملتصقا بها وهو يشرب اللبن ويمسح شاربه بظهر يده، يتحدث إليها فتنظر نحوي وتواصل الضحك، هـل يخبرهـا بشيء عنى أم يحكي لها حكايات بذيئة، يتكشف في كل لحظة لي وجها من وجوهه، عليم بالعربية، دارس للتاريخ، عارف بمصر، لا يبدو سائقا عاديا بأي حال، كنت أفضل أن يكـون سائقا صامتا محايدا لا يثير حيرتي إلى هذا الحـد، قبـل أن ينهض واقفا يحتضن المرأة برفق ويقبل قمة رأسـها، يلقـي بجسده الضخم على المقعد، يخبط الباب بعنف ثم ينطلق فجأة

وسط السيارات التي تحاول تفاديه وهي تزأر بعنف، تتراجع الأبقار الذي ترعى على جانب الطريق في فــزع، تلاحقنــا شتائم سائقي السيارات، لا يبدو أنه لاحظ كل هذا لأنه يميــل علي وهو يقول :

ــ لا تغضب سأعوضك عن هذا بإفطار حقيقي.

يظهر بعض من الباعة بين الشجر المتكاثف، يضــعون على حافة الطريق مناضد صــغيرة مزدحمــة بزجاجــات المشروبات الروحية وعلب المرطبات وقطــع الشــوكولاته، البضائع التي كانت محرمة في السابق تعرض الآن بحريــة وفخر، أطفال صغار يمســكون علــب الزيــت ويلوحــون للسيارات، شاحنات تعبئ الوقود للسيارات العابرة بواســطة مضخات صغيرة، ومازال سائقي المجنــون يتقــافز علــى الطريق وهو لا يكف عن الحديث معي، يتأمل ما يدور حوله في تمعن كأنه لم ير هذه المشاهد عشرات المرات من قبــل، يتحول جسده كله إلى عينين براقتين، يبدو الطريــق تحــت الشمس مثل حديد منصهر، أحاول أن أعرف عن أي شــيء يبحث، ولماذا يريد اشغالي بهذه الكلمات الكثيــرة، يمضــي الطريق بنا وينتصف النهار.

يتغير كل شيء عندما تلوح من بعيد سيارة زرقاء، تختلج ملامح وجهه وهو يدير مقود السيارة في حركة مفاجئة، اسمع صوت العجلات وهي تحتك بالإسفلت، تميل الحقول بشدة وتتداخل مع حد الجبال التي كانت تبدو في نهاية الأفق، يدور بالسيارة فجأة لنصبح في الطريق المعاكس، كأنه يوشك على العودة إلى " طشقند"، أرى الفزع على وجوه الفلاحين الذين يفاجئهم انحرافنا نحوهم، ولكنه لايتمهل، يواصل الانحدار حتى يصل إلى طريق جانبي مترب، ترتفع من حولنا النباتات البرية وحشائش السافانا التي توشك أن تغطي سيارتنا تماما، لا أملك القدرة على الصياح أو الاعتراض، تزوم ماكينة السيارة وهي تغوص في هشيم الأعشاب، ألمح من خلف زجاجها فراشات ونحلا وجنادب تتطاير مفزوعة، تنخفض النباتات ثم تتراجع فأصرخ في فزع :

ـــ سوف تقتلنا يا مجنون.

نندفع في اتجاه نهر مترام، غزير المياه، أمسك بمقبض السيارة خائفا وهي تواصل من الانزلاق، المح طيور النهر وقد تجمدت في وسط السماء، أغمض عيني وأستعد لتلقي

أول دفقه من الماء البارد، يتوقف محرك السيارة فجأة، يسود الهدوء فأسمع صوت الماء وهو يـرتطم بجـانبي السـيارة، وشيش النهر قادما من بعيد، ألتفت إليه، يجلس هادئا مستغرقا في تأمل مياه النهر، ربما ليتجنـب النظـر إلـي، أصـابعه الضخمة متشبثة بمقود السيارة كطوق نجاه أخير، أريـد أن اسبه واشتمه ولكن التعبير المرتسم علـي وجهـه يجعلنـي أصمت، وجه متحفز لا يعاني من خوف بقدر ما يحس به من عجز، ألتقط أنفاسي بصعوبة :

ـ لماذا فعلت ذلك؟

يقول دون أن ينظر إلى :

ـ فعلت ماذا؟ كل ما أردته هو أن تـرى واحـدا مـن أشهر أنهار التاريخ.

أحس بالحنق الشديد لأنه يكذب دون أن يكلـف نفسـه عناء المواربة:

ـ أنت تحاول الاختباء، تهرب من شيء ما؟

يقول بنفس الهدوء:

ـ أنت لا تدري ماذا يوجد أمامك، هذا ليس نهرا عاديا من أنهار وسط آسيا، أنت ترى "آموداريـا"، أبـو الأنهـار

جميعا، هل سمعت عنه؟ ألم تقرأ كتب التراث العربي، هـــذا هو نهر"سيحون" التي قالت عنه كتب الأولين أنه من أنهـــار الجنة، بالتأكيد سمعت عنه، زميله الآخر نهر "جيحون" يسير بموازاة الحدود مع تركمانستان، من أجل هذا سميت بلاد ما وراء النهرين، هل كنت تعرف ذلك؟

أهتف به في إصرار:

ـــ من المؤكد أنك هارب من شيء ما؟

يلتفت إلي وقد احتقن وجهه، يهدر صارخا حتى أنني أرى اللعاب الأبيض في زاويتي فمه:

ـــ ماذا ترى أمامك، قاتلا، مهرب حـــدود، مغتصـــب نساء، قاتل أطفال، مزور نقود، تـــاجر مخـــدرات، مبتـــزا، مختلسا، إرهابيا، أي من هذه تتناسب معي.. هه؟

تهزني غضبته، بالتأكيد لا يشبه واحدا مـــن هـــؤلاء، ورغم ذلك فهو مثير للحيرة وللخوف، أفتح بـــاب الســـيارة وأخرج منه متجنبا الانزلاق في النهر، اقف في مواجهة الماء الساجي بين الضفاف الخضر الممتدة على مدى البصـــر، لا يقطع انسيابه إلا جزر متفرقة، أدغال عائمة لا تكف طيـــور الماء البيضاء عن الحومان حولها، يدفع المـــوج بقايـــا مـــن

الأغصان المتكسرة وقطع الثلج الذائبة وشذرات من الطحلب، تقطع السكون صرخة طائر ظفر في التو بإحدى الأسماك أو ثغاء نعجة ترعى على مبعدة، سيارتنا غائصة بين العشب والماء، لا تكاد ترى من أعلى النهر، يظل جالسا في مكانه تاركا لي من خلال صمته حرية الاختيار، هل أتركه أم أواصل طريقي الغامض معه دون محاولة السؤال أو الاعتراض، أشعر أن ما بيننا قد تلف تماما، لا أدري أي جريمة قام بها، ولكنني واثق أن السيارة التي سارعنا بالهرب منها كانت إحدى سيارات الشرطة.

أحاول أنا أيضا أن أستعيد هدوئي، أستغرق في تأمل النهر لعل برودته تنفذ إلى عروقي، أنسل من خلال موجاته إلى زمني الخاص، من اللحظة الأولى التي غصت فيها وسط تضاريس الأرض والمدن وضعت بين تفاصيل الخرائط المعقدة، منذ أن كنت صغيرا وأنا أهرب خلف الحروف المتكسرة على الصفحات الصفراء، في الدنيا أنهار أربع تفيض خيرا وتغيض جوعا، ومثلما أتت إلى العالم من الجنان البعيدة تعود إليها، فيصير النيل نهر العسل في الجنة ويصير الفرات نهرا للخمر ويصبح "جيحون" نهرا للبن ويبقى

"سيحون" على حاله نهرا للماء، تصـــيبني الأنهـــار برعـــدة الميلاد والموت، نهر مثل هذا سلبني أبي، ولم يعطني سوى حب عابر لا سبيل للحفاظ عليه، ضاع أبي مني في اللحظـــة التي اعتقدت أنه قريب مني لدرجة حميمة، أما أمي، تلك فقد ظل وجهها بعيدا على حافة الحلم والذكرى، عقد من الطـــين وتاج من خوص النخيل، ورحلة إلى البر الغربي حيث نخـــر السوس كل لفائف البعث والنشور، كنت صغيرا حين هبطت على صفحة النهر للمرة الأولى، فلم أدرك الفساد الكامن في بذرة التكوين، كان النيل وقتها شيخا مهيبا عاجزا عن إعطاء أي حكمة فتخلى عنا وتركنا نمضي دون تحذير، أتذكر "فايزة التهامي" وهي تحلم في لحظات الجنون: ما رأيك لو مارســـنا الحب على قارب مهتز وسط مياه هذا النهر ألا ينقـــذنا مـــن ذلك الجفاف الذي يوشك أن يفتت روحينـــا، تتكـــأ كلماتهـــا جرحي فأغمض عيني وأفتحهما، أجدني في مواجهـــة نهـــر آخر، ليس فيه ذلك الدفـء الاستوائي البعيد ولا تلك الحمـــرة الداكنة التي تخضب النيل، كل ما يضطرم بـــه هـــو حـــزن رمادي بارد، وأجد "نور الله" واقفا بجانبي، لعل بعضا مـــن شعوري بالوحشة قد انتقل إلي، تتبدد لحظات الغضب التـــي

شعرنا بها ويحل بدلا منها شيء من حزن النهر وســكينته، قال :

ــ كل الأنهار هكذا، موجاتها شاهد على تدفق الأزمنة وموتها، من على هذه الضفاف جاء المماليك وحــط التتــار وسارت قوافل الحرير وارتفع نجم "الخانقاة " ثم تبدد زمــنهم كالحلم وفي أعقابهم انقض الروس ثم البلاشفة الحمر، سادوا كأنهم لن يبادوا، وسبحان من يرث الملك والملكوت.

يقول ذلك كله في تدفق عفوي، كأن كلماته هي بعــض سريان النهر ومن صيرورة الزمن، تحيرني الابتسامة الباهتة المنكسرة على وجهه، أقول له:

ــ من أنت بالضبط، وما الذي وضعك في طريقي؟

يرد بهدوء وبنفس الابتسامة :

ــ ومن تعتقد أنني سأكون، عبد من عبــاد الله، مــن مخلوقات بلاد ما بين النهرين، لو تغير الزمن واعتدل ميزانه المائل، كان يمكن أن أكون أنا أيضا سلطانا مملوكيا، وأحكم بلادكم، سوء الحظ فقط هو الــذي وضــعني فــي موقــف السيارات وجعلني سائقا، تائها على الإسفلت.

أبعد نظري عن عينيه الزرقاوين الباهتتين ووجهه المحمر، تتكون تحت جفني المغمضين أطيافا حية، صفوف من المماليك الصغار يعبرون النهر في يوم بارد، وجوههم شاحبة، وأطرافهم محتقنة بالدماء الزرقاء من شدة أحكام الحبال، يسير النخاسون في المقدمة ويحف الحرس المأجورون بالغلمان من كل جهة، يهوون بالسياط على كل من يتقاعس أو يجرؤ على التخلف، يعبرون سهوبا ووديانا سعيا إلى أسواق العبيد، تلاحقهم طيور الموت، من يسقط لا قبر له إلا في بطون الجوارح، أما من يستطيع الإفلات من رحلة الهلاك هذه، فسوف يجد جنة السلطان الموعودة على ضفاف النيل، وعندما يشرق طالع السعد، يصعد هؤلاء المماليك الصغار وعلى رؤوسهم تيجان متألقة، يركبون الخيل العتاق في زهو ويضاجعون الغيد الحسان باشتهاء ويتسلطون على رقاب العباد في تجبر، يقضون العمر كله في محاولة لتعويض لحظات المهانة التي عاشوها عند عبور النهر، ويحرصون دائما ارتداء الثياب ذات الياقات العالية حتى يخفون آثار حبال النخاسين التي كانت مربوطة حول أعناقهم، يمد "نور الله" يده ويلمس كتفي في رقة:

ـــ هيا بنا.

أقول في عناد طفولي : لن أسير معك حتى أعرف من أنت بالضبط.

يقول ضاحكا: هل أنت خائف؟، هل صدقت أنني يمكن أن أكون مملوكا قديما، أنا عبد فقير إلى الله، ثم من ذا الـــذي يستطيع أن يفصح عن مكنون نفسه بمجرد الكلمـــات، هيـــا طريقنا مازال طويلا.

أسير خلفه، تهدئني كلماتـــه دون أن تقنعنـــي، أجلـــس بجانبه أراقب محاولته لإدارة محرك السيارة، يحاول الخروج من الفخ الأخضر اللزج الذي انزلقنا فيه، أقول له :

ـــ أنت تعرف الكثير بالنسبة لسائق سيارة، قل لي على الأقل لماذا ذهبت إلى مصر، هل كنت سفيرا، وزيرا، رجـــل أعمال؟

ـــ لا تحاول السخرية مني.

يصمت قليلا كأنه يزن ما ينوي قوله من كلمات :

ـــ لنقل إنني ذهبت في عدة مناسبات رسمية، كان هذا منذ زمن عندما كان لكل شيء أهميته، تغير الزمن الآن وفقد كل شيء قيمته، بل إنه أنا الذي فقد قيمته، لم تعد الذكريات

مهمة أيضا، فلماذا تصر على السؤال عنها، أنا لـــم أســـألك لماذا جئت إلينا ولا ماذا تنوي أن تفعل في "سمرقند"، دعنـــا إذن نستمتع برفقة الطريق.

ــ ورجال الشرطة، لماذا تحاول أن تتجنبهم؟

ــ من الذي يحبهم، خاصة أمثالنا من الســـائقين علـــى الطريق، أراهن أن الســـائقين فـــي بـــلادك يفعلـــون مثلـــي ويفضلون الاختباء تحت الجسور، سأل أحد الأطفال أمه، هل تنجب نساء الليل، فقالت له بالتأكيد وإلا من أين جاء كل هذا العدد من شرطة المرور، إنهم فاسدون، مرتشون كدأبهم في كل بلد، لا بد أن يعثروا على عيب في السيارة ويجعلـــونني أدفع ثمنه، لا شك انك تعرفهم مثلي؟

تسكتني كلماته القوية تسكتني، تزوم الســـيارة وهـــي تحاول الخروج، نبدأ في الابتعاد عـــن ميـــاه " آموداريـــا " المتأهبة لابتلاعنا، نصعد إلى الطريق الإسفلتي بمعجزة مـــا، يتلفت "نور الله" حوله ليتأكد من عدم وجود سيارة زرقـــاء، يقول قبل أن ينطلق إلى الطريق الرئيسي:

ــ تذكر أنني وعدتك بوجبة دسمة، وسوف أفي بوعدي.

يبدو أنه قد ارتاح من عبْ المطاردة، يعبر الطريق من أمامنا صف من الفتيات خارجات من الحقل، يلبسن الثياب الحريرية الصاخبة الألوان ويحملن فوق رؤوسهن سلالا مليئة بأزهار القطن المتوهجة، أتأملهن، لا أدري كيف تكتسب النساء كل هذا البهاء الغريب عندما يهبطن إلى الحقول، دائما ما تترك الحقول شيئا ملتصقا بشعورهن أو ثيابهن، نتفا من القش، بتلات من الزهر، ورق بلوط لامع كنجوم ضائعة، بعض من لمسات العشق، كأن أجسادهن عندما تغوص وسط النباتات تتخلص من جلودها القديمة وتكتسب شيئا من بهاء النضارة، يتمهل "نور الله" بالسيارة ويتركني أتأملهن مسحورا، يهتف أخيرا :

ــ هاهو المطعم الذي نسعى إليه.

يتوقف بالسيارة على جانب من الطريق، أمام مطعم صغير مبني من الخشب والملاط، تتناثر أمامه المقاعد على هيئة أسرة صغيرة، تحيط بالمطعم بركة من الماء الضحل تطفو فوقها زهور الزنبق، نعبر إليه بواسطة جسر خشبي ضيق، نجلس متقابلين فوق سرير صغير في انتظار وصول الطعام، تقبل علينا امرأة ضخمة، تتحدث مع "نور الله" في ود

وطلاقة، تضع بيننا منضدة خشبية، تتأملني وهـو يواصـل الكلام معها، يتحدثان عني بلا شك لأنني اسمع كلمة مصـر بالعربية، اعرف مقدما أن الطعام سوف يكون مـن اللحـم المليء بالشحم، في منتصف المكان تمتد مائدة طويلة حولهـا عدد كبير من المقاعد، الجميع مشغولون بـرص الأطبـاق والأكواب عليها، يبدو أنهم في انتظار عدد كبير من الزبائن، تضع المرأة أمامنا أطباق الأرز البخاري الأصفر كالكهرمان ثم تتلوه أطباق المرق واللحم عليها هرم صغير من البقدونس وأرغفة من الخبز اليابس الضخم، تسألنا إن كنا فـي حاجـة إلى بعض "الفودكا" ولكننا نكتفي بالشاي الـذي كـان أشـبه بالماء العكر ويشرب دون سكر.

ترتفع ضجة عالية من الطريق، للحظة ألمح ظلا مـن الفزع على وجه "نور الله"، وتتسمر يـده الممسـكة بقطعـة ضخمة من اللحم، تتوقف ثلاث سيارات أمام المطعم دفعـة واحدة، يهبط منها عدد من الشبان والفتيات، يلتهم "نـور الله" اللحم وهو يهتف في ارتياح: "إنه عرس".

تهبط من إحدى السيارات عروس صغيرة ترتدي ثوبـا ابيض وطرحة صغيرة وبجانبها عريسها في حلـة سـوداء،

أنظر إلى "نور الله" وقد تبددت من علـــى وجهـــه مخـــاوف المطاردة وحلت بدلا منها نظرة غريبة، بدا كأنـــه يتشـــرب المشهد، يراقب البنات اللواتي يتقافزن حول العروسين بكامل زينتهن، أرى شفتيه المكتنزتين اللامعتين من الدســـم وهمـــا ترتعدان، يتابع أثداءهن الصغيرة الطلقة وهي ترتج، وثيابهن وهي ترتفع عن سيقانهن البيضاء، تغمر المكان كلـــه تلـــك النشوة الحسية التي تثيرها الأعراس، يمتلئ المطعم المتســـخ بالبهجة، يجلس الجميع حول المنضدة المستطيلة بينما يختار العازفون مكانا بجانب المياه وهم يبدؤون العزف في صخب، تنهض الفتيات والأولاد، تتشابك الأذرع وتتقافز السيقان فوق الأرض، نترك الطعام ونأخذ في التصـــفيق معهـــم، تـــزداد حرارة الشمس، تتسل إلى أعماقي المعتمة مشاعر صـــبيانية تجعلني في حاجة ماسة للتقافز والـــرقص معهـــم، يغنـــون كانطلاقة الريح ويرقصون في خفة الطيور، يهتف بي "نـــور الله":

ــ لماذا لا تنهض وترقص معهم.

أرد عليه في صوت عال :

ــ ومن قال أنني اعرف الرقص.

ـــ لا يهم، انهض، تقافز على الأرض، تتخيل أنك طائر صغير يتعلم الطيران، المهم أن تدع البهجة تتسلل إلى داخلك، انظر إلى تلك المرأة الشهية لماذا لا تذهب إليها وتدعوها للرقص.

يشير إلى امرأة تجلس في مقابل العروسين، كانت في منتصف العمر ولكنها تحتفظ بالكثير من ملامح جمالها، جسدها بض ومشدود وثدياها عاليان غير متهدلين، تبتسم بدعة لتكشف عن سن ذهبية، يواصل "نور الله" كلماته وقد بدا واضحا أنه قد بدأ يفقد التحكم في نفسه:

ـــ انظر إليها، كيف تتحرك في نعومة كأن جسدها قد تعود على تلقي المتعة دون مقاومة، من المؤكد أنها أخذت نصيبها كاملا منها، إن جسدها يشارك في الرقص رغم أنها جالسة في مكانها،ألا تريدها؟.

أقول محتجا : كيف؟ أنا لا أعرفها وهي لا تعرفني.

يقول : ومن يبالي؟ هذا عرس، في الأحوال العادية يتعارف الناس قبل أن يتلامسوا ولكن في الأعراس يتلامسون أولا ثم يأتي التعارف فيما بعد.

أهز رأسي رافضا في حزم، يمسح فمه بطرف كمه قبل أن ينهض واقفا، يبدو جسده أضخم مما كنت أتوقع، يقترب من المنضدة التي يجلس إليها الجميع، يمد يده ويتناول كوبا ويتجرعه دفعة واحدة، لابد وأنه مليء بالفودكا لأن وجهه يحمر بشدة، يقترب من المرأة ويمد يده نحوها، لكنها لا تمد يدها، تبدو مندهشة ومباغتة، تنظر إلى العروسين، إلى العروس بالذات لأنها تدير رأسها في خجل وتخبئ وجهها في كتف زوجها، يظل "نور الله" واقفا يملأ الأفق أمام المرأة، فحل ضخم خارج لتوه من حكاية شبقة، ذقنه متوهجة، وشفتيه منفرجتين في جوع، وبطنه الضخم يوشك أن يمزق أزرار القميص الذي يغطيه، تضحك المرأة في حرج، تحاول أن تتجاهل رائحة الذكورة التي لا شك تملأ انفها الآن، يظهر طابعه البري كان أوضح ما يكون في هذه اللحظة وسط هؤلاء الناس بثيابهم الأنيقة وذقونهم الحليقة المعطرة بالروائح الرخيصة، يقول شيئا فيضحك الجميع، يضحك الرجال في صوت أجش، وتخفض النساء رؤوسهن قبل أن تهتز أكتافهن، يقول العريس شيئا ومازال "نور الله" مادا يده، تمد المرأة أخيرا أطراف أصابعها في تردد ولكنه يقبض عليها

في إحكام، يشدها بقوة إلى منتصف الساحة، يصيح في العازفين فيغيرون اللحن ليصبح أكثر صخبا، يمسك المرأة ويدور بها، دب ظفر بفريسته في التو، تبدأ المرأة في الضحك حين تكتشف مدى خفتها وهي لا تكاد تلمس الأرض، تتحرك في نشوة لا تقدر عليها عوامل الجاذبية، اعتقدت أن الإنهاك سوف يصيبها سريعا ولكن طاقتها ظلت آخذة في التصاعد، كأن سنوات عمرها تسير إلى الوراء، يتوقف بقية الراقصين يكونون حلقة حولهما وهم يصفقون في جذل، حتى العروس تتخلى عن خجلها وتنهض لتشاركهم في التصفيق.

تمتد نحوي يد تحمل كأسا، أرى وجها جميلا يطل علي، ربما تكون إحدى رفيقات العروس، على رأسها غطاء ملون تتدلى منه حبات اللؤلؤ، ثوبها مطرز بخيوط من الذهب والفضة وفي وسطها حزام بين مدى تناسق جسمها، تبتسم فتفتر شفتيها عن سنة ذهبية تضئ وجهها، تبدو عينيها الواسعتين أشبه بعيون القطط، أتناول الكأس الذي تقدمه لي، تشير إلى أن أتناوله في جرعة واحدة، أفعل كما قالت، أشعر أن المشروب لم يهبط إلى معدتي ولكنه يصعد إلى رأسي

مباشرة، تضحك فيمتلئ داخلي بالدفْ، تجذبني من يدي فأسلم قيادي إليها، يدق "نور الله" الأرض مثل دب منتش، تصبح المرأة في يده بخفة الريشة، أمسك بيد الفتاة فيسري شيئا من نضارتها إلى جسدي، أتقافز أنا أيضا، تصدح الموسيقى عاليا وينضم الجميع إلينا حتى العروس وعريسها، تتلاطم أجساد النساء والرجال في شهوة وجذل، أمسك رفيقتي من خصرها وأتكئ عليها فأشم رائحة جسدها الغض، خزامى وأقحوان، يعطيني أحدهم كأسا فأتجرعه وطعاما فآكله دون أن أتوقف عن الرقص، أرقص مع فتاة أخرى، ثم مع العروس، أعود للفتاة الأولى مرة أخرى فأتشبث بها رافضا أن ينتزعها أحد مني، يحيطون بي بوجوههم المحمرة اللاهثة، يسألونني بلغة الإشارة التي لا تخطئ : من أنت؟ أقول لهم: "مسلمان"، يصيحون في حبور دون أن يكفوا عن الدوران: رحمات، رحمات، ونواصل الرقص والتقافز.

تتوقف الموسيقى فجأة فتمس الفتاة خدي بشفتيها كلمسة عصفور وتنصرف، يقف رجل عجوز ويبدأ في الحديث بصوت مؤثر، لا أفهم الكلمات ولكني أحس بموسيقاها، قصيدة طويلة، يصفقون ويضحكون ويتبادلون الأنخاب خلف

كل مقطع منها، أصيح أنا أيضا معهم منتشيا من إيقاع الكلمات، وأرفع كأسي معهم، لا أدري ماذا أشرب بالضبط، فودكا أم عصير فواكه أم حليب خيل؟ تعود الفتاة وتسحبني من يدي بعيدا عن الزحام قليلا وتهمس في أذني بإنجليزية متعثرة:

ـ صديقك.. أين.. هذا خطأ..

أتلفت حولي مذعورا، "نور الله" غير موجود بالفعل، أتصفح الوجوه، المرأة التي كان يرقص معها غير موجودة أيضا، أنظر إليها حائرا، تعاود القول وهي تشير ناحية العريس :

ـ إنها أمه.

يفطن العريس هو أيضا لما حدث، يبتعد عن عروسه قليلا و يتلفت في حيرة متفحصا أرجاء المكان، يذهب إلى شابين آخرين ويتحدث معهما متوترا، عينا العروس تتابعه في قلق، الشابان قويا البنية،مفتولا العضلات، يشبهان العريس تمام الشبه، خطر داهم يحيق ب"نور الله" ولكن أين أجده؟ أترك الفتاة وأسرع مترنحا خلف السقيفة، أدخل إلى المطبخ حيث تتصاعد الأدخنة من قدور ضخمة، ويعبق الجو

بروائح الدسم، المكان كله مغطى بالسناج، تبتسم لي صاحبة المطعم، أحاول أن أشرح لها عبثا أنني ابحث عن صـــديقي الذي جئت بصحبته، أســـتخدم الإنجليزيـــة والعربيـــة دون جدوى، تضحك بصوت عال،تكشف لي عـــن إنـــاء المـــرق والأرز البخاري مصرة أن أتذوقه، أخـــرج مســـرعا مـــن السقيفة.

تغيض أصوات الفرح، أتجه إلى الخلف أدخل وســـط دغل من الأشجار والأعشاب البرية، سياج يفصل السقيفة عن الحقول الممتدة، أخشى أن أنادي أســـمه حتـــى لا يســـمعني الجميع، تخفت الضجة أكثر، علي أن أجده قبل أن يصـــمت كل شيْ، رأسي يدور وخطـــواتي تتعثـــر دون أن أســـتطيع السيطرة على نفسي، أسمع أنة خافتة صـــادرة مـــن خلـــف الأعشاب، اهتف محاذرا:

ــ بالله عليك يا "نور الله"، اظهر قبل أن تحدث مصيبة.

صوت عشب يتكسر، بسبب وقع قدمي أم لسبب آخـــر؟ صوت خشن كحيوان يزوم، تأوهات امرأة منتشـــية، أزيـــح أعواد "السافانا" فأجدهما أمامي، أم العريس مســـتلقية علـــى الأرض وهو رابض فوقها، ساقاها البيضاء مرفوعتان إلـــى

أعلى، وهو يخور بينهما، لا يسـمع صـوتي مـن كثـرة الأصوات التي يحدثها، أقف مبهوتا عاجزا عن الحركة، تتبدد كل الأصوات القادمة من الخلف ولا يبقـى سـوى زفـرات الرغبة المحتدمة، شعر المرأة الأحمر متداخل فـي صـفرة العشب، وأصابعها العشرة مغروزة في ظهـره، تحـاول أن تستقطر كل ذرة من المتعة من جسـد الرجـل الضـخم، لا أتصور كيف استطاعت أن تحتويه هكذا، وكيـف أمكنـه أن يأخذها بمثل هذه السرعة، وسط هذا الحشد، هل كان "نـور الله" بشرا أم أنه كان "ميناتورا" أسطوريا متنكرا، هبط مـن اجل متعة الإغواء الأبدية؟ يرتفع ظهره وينخفض أمامي وهو مازال مرتديا ثيابه، لم تكن ثيابا، كانت أشبه بالفراء الملتصق بالبدن، لها ملمس الغواية، تود أي امرأة أن تسـتكين إليـه، تلتمس منه بعضا من الدفْ والشبع، يا رب يا رحيم، كيـف يمكن أن تختلط المتعة بالألم إلى هذا الحـد؟ يدهسـها فـي الأرض فتنبعث من جسديهما عشرات الشـرارات الخفيـة، وهج غريب ينبعث من ساقي المرأة المرفوعتين، هل عرفت في حياتي متعة حميمة كهذه، أم إنني وقفت دائما على حافتها الرمادي؟ هل امتلكت مثل تلك القوى الجامحة في داخلي ولم

أسمح لها بالانطلاق، أم أن خلايا جسدي كانت تعــاني منــذ لحظة التكوين من وهن النهاية، أدمدم من بين أسناني عاجزا: بالله عليك يا "نور الله" توقف، ولكني لم أكن أريده أن يتوقف، كأنه كان يضاجع كل النساء الرماديات اللواتي عبرن حياتي، يقوم ــ لأجل خاطري ــ بخدمة مؤجلــة، تتوقــف الــريح وتتصلب الطيور في كبد السماء وتضــوي الســنة الذهبيــة الوحيدة في فم المرأة في ضوء الشمس كأنها لم تبلغ نضجها الحقيقي إلا في هذه اللحظة.

أستفيق على أصواتهم، كأنهم قادمون من عــالم آخــر، يحيطون بي، النساء تشهق في ذعر والرجال يدمدمون فــي غضب، تستفيق المرأة أيضا، تنزل ساقيها من أعلى وتحاول دفع "نور الله" من فوقها، تبدل في لحظات من ملامح وجهها، تخفي مشاعر النشوة والشهوة، تتحول في لحظة إلــى أنثــي مغتصبة عاجزة تحاول عبثا مقاومة الثور الــرابض فوقهــا، تعطيهم الشعور الذين كانوا جميعا بحاجة إليه، يظل "نور الله" ــ ربما بتأثير الشراب أو بقرب لحظة الذروة ــ غير مدرك أن صرخات المتعة قــد تحولــت إلــى صــرخات رفــض واستغاثة، يستدير في بطء، بينما تحاول السيدة أن تنــزع

نفسها من تحته بصعوبة، يتقـدم العـريس يتبعـه الشـابان الآخران، يدفعانني جانبا ثم ينقضان علـى رأس "نـور الله" بالضربات، يركلونه في جنبه، يهدر مثل دب وهو يحاول أن يعيد ثيابه إلى مكانها، يريد القيـام ومـواجهتهم ولكـنهم لا يدعون له فرصة، أحاول أن أمنعهم عنه، يركلنـي أحـدهم بعنف بالغ، أصرخ وأنا اشعر بالألم يغمـر جسـدي كلـه، ينتصب "نور الله" واقفا رغم الضربات وهو يحاول أن يرفع سرواله، تجري المرأة مبتعدة وقد فك أسرها أخيرا، يـدفعهم بعيدا وهو يخور كثور، يدورون حوله وهو يتلقى ضرباتهم، أنهض وأخترق دائرتهم لأقف بجواره، يهتف بي :

ـ ابتعد أنت سوف يؤذونك.

لم أكن لأتركه، أشعر فجأة أنني غير قادرا على تركه، لا أحس بالضربات التي توجه إلى من كل مكان، لا يكف هو أيضا عن الدوران، محاولا حمايتي من الضربات، يتكاثرون من حولنا وقد ازدادت حدة غضبهم،تهتز السـماء وتواصـل ابتعادها عنا، أرى قبضاتهم ثم وجوههم قبل أن أهـوي ثـم أحاول عبثا التشبث بسيقانهم أو بأعشـاب "السـافانا"، طعـم

التراب في فمي رطب ولاذع، ترى أين السماء؟ وأين "نـور الله" وأين تبددت لحظات النشوة؟

ـ ٢ ـ

لا حد للظلام الذي أغوص فيه ولا حصـر للوجـوه التي تتكون من خلال ذراته، وجوه خيل لي أنني قد نسـيتها وجروح اعتقدت أنها اندملت، ذلك الطفل المرتجف مـازال موجودا، لا شيء يموت، كل شيء محفـوظ فـوق أرفـف الظلمة، أفتح عيني لأرى نفسي غارقا في الماء، "نـور الله" يقف أمامي ومازال يمسك في يده الإناء الذي افرغ منه الماء على رأسي، أحاول النهوض فأكتشف أن آلام جسدي غيـر محتملة، أسبه بكل اللغات التي أعرفها وأنا أجد نفسي غارقا في بركة من الماء والطين، يصيح بي :

ــ انهض لا يمكن أن تظل فاقد الوعي إلى الأبد.

يمد يده محاولا مساعدتي على النهوض فأرفض أن أمد له يدي، أتحامل على نفسي حتى أقف وأنا أحـس بالـدوار، أنظر إلى ثيابي المتسخة وقميصي الممزق، يبتسـم وهـو ينظر إلي، كمان هو أيضا في حالـة يرثـى لهـا، بنطالـه وقميصه ممزقان وملوثان بالطين، حتى الطاقية التي كانت ما

تزال على رأسه ملوثة أيضا، لا يبال بملامح الغضب والحنق على وجهي، يهتف بي وهو يستعد للسير:

ــ هيا.. مضى علينا الكثير من الوقت ونحــن راقــدان هكذا.

أسير خلفه متعثرا، قــدماه الثابتتــان علـــى الأرض لا توحيان أنه تلقي النصيب الأكبر مــن الضــربات، تخــرج صاحبة المطعم من الكوخ، تكشف عن سنتها الذهبية وهـــي ترى هيئتنا المزرية، تقول عدة كلمات، يلتفت إلى "نــور الله" وهو يترجم ما قالته:

ــ تقول إننا نشبه الفلول الأخيرة لجيش منهزم.

تشير نحو قدور الطعام كأنها تــدعونا للأكــل، أحــس بالخجل فأشيح بوجهي بعيدا، أريد أن أغير ثيــابي وأنظــف بدني وأن نبتعد عن هذا المكان سريعا، نتجه إلى الســيارة، أسمعه وهو يصرخ فزعا :

ــ يا ربي.. ليس هذا.

أصرخ أنا أيضا، نرى السيارة وهي باركة على الأرض وقد تمزقت إطاراتها الأربعة تماما، يوجه "نــور الله" حــديثا صارخا إلى السيدة التي تــرد عليــه بــلا مبــالاة، تتركنــا

وتتصرف إلى الداخل، لعلها أدركت أننا والسيارة قد أصبحنا في قبضتها، يصرخ "نور الله":

ــ هم الذين فعلوا ذلك.

اهتف فيه بحنق : بل أنت الذي فعلت بنا ذلك.

ولكن لا جدوى من الشجار، أسير إلى السيارة وأتناول منها حقيبة ثيابي، لا يحاول اعتراضي، يدرك أنني على حافة الانفجار، أقف على حافة الطريق في انتظار أي سيارة عابرة، تمرق كلها بسرعة، تتمهل واحدة منها أخيرا، يتأملني السائق قليلا قبل أن يعاود السير بسرعة، يبدو أن هيئتي الرزية وشعري الأشعث هما السبب، تمرق السيارات في تتابع مثير للحنق، بدأت أعدادها تقل كلما تبدد ضوء النهار، لا أكف عن رفع ذراعي مشيرا ومتوسلا، أتحول إلى كتلة سوداء على جانب من الطريق لا يأبه بها أحد، يبرد الهواء وتزداد سرعته، يبدأ جسمي في الارتعاد وأعضائي في التيبس، وهو ما يزال جالسا في مكانه، اشعر بنظراته وهي تحدق في ظهري دون أن ينبس بحرف واحد، أتناول حقيبتي وأسير مترنحا عائدا إليه، أجلس بجانبه ويطبق علينا الظلام سويا.

تقف المرأة أمامنا، كأنها كانت تنتظر لحظـــة عــودتي، تضع أمامنا وعاءين من الحساء المليء بقطع الشـــحم، أرى البخار وهو يتصاعد منهما وأشم رائحتهما النفاذة، لا أتحرك رغم أن المرأة ظلت واقفة تتطلع نحوي في إشفاق، يمد "نور الله" يده ويبدأ في الشرب على الفور مصدرا صوتا عاليا، لا يتوقف قليلا إلا ليتجشأ ويهتف بلهجة مفخمة: "الحمـــد لله"، لا تستطيع معدتي أن تقاوم الأصوات التي يصدرها يضاف إلى ذلك تكاثف البرد والتعب، أمد يدي وأتناول الوعاء وأنا أهتف من أعماق قلبي:

ـــ أنت حقا وغد

تنطلق ضحكاته فـــي صـــخب، تـــزيح ذرات الظـــلام المتكاثف حولنا، كأننا نفيق سويا من كابوس طويل، تنزلـــق رشفات الحساء الدسمة إلى داخلي فأنتفض، أبدأ أنا أيضا في الضحك معه، تقبل المرأة وهي تحمل وعاء أخـــر، تجلـــس أمامنا وتشاركنا الضحك، نحاول ثلاثتنا أن ننفض من فـــوق أكتافنا عبء اليوم الفائت، أواصل شرب الحساء، أبتلـــع مـــا فيها من قطع الضأن الصغيرة دون أن آبه كثيرا بمضـــغها، يتحدث "نور الله" إلى المرأة في كلمات سريعة، تضحك مثل

طفلة جذلة، يهتز كل جزء منها وقد اعترتها نشوة غامضة، تشير المرأة لي كأنها تشهدني على مدى فسوقه، يلفنا ظلام مليء بنسمات باردة ويبزغ قمر بعيد ومكتمل، ينير وجه المرأة الضاحك، وهي تتشرب كلماته، تمرق السيارات من بعيد مثل حلم عابر، ويهتف "نور الله" بالعربية أخيرا:

ـ يجب أن ننام قليلا.

تضئ المرأة مصباحا صغيرا وتقودنا إلى سقيفة أخرى خلف المطعم، حوائط من أعواد الغاب لا يظللها شيء، كومة من القش يغمرها ضوء القمر، تمضي المرأة حاملة مصباحها وهي ما تزال تضحك، يغوص جسدي في القش الخشن فأرتجف وتتدافع إلى انفي رائحة "الفيوم" القديمة، حين كنت أذهب إليها أنا وأبي لزيارة الجنرال العجوز " رشيدوف"، ترى هل أستطيع الوصول إليه بعد هذه الرحلة المتعثرة؟ أكاد أبكي من فرط الحنين على ذلك الطفل الذي كنته والذي لم يكن جسده داميا أو روحه منكسرة، يستكين جسدي أخيرا ويتسرب إليه دفء غامض، أقول له:

ـ لم يكن عليك أن تفعل ذلك.

يبدو كأنه قد فوجئ لأنني سمعت صوته وهــو يهتــف: ماذا فعلت؟

ــ تلك المرأة، أم العريس، هل كان يجب أن تضاجعها هكذا بين الحشائش ووسط ضجة العرس بالقرب من أبنائهــا وبناتها.

يقول لي بنفس الصوت المندهش:

ــ لم أضاجعها، من قال لك ذلك.

أشعر بغضب من طريقته المفرطة في الكذب، أصيح:

ــ أيها الوغد أنا رأيتك بنفسي.

ــ لقد رقصت معها، تحسست جسدها بجــرأة، ربمــا تهورت بفعل الخمر وقبلتها ولكني لم أضاجعها

ــ لا تحاول خداعي، لقد راقبتك طويلا.

ينهض ويقترب مني، أرى وجهه لامعا في ضوء القمر، يقول بصوت هادئ:

ــ أنت نفسك كنت سكران مثلي، "الفودكا" تكون قاســية على من لم يتعود عليها، ثم لماذا أكذب عليك في مثل هــذا الأمر، نحن رجال مثل بعض، وهذه الأمور تدعو للمباهــاة أكثر مما تدعو إلى الخجل، تخيل أنني في هذا الزمن القصير

وعبر مصادفة عمياء أستطيع فيها أن أغوي امرأة ناضجة في حفل زفاف ابنها، وأضاجعها تحت أنوفهم جميعا، ماذا كان يمكن أن تقول إذا سمعت مثل هذه القصة؟

تصيبني الحيرة أمام كلماته المنطقية المتدفقة، ولكني أردد في عناد:

ــ لماذا تشاجروا معنا إذن؟

ــ في معظم حفلات الزفاف يتشاجر الجميع، ماذا تتوقع وسط هذا السكر والصخب، أشد الأسباب تفاهة يمكن أن تثير مشاجرة دموية.

أقسم أنه يكذب وأنني لم اكن مخمورا لهذه الدرجة، ولكنه يفلح كعادته في أن يصيبني بالحيرة، سائق عتيد، عابر للطرقات، مدرب على المراوغة، وانتهاز الفرص العابرة، ماذا كنت أتوقع منه؟ أصيح حائرا:

ــ أنا متأكد من أنك قد فعلتها.

يقاطعني ضاحكا:

ــ لا تكن متأكدا من شيْ، ربما كانت هذه رغبتك حين رأيتني اراقصها، وربما تمنيت أن أضاجعها من أجلك، لقد تحققت رغبتك على نحو ما.

لم يعد النقاش معه مجديا، أتقلب مديرا له ظهري، تماما كما يغضب الأطفال، بعد ثوان قليلة أسمع صوت غطيطه، ينتقل من حالة اليقظة إلى النوم في سرعة فائقة، هل يمكن ـ ولو بنسبة ضئيلة ـ أن يكون على حق فيما قاله، أن تكون كل رغباتي المكبوتة قد سببت لي نوعا من "الهستريا" البصرية، يواصل الغوص في القش، تزحف اعواده الرفيعة فوقي وتتشابك لتكون غطاء يحميني في مواجهة برد الليل.

أستيقظ وأنا مبلل بندى الصباح، ترحل فوقي سحب وتحوم طيور بيضاء وتوشك شمس على الولادة، رغم هذا الفراش المتعب كان نومي هادئا، لم تهاجمني الكوابيس، كأن أعواد القش الخشنة قد أعادتني طفلا، صنعت لي رحما حنونا احتوتني بداخلها، أتطلع فلا أجد "نور الله" بجانبي، لا توجد إلا الفجوة التي تركها جسده على القش، هل تخلصت منه أخيرا؟، أحمل حقيبتي وأسير ببط ء متأملا أنفاس الضباب الهشة وهي تنساب صاعدة من بين الحشائش، الأرض تلتقط أنفاسها الأولى، أدخل إلى المطبخ، النيران مشتعلة تحت القدور ورائحة الدسم الدبقة تملأ المكان، أسير إلى حافة الطريق لعلي أظفر بأي سيارة تذهب بي بعيدا، ولكنني

أراهما واقفين هناك، "نور الله" وقد شمر عن ساعديه اللـــذين تلوثا بالشحم والمرأة العجوز تساعده في همـــة علـــى فـــك إطارات السيارة، يعملان في صـــمت، يحمـــلان الأحجـــار ويقومان برصها تحت السيارة قبل أن ينزعا أي إطار، كل واحد منهما يفهم ما هو مطلوب منه دون كلام، لا يسمعاني، ولا يرياني، شخصان متفردان في كون مختل يقيمـــان لـــه الدعائم، ألقي بالحقيبة وأنضم إليهما، تماما بنفس التلقائية التي جعلتني أتلقى بجانبه نصيبي من الضربات، اجمع الأحجـــار وأساعدهما في رفع السيارة، أكتشف أن الإطارات الأربعـــة ممزقة تماما ولم تعد تصلح مرة أخرى، نرصها الواحد فوق الآخر، تبدو أشبه بعلامة استفهام غامضة لا نـــدري كيـــف نستطيع حلها، تمرق السيارات المسرعة دون توقف، ورغـــم ذلك لا يفقد "نور الله" ابتسامته، يلتفت إلي وهو يقول:

ــ فلنأكل قبل أن نبحث عن حل.

تضع المرأة أمامنا أطباق اللحم والمرق والخبز اليابس، يداها مازالتا ملوثتين بالشحم، أحاول أن أوقظ شهيتي بينمـــا يأكل كعادته مثل دب، ترتفع الشمس، ويقبل سائقو السيارات، تدور المرأة بينهم حاملة أطباق اللحم والمرق، يمسح "نـــور

الله" ذرات الدهن العالقة بأطراف شاربه ويبدأ في الحديث معهم مشيرا إلى السيارة، يهزون رؤوسهم بالرفض متعللين بالركاب الذين بصحبتهم، يتنقل من واحد لآخر ولكنه يتلقى نفس الإجابة، يعود للجلوس وهو يتنهد:

ــ لا مكان عندهم ولا وقت أيضا، لا أحد يرغب في مساعدتنا.

أنظر إلى حقيبتي الملقاة، هل آن لي أن ألتقطها وأرحل عنه؟ أم أظل جالسا معه مرغما على مشاركته؟ لا أنهض ولا أتحرك حتى بعد أن بدأ السائقون في الانصراف، يخلو المكان وتواصل الشمس صعودها وتجلس المرأة بجانبنا أمام السيارة الكسيحة، تهتف فجأة كمن تذكرت شيئا ما: " قنص باي"، نتطلع إليها في دهشة وهي تتكرر الاسم كأنه تعويذة سحرية، تكلم "نور الله" بصوت عال كأنها تبشره، يلتفت إلي وهو يقول:

ــ إنها تحدثنا عن " قنص باي" الرجل الذي يحضر لها الخضار واللحم كل يوم، إنه قادر على إنقاذنا من ورطتنا، المشكلة أنه "كازاخي" ومن الصعب التفاهم معه.

لم يكن أمامنا سوى انتظار آخر، تحضر أكثر من سيارة وتمضي، أرى "نور الله" وهو يفاوضهم مشيرا نحوي، بعد السيارة الرابعة يأتي إلي وهو يقول :

ــ هناك مكان خال لك، يمكنك أن تذهب معهم.

أتطلع إليه قائلا : سوف أبقى معك.

يظل واقفا متطلعا إلى في دهشة، لم تكن دهشتي أقل منه لأن هذه الإجابة قد خرجت من فمي، كأن هناك شخصا آخر بداخلي قد قالها، نبقى جالسين في الانتظار والظل ينحسر تحت أقدامنا، يقبل "قنص باي" أخيرا، أكتشف أنه لا يقود سيارة كما كنت أتوقع، ولكن مجرد عربة متهالكة يجرها حصان بري كثيف الشعر، يرتدي عباءة صوفية ثقيلة لا تتناسب مع هذا الجو الحار وعلى رأسه عمامة من الصوف أيضا، لحيته صغيرة وطويلة وبيضاء تكشف عن العمر الذي أخفته عنا ملامحه المغولية، كأن "جنكيز خان " قد بعث حيا وقد انحدر به الحال، العربة مكدسة بأقفاص الطماطم والفلفل والخضار وأكياس الأرز واللحم، يبدأ في حمل الأشياء ليضعها أمام المرأة التي تتفحصها وقد وضعت يدها في وسطها، تأمره أن يحملها إلى داخل السقيفة، يفعل

ذلك دون كلمة واحدة، يبدو "نور الله" منشغلا كثيرا بمراقبـة الحصان، لعله كان يحاول أن يحدد مدى قدرته على التحمل، يهرع إلى مساعدة الرجل وحمل الأقفاص معه إلى الـداخل، يتوقف العجوز مندهشا، لم يتعود أن يساعده أحد من الزبائن، يبدو "نور الله" مضحكا في سعيه من أجل إنهاء مهمة الرجل سريعا واسترضائه حتى يتفرغ بعد ذلك لمسـاومته، ينظـر إليه"قنص باي" متبرما، تتحدث المرأة معه، يبدو "نـور الله" وكأنه يحاول حجمه الضخم ليظهر مدى ضـعفه وحاجتـه، يتفحص الرجل الموقف، الإطارات والسيارة العاجزة، ثم يهز رأسه بالرفض، يحاولان إقناعه، يهـرع "نـور الله" إلـى الحصان ويربت على كفله، يجفل الحصان من ملمسه القوي، أحاول التدخل في الحديث معهما بالعربية ثم بالإنجليزية دون أن يستمع إلى أحد يعلو صوت الحديث ويبدو الانفعال علـى الجميع، أخرج ورقة مالية من حافظتي، أمسك بها منتصـبة بين أصابعي حتى يراها بأكملها ويعـرف قيمتهـا، يتوقـف الكلام فجأة، يتأملها الرجل وهو يمسح لحيته من أعلى إلـى أسفل محاولا أن يزن الأمر، يمد يده ويختطف الورقة مـن بين أصابعي في سرعة، يهتف "نور الله" وهو يزفر:

ـــ الحمد لله.

نبدأ على الفور في حمل الإطارات إلى العربـــة، يقــف "قنص باي" بجانب الجواد وهو يداعب الشعر المنسدل علـــى غرته ويهمس في أذنه بكلمات التدليل، كأنه يريد مشـــاغلته عن الأحمال التي سوف توضع على العربة، يلتفت إلى "نور الله" باسما:

ـــ كيف استطعت التفاهم مع "الكازاخي" بهذه الســـهولة لقد اختصرت الوقت، اسمع سأذهب معه ولن أتـــأخر عليـــك طويلا.

ـــ إلى أين تنوي الذهاب بالضبط؟

ـــ إلى قرية قريبة من هنا، ربما أجـــد فيهـــا أربعـــة إطارات قديمة

ـــ مهما كان المكان الذي تنوي الذهاب إليه، أنا قـــادم معك.

أحس أنني قد أصبحت مرتبطا به، أتبع خطواته، نصعد إلى العربة الخشبية دون مزيد من النقاش، تلوح لنا المـــرأة مبتسمة، نبدأ السير، يرتفع صوت صهيل الجواد الـــذي بـــدا غير راض عن ثقل الحمولة، لا يحـــاول "قـــنص بـــاي" أن

يضربه أو يستحثه، كأنه كان خجلا منه بسبب هذه الحمولـــة الإضافية، انقلبت الرحلة القصيرة بصورة هزلية إلى سفرة لا يعلم مداها إلا الله، تنفتح السماء أمامنا ويبدو كل شيء متألقا تحت ضوء الشمس، ينظر "نور الله" إلى ويقول بلهجـــة ذات مغزى :

ــ حمدا لله أن قرية أهل العريس في الجهة الأخرى.

رغم الألم الذي كنت أعاني منـــه إلا أننـــي أحسســت بجسدي وقد بدأ يستكين، كأن روحي قد وجدت مـــلاذا لهـــا داخل جسدي الغريب الذي لم يعرف الاستقرار، لا أدري ما الذي يحدث بالضبط ولكن هذا الفضاء لا يني يواصل اتساعه من حولي، ينساب داخلي ويمنحني شيئا من تلـــك الســـكينة المفتقدة، شمس وسماء باهتة وقطن متوهج وصفوف متتابعة من أشجار البلوط والصفصاف، أوراق داكنة الخضـــرة ذات حواف فضية، وطيور لا تكف عن الصياح، وحصان يـــدق الإسفلت دقا رتيبا متواصلا كوجيب قلب، هل كان جسدي في حاجة إلى كل تلك المشقة حتى يصل بداية هذا التواؤم، أيـــن هي تلك القرية التي نسعى إليها؟ وهل هي موجـــودة حقـــا، يفاجئني "قنص باي" وهو يتحدث إلى بإنجليزية مرتبة:

ـ أنت من مصر كما سمعت؟

ـ اجل، وأنت تتحدث الإنجليزية جيدا

ـ لم أكن دائما سائقا لتلك العربة التعيسة، كنت مدرسا في قرية هناك، عبر النهر، ولكن التلاميذ تركوا المدرسة، والحكومة كفت عن دفع المرتبات، ولجأت إلى صديقي القديم.. هذا الحصان.

ـ لم أتصور أن تصبح الحياة صعبة هكذا؟

ـ للأغبياء فقط، أمثالي وأمثال "نور الله"، لو أن هذا الاستقلال قد تأخر قليلا لأصبح عندي سيارة سوفيتية، كان دوري قد حان وأوشكت علي استلامها وكنت سأدفع أقساطها من مرتبي، أنا الآن بدون سيارة وبدون مرتب وسأبقى إلى الأبد أقود هذه العربة اللعينة.

يصمت قليلا قبل أن يتنهد: لقد دفعت ثمن استقلال لا حاجة لي به.

يتطلع "نور الله" إلينا في حيرة، يحاول أن يتتبع مجرى الحديث الذي تواصل بيننا، تبدو عليه ملامح الغيظ الشديد، أحس بالسرور لأنه لم يعد يحتكرني، لم يعد وسيلتي الوحيدة للتفاهم بما يحيط بي، يدمدم بالعربية :

ــ عن أي شيء تتحدثان؟

أقول له بلا مبالاة: عن الجو.

يتحول الحصان عن الطريق الواسع ويدخل إلى طريق ترابي جانبي، نواصل الانحدار مع الطريــق حتــى تصــبح المزروعات أعلى من قامتنا، نغوص وسط خضــرة رطبــة تخفف من حدة الشمس، لا نرى الفلاحــين ولكننــا نســمع أصواتهم المتباعدة عبر الحقول، يقول "قنص باي" :

ــ لم تعد القرية بعيدة عن هنا.

أقول في تشكك: كيف نجد في مثل هذه القرية إطارات للسيارات.

ــ من المؤكد أننا سوف نجد فيها مهربا نشطا، إنهــم أملنا الوحيد هذه الأيام.

ــ هل هي قريتك، هل تعيش فيها؟

ــ أنا لا أستطيع العــيش وســط "الاوزبيــك"، إنهــم مستأنسون لدرجة تثير الغيظ، يواصلون الزراعة باستمرار، حتى ولو كان ذلك في أسخف أنواع المزروعات وفي كــل شبر من الأرض، أنا أعبر النهر كل يوم حتــى أســتطيع أن أشم رائحة المراعي " الكازاخية" وآكل لحم الخيل، الرعــي

هو الحرية، أما الزراعة فهـي العبوديـة، عبوديـة الأرض والمناخ، ودورة سخيفة من الغرس والقلع لا تنتهي، هل قلت لك إن جدي الأكبر هو جنكيز خان؟

ينفخ صدره بقوة، أحاول أن أرى في جسده النحيـل وذقنه البيضاء الممتدة ظلا لذلك الغازي الذي كان لعنـة الله على أرضه، أتأمل الرجلين اللذين أصبحا الآن برفقتي فـي حيرة، يتحدثان بلغة عالية رغم هيئتهما المزريـة، يعلمـان الكثير من أمور التاريخ والسياسة والماضي والحاضر رغـم تلك المهنتين الحقيرتين اللين يقومان بهـا، يبـدوان سـويا كوجهي العملة الواحدة، الوجه الأول تركي والآخر مغـولي، وأنا وسطهما خلطة أفريقية من أصـول حاميـة ضـائعة، مسرحية تنكرية لا يوجد فيها متفرج واحد.

تختفي المزروعات، وتظهـر أرض منبسـطة، تعلـو همهمات خافتة، نصمت جميعا، ويبطئ الحصان من سـيره، تظهر أمامنا فجأة أفواج من البشر، كأنهم حطوا علينا مـن كوكب آخر، جموع بائسة تسير في وهن، تهب الـريح مـن ناحيتهم وهي تحمل رائحة العطن والعرق، يحملقـون فينـا، أطفال ونساء وعجائز في أسمال بائسـة، تسـود ملابسـهم

ووجوههم مسحة من غبار السفر الطويـــل، يقفـــون علـــى الجانبين لا يتركون لنا إلا ممرا ضيقا لا أعرف كيف يمكننا النفاذ منه دون أن يطبقوا علينا، أقول في حيرة :

ــ من هؤلاء؟

يتوجهون نحونا كأنما كانوا جميعا في انتظار أن يسمعوا أي صوت حتى يبدؤون في الصراخ، يهتفون في توسل طاغ خارج من أعماق أرواحهم الجياشة " رحمات.. رحمـــات"، لاتتوقف صرخاتهم رغم أن هيئتنا البائسة لا توحي بأي نوع من الأمل، يتوسلون بكلمات لا أفهم منها غير طلب الرحمة، يضرب "قنص باي" للمرة الأولي الجواد ليحثه على مواصلة السير والنفاذ من بينهم، يصاب الجواد بـــالفزع فيأخـــذ فـــي الصهيل، يرفع قائمتيه الأماميتين لعلهم يتراجعون عنه قليلا، ألمح وجه "نور الله" وقد اكتسى بالدموع وهو يردد:

ــ يا الله يا كريم، يا الله يا رحيم.

لا أعرف كيف استطعنا النفاذ من وسطهم، كيف أفلتنـــا من غابة الأيدي التي ترتفع نحونا وممر الصـــرخات الـــذي يحيط بنا، بالكاد تظهر أمامنا البلدة التي كنا نقصدها ببيوتهـــا المتلاصقة، تغطيها سقوف القصدير، أهتف:

ـــ من هؤلاء؟

يقول "قنص باي" أخيرا : إنهم مهاجرون مـــن شـــاطئ بحر " أرال"، ينتشرون في كل مكان كالجراد.

لا افهم أي بحر هذا الذي تحل لعنته على الناس فيدفعهم إلى هذا النزوح المرير، قبل أن أعاود الســؤال نكـــون قـــد أصبحنا على مشارف البلدة، نكتشف أن الشـــارع الرئيســـي الذي يقود إلى قلبها مسدود بحواجز مـــن كتـــل الأســـمنت وعوارض الحديد، يجذب " قنص باي" لجام الجواد بصعوبة قبل أن يصطدم بها، يتطلع إلينا الرجـــال الواقفـــون خلفهـــا بنظرات صلبة، يرفع أحدهم يده ليأمرنا بالتوقف، يقفز "نـــور الله" من على العربة متوجها إليهم، رافعا يده إلى أعلى ليريهم أنه لا يحمل شيئا، بينما نبقى أنا و"قنص باي" في المـــؤخرة، يتحدث إليهم بصوته الجهوري الفخم ويستدير ليشـــير إلـــى العربة والإطارات المثقوبة مؤكدا كلماته، يتصدى له خمســـة من المزارعين، يرتـــدون الســـترات الطويلـــة والأحزمـــة العريضة ويحملون في أيديهم بنادق بدائية قديمة لابد وأنهـــم صنعوها عند حداد القرية، يهزون رؤوسهم في حزم، يقـــول لي "قنص باي":

ـ إنهم يرفضون دخولنا إلى القرية، خائفين من أن نخدعهم وأن نكون نحن أيضا من مهاجري بحر" آرال".

يواصل "نور الله" جداله معهم،أقول مستغربا :

ـ ولكن ألا يشاهدون هيئتنا، ألا يدركون أننا لسنا منهم.

ـ أنهم خائفون ومتوترون، يصيبهم الفزع من أي نوع من الغرباء، يقولون له إنهم خاضوا بالأمس معركة ضد محاولة اقتحام البلدة وقاموا بإطلاق النيران عليهم.

يتواصل الحوار، يتخلى أهل البلدة عن حدتهم قليلا ويتبادلون الحديث معه، تخف حدة الصوت وتهدأ الإشارات العصبية، عاد "قنص باي" يترجم لي ما يدور:

ـ لا يوجد في بلدتهم سوى ميكانيكي ورشته فارغة ولا يجيد سوى إصلاح ماكينات الري.

يبدأ اليأس في التسرب إلى نفسي، لا نهاية للمتاعب التي نواجهها، الطرق التي نسلكها لا تقود إلى شيْ، واحد من الرجال يقفز من فوق الحاجز ويبدأ في الشرح ل"نور الله" كأنه يدله على مكان ما، يشير له على طريق آخر عبر الحقول، يعاود "قنص باي " الترجمة لي:

ــ الحل الوحيد أمامنا ــ كما يقولــون جميعــا ــ هــو الذهاب إلى "معسكر الغجر" على الجانب الآخر من النهر.

أقول في دهشة : وهل يملك الغجر إطارات للسيارات.

يرد "قنص باي" في غموض:

ــ الغجر يملكون كل شيء الآن، إنهم ملوك التهريب، تخلوا عن العربات الخشبية المتهالكــة وأصــبحوا يتنقلــون بالسيارات الأمريكية الضخمة، وبدلا من تجارتهم القديمة في الخيول، يتاجرون الآن في قطع غيار السيارات.

يشير "نور الله" إلى اتجاه معاكس وهو يواصل القول:

– يجب أن نسير في هذا الاتجاه، ولكن قبل ذلك يجب أن أذهب إليهم أولا.

أهتف مدهوشا : إلى من؟

يشير نحوهم : هؤلاء البؤساء، يجب أن أتحدث إليهم.

ينظر إليه "قنص باي" مترددا، يــرى ملامــح وجهــه الصلبة، يمسك لجام الحصان ويستدير بالعربة دورة كاملــة، يلتفت نحوي "نور الله" وهو يقول :

ــ هذا النهر الذي رأيته" أموداريا" يصــب فــي بحــر آرال، مثل العديد من الأنهار الأخرى، أنه أكبر بحر مغلــق

في العالم، ينام كالتنين بين سهوب كازاخستان واوزبكستان، في يوم ما كان هذا البحر يهب الحياة لملايين البشر الذين كانوا يعيشون على ضفافه قبل أن تصيبه اللعنة، لقد غاضت مياهه وارتفعت درجة الملوحة وأصبح مصدرا للمرض والموت.

واصلت العربة انطلاقها نحوهم، قلت:

ـ هل كان هؤلاء الناس يعيشون حول البحر؟

ـ أجل، كانوا يسكنون حول منابع الأنهار التي كانت تصب فيه، أصبحت الأنهار مالحة وامتدت عروق الملح إلى أراضيهم واستشرت الأوبئة في أجسادهم، و هاأنت ذا تراهم، يبحثون عبثا عن مأوى وأرض جديدة. ولكن كل القرى ترفضهم وتقاوم دخولهم.

يقول "قنص باي" بالإنجليزية:

ـ من الخطأ أن نعود إليهم، إنهم جوعى وغاضبون، حين يعرفون أنك غريب سوف يعتدون عليك ويسلبونك مالك.

لا يفهم "نور الله" الكلمات ولكنه يفهم مغزى التحذير ورغم ذلك يصيح فيه بصرامة:

ـ إنهم في حاجة لمن يتحدث إليهم.

يتحدث معهم عن ماذا وحول أي شيء؟ لم يكونوا في حاجة لكلمات قدر حاجتهم إلى أرض يقيمون عليها وإلى طعام يسكت بكاء أطفالهم، لكن وجه "نور الله" يتبدل، يكتسب هيئة غريبة، يهبط إليهم، يسير بينهم ثم يجلس على الأرض عاقدا ساقيه باسطا ذراعيه مرددا البسلمه والأدعية وآيات القرآن بالعربية، يقفون متجمدين لبرهة ثم يبدؤون في التحرك نحوه، يجلسون في دوائر متتابعة تحيط به من كل ناحية، يبدأ صوته في الارتفاع بالتدريج، يعلو على تأوهات العجائز وبكاء الأطفال حتى يستولي على انتباههم، يواصل كلماته بصوت ليس متهدجا ولا مثيرا للشجن ولكنه واثق مما يقوله، يفرض نفسه على بؤسهم وجوعهم، ولكن هل كان يقدم لهم ما تحتاج إليه أجسادهم التي أضناها الجوع وانعدام المأوى والطرد والنبذ والفاقة والرحيل اللاهث عبر القرى ورؤية حيواناتهم وهي تنفق وأطفالهم وهي تنحل وشيوخهم وهم يموتون؟ لا أدري، أتأمل صمتهم وبريق أعينهم وهم تشربهم كلمة تخرج من فمه، أهمس في خفوت في أذن"

"قنص باي "" حتى لا أخدش الرهبة التي يثيرها صوت "نور الله" في المكان:

ـ بحق الله، ماذا يقول لهم؟

يتمتم "قنص باي " مذهولا هو الآخر:

ـ يحدثهم عن الهجرة، قدر الإنسان المستضعف في أرض الله الواسعة، عن هجرة الرسول وإيذاء أهل الكفر، يطلب منهم أن يغفروا إيذاء الآخرين لهم، فهذا مجرد امتحان، تجربة، ثمن الأرض الموعودة التي سوف يصلون إليها في نهاية المطاف، ويبشرهم بأن هناك نهاية حتمية لأيام الجوع والمسبغة..

يتوقف "قنص باي" قبل أن يكمل كلماته، يتركني وينضم إلى إحدى الحلقات، يجلس مأخوذا هو أيضا بتأثير صوت "نور الله"، أرى الدموع وهي تبدأ في الانحدار من المآقي الشاخصة إليه، دموعا صامتة بلا تأوهات ولا عويل، لحظات يكتسب فيها الألم نبلا نادرا، ولحظات أخرى تختفي فيها الدموع من العيون ويعود إليها وميض الأمل والرغبة في الحياة، وفي لحظات طفيفة تظهر ابتسامات باهتة ولكنها

حقيقية، كانوا قد أسلموا له أرواحهم المتعبة، عجينة طرية يعيد تشكيلها كما يشاء.

لا بد أنني أيضا قد وقعت تحت سحر تدفق كلماته لأنني لم أدر كم مر من وقت، لا أفهم شيئا مما يقوله ولكن نبراته أصبحت متناغمة مع أصوات الطبيعة التي تحيط بنا، جزء من صوت الريح وتقلب الأشجار وغمغمات الطيور، ينهض واقفا ويظلون صامتين، يهتزون كأنما تسري رجفة غريبة في أبدانهم جميعا، يسير إلى العربة الخشبية ويركبها وأركب أنا أيضا وينهض "قنص باي" طائعا ويهز لجام الحصان الذي يبدو هو أيضا مذهولا، يتطلع "نور الله" إلى عيونهم المتألقة التي كانت ما تزال تتابعه ويهتف:

ــ رحمات

فيهتفون جميعا في صوت كالهدير:

ــ رحمات.

نبدأ في السير مبتعدين عنهم، نظل نسمع هدير أصواتهم حتى بعد أن يغيبوا عن أبصارنا، نغوص مرة أخرى وسط نباتات الخضرة المتكاثفة.

ـ ٣ ـ

على حافة النهر، يشير "نور الله" بطول ذراعه وهو يقول :

ـ هاهو "آق داريا " النهر الأسود.. في الجانب الآخر منه يوجد "مخيم الغجر" ولا يوجد جسر نعبر عليه.

نقف على قمة تل عال تحيط به أشجار الصفصاف، ينكشف أمامنا السهل المترامي يشقه النهر الصغير مثل جرح سكين غائر، يجيل بصره حائرا:

ـ لا يحب الغجر السكنى بجوار الجسور حتى لا يكون من السهل الوصول إليهم.

ننحدر على ضفة النهر دون أن ندري إلى أين نمضي بالضبط، المؤكد أننا ابتعدنا كثيرا عن الطريق الرئيسي وعن السيارة وعن سمرقند أيضا، ننظر في كل اتجاه، مجرى النهر ضيق بعض الشيء ولكن لا يوجد أي جسر على مدى البصر، مضى الشطر الأكبر من اليوم دون أن نفعل شيئا، يهتف "نور الله" وهو يخلع حذاءه ويضع قدميه في الماء المتدفق:

ـ ليس أمامنا إلا الانتظار.

أشعر بالحنق وبأن الورطة التي وقعنا فيها تبدو بلانهاية، أهتف به:

ــ لا أعرف شيئا يمكن أن ننتظره هنا، هل سيبنون لنا جسرا لنعبر عليه.

ينظر إلى بهدوء وهو يحرك قدميه في الماء:

ــ الغجر هنا، لا أعرف أين ولكنهم قريبون، أكاد أشم رائحتهم، سيعلمون بوجودنا وسيأتون لاستطلاع أمرنا، اخلع حذاءك وضع قدميك في الماء.

ألتفت إلى "قنص باي" فأجده هو أيضا يخلع حذاءه، يتقدم الحصان أيضا ويغمس فمه في الماء، لا أجد مفر من أفعل مثلهم، أضع قدمي فتتصاعد برودة الماء إلى بقية جسدي، أحس بالتعب والجوع وأن سعينا طوال النهار كان بلا طائل، والطيور تحوم في بط ء والزمن لا يكاد يمر، ألتفت إلى " قنص باي" وأنا أقول له:

_ وأنت أليس وراءك أعمال أخرى.

يقول وهو يحرك أصابعه تحت الماء الصافي:

ــ الأعمال كثيرة، ولكن من ذا الذي يظفر بجلسة مثل هذه بجوار نهر.

فجأة نرفع نحن الثلاثة رؤوسنا ـ اثنانا والحصان ـ وننظر بعيدا فوق صفحة النهر، نسمع صوت ضربات المجداف ثم نرى أحد القوارب، يقوده شخص ضئيل لا يكاد يرى، يواصل القارب الاقتراب منا، نكتشف أن هناك امرأة تجدف في استرخاء ودون مبالاة بوجودنا، ينتفض "نور الله" واقفا وهو يلوح صائحا:

ـ يا خانوووووم

تلقي المرأة نظرة عابرة علينا ثم تواصل التجديف مبتعدة، أنهض أنا أيضا واقفا، يقول لي في فرح:

ـ إنها منهم، هل ترى ملابسها والعصبة على رأسها.

أقول في دهشة: ولكنها تبتعد، إنها غير مبالية.

يقول وهو يفرك يديه:

ـ إنها تتظاهر بذلك، الغجر لا يحبون الماء كثيرا وهي لم تهبط إلى النهر إلا من أجل استكشاف من نكون نحن.

تتوقف المرأة بعيدة في منتصف النهر، يخوض "نور الله" في النهر حتى يرتفع الماء إلى ركبتيه، يتحدث معها وهو يشير إلي العربة والإطارات الممزقة التي تحملها، يخرج من جيبه نقودا ليريها درجة استعداده للدفع، تهز كتفيها دون أن

تفارقها علامات اللامبالاة، يواصل الحديث معها، كأنه يحاول استمالتها، إغواءها عبر الماء، تستجيب المرأة أخيرا، تتحدث إليه قليلا ثم تجلس في وسط القارب وتعاود التجديف مبتعدة، أصيح في يأس :

ــ ماذا حدث. لماذا تبتعد المرأة عنا؟

يعود "نور الله" للجلوس:

ــ يجب أن تعود إلى المخيم أولا حتى تنقل للزعيم ما رأته و تستأذنه، لا أحد يستطيع زيارتهم دون إذن.

ــ ولكن هل نجد لديهم ما نحتاج إليه.

ــ ربما نجد وربما لا نجد شيئا، الغجر هم لا يملكون شيئا ولديهم كل شيء، إنهم لا يكفون على التجول منذ عشرات السنوات، اليوم هنا وغدا عند أطراف بخارى وبعد غد في وادي فرغانة، الاختلاف الوحيد الذي حدث لهم أنهم لم يعودوا يتجولون على أقدامهم أو بواسطة العربات المتهالكة ــ مثل عربة "قنص باي"ــ إنهم يمتلكون سيارات الآن نصف نقل لقد تغير الزمن بالنسبة للجميع.

ــ ولكن إذا كانوا يمتلكون الإطارات، هل سيعطوننا.

ــ لن نعرف الإجابة قبل أن نذهب إليهم ونطلب منهم.

تصل المرأة إلى الشاطئ الآخر، تهبط وتخــوض فــي الماء ثم تربط القارب في إحدى الأشجار تواصــل صــعود المنحدر حتى تختفي عن الأبصار، يبدو كــل شــيء غيــر حقيقي، وحتى الشاطئ الآخر، يبــدو كأنــه ينتمــي لعــالم آخر،لحظات الانتظار لا تنتهي والشمس بدأت في الانكسار، تمتد مساحات من الظل ويتحول الهواء إلى نسمات بــاردة، نظل جالسين وعيوننا معلقة على القارب الخالي الذي يتأرجح على الماء.

نشاهد حركة على الشاطئ الآخر، تعود المرأة ولكنهــا ليست وحدها، يصحبها ثلاثة من الرجال لا نراهم بوضوح، تتركهم المرأة وتنحدر وحدها إلى القارب المربوط، تجــدف متجهة نحونا، ينهض "نور الله" وهو يهتف:

ــ عودتها تعني أنهم وافقوا على عبورنا إليهم.

نبدأ في إنزال الإطارات من فوق العربة ونضعها على حافة الماء، تواصل المرأة ضربات المجــداف حتــى تقــف بالقارب أمامنا، تغرس مجدافها في الطين وتظل ممسكة بــه حتى تثبته، تتفحص وجوهنا كأنها تتأكد من هويتنا قبــل أن تسمح لنا بالوصول إلى قاربها، تركز أبصارها على "قــنص

باي"، تتغير هيئتها ثم يعلو صوتها غاضبا وهي تشير إليـــه بيدها، ينهض "قنص باي" أيضا ويبادلها الحديث بعنف، يلوح بذراعيه ويتراجع ليقف بجانب العربة، أنظر حائرا إلى "نور الله"، يقول لي موضحا:

ــ إنها ترفض قدوم "قنص باي" معنا، لن تدعه يلمـــس قاربها، لأنه " كازاخي" يأكل لحم الجياد التي يقدسها الغجـــر ولا يتعاملون مع أي شخص يؤذيها.

يلوح "قنص باي " بيده وهو يقول متبرما بالإنجليزية:

ــ ومن قال إنني أريد الذهاب عند لصـــوص الأطفـــال هؤلاء، اذهبوا وسأنتظركم هنا.

لا يبدو أن القارب كان يمكن أن يتسع لنا جميعا علـــى أي حال، أحس بالسرور لأننا على الأقل قد تركنـــا شـــاهدا خلفنا، هذا إن كان لشهادته أي قيمة، من الذي يمكن أن يهتم بضياع أشخاص مجهولين على حافة نهر مجهول في سهوب آسيا، نواصل نقل الإطارات إلـــى القـــارب دون أن نتـــأثر بالاهتزازات، يقفز "نور الله" فيغوص القارب كثيرا ومع ذلك يمد يده ليساعدني على الركوب، لا يناقشني إن كنت ســـوف

أرافقه أم لا، أصبح من الطبيعي أن أكون معــه فــي كــل خطوة، رغما عنا يربطنا مصير أعمى.

نجلس في القارب متلاصقين بعد أن رصصنا الإطارات على بعضها، ومن حسن الحظ أن القارب بقي طافيا علــى وجه الماء، تلقي إلينا المرأة بالمجاديف وتجلــس صــامتة، ينزاح الماء من حولنا مليئا بالطحالب السوداء التــي تلتــف حول المجاديف مثل أفاع صغيرة، كأنما أصابتها لفحه مــن نيران الغجر ففقدت خضرتها الأليفة، أتأمل وجه المرأة التي تجلس في مقابلنا، عصابة حمراء تشد شعرها الفــاحم إلــى أعلى الرأس، مزينة بحبات من اللؤلؤ المتكسر، شعر خشــن وهائش وبري، وجه مائل للسمرة خال من المساحيق، ملامح محددة وواضحة كأنها منحوتــة ومكســوة بالجلــد، مفعمــة بالتعبيرات القوية تتأملني هي أيضا في نظــرات ومباشــرة وجريئة تشعرني بالخجل، لعل لــوني الأســمر قــد أثــار اهتمامها، يبدو "نور الله" منشغلا أكثر بالرجال الذين يقفــون على الشاطئ في انتظارنا، ثلاثة من الشبان الضخام، يرتدون "الجينز" وقمصانا مفتوحة دون أكمــام تــاركين صــدورهم عارية، ملامحهم سوداء من حرقة الشمس وطول التجوال، لا

يبدون لي مصريين كما تقول الأساطير حول أصل الغجـــر، غرباء متفردون كما كانوا وكما سيظلون.

يتحركون حين نقترب منهم، يتلقفون الحبل مـــن الفتـــاة ويشدون القارب، يبدؤون في حمل الإطارات دون أن يوجهوا لنا كلمة واحدة، يرتقون ضفة النهر إلى أعلى، يســـير "نـــور الله" خلفهم وتسير الفتاة بجانبي، أسمعها وهي تقول لي فجـــأة بالإنجليزية:

ــ أنت قادم من بلاد بعيدة أيها الغريب.

ألتفت إليها مندهشا وأنا أقول:

ــ أنت تتحدثين الإنجليزية؟

ــ الغجر يعرفون الكثير من اللغات، إنه شيء ضروري للتجوال والخوف من مداهمة الخطر، من أي البلاد أنت.

ــ من مصر

ــ تبدو كأنك قادم من زمن آخر، هل لك اسم؟

ــ اسمي علي، وأنت هل لك أسم؟

ــ يارا.

نصعد إلى الشاطئ، ندخل وسط تلافيف مـــن الشـــجر الكثيف، تتبدل الروائح من حولنا، تختفي رائحة النهر ويعبق

الجو بالأدخنة المختلطة بروائح الطعام، تتناهى ضجة الحياة لتملأ السكون، يظهر الأطفال أولا، يقبلــون علينــا بوجــوه سمراء وعيون متطلعة، يتقافزون حولنا وهم يقودوننــا إلــى مخيمهم، يحيط به سور واطئ مجدول من الغصون وأليــاف الشجر، خلفه خيام وأكواخ من الطين والصفيح، ندخل مــن فتحة وسط الغصون، تتأملنا الوجوه بفضول، نسوة عجــائز جالسات يطهين الطعام في قدور سوداء فــوق مواقــد مــن الحطب، رأس ضأن يبدو طافيا في أحد القدور ودوائر الدسم معقودة حوله، نساء أخريات يطرزن ملابس ملونة، أخريات يحممن الأطفال الصغار في أوعية مــن القصــدير، رجــال يجلسون بعيدا، يلتفون في دائرة وهم يراقبون غجريا آخــر يمسك بزمام أحد الجياد يحاول ترويضه وجمــح شــكيمته، ألتفت في رعب حين أسمع دمدمات غاضبة، دب أسود اللون مقيد بسلسلة في عنقه، يضحك الأطفال عندما يشــاهدون رد فعلي المذعور، أكتشف أنه دب بــائس، منــزوع الأســنان والأظافر، تقول المرأة التي تسير بجانبي ضاحكة:

ـ الدب هو أحب حيوان إلــى قلــب الغجــري بعــد الحصان.

يهوي أحد الحدادين بمطرقته وهو ينفخ في كور مــن النار مقام وسط الصخر، تدور فتاة صغيرة راقصة، تلــبس ثوبا زاهيا وهي تدق الصنوج كأنها تتمــرن علــى إحــدى الرقصات،نساء عجائز يدخن بشراهة من غلايــين طويلــة، عربات نصف نقل محملة بأكداس من قطع السيارات القديمة، كأنهم يمتلكون مقبرة متنقلة للسيارات، النساء قليلات، رجال وبعض العجائز ولا أثر للشابات الصغيرات، أســتعيد فــي ذهني كل ما عرفته عن عالمهم، هؤلاء الطلقاء الذين يعيشون على حافة المدن وهامش القانون وســط زمــن ضــائع، لا يملكون شيئا لذلك لا يمتلكهم شيْ، أراهــم وهــم يمارســون طقوسهم الحياتية، طقوسا تعود فــي جــذورها إلــى زمــن الأساطير والحكايات القديمة، تختلط فيها عناصــر المــيلاد والتوجس والخوف والمطاردة والموت، تتأمل الفتاه دهشــتي دون أن تكف عن الابتسام، يواصل حاملو الإطارات الســير ونحن خلفهم، نتوقف أخيرا أمام شجرة في وســط المخــيم، اضخم شجرة شاهدتها في حيــاتي، لا أســتطيع أن أحــيط بنظري مدى ضخامة جذعها ومدى كثافة الغصون المتدليــة منها، يضع الرجال الإطارات على الأرض جنــب الجــذع،

تشير لنا الفتاة لننتظر في مكاننا، تزيح الأغصـــان، وتتقـــدم داخلة إلى الشجرة، أكتشف أن هناك تجويفا ضخما موجـــودا أسفل جذعها، أشبه ببوابة صغيرة، تختفي الفتاه داخله، أسأل "نور الله" في قلق:

ــ ما كل هذا، ماذا ينوون بالضبط؟

ــ هذه هي الأصول، يجب أن نقابل الزعيم أولا ونطلب منه المساعدة ثم نتركه يقرر ما يريد أن يعمله.

أحس بالتعب والإعياء، أقول غاضبا:

ــ كأننا نمضي وسط مراسيم بلاط ملكي وليس مخيمـــا بائسا لغجر رحل، هل يحسب نفسه قيصر روسيا، نســـتأذن للدخول إلى المعسكر ثم نستأذن في الدخول إليه وكـــل مـــا نريده منه هو مجرد إطارات فارغة.

ينظر إلى "نور الله" ويقول في هدوء:

ــ لا تدعهم يرون غضبك، ما نريده منهم هو ما يجعلنا قادرين على مواصلة رحلتنا، بغيرها سوف نظل عـــاجزين على الطريق.

تخرج المرأة وتشير لنا أن نتبعها إلى داخل الشـــجرة، جوف بارد ملئ بالأدخنة الخانقة، جذوات من النار المتقـــدة

في المنتصف، تملأ المكان بضوء معتم وظلال كثيفة، صف من الرجال يجلسون ملتصقين بالجدار الذي يصنع تجويف الشجرة، اشكالهم وملامحهم تبدو كأنها مصنوعة أيضا من لحاء من تجاعيد الخشب الذي يستندون إليه، أحس بالاختناق كأنني أقف في جوف إحدى الحفريات، أظل واقفا حتى تتعود عيناي على العتمة، أراهم أخيرا، نصف دائرة من العجائز يهزون رؤوسهم وهم يحدقون فينا، في مكان بارز وفوق حشايا مرتفعة بعض الشيْ، يجلس رجل، لابد وأنه هو الزعيم، أشدهم ضخامة وقوة وشبابا منهم جميعا، الوحيد الذي يدخن الغليون وسط هذا المكان الرطب الخانق، يشير لنا أن نجلس أمامه مباشرة.

أستند إلى الجدار الخشبي الخشن أحس بما فيه من تجاعيد وثنيات، أسمع صوتا أشبه بالهدير البالغ الخفوت، كأنه صوت العصارات وهي تسري خلال نسغ الشجرة، وشيش خافت متصل، لا أصدق أذني، "نور الله" يتحدث والزعيم يرد عليه كأن الأصوات قادم من عالم آخر، أزداد التصاقا بالجدار لعل هذا الصوت يسرب جزءا من عصارته إلى عروقي، أتوحد مع شفرته السرية، صوت نادر من

أصوات الطبيعة، أتذكر لحظات الجفاف التي استطالت وأنــا عاجز عن ممارسة الحياة، تلمس "يارا" كتفي برفق، أكتشف أنها جالسة بجانبي، تكاد تلتصق بي:

ـــ الزعيم يسألك عما تفعل في مصر؟

أقولها : أنا طبيب، ولكني توقفت عن ممارســة الطــب منذ زمن.

تترجم له كلماتي، يتحدثون فيمــا بيــنهم، لا أدري إن كانت إجابتي قد أعجبتهم أم لا، يضحك الزعيم قليلا ثم يأخذ نفسا طويلا من غليونه، يبدأ في الحديث مرة أخرى مع "نور الله" الذي كان يزن كلماته في أناة خوفا من أن يتلف الصفقة، أجيل بصري في أرجاء المكان، وجوههم الداكنة تكاد تختفي وسط الظلال، معظمهم ينصت للحديث الــدائر، ألمــح فــي الركن عينين براقتين مسلطتين نحوي كعيني حيوان مترقبان، بصعوبة أميز وجه الرجل العجوز الذي لم يخفــض عينيــه عني منذ أن دخلت، أحس بالضيق والخوف، التصق رغمــا عني بالمرأة التي تجلس بجواري، لعلها أحست بمدى خوفي فلم تنأ عني، فجأة يعلو صوت العجوز مرتجفا واهنا، يصمت الجميع، ينصب الزعيم قامته وينصت إليه في احترام، يوجه

الحديث نحوي فلا أستطيع أن أحول بصري، أسمه صـوت "يارا" وهي تهمس:

ـ يتحدث إليك شيخنا "قارون "، إنه أكبرنا سنا والأجدر بالاحترام في كل سهوب "التركمان"، يقول لك أنك مادمـت من مصر فيجب أن تعرف تاريخ الغجر السري وما فعله بهم المصريون.

أقول مندهشا:

ـ الكثيرون مثلي يعتقدون أن أصل الغجر من مصر.

يتحدث، يزداد صوته ارتفاعا حتى يملأ المكان بصـدى صوته باعثا الرهبة في نفسي، تختلط كلماتـه مـع السـعال والشهقات ومحاولة التقاط الأنفاس ولا تكـف " يـارا" عـن الهمس مترجمة لي كل كلمة يقولها:

ـ لا أحد يعرف أصل الغجر سوى الغجر، إنه سـرهم الأعظم، ولكن الأسطورة أقوى دائما من الحقيقة، لقد هاجرنا إلى كل مكان تقريبا ودفعنا غاليا ثمن هذا التجوال، ولكننا في لحظة زمنية غابرة اعتقدنا أن مصر ـ تلك الأرض السوداء ـ يمكن أن تكون وطنا لنا، ذهبنا إليها وسرنا عبـر النهـر العظيم ونحن نحمل أعظم أسرار التـاريخ القـديم، الطبابـة

والحدادة، عشنا بين أهلها طويلا، ولكننا كنا نكــره الحــرث والغرس، نكره الانحناء لأي سبب ولأي كائن ما كان، ولكن فلاحي الوادي لم يغفروا لنا كرهنا للزراعة، كانوا يعتقــدون أنها السر الأوحد للحياة، وكنا نعتقد إنها نوع من العبوديــة، فالأرض تربطك بذات المكان، وتحرمك من فضاء التمــرد وتجعلك صابرا وخانعا، تتحمل جور الطبيعة والبشر الــذين يحكمون الأرض من حولك، لذلك فالفلاحون هم أقدم عبيــد عرفهم التاريخ، ثم حدث ذات عام أن غاض النيل ــ وهــو عادة ما يغيض ــ وجفت الأرض، وعم الجوع،وكان أول ما خطر ببال هؤلاء الفلاحين التعساء هو إلقاء عــبء قــدرهم علينا، اتهمونا ــ نحن الغجر ــ بالسحر الأســود وتســليط القوى الخفية على أراضيهم، وبدأ الفراعنة يتحرشــون بنــا، سجنوا رجالنا، واختطفوا نساءنا وقتلوا أطفالنا ثم جدوا فــي مطاردتنا حتى لم يعد هناك مفر من الخروج.

يتوقف قليلا ليشهق ويلتقط أنفاسه بصعوبة كأنه علــى وشك الموت، وكأنه يستنشق مددا جديــدا لروحــه، تخمــد النيران دون أن يجرؤ أحد على الحركة ليزودها بالحطــب، ينبعث منها خيط من الدخان يملأ المكان تدريجيا ويحجب كل

الوجوه ولا يبقى إلا صوته وهو يعلو من جديد مواصلا حكايته :

ـ جمع الغجر شعبهم وبدأوا السير في الصحراء المحرقة بعيدا عن الوادي، ولكن فرعون وجنوده لم يتركوا شعبنا يرحل في هدوء، أنت تعرف أن كل الفراعنة متشابهون، لا يوقفون المطاردة متى بدأوها، ظلوا يتبعوننا حتى حافة البحر الذي يفصل مصر عن العالم، دفعونا دفعا نحو المياه الزرقاء المتلاطمة، ولكن الغرق كان أهون من الارتداد والوقوع في الأسر، وقف الفرعون وجنوده ينظرون إلينا ونحن نشهق ونصارع الموت بينما تختفي النساء والأطفال والشيوخ واحدا أثر الآخر في جوف البحر المظلم، خيل إليهم أنهم قد تخلصوا من الغجر نهائيا، لم يعد لهم وجود في عالم الأحياء، لم يعرفوا أن في الجانب الآخر من البحر قد استطاع شاب وفتاة النجاة من الغرق، آدم وحواء غجريان يقطران من الماء ويرتجفان من البرد والخوف ولكنهما قادران على السير معا حتى نهاية العالم، لم يتوقفا إلا في بلاد الهند والسند حيث لا يوجد فراعنة، وبدءا

يواصلان لعبة الحياة من جديد ومن نسلهما جاءت شعوب الغجر التي لا زالت تجد في الهرب والرحيل حتى يومنا هذا.

يصمت أخيرا، وينجلي الدخان، وعلى الضوء الشحيح المنساب من فتحة الشجرة أرى وجوههم صامتة، وعيونهم محملقة، ينهض الرجل العجوز من الركن الذي كان يجلس فيه يسير عابرا المكان في خطوات واهنة وهو عاجز عن التقاط أنفاسه، يتوقف أمامي وهو يستطلع وجهي، لعله كان يبحث في ملامح وجهي عن الفرعون القديم الذي طاردهم منذ زمن سحيق، كان وجهه بالغ الهرم كأنه كان شاهدا على كل هذه الوقائع، يسير خارجا من جوف الشجرة ويبدأ الباقون في القيام والانصراف واحدا أثر الآخر، لا يبقى إلا نحن والزعيم والمرأة بجانبي، ينظر "نور الله" نحوي وهو يقول:

ــ لقد تأخر الوقت وبدأ الظلام يهبط على النهر.

أقول مدهوشا: وماذا يعني هذا؟.

يقول في هدوء:

ــ لا أحد من الغجر يجرؤ على أن يعبر النهر في الظلام، ثم أننا لم نتفق بعد، الأمر في حاجة إلى بعض المساومة.

ـــــ هل تعني أننا سوف نقضي الليل هنا.

ــ لا مفر من ذلك.

ــ و"قنص باي"؟

ــ إنه يعرف أننا هنا وسوف نعود في الصباح، سوف يبلغونه بذلك.

أحملق فيه محاولا أن أقرأ ملامحه ولكن الظلمة تمنعني من ذلك، اهتف به :

ــ ما الأمر، هل هناك شيء يجب ألا أعلمه.

يتحدث الزعيم إلى المرأة، تلمس كتفي لتوجه أنظاري إليها:

ــ الزعيم يقول لك أن تنهض معي، سوف أحادثك وأقرأ طالعك ريثما ينتهي من الكلام مع صاحبك "الأوزبيكي".

لا أحد ينتظر مني إجابة بالرفض أو القبول، من الواضح أن الزعيم قد أصدر أمرا، تنهض المرأة وتمد لي يدها، في كل مرة يزداد الأمر تعقيدا عما كنت أتصور، أسير خلفها خارجين من جوف الشجرة، إطارات السيارة ليست موجودة في المكان الذي تركناها فيه، الظلام قد بدأ يهبط

ولكن المخيم مشتعل بالحركة والنشاط، نسوة صغار يمـــلأن المكان بملابسهن الملونة، من الواضح أنهن قادمات بعد يوم من العمل في المدن والقرى القريبة، يبدو ذلك واضحا مـــن صخب الأطفال ورائحة الطعام، يرمقنني بعيون فضولية ثـــم يعدن للتهامس فيما بينهن، تسير "يارا" مزهوة بيـــنهن وأنـــا أتبعها، أرى ذلك في الطريقة التي تخطو بها، تقـــودني إلـــى خيمة صغيرة في نهاية المخيم، تشير لي أن أجلس أمام بابها وتوقد مصباحا صدئا وتجعله بيننا، نظل صـــامتين، تتنـــاهى إلينا ضجة المخيم وأصوات الصنوج وعزف الأوتار، يتخلى الرجال عن تكاسلهم الذي دام طوال النهار ويبدأ كل واحـــد في تحضير الطعام لامرأته، يقوم البعض الآخر بالعزف لهن أثناء تناوله، تمد " يارا" يدها وتحضر سلة صغيرة، تكشـــف الغطاء الأبيض من عليها وهي تقول :

ـــ كل شيئا.

السلة مليئة بثمار التوت البري والكرز وجذور النباتات الغريبة، أحس بالجوع الشـــديد فأتنـــاول بعضـــها، نضـــرة ومسكرة ولاذعة، وتتناول كفي، كفها خشنة ودافئة:

ـــ لن أقرأ كفــك فهو يبدو معقدا، وعتمة الليل لا تسمح بذلك ولكن يمكنني أن أقرأ إشارات أصابعك.

ـــ أصابعي؟

ـــ اجل، كل العلامات مرسومة على الأصابع، المصير والقدر والحب وخيبة الأمل، فالإبهام يحمل علامــات ســوء الحظ ولديك منه الكثير، أما السبابة فهي للحظ الحسن الــذي مازال في انتظارك، يمكــن إذا أردت أن تنتهــز الفرصــة وتنفض جلدك القديم، امرأة عمرك مازالت في انتظــارك، حاذر أن تجرح هذا الإصبع أو تدع أحدا يجرحه فلو ســال دمك لتبدد حظك، أما هذا الأوسط فهــو لاســتعادة الأرواح الشاردة، لا تعذب نفسك أكثر مما تحتمل فــالأرواح هشــة كالزجاج وخفيفة كالريش تأخذها ريح الزمن بلا عودة، أمــا البنصر فهو لصحة القلب، لا تبقه مغلقا طويلا، افتحه لــريح السهول، وبرد الليل، وضوء النجوم، أحيانا تكون الأكذوبــة القريبة خيرا من حقيقة بعيدة المنال، يبقــى ذلــك الإصــبع الصغير، إنه للمس كل الأشياء المحرمة فلا تحرم نفسك من متعة الإحساس بها حتى وإن كانت محرمة.

أحدق فيها، هل ما تقوله قد رأت علاماته حقـا؟ تظـل مسلطة عينيها علي كأنها تحاول النفاذ إلى أعمـاقي، تخـط على الرمل حروفا وإشارات مجهولة، تعلو أصوات الغنـاء والصنوج ولا يظهر "نور الله"، يبدأ بعض الرجال في إشعال كومة كبيرة من الحطب في وسط المخيم، تقبل علينا واحـدة من النسوة، امرأة فارعة تلبس ثوبا ملونا، تميل نحونا حتـى يوشك ثدياها أن يتدليا أمامنا تحدث " يـارا" وهـي تـومئ برأسها نحوي، ترد عليها في غضب، تشير لهـا أن تبتعـد، تضحك المرأة وتسير من أمامنا على مهل وهـي تـؤرجح مؤخرتها، تتجه إلى حيث يوجد الدب، تبدأ في فك القيود التي تربطه في مكانه، تقترب منه بحيث تصبح في متناول مخالبه ولكن الدب لا يهاجمها، ينساق خلفها وهي تسحبه إلى جانب كومة النار التي بدأت ألسنة اللهب والأدخنة فـي التصـاعد منها، تصبح أصوات الصنوج أكثر ارتفاعا أقول لها :

ــ ماذا كانت تريد؟

ــ لا شيء إنها امرأة بدون رجل وتهوى الغرباء

ــ وأنت أليس لك رجل؟

ــ لم يعد لي، مات في مشاجرة بالسكاكين.

ــ ألن تختاري رجلا آخر؟

ــ نسيت أن أقول لك إن الرجل الأول كان يتشاجر من أجل امرأة أخرى، فماذا يحمل لي الرجل الثاني.

تعلو أصوات الصنوج في صخب وتمسك المرأة بالدب وهما يزدادان اقترابا من النار، تكاد تدخل بجسدها في جسده والدب يتبعها مسحورا مسلوب القوي، أتطلع إلى "يارا" مدهوشا،لم أكن أتوقع أن أسمع أن هناك نفسا كسيرة بداخلها، كأن من المفترض ألا تكون هذه الأرواح البرية قابلة للانكسار، أقول لها :

ــ هل تشعرين بالخوف، ألم تقولي منذ لحظات أن علي المرء أن يطيع نزوات قلبه حتى وإن كانت محرمة.

تنهض قليلا وتغيب داخل الخيمة للحظات ثم تعود وهي تحمل في يدها إناء خزفيا صغيرا، تقدمه لي، آخذ رشفه فأحس بالمذاق العطري للزهورات ينساب داخلي باردا وطيبا، تجلس أمامي وتضم الثوب حول جسدها ولكني أرى ركبتيها عاريتين ولامعتين، تقول:

ــ طرق الغجر ملتوية كالثعابين، كل نزوة تعني لدغة، فكم مرة ــ فيما تعتقد ــ يمكن أن يلدغ القلب، حتى هذه

المرأة التي تراقص الدب ألا تعتقد إنها خائفة منه؟ ربما في لحظة يستثار، ينشب مخالبه في جسدها، ورغم ذلك فهي تلقي بنفسها في أحضان خوفها القاتل، القليل منا يستطيع مواجهة خوفه هكذا، هل حدث أن ذهبت إلى زيارة ضريح "عائشة بيبي" على أطراف مدينة "جمبول"؟

أهز رأسي بالنفي، أسمع أصوات الرجال وهم يصيحون في صخب، تدور المرأة حول الدب والنار تلقي وهجا على ثدييها وقد عرتهما تماما، يتقافز الدب أمامها في جنون، أتناول جرعة أخرى من الزهورات وأحدق في عيني "يارا"، لا تنظر إلي، ولا للمكان الذي يحيط بنا، أسمعها وهي تهمس لنفسها:

ـ العشاق الذين يزورون ضريحها لا يعرفون أنها جدتي، وإن الدم الذي يسري في عروقي هو نفسه الذي كان يسري في عروقها، ولكن كم تتباعد الأزمنة وكم تتوحد المصائر.

ـ ٤ ـ

زنابق بيضاء، لا تنمو إلا وسط بللورات الثلج، لا تزدهر إلا في ضوء القمر، وتذوب إذا مستها الشمس، تلك

هي التي كانت تحبها عائشة بيبي وتعرف وحـــدها أمـــاكن وجودها، تسير إليها كل ليلة رغم أن إبر الصنوبر تجـــرح وجنتيها المشدودتين من أثر الصقيع ولم يكن الثلج يبقي خلفها أي أثر يمكن أن يدل على طريقها، عند عودتها كانت تصـــر على الذهاب إلى حافة النهر الذي كان هو أيضا شبه متجمد، لم تكن أمها تكف عن الصياح فيها وهي تنطلـــق كـــل يـــوم خارج المخيم البائس :" إذا لم تخافي من التجمد فخافي مـــن فرسان المغول، إنهم يأكلون حتى السمك نيئا "، المشـــكلة أن روحا طليقة مثل روحها لم تكن تدرك معنى الخوف، كـــان أمنها الهش يكمن في وسط سكينة ذلك الدغل مـــن أشـــجار الحور والصفصاف على حافة النهر المتجمد، حيث تضم إلى صدرها تلك الزنابق القصيرة العمر البيضاء اللون، وفي هذا المكان الذي لا يعرفه أحد، قابلته للمرة الأولى.

لا تعرف عائشة كيف عرف هذا الفارس الطريق إلـــى مخبئها ولكنه كان نائما هناك ساكنا وديعا تحيط به هالة مـــن الدم الأحمر، تنبعث من جسده الضخم رائحة لا تطاق، خليط من رائحة البول والسمك وعرق الخيل، منذ النظرة الأولـــى أدركت أنه فارس مغولي، الخوذة مازالت فوق رأسه، الرمح

المنكسر والترس ملقيان بجانبه، أما الدرع المصـــنوع مـــن الجلد المقسى والذي كان يغطي صدره فقــد كـــان مخترقـــا بطعنة نافذة، المدهش أنه كانت مازالت به بقية واهنـــة مـــن الحياة، تصمت "يارا" قليلا ريثما تقلب النار:

ـ "كانت عائشة صغيرة، ولكن ميراث الطبيعة الغجري في داخلها كان عميقا، أدركت أن الأمر كان في حاجة إلـــى الكثير من الأمزجة السحرية لإبقاء الروح داخل الجسد وفي حاجة لقوة هائلة من العشق لإنقاذ حياة رجل من "الكاجو".

أشرب المزيد من الزهورات وأنا أتساءل:

ـ ماذا يعني " الكاجو"؟

ـ إنهم الرجال من غير الغجر، مثلك تماما.

أشعر بالحرارة تغمر جسدي ببطء، أتطلع إلـــى جســـد المرأة المتوهج وهو يغوص تدريجيا في جسد الدب الأسود، حتى الصنوج قد خفت من دويها قليلا، ربما لتعطي الفرصة لمزيج من التمازج بين الجسدين، أتطلع إلـــى وجـــه "يـــارا" لأتأكد من أنني مازلت مستيقظا ولا أهذي ولكنها تبدو كما لو أنها لا تحس بوجودي، تتطلع بعيدا خلف احجبة الزمن:

ـــ قالت لها أمها: "يا عائشة أنت تعرضين نفسك للعنـــة مرتين، مرة لأنه "كاجو" ومرة لأنه مغولي، أنـــت تســـلمين مصيرك لمن لا أمان له"، ولكن ماذا تفيد النصيحة مع القلب إذا أصابه عطب العشق؟

كل ما كان يشغلها هو إنقاذ هذا الجسد الضخم المصاب، ففي خلال ذلك التجوال الطويل الذي حمل الغجر إلـــى كـــل مكان في العالم، لم يكرهوا شيئا كما كرهوا المغول، لقد احتل جنودهم كل السهوب التي كانت تهب الحريـــة والانطـــلاق وملأوها بالحرائق والقتلى، وإذا كان الآخرون من "الكـــاجو" يطردونهم فقط إلى خارج حدود مدنهم فإن المغول يظلـــون يطاردونهم حتى آخر الأرض.

توسلت عائشة من أجله كثيرا، توسلت لأمهـــا حتـــى لا تخبر أباها، وتوسلت إلى العذراء السوداء في مخيم الغجر أن تصنع لها أفضل شراب سحري يمكن صنعه، وكان مزيجـــا من الطحالب التي تنمو في الآبار المظلمة ونباتات الســـهوب البرية وقلب ضفدع ومخ غراب وعظم سلحفاة، وتوسلت إلى كل قوى الطبيعة الخفية أن تساعدها وألا تســـلط أرواحهـــا الشريرة على هذا الجسد الملقى بلا حول ولا قوة، ثم عـــادت

إليه، لم تستطع أن تنقله من مكانه فجمعت كل ما تقدر عليه من البوص وأحاطته بساتر منه وأقامت فوقه سقفا يحميه من الثلج المتساقط وظلت كل يوم توقد بجانبه نارا، وتحرص على أن تبقي جذواتها متوهجة طوال الليل، ووضعت على جرحه حصاة محماة وسقته المزيج الذي أعدته العذراء السوداء، وظلت تزوده في الأيام التي تلت ذلك بجرعات صغيرة من لبن الخيل، تسكبها بين شفتيه في بطء ودقة حتى لا يختنق بها، وعندما تحولت أنفاسه إلى خوار، وأصبحت رائحته نتنة تقريبا نزعت الدرع الجلدي من على صدره وحررت ساقيه من السيور الجلدية التي كانت تلتف حولها وبدأت تدعك جسده بزنابق الثلج والأعشاب الندية وأوراق الكافور وطحالب النهر، كانت هذه هي المرة الأولى التي ترى فيها جسدا عاريا لرجل بهذا القرب وهذه الضخامة وتلك الدرجة من الاستسلام، والأهم من ذلك أن ترى خلاياه وهي تنفض عنها الزرقة والشحوب وتكتسب يوما بعد يوم حمرة الحياة، كانت لا تكف عن لمسه وتحسسه، كأن أشياء فيها تتفتح كل لحظة، وكأن تلك اللمسات تعيد تغيير جسدها هي أيضا من جديد، تملؤه بعصارات فوارة وبجوع مباغت

لا يعرف الشبع، بدأت تضع خدها على صدره لترى إن كان قلبه ينبض بصورة جيدة أم لا، ثم أصبحت تشعر بغبطة شديدة حين تلامس وجنتها شعيرات صدره وحين تغمر رائحته أنفها، تحس بسكينة تدفع بالنوم إلى عينيها، نوم عميق هادئ تحس فيه بالدفء حتى أنها عندما كانت تعود إلى المخيم كانت تبقى مفتوحة العينين طوال الليل، وعندما أصبحت تضحك وتبكي بلا سبب ذهبت إلى العذراء السوداء وحكت لها عن كل ما يفور في جسدها من أحاسيس لا تدري مصدرها، وقالت لها العجوز: "يالبؤس قلبك يا عائشة، أنت عاشقة،ولكن هل يعشقك هو أيضا بنفس الدرجة؟ "وكيف يمكنها أن تدري، وكيف توقن أنه حقا يعلم بوجودها؟ أمور المحبين يجب ألا تترك للمصادفات العابثة، هكذا أخبرتها العذراء السوداء، وفي هذه الليلة ذهبت عائشة إلى حيث يستلقي جسده، كان القمر في تمام بدره وبواسطة سكين قطعت خصلة من شعره ثم جرحت ذراعها ووضعت الشعر والدم في عجينة الذرة الطرية التي كانت تحملها وصنعت كرة صغيرة وصاحت في ضوء القمر وهي تطعمه إياها في كريات صغيرة، وهي تشاركه أيضا في تناولها: "هاأنا ذا آكل

شعرك،هاأنت ذا تشرب دمي، وعندما تستيقظ سوف تعشقني وتتبعني كأنك ظلي" وفي هذه اللحظة فتح عينيه ورآها، ظل يحلق فيها ولم تدر إن كان قد تعرف عليها وشم رائحتها المألوفة هل أحس بلمساتها على جسده أم أن هذا هو تعارفهما الأول، كان جائعا فجمعت له ثمار التوت البري والسفرجل والجوز وحتى قلب البيلسان الطري فأكلها، وكان عطشا فأحضرت له ماء النهر في كفيها فشربه، وعندما مضى الليل الطويل وبعثت الشمس بالدفء في عروقهما تحدث إليها أخيرا: "ضاجعيني".

فقالت له على الفور:" أنا غجرية وليست عاهرة ".

تصمت يارا قليلا لتلتقط أنفاسها، ينفد شراب الزهورات في يدي دون أن يروي عطشي، يغمر الوهج جسها ووجهها، تقول بصوت خافت كأنه الفحيح:

ـــ لم يخلق الغجر على شاكلة العالم، فقد خلق "الكاجو" طيبين لدرجة الخنوع، الشر فيهم هو الاستثناء، أما امرأة الغجر فقد اشترك الإله الحمل والإله الثعبان في خلقها بنفس الدرجة من التساوي، وحتى الآن لم يكن قد رأى في عائشة بيبي إلا نصف واحد فقط هو الحمل العاشق.

لم تكتشف عائشة حقيقة فارسها الجريح إلا فـــي وقـــت متأخر من اليوم عندما اقتحمت ثلة من الفرسان الدغل الـــذي كان يخفيهما، هرسوا الأعشاب ومزقـــوا الأغصـــان حتـــى وصلوا إليهما، وفور أن شـــاهدوه مســـتلقيا علـــى الأرض هبطوا من على خيولهم بسرعة ومرغوا وجوههم في التراب تحت قدميه وقال قائدهم متوسلا ومعتذرا:

ــ " أيها الخان العظيم لقد بحثنا عنك طـــويلا، أحرقنـــا عشرات القرى، وقتلنا المئات حتى نظفر بمعرفة مصـــيرك ولو شئت لقتلنا أنفسنا في الحال"

وقفت عائشة مدهوشة فلم تتصور أن هذا الجسد الـــذي ظل مسجى أمامها مستسلما للمساتها هو "كيباك خـــان" أحـــد أحفاد جنكيز خان العظيم الذي كان يحكـــم بقبضـــته علـــى أطراف العالم، لم تفق من دهشتها إلا بعد أن أستل الفرســـان سيوفهم وهموا بذبحها، كانت قد رأت جسد الخـــان عاريـــا وتجرأت على غسله بالماء، دنست جسد الفارس الذي يجـــب ألا يمسه الماء حتى الممات كما تقضي بذلك أوامـــر الجـــد الأعظم جنكيز خان، ولكن العشق كان قد مس قلب "كييـــاك خان" فصاح فيهم:

ــ" لا أحد يمس من ستكون زوجة الخان"

كان هذا وعدا غريبا ومفاجئا لم تتوقعه عائشة فأخــذت تعدو نحو خيام قومها.

قال أبوها: " فلنرحل، الخانات لا يتزوجون من الغجر، يمكنهم فقط أن يغتصبوهن أو يحرقــوا خيــامهن، وســوف يفعلون بنا ذلك "

كان أبوها عجوزا محنكا، حتى العذراء السوداء كانت تستمع إلى كلماته، ولكن قلب عائشة عصاها وعصى نصائح أبيها، لم تستطع التغلب على كل هذا الفوران البري بدخلها، بكت أمها، وحلوا جدائل عائشة وأخذوا دثارها ونعليها ورحل الجميع وبقيت هي وحدها داخل خيمة وحيــدة فــي الســهل القاحل، جائعة وبردانة ، تدرك أنه لن يطفئ رغبتهــا غيــر صدره العريض الذي تعودت أن تغفو عليه، ثم أطيح بالخيمة من فوق رأسها، كان هو يقف أمامها ممسكا رمحه وراكبــا جواده وقال لها في صوت بارد:" اتبعيني" فتبعتــه، خــانوم؟ زوجة؟ أمة؟، سبيه؟ لا تعرف كل ما تعرفه هــي أنــه لــم يترجل من على جواده وأنها تســير خلفــه علــى قــدميها العاريتين، وفجأة صرخت في صوت مدو، وعنــدما التفــت

أليها وجدها قد سقطت على الأرض وهي تمسك بكاحلها، هبط إليها، كانت آثار النابين كدائرتين قانيتين لا يسيل منهما دم ولكن تحوطهما زرقة آخذة في الانتشار إلى بقية الساق.

أهتف مفزوعا: ماذا حدث؟

تتلوى "يارا" أمامي وقد ازداد جسدها طولا، هل خلعت ملابسها وأصبحت عارية أم أن هذا الوهج خادع و يزداد صوتها همسا:

ــ لا أحد يعرف هل كان الثعبان كامنا في السهل، أم جاء من داخلها، هل انقسم نصفها الأول على نصفها الآخر؟

حملها الخان على جواده وأخذ يعدو مسرعا ولكن الزرقة سابقته إلى جسدها، عندما وصل بالقرب من قصره كان كل شيء قد انتهى وللمرة الأولى وربما الأخيرة امتلأت عيناه بالدموع وهو يأمر ببناء اكبر قبر لها ليكون شاهدا على حبه وأقسم برأس جده الغازي الأعظم ألا يقرب من امرأة أخرى مادام حيا، ولكن ما أشد ضعف ذاكرة الرجال وقلة إدراكهم لدورة الحياة والموت، بعد عشرة أيام فقط من دفن عائشة ادخل الخان امرأة أخرى إلى فراشه، كان يعتقد أن الموت لن يجعلها تذكره بقسمه. لم تكن عائشة قد ماتت، أو

على الأقل لم يمت منها سوى النصف الحمل، وبقي النصف الثعبان، يتسلل كل ليلة ليلدغ المرأة التي اختارها الخان، كل امرأة كانت تدخل أحضانه،كانت تلدغ في قمـــة نشـــوتهما، أصاب الفزع الخان وقد أيقن أن اللدغة الآتية سوف تكـــون من نصيبه، خسر كل معاركه في السهوب كما خسرها فـــي الفراش وجلس وحيدا في الليل أمام قبرها مرتجفا متوسلا أن تخرج له وان تبادره باللدغ.

تعلو الصنوج في هياج متواصل وتتلوى "يارا" أمـــامي، أمد يدي وأضعها على ثدييها العاريين، اشعر برجفة مضنية تهزني حتى النخاع، كانا باردين، زلقـــين، ولهمـــا ملمـــس الحرافيش، أقول لها مرتجفا:

ــ هل مات زوجك حقا في مشاجرة؟.

تقول بهمس كالفحيح : لقد لدغته.

ــ ٥ ــ

أغسل وجهي في ماء النهر البارد وأنـــا لا أزال أحـــس بالدوار، ضباب الصبح مازال راقدا على سطح الماء، ومـــع ذلك فقد اشتعلت ضجة الحياة في معســـكر الغجـــر، أرقـــب الشابين الغجرين وهما يواصلان وضع الإطارات المشـــدودة

في القارب، إطارات أربعة، كلا إنها خمسة، هل جئنا بأربعة أم بخمسة، " يارا" واقفة هناك تحت شجرة البلوط، لا تنظر نحوي، عيناها غائصتان خلف الضباب، أريد أن أحدث "نور الله" عن هذا الخطأ ولكنه يبدو أيضا جامدا متباعدا، منذ أن غادرنا المعسكر لم يتفوه بكلمة واحدة، أشار إلينا الغجري أن نركب القارب ونذهب إلى الجانب الآخر وسوف يستردونه هم فيما بعد بطرقهم الخاصة، قبل أن أخطو إلى القارب، أنظر إليها للمرة الأخيرة، لا تراني، يبدأ "نور الله" في ضرب المجاديف بشدة كأنه يريد أن يبتعد عن المكان بأسرع ما يمكن، أصيح فيه بعد أن أصبحنا وحدنا :

ـ ماذا بك؟ هل حدث شيء لا أعرفه؟

نواصل الابتعاد عنهم، لا يبقى واقفا سوى المرأة تواصل التحديق فينا بعينين جامدتين، يبدو "قنص باي" واقفا وسط ضباب الشاطئ، كل شيء مرتب بطريقة تبعث على الريبة، أقول في إلحاح :

ـ لم تأخذ مني نقودا، هل أخذوا منك الكثير؟

يرد علي بنفس الصوت الباتر:

ـ ليس الآن، لم تحن بعد لحظة الحساب.

نرسو على الشاطئ، نلقي بالحبل إلى "قــنص بــاي " فيسارع بربطه إلى إحدى الأشجار، نأخذ في نقل الإطــارات إلى عربته،نبدأ في الصعود ببط ء، الفتــاه هنــاك تواصــل مراقبتها، ثم تغيب عنا شيئا فشيئا، يهتف بنا "قــنص بــاي " فجأة :

ــ لماذا هذا الصمت المميت وقد ظفرتمــا بالإطــارات التي تريدانها؟

لا جواب،هل ظفرنا حقا بما كنا نريد؟ تبدأ العربة فــي اختراق الأحراش، نركب قليلا ثم نهــبط لنــدفعها، ظــلال الأحراش تدفع داخلي العديد من الهواجس، ماذا حــدث فــي معسكر الغجر ولماذا يبدو "نور الله" شاردا ومتباعدا إلى هذا الحد، نخرج للشمس الساطعة، أرى الإسفلت والسيارات التي تمرق فوقه أخيرا، كأنني عائد من عالم آخر، لا أدري أيهما كان الحقيقي، ينتظم الحصان في السير ونبدأ في سماع وقــع أقدامه، أدرك فجأة أنني قضيت ليلتين على الطريــق دون أن أصل إلى أي مكان، رغم ذلك فلست تعيسا لدرجــة كبيــرة، نسير حثيثا حتى تبدو السقيفة الخشبية أخيرا، سيارتنا مازالت واقفة أمامها، كسيحة فوق الأحجار، حولها اكثر من ســيارة

وأكثر من سائق يجلسون حول المناضد، المرأة تصفق لنا في حرارة حين ترانا، جـيش منتصـر غنائمـه بضـعة مـن الإطارات، ينهض السائقون جميعا، يتبادلون كلمات سـريعة مع "نور الله" قبل أن يلتفوا حول السيارة يرفعون الأحجـار ويثبتون الإطارات، يضحكون وهم يشاهدون منظر السـيارة غير المنتظم، كل إطار منها كان له مقاس مختلف.

"قنص بـاي" يقـبض منـي بقيـة نقـوده ولكنـه لا ينصرف،يجلس معنا على نفس المائـدة ويتنـاول الحسـاء الساخن ويلوك قطع العظم المليئة بالدهن، "نور الله" مـازال شاردا، لا يكاد يأكل تقريبا، فقد الكثير من وهـج، يلاحـظ "قنص باي" ذلك :

ـ صاحبك تائه، يبدو أن الغجر أكلوا قطعة من لسانه

لا اعرف إن كان يدرك أننا نتحدث عنه أم لا، يمسح "قنص باي" فمه بطرف كمه وهو يقول :

ـ انتبه إليه ربما تركك في منتصف الطريـق وعـاد إليهم، سحر الغجر لا يخيب.

يركب عربته ويأخذ الجواد في الخبب علـى الإسـفلت حتى يغيب عن الأبصار، أقول له بصوت خافت:

ــ فلننهض يا "نور الله"

ننهض ويقبل المرأة العجوز على خـدها فـي شـرود وبطريقة لا ترضيها،نركب السيارة ويتوقف كـل مـن فـي المطعم ليروا إن كانت السيارة تستطيع السير أم لا، ولدهشتنا جميعا تقفز – كعادتها – وتترنح قليلا ثم تأخذ في التحـرك، اسمع أصواتهم جميعا وهم يضحكون ويصفقون في حرارة، نعاود الانطلاق من جديد وتبدأ الشمس فـي التقـافز فـوق الأشجار، لا أعرف كم بقي لنا على الوصول إلى "سمرقند"، ولا إذا كنا سنصل إليها دون حـوادث أخـرى أم لا، يظـل صامتا، مسلطا عينيه إلى الأمام دون أن يبالي بالنظر إلى أو الحديث معي، هل كان يترقب ظهور رجـال الشـرطة؟ لا أطيق أنا الصمت هذه المرة فأصيح فيه:

ــ ماذا بك أنت تبدو مختلفا منذ أن خرجنا مـن هـذا المعسكر اللعين، حتى قنص باى لاحظ ذلك، هل أكل الغجر قطعة من روحك كما قال أم أنهم قايضوك عليها.

لا ينته إلى مرمى كلماتي أو لعله يتجاهلها:

ــ هذا لا شيء " الكازاخ " دائما يبالغون.

أقول في إلحاح: هناك شيء ما حدث داخل كهف الشجرة، ماذا طلب منك الزعيم؟

ــ لماذا تسأل هذا السؤال؟

ــ لماذا لم يطلبوا منا نقودا، إنهم ليسوا في حاجة لأحد كما قلت لي فما الذي يحتاجونه منك، أي صفقة عقدوها معك؟

ــ فات الوقت على مثل هذه الأسئلة وليس لك الحق في توجيهها، على أي حال لقد أوشكنا على الوصول إلى مشارف سمرقند فلماذا لا تستمتع بمناظر الطريق؟

ــ أريد أن أعرف إن كان شيئا مخالفا للقانون أم لا، لقد خالفنا القانون بما يكفي.

يتوقف بالسيارة فجأة، ونحن في منتصف الطريق، دون أن ينحرف يمنة أو يسرة، يصيح في حدة :

ــ لقد سئمت جدلك معي إذا لم تكن تريد المواصلة معي انزل حالا.

تصرخ إحدى السيارات القادمة من الخلف في جنون وهي تحاول أن تتفادانا في اللحظة الأخيرة، يلوح لنا السائق بيده وهو يسب ويلعن، اصرخ أنا أيضا في رعب :

ــ سر أيها المجنون وإلا سوف تحــدث كارثــة علــى الطريق

يواصل السير وهو ينفخ أنفاسه كأنه يمن علي برفقتــه، يسود بيننا صمت متوتر، ربما كان على حق فالرحلة علــى وشك الانتهاء، ولا يوجد مبرر لكل هذه الأسئلة، نعاود السير وسط المعالم المتشابهة، أشجار وحقول وتلال وســهوب ولا أثر لسمرقند.

أغــوص فــي نــوم متقطــع، تهــاجمني كوابيســي الصغيرة،أفيق منها فزعا لأراه مازال مربد الوجه يواصــل القيادة، أقول محاولا أن أفيق وأن اقطع ذلك الصمت الممتد:

ــ كم بقي لنا على سمرقند؟

يقول في إيجاز : سوف تظهر عندما تظهر، بداية نهــر "زرافشان " تعني أننا قد وصلنا.

لا يعطيني إجابة واضحة، ما أكثر الأنهر في هذه البلاد وما ابعد المسافات، أحيانا يخيل إلى أنني لن أرى ســمرقند هذه أبدا، تبدأ ملامح الطريق في التغير قليلا، تظهر وســط الفراغ بوابة حجرية ضخمة، بقايا ســور عظــيم أو مدينــة ضائعة، لم يبق منها إلا قوس سامق منقوش عليــه كلمــات

ناقصة الأحرف، تطل على فراغ صحراء التتار في جلال آفل، تاريخ ممزق يتعالى ويقاوم السقوط، تقبل من الطريق المقابل شاحنة ضخمة محملة "ببالات " القطن،يلوح لنا السائق وهو يشعل أنواره ويطفئها، لا يبدو على ""نور الله"" أنه لاحظها، يقود بنفس الثبات المذهول، أحس أننا مرة أخرى على وشك الوقوع في مصيبة ما، أقول في صوت محايد محاولا أن أتغلب على الجفوة التي بيننا :

ــ هل لاحظت كيف كانت السيارة في المقابل تضئ أنوارها وتطفئها، في مصر تعني هذا إشارات تحذيرية، وأن الشرطة ترقب الطريق.

يفيق فجأة، كأن كلماتي كانت كوقع الطبل على أذنيه، ينحرف بالسيارة فجأة إلى طريق جانبي وهو يتمتم : وهنا نفس الشيء. يهبط بالسيارة مرة أخرى إلى ضفة النهر، نغوص وسط الحشائش العالية، يضرب المقود وهو يتمتم من بين أسنانه :

ــ اللعنة.. كان يجب أن أتوقع ذلك.

أظل صامتا، أحس بالسعادة لأنني نبهته وبالفضول لأعرف سر هذا الانفعال، وجهه شديد الحمرة من شدة

الغضب، ربما كان غضبه الأكبر من نفسه لأنه تراخى ونسي حذره المعتاد، ترك نفسه ليقع فريسة لدورية اعتيادية للشرطة، يرتكز على المقود ويبدأ في مراقبة الطريق، تبرق عيناه وتعاود روح الدب الاستيقاظ في داخله، بعد برهة تظهر سيارة الشرطة تسير متمهلة، تبحث عن فريسة ما، نكتم أنفاسنا، نخشى أن يلتفتوا فيكتشفوا ظهر السيارة من بين الأعشاب، تواصل سيارة الشرطة سيرها حتى تختفي، أزفر أنفاسي وأنا أهتف :

ــ لا تقل أنك أردت هذه المرة أن تريني نهر "زرافشان".

يهبط من السيارة وهو يقول :

ــ الأمر أخطر مما تظن.

يفتح حقيبة السيارة ويحمل الإطار الاحتياطي بين يديه، يسير إلى حافة النهر، يرفع يده ويطوح به لأقصى ما يستطيع، يسقط وسط المياه محدثا عددا من الدوائر المتداخلة، أهتف وأنا ما أزال غير مصدق :

ــ ماهذا، هل هي مخدرات؟

يقول في صوت مكتوم : تلك صفقة الغجر، كان المطلوب مني فقط أن أسلمها لشخص ما في سمرقند.

أقول: من أجل هذا أعطونا الإطارات بالمجان، كيف تفعل بنا ذلك

يصيح هو أيضا :

ــ وماذا كنت أفعل، كان هذا هو شرطهم لإتمام الصفقة، هل كنت تريد أن أترك السيارة كسيحة في الطريق؟

ــ كل هذا من أجل هذه الإطارات اللعينة، هل أنت مجنون، كم أعطوك، كم كانوا سيعطونك، كيف تقودني وأنا الغريب الذي لا يفهم ما يدور حوله إلى السجن.

ــ اسمع، كان يمكن ألا تعرف شيئا عن هذا الإطار، أنا الذي أخرجته وأنا الذي ألقيته للنهر وأنا الذي سيتحمل المسئولية عن كل هذا، طلبت منك اكثر من مرة أن تتركني وما زلت أكرر طلبي، إذا أردت سيارة أخرى فسوف أوقفها لك بنفسي ولا أريد أي أجر منك.

نتوقف عن الصياح، يقف كل منا في مواجهة الآخر ونحن نلتقط أنفاسنا بصعوبة، رغم كل شيء لا أتصور أن أتركه بعد كل ما مر بنا معا، بعد أن أصبحنا على مشارف

المدينة التي سعينا إليها طوال هذه الأيام، يمضي النهر هادئا وتترك الشمس على صفحته بعضا من الاحمرار الداكن كالدم السيال، أهدئ من صوتي لأقصى ما أستطيع وأنا أقول :

ـ لماذا تفعل بنا هذا؟، لقد وثقت بك وسافرت معك من "طشقند" وتشاجرت من أجلك ولم أتركك تمضي وحدك إلـــى معسكر الغجر، كان يجب ألا تقرر شيئا من دوني.

ـ أنا الذي جازفت وتحملت المسئولية، أنـــت غريـــب عابر كما قلت تماما، ولكن السيارة ليست لك إنها لـــي أنـــا، وهي كل ما أملك، والوسيلة الوحيدة للبقاء حيا، وكل التهم ـ إذا كانت هناك تهم ـ سوف توجه إلي

ـ هؤلاء الغجر، هل كانوا يعرفونك من قبل؟

ـ ربما كانوا يعرفونني وربما لا، أنـــا ســـائق علـــى الطريق، ربما وجدوا في فرصتهم لأنهم يخافون من دخـــول سمرقند بشكل سافر، الشرطة تحفظ وجوههم وتعرف إلى أين يتجهون، يجب أن يدخلوا سمرقند وهم نظيفون تمامـــا، هـــل رأيت، لم يكن هناك مجال للرفض، كنا بين أظافرهم ولم يكن هناك من يستطيع إنقاذنا.

ــ ولكن كيف يتأكدون أنك سوف تقــوم بتســليم هــذا الشيء؟

ــ هم أيضا جازفوا، لقد عرفوا أرقام سيارتي وشاهدوا رخصة القيادة، لا أدري كيف أفلت منهم عندما نصــل إلــى "سمرقند"، أحيانا يبدو الوقوع في يد الشرطة أهون.

يبدو الأمر مثل مجازفة محكمة الأطراف ولكنه كعادته يحب أن يكسر كل قواعد اللعبة، نواصل في السير من جديد.

تختفي أخيرا معالم الحقول المتشابهة، وتبدأ الأرض في الارتفاع وتلوح "سمرقند" عند حافة الأفق، راقدة خلف غلالة رقيقة من ضباب وأتربة وبخار ماء وانكسارات مــن أشــعة الشمس، بتوجس وبطء تبرز من خلف الأشــجار بواباتهــا الشامخة المزينة بالفسيفساء الزرقاء، منقوش عليها أشكالا من الطيور الطواويس، ذيولها الملونة مرفوعة إلى أعلى، تحيط بها زخارف من الآيات القرآنية، أنظر إلى "نور الله"، تستعيد عيناه بريقها وتبدو لحيته شديدة الاحمرار، أقول أتنهــد فــي راحة، أقول دون أن أستطيع أن اخفي سروري:

ــ انتهت الرحلة

لدهشتي الشديدة أسمعه وهو يقول : لــن نــذهب إلــى "سمرقند" الآن.

أصيح في فزع : لماذا.. هل توجد شرطة على أبــواب المدينة.

يقول في هدوء غامض :

ـــ ربما توجد وربما لا، ليس هذا ما أعنيه، ولكن علينا الذهاب إلى مكان آخر.

ـــ ليس بعد أن أصبحنا على أبواب "سمرقند"، يكفي ما مر بنا حتى الآن

ـــ سنذهب إلى ضريح الإمام البخاري

حيلة قديمة يحسب بهــا أنــه يســتطيع أن يثيــر اهتمامي، أقول في عناد :

ـــ اذهب وحدك

يقول في هدوء كأنه يحدث طفلا صغيرا :

ـــ أنت لست مقيدا بموعد للذهاب إلى سمرقند، وقريــة "خرجينت " لا تبعد إلا حوالي عشرين كيلو مترا فقــط عــن سمرقند، وسوف تزورها على أي حال، إنها فرصة نادرة أن تبدأ رحلتك بزيارة الإمام.

أشير إلى ثيابي المتسخة وشكلي الأشعث :

ــ وأنا في هذه الحال.

يقول مبتسما وهو يغير من وجهة السيارة ويزيد من سرعتها :

ــ ومن قال إن الإمام الكبير يهتم بالمظاهر

يمرق عبر النهر ويترك المدينة خلف ظهره، تختفي ملامح "سمرقند" سريعا كأنها لم تكن إلا حلما عابرا، لم اعد قادرا على الاعتراض، أشعر إنني فقدت رحلتي وفقدت أي نقطة أتوق للوصول إليها، ارتبطت به رغما عني، أتركه يقودني مرة أخرى إلى عالمه، تحول ثلاثتنا ــ أنا وهو والسيارة ــ إلى كل متوحد و متشابك، له نفس اللون والرائحة ومصير الرحلة.

نخرج من الطريق الرئيسي إلى طريق جانبي أكثر ضيقا، تحيط بنا صفوف من أشجار البلوط الضخمة، أوراقها الفضية الحواف تتألق مع آخر أشعة الشمس التي انحدرت وراءها وتحولت إلى بقع من الضوء المتناثر، يصبح الهواء أكثر برودة وتختلط فيه روائح البرتقال والسفرجل، يستيقظ جدي فجأة في قرية بعيدة من قرى مصر، يصلي التراويح

في كل ليلة من ليالي رمضان ثم يجلس أمام سفر البخـــاري الضخم ويفتح أوراقه الصفراء المتآكلة الحـــواف، يتصــاعد صوته المتهدج، فيه شيء من الأسى ومن حرقة الزمن وأنـــا أجلس في الركن أستمع إليه، يردد كلمات بقـــدر غموضـــها بقدر ما هي شديدة العذوبة، أرقب صفحات الكتاب وكل ليلة تمر يطوى بضعا منها، حتى إذا جاءت الليلة الأخيـــرة مـــن رمضان طويت آخر الصفحات، كان يبكي في هـــذه الليلـــة عندما ينغلق الكتاب وتنقطع رائحة الزعفران، يضـــعه فـــي جراب من القماش وهو يبتهل إلى الله أن يطيل فـــي عمـــره حتى رمضان القادم،ورغم ذلك يظل صوته المتهدج يطن في أذني، نشوة ورهبة، يقول لي : لا يبلغ رمضـــان تمامـــه إلا بختمة البخاري، إنه بركة العام كله، ترى ماذا ســـيقول الآن والسيارة تنطلق بي كالسهم إلى قبر هذا الإمام الذي عشـــق كلماته وأسفاره، أحس فجأة بأنني أقوم بهذه الرحلة من أجـــل جدي، أبتسم لنفسي ويتسلل إلى شعور حقيقي بالسعادة للمرة الأولى منذ بداية الرحلة.

ندخل وسط القرى الآهلة بالبيوت، يلوح لنا الفلاحـــون وهم يركبون الجرارات عائدين إلى بيوتهم، يقرص الجـــوع

أمعائي، ربما بسبب روائح الفواكه التي أصبحت تعبق المكان، متى يمكن أن ألتهم وجبة ساخنة من الأرز البخاري؟ يشير "نور الله" إلى نهر صغير يقطع الطريق أمامنا وهو يقول :

ـ هذا هو النهر الأبيض وضريح الإمام يقع بعده مباشرة.

ينحرف بالسيارة بعد الجسر مباشرة ويتوقف، قبل أن أنطق بحرف واحد يقول:

ـ انتظرني هنا وسوف أعود سريعا

أهتف خائفا من أن يتخلى عني :

ـ الشمس على وشك المغيب والوقت قد تأخر

ـ لن أتأخر طويلا

يتركني وينحدر في خطوات قافزة إلى ضفة النهر كأنه طفل عابث، كعادته يفسد علي بهجة اللحظة، اقف مستندا إلى سور الجسر، لم يكن النهر ابيض ولكنه كان مشربا بحمرة الغروب التي يخالطها الرماد، تحلق فوق صفحة مياهه عشرات من الطيور في دوائر لا تنقطع، كأنها تبحث عن مأوى تستكين إليه بعد رحيل مجهد، وسط هذا الضوء الذي

يشحب، أصبحت أتوقع من "نور الله" أي شيْ، أراه وهو يحتجب لبرهة خلف الحشائش التي تغطي ضفة النهر ثم يخرج عاريا تماما، أشهق في دهشة وأنا أتابعه وهو يسير حتى تغوص قدماه في الطين، يجلس على حافة الماء ثم يبدأ في تناول حفنات من الطمي ووضعها على جسده، أتأمل لحمه الأبيض وهو يختفي رويدا.. رويدا تحت غطاء من الذرات الداكنة، كأنه يؤدي طقس الخلق الأول، يدخل نفسه في شرنقة من الطين، ينتهي من تغطية جسده بالكامل، يظل ساكنا، تاركا الفرصة لمسامه حتى تستكين تحت برودة الطمي، ساهما ومحدقا في آخر أشعة الضوء، أظل واقفا مكتوم الأنفاس، أحس بجسدي قد تهرأ وأن روحي بداخله آخذة في التضاؤل، بينما يمنح هو لنفسه ولادة جديدة، يظل السكون مخيما حتى تهتز حشائش الشاطئ مرة أخرى وتخرج من بينها امرأة، رغم أن المسافة بعيدة والضوء شحيح، أتبين فقط شعرها المنسدل على جسدها الذي لا أعرف إن كان عاريا أم لا، تقف أمامه فلا يتحرك، لا يبدو عليه أنه أحس حتى بوجودها، تميل وتأخذ حفنة من ماء النهر وتنثره على جسده كأنه مطر واهن، لا يتحرك بينما

تواصل هي الانحناء ونثر المزيد من الماء كأنها تود أن تنقل النهر إلى جسده، حتى تكون ولادته تامة وطهارتـــه كاملـــة، تغيب آخر بقايا الضوء ويبدأ بياض جسده في البزوغ، أظـــل مائلا على الجسر أحاول أن أستجلي كل تفاصـــيل المشـــهد، يتواصل طقس التطهر كأنه مشهدا من أسطورة قديمة، إلـــه ضخم من آسيا الوسطى، يستعد لـــدخول مدينتـــه المقدســـة فيتطهر من آثار الشحم ورائحة العـــادم وبـــذاءات الطريـــق والصفقات المشبوهة والخطايا الصغيرة والمخاوف التي تأكل الروح، ينهض ويسير حتى يصبح وســـط الميـــاه، تغيـــب صورته حتى أنني لا أعرف إن كان مازال طافيا أم أنه قـــد غاب في عمق النهر، يظهر مرة أخرى ويخطو بجلال على الأرض الرخوة المظلمة وقد اكتسب جسده الأبيض شيئا من عذوبة الماء ونضارة العشب، تسير المرأة خافضة الـــرأس، كأنها لا تريد أن تجرح بنظراتها هذا العري البهي، اجلـــس داخل السيارة وأنا أحس ببرودة المـــاء وهـــي تســـري فـــي عظامي، أضم ذراعي حول جسدي دون أن أستطيع أن اكف عن الارتعاد.

أشعر به وهو يفتح الباب ويجلس بجـــانبي، لا أتطلـــع نحوه ولكن رائحة النهر المنبعثة منه تملأ أنفي، ينـــدفع فـــي الطريق بنفس قيادته المجنونة، يتكاثف الظلام من حولنا دون أن تفلح أضواء السيارة في دفعـــه، مـــرة أخـــرى تتطـــاول المسافات، أقول محاولا أن أتمالك نفسي :

ــ أليس الوقت متأخرا على زيارة الإمام البخاري؟

يقول وهو يزيد من سرعة السيارة :

ــ كما في النور.. كما فـــي الظـــلام.. الإمـــام فـــي انتظارنا.

ــ ٦ ــ

ــ ها قد جئنا أخيرا، السلام عليك أيها الإمام، يا هادي الضالين في وعثاء الصحراء، الهـــائمين بـــلا مـــأوى ولا نصير، التعساء والجوعى واليتامى، البـــاحثين عـــن ســـكينة للنفس وشفاء للروح، الذين خـــذلتهم الأيـــام وضـــاقت بهـــم الأرض على رحابتها، الساعين إلى أفق بعيد و سماء يبتهلون إليها، فأنت نصير من لا نصير له، وأنت العزاء لمن لاسلوى له، السلام عليك وعلى سيدنا رسول الله وصحبته وكل مـــن رفع كلمته وجهر بدعوته.

تتصاعد نبرات صوته غريبة متهدجة ومليئة بـــالحزن واللهفة والشوق، أتأمل وجهه الذي ينعكس عليه الضوء الذي ينير المكان، عيناه لامعتان وشفتان مرتجفتان، كأنه لم يقـــم بالرحلة كلها إلا من أجل هذه اللحظة، نتوقف وسط جمع من العربات الصغيرة التي تبيع الهـــدايا لـــزوار الإمـــام، ثيابـــا وطواقي مشغولة بخيوط الأطلس، ومصاحف مذهبة ومسابح وأحجبة وآيـــات قرآنيـــة ووزجاجـــات المســـك والعطـــور الرخيصة، نسوة عجائز يصحن بأصوات عاليـــة متداخلـــة : رحمات ياإمام..رحمات، صف من الأشجار القصيرة تـــزين الطريق إلى المدخل، أغصانه وأوراقها مقصوصة على هيئة قباب صغيرة، ندخل ببط ء من تحت البوابات الحجرية التي تتتابع كلها في نسق واحد، مزينة بنقـــوش بآيـــات قرآنيـــة ومضاءة بلمبات ساطعة، نصل إلى البوابة الرئيسية نصـــف المغلقة، يهبط "نور الله" من السيارة، يقف أمام حارس البوابة الخارجية، يضع يده على قلبه ويحني رأســـه، ويقـــول فـــي صوت وادع خافت :

ــ السلام عليكم ياأخي، رحمات.

يرفع حارس البوابة رأسه ويحدق فيه للحظة ثم يشـــهق غير مصدق، ينحني حتى يكاد يلامس الأرض :

ـ سيدنا ومولانا.. سيدنا ومولانا.تباركت الأرض التي حملتك إلينا.

ينكب على يده محاولا أن يقبلها، ولكن "نور الله" الـــذي كان يتوقع هذا النوع من رد الفعل يبعـــد يـــده فـــي حركـــة صغيرة، يرفع الرجل رأسه ويقبل كتفه اليمنى الذي يضع كفه على رأس الرجل في دعة كأنه يهبه بعضا من بركته، يقول الرجل وهو يتراجع دون أن يجرؤ على أن يدير له ظهره:

ـ سوف أخبر الجميع أنك قد شرفتنا أخيرا بالزيارة.

يعدو إلى داخل الضريح، يدرك "نور الله" أننـــي أقـــف خلفه معقود اللسان من قوة المفاجأة ولكنه لا يلتفت إلي، يسير بخطى بطيئة وواثقة إلى داخل المقام، لا أدري ماذا أفعـــل، هل أظل في مكاني أم أسير خلفه، ألحق به قبل أن يختفي من أمام عيني، أجد نفسي وسط حديقة واسعة كثيفـــة الخضـــرة، أشجار عتيقة سامقة تحجب معالم المكان، أنـــاس متفرقـــون يقفون في ظلال الأضواء والأشجار، يحـــدقون فـــي وجهـــه محاولين التعرف عليه، لم يعد يسمع إلا صـــوت الجنـــادب

وحفيف الريح خلال أغصان الشجر، لا يلتفت إلى أحد، يتوجه إلى شجرة عتيقة في المنتصف، عمرها مئات الأعوام ولعل غصونها قد أظلت خطوات الإمام "البخاري" نفسه، يوجد تحتها مجلس متسع من الخشب، يعلو على الأرض بعدة درجات، تتناثر عليه عدد من التكايا والحشايات، يتجه إليها "نور الله" بثبات من يعرف طريقه ويجلس عليها، يبدأ الجميع في الاقتراب منه ببطء، يقفون بجانبي يحدقون فيه مثلي، وهو يحدق فينا بعيون غائمة، لا يرانا بالتأكيد، إنما يرى نفسه وقد أصبح أخيرا وسط المكان الذي سعى إليه كل هذه المسافات.

من داخل المقام يندفع مجموعة من الرجال يلبسون العمائم والعباءات، يقبلون بسرعة ولهفة، يضمون العباءات على أجسادهم ويعدلون العمائم فوق رؤوسهم، يقفون أمامه مباشرة، يلتفت نحوهم فلا أدري إن كان يراهم هم أيضا أم لا، يتقدم أحدهم، شيخ متوسط العمر بلحية صغيرة هشة، يضع يده على قلبه وهو يحني رأسه قائلا بالعربية:

ـــ السلام عليكم ياشيخ "نور الله"، مبارك هذا اليوم الذي حللت فيه بيننا يا سيدنا، غابت الأقمار وأظلمت السماء منـــذ أن غادرتنا.

يهبط من مجلسه يمد يده في ود وقور ويلمـــس كتـــف الرجل :

ـــ شيخ عبد الرزاق، فليرحمنا الله جميعا

يتدافع بقية المشايخ نحوه، يحيطون به في شوق محتبسا في صدورهم، يتمتمون بالأدعية وكلمات الترحيب العربيـــة والأوزبيكية والروسية، يضغطون على يده ويقبلون كتفيه في تأثر، تدب في المكان نوع من الحيوية والنشوة، يأتي صـــف من الغلمان، يلبسون زيا متشابها، جلبابـــا قصـــيرا وطاقيـــة بيضاء فوق الرأس، يحملون المفـــارش والحشـــايا، يعتلـــون المنصة الخشبية ويأخذون في فرشها، يفعلون ذلك في آليـــة وإتقان ثم ينصرفون في سرعة، يشير له الشيخ عبد الـــرزاق أن يجلس في صدر المجلس، تنفتح حلقة المشايخ من حولـــه بعض الشيء فيستطيع أن يراني، يهتف بي:

ـــ تقدم يا صديقي العزيز، تعرف على مشايخ الإمام.

يلتفتون جميعا نحوي يكتشفون وجودي، يتناول الشيخ عبد الرزاق يدي بين يديه وهو يقول:

ـ أنت من مصر، لعلك كذلك، لا أخطئ في التعرف على ملامح المصريين أبدا

أومئ برأسي موافقا، يبتسم وهو يقودني من يدي إلى حيث يقف "نور الله" الذي يفسح لي مكانا بجانبه وهو يقول :

ـ الشيخ عبد الرزاق تعلم في الأزهر الشريف، القاهرة تذكره بأفضل سنوات حياته، إنه مدير مدرسة البخاري وواحد من أنجب المشايخ في وسط آسيا كلها.

يحني الشيخ رأسه في تواضع وهو يقول :

ـ مقامي هو مقام التابع من الأستاذ.

لغته العربية أكثر فصاحة من الآخرين، يحيطون بي وهم يربتون على كتفي وفي عيونهم دموع التأثر، يسير "نور الله" في مقدمتهم وهم خلفه، حتى الشيخ عبد الرزاق لا يجرؤ على محاذاته، يجتاز طرقة طويلة وسط صف من الأشجار، ندخل من باب مكسو بالرخام، مزين بالنقوش والآيات القرآنية، نتوقف جميعا أمام قبر الإمام البخاري، قبة صغيرة في الأعلى، مرفوعة فوق أعمدة رخامية تتألق تحت الضوء

المنبعث من أنحاء المكان، تحته ضــريح مســتطيل مكســو بالمرمر لامع،مزيج من الألوان، في مقدمته ينتصب شــاهد القبر مدون عليها سطور باللغة العربية، موجز سريع عــن حياة الإمام، يرفع "نور الله" يده لأعلــى فيرفعــون جميعــا أيديهم، يبدأ بصوت متهدج عميق ومؤثر في قراءة الفاتحــة لصاحب المكان، ثم يتلو ذلــك بالأدعيــة، أدعيــة الرحمــة والغفران لصاحب المقام، ولكل المسلمين التعساء فــي كــل بقاع الأرض، يتضرع في الدعاء كأنه مسئول عنهم جميعــا، يصمت الجميع وهم يلتقطون أنفاسهم في صعوبة، يتصــاعد صوته فيستجيب له صدى المكان، يكتسب صوته نوعا مــن الجلال الحزين، يخيل لي أن الإمام البخاري يستمع إليه وهو يلحف في طلب المغفرة وتقصير زمن الغربة وعودة كل من في المنافي البعيدة، يعتذر للإمام البخاري عن غيابه الطويل، وكيف أن صنوف الحياة الصعبة هي التي أرغمته على ذلك، وأنه لو كان يملك أمر نفسه لمرغ جبهته في تــراب قبــره وعاش بجانب مقامه كأي عبد فقير، يختم الدعاء وهو يضــع يديه على عينيه، حين يستدير إلينــا أرى وجهــه المحــتقن وعينيه المغرورقتين بالدموع، جميعهم كانوا يبكــون، يتقــدم

نحوي ويضع يده على كتفي أحس بكل بدني وهو يرتجـــف، يقول في رقة :

ــ ستبقى أنت مع الشيخ عبد الرزاق، ســـوف يخبـــرك بكل شيء عن الإمام البخاري وعن مدرسته.

يسير فيسيرون خلفه متأخرين بنفس الخطوة التقليديـــة، تدب أقدامهم على أرض المقام في وقار، بينما يبقى صـــدى الأدعية يعبق الجو من حولنا، نقف أنا والشيخ عبد الـــرزاق صامتين أمام الشاهد الرخامي الصامت، أهمس من أعمـــاقي حائرا:

ــ من هذا الرجل بحق الله؟

ينظر إلى الشيخ متسائلا:

ــ الإمام البخاري

ــ "نور الله"

ــ سيدنا ومولانا، أنت رافقته طوال الطريق، والرفقـــة قادتك إلى ضريح الإمام، فما أطيب الرفقة وما أطيب المآل.

ــ إنه يحيرني

ــ الحياة متاهة ولا أحد يدرك مشـــيئة الله إلا الله فـــي سمائه البعيدة، سوف تبقى معنا الليلة ولعل المبيـــت بجانـــب

البخاري يهدي قلبك وينجيك من هذه الحيرة لقد كان الإمـــام أعظم الحائرين وقضى العمر كله يبحث في الكلمة عن يقين.

أقول في دهشة : ماذا..لن نعود الليلة إلى سمرقند؟

ــ لا أحد يرفض ضيافة الإمام خاصة إذا كانوا أصدقاء الشيخ "نور الله" إمامنا وهادينا، المدرسة هنا مجهــزة بكــل صنوف الراحة للزائرين.

ــ مدرسة، كنت أحسب أن هذا مجرد ضريح؟

ــ ضريح ومقام ومدرسة وتكية، مؤسسة دينية متكاملة، لقد حاصرنا السوفيت وأغلقوا كل المدارس الدينية الموجودة في وسط آسيا، وأغلقوا مدرستنا أيضــا ومنعــوا التلاميــذ والمهتدين من القدوم إلينا، بل أن أحد المسئولين طالب بهــدم المقام لأنه يساهم في زيادة تضليل الناس وخداعهم، وظهــر الإمام لهذا المسئول في المنام وهدده بفقدان بصره إذا تجــرأ على المساس بقبره، وهكذا نجا المقام ونجت المؤسسة كلهــا من الهلاك وعادت تفتح أبوابها للجميع.

لا يريد الكلام عن الشيخ "نور الله"، الحديث عن الإمــام البخاري أكثر أمنا،أدرك أنني لن أظفر منه بشيء، نسير معا خارجين من المقام، أرى "نور الله" جالســا فــوق المنصــة

الخشبية، متصدرا المجلس، أمامه أطباق الفاكهـة والحلـوى وهم يحيطون به من كل جانب، يتحدث إليهم ببطء، اسـفل المنصة يقف أربعة من تلاميذ المدرسـة منتصـبين وهـم يمسكون الأكواب ودلاء الشاي ينتظرون أي إشـارة لمـلء أكواب الشاي التي تفرغ، يشير الشيخ عبد الرزاق إلى مبنى خلف المنصة:

ــ سوف أقودك إلى غرفتك أولا حتى تستحم وتغيـر ملابسك.

أسير خلفه، ندخل المبنى الذي تتصدر واجهته أعمـدة خشبية مرتفعة، السقف الخشبي مغطى كله بـالنقوش، أحـد التلاميذ واقف في انتظارنا، ينحني أمامنا في تواضع وهـو يفتح باب الغرفة، يتراجع الشيخ عبد الـرزاق عائـدا إلـى المنصة، يظل الطالب واقفا عند الباب منتظرا تلبية ما أطلبه منه، حقيبتي موضوعة في ركن من الغرفة، الطالب يحمـل المنشفة والصابون ويشير لي نحو باب الحمام، آخذهما منه، اطلب منه أن ينصرف، يحدق في غير فاهم لمـاذا أرفـض خدماته ولكنه يضطر للانصراف، أجلس على حافة الفـراش محاولا أن استوعب ما حدث، منذ بداية الرحلة وأنـا أدرك

بشكل غامض أن هناك سرا ما ولكن رغم كل ما حدث وكل ما رأيته لم أعرف من هو هذا ال"نور الله"؟

أقف عاريا تحت الماء الحار، أتركه ينساب على جسدي، يزيل كل روائح الطريق الوعر، لعلي أستطيع التفكير، أعيد تركيب كل ما مر بي من أحداث، ربما كان هناك شيء منطقي لم أره، أشعر بالخفة وأنا أجفف جسدي وأغير ثيابي، آذان صلاة العشاء ينطلق عاليا، المرة الأولى التي أسمع فيها الأذان بهذا الوضوح منذ وصولي، يظهر واحد من الطلاب فجأة على باب الغرفة، يشير لي حتى اتبعه، نسير وسط الحديقة في الطريق المؤدي إلى المسجد، عشرات من الطلاب والمشايخ يتجهون إلى المسجد في نفس اللحظة، أتوقف مبهوتا وأنا أشاهد "نور الله"، لا أتعرف عليه في البداية وهو واقف بالقرب من باب المسجد يتحدث مع المشايخ يرتدي عمامة ضخمة وعباءة سوداء فاخرة، تحيط به هالة من الهيبة والوقار لم أتصور وجودها وهو في ثياب سائق السيارة، يتحدث ويهزون رؤوسهم موافقين، يتوقف عن الكلام وهو يراني اقترب منه، يتأمل هيئتي النظيفة مبتسما وهو يقول :

ــ هل ارتحت قليلا، هل كان الماء حارا؟

أهز رأسي موافقا أنا الآخر، يواصل القول :

ــ أعرف أنك شديد الجوع، بعد الصلاة سنتناول العشاء وتستطيع أن تنام نوما عميقا.

ــ وبعد ذلك؟

ــ سنذهب إلى "سمرقند" طبعا، أليس هذا ما اتفقنا عليه؟

كنت قد اتفقت على ذلك مع "نور الله" القديم، سائق السيارة الأجرة في موقف "طشقند" المزدحم، رجل آخر كنت أستطيع أن أوقفه واغضب منه وأصرخ فيه، ولكنني الآن أواجه رجلا آخر، لم تتغير ثيابه فقط ولكن تغير شرط وجوده بأكمله، كيف يمكن أن تعود العلاقة بيننا إلى سالف عهدها.

ندخل جميعا إلى المسجد، يتقدمنا إلى "القبلة" وننتظم جميعا في صفوف خلفه، يرفع صوته الجهوري مقيما للصلاة، يتلو آيات القرآن بصوت قوي ومليء بالشجن، ينطق الآيات دون لكنة، لم تكن آيات ترهيب ولكن صوته كان ممتلئا بالرهبة، ينحني فننحني ويركع فنركع، أي خطأ هذا الذي جعله يسقط من حالق؟ وأي جلال وحزن وانكسار

صاحب هذا السقوط؟ وهل كان من خلال هــذه الصــلوات والابتهالات يقدم ندمه أم اعتذاره؟

أكتشف أنهم قد أنهوا التحيات وأداروا رؤوسهم مسلمين وأنا ما أزال جالسا مذهولا، أدير وجهي مسلما بســرعة ثــم أتكوم في ركن من المسجد ولكني لا أستطيع أن ارفع عينــي من عليه، ينهض فينهضوا ويسير فيسيروا، يتوقــف أمــامي حتى ألحق بهم، نجتاز الحديقة جميعا، تختلط الأدعيــة مــع روائح الياسمين والقرنفل، نتوقف أمام المبنى الملحق بغرف النوم، يسبق الشيخ عبد الرزاق الجميع ليفتح لنا الباب بنفسه، ندخل إلى قاعة واسعة جدرانها مغطاة بالمرايا، يقلــل مــن سطحها البراق أشكال من الخشب المحفور فوقــه النقــوش، السقف أيضا مغطى بخشب الورد تحيط بــه مــن أركانــه الأربعة آيات قرآنية مكتوبة بالخط الفارسي، في وسط القاعة توجد منضدة طويلة حولها عشرات المقاعد، علــى جانــب صغير منها وضعت أواني الطعام، ويقف اثنين من طلبة من المدرسة يراقباننا بانتباه، يضع الشيخ عبد الرزاق يده علــى موضع القلب وهو يتراجع قائلا :

ــ يا سيدنا ومولانا سوف نتركك مع صديقك المصري لتتناولا الطعام على راحتيكما.

يقول "نور الله": نحن ضيوفك يا عبد الرزاق، شاركنا الطعام.

يعتذر الشيخ قائلا:

ــ عفوا يا مولاي، الجميع في انتظاري وقد فاجأتني وشرفتني بحضورك إنما أنتما ضيوف الله وإمامه البخاري وأنا عبد فقير، سوف نلتقي في صلاة الفجر.

ينحني قبل أن يخرج ويغلق الباب خلفه، نجلس متقابلين، كل واحد منا على طرف من المنضدة، طبق ملئ بشرائح الخبز البخاري الصعب القضم وطبق آخر عليه هرم من الكرز الأحمر الضخم، ابدأ في تناول الطعام في سرعة، يقول "نور الله" ضاحكا :

ــ لا تملأ معدتك خبزا، اللحم قادم،حيث يوجد أوزبيكي يوجد لحم، هل قلت لك هذا المثل من قبل.

أنظر إليه بتمعن وأنا أقول:

ــ من أنت يا شيخ "نور الله"؟

يغمغم وهو يلتقط حبة من الكرز:

ــ ومن أكون غير عبد من عباده الساعين في مناكب الأرض.

أقول في إصرار:

ــ أعني من أنت حقا، أيهما الحقيقي، السائق على الطريق أم الأمام المبجل في مقام البخاري؟

يقول ضاحكا وهو يلفظ بذرة الكرز:

ــ هكذا الحال في أوزبكستان دائما، لا شيء زائف ولا شئ مؤكدا.

يدخل أحد الطلاب وهو يحمل طبقا ضخما مليئا بقطع اللحم التي تتصاعد منها الأدخنة، يقول وهو يشير إليه:

ــ على الأقل قطع اللحم هذه حقيقة مؤكدة.

ننهمك في الأكل، أراقبه وهو يلتهم اللحم، يستعيد بعضا من بريته القديمة، يبدأ الدب الذي كان نائما في داخله يستيقظ، يتوقف عن الالتهام حين يضبط عيني وهما تتبعانه، يقول :

ــ كنت أحسب أن الطعام سوف يشغلك عن النبش من حولي، بالطبع أنا لي ماض، قصة ما تبدو غامضة، ولكنها تخصني وحدي، لا أحسب أنها تهمك، بعد يومين أو ثلاثة

سوف تعود إلى القاهرة وتنسى "نور الله" وكل شـــئ حولـــه فلماذا تفسد علينا طعامنا؟

ولكن حيرتي اكبر من أن أحاول كبتها، هذا الفضـــول الذي زرعه في كان طاغيا، لا آبه بتحذيره المستتر، أقول:

ـــ على الأقل قل لي متى ذهبت للقاهرة؟

ـــ كثيرا ما ذهبت، لا أعرف عدد المرات التي ذهبـــت فيها إليها

ـــ على الأقل تذكر المرة الأولى

ـــ فعلا، المرة الأولى لا تنسى دائما، كنـــت مـــا أزال رجل دين صغيرا في السن والمقام، كنا ضمن وفد رســـمي هدفه المعلن أن نتشارك في جلسات المؤتمر الإسلامي، أمـــا الهدف الخفي فقد كان بيني وبين مجموعة صغيرة من رجال الدين، كنا نريد أن نقابل الرئيس جمال عبد الناصر للتوســـط عنده.

ـــ لماذا؟

ـــ حتى لا يقتل سيد قطب، أنت تعرف بـــالطبع ذلـــك الداعية الإسلامي، حاولنا ذلك ولكن سبق السيف العزل كمـــا يقولون، كان الرئيس قد اعدمه قبل أن يعقد المؤتمر حتى لا

يترك الفرصة لأحد للضغط عليه، لقد جعلني أكره القــاهرة في هذا اليوم وحسبت أنني لن أعود إليها مرة أخرى، لكنـــي عدت أكثر من مرة وخفف من كراهيتي لها وجود الكثير من الأصدقاء.

ــ لم يكن عبد الناصر دائما بهذا السوء

ــ سمعت عنه الكثير من القصص، ولكن الأمور هي نفسها، بنفس الدرجة من السوء في كل مكان، المشكلة أننـــي لم أع هذا الدرس جيدا، ولا غيره من دروس الحياة.

يمتلئ صوته بالمرارة، لا أدري إن كنا قد فرغنا مـــن الطعام، أم أننا فقدنا الرغبة والطعم والمذاق معا، نخرج مـــن قاعة الطعام، نهبط الدرج إلى ممر الحديقة المغطاة بالحصى، نقف أمام ضريح الإمام البخاري وحيدين تماما، المكان ساكن إلا من صوت الريح والجنادب، والقمر المكتمل البهاء يبسط ضوءه فيفقد التفاصيل واقعيتها، يقول "نور الله" في صـــوت هامس لا يخدش السكون :

ــ أتدري، في التاسعة من عمره فقد أمامنـــا البخـــاري بصره فجأة، دخل إلى عالم الظلمات وبكت أمه طويلا وهي لا تدري أن النعمة مخفية في طيات النقمة، سارت به وهـــو

وسط الظلام الدامس، عبرت الأنهر وغاصت في رمل الصحراء، ركبت الجمال والبغال، وتحملا معا أياما متواصلة من الجوع والعطش حتى وصلا إلى مكة أخيرا، وقفت الأم بولدها تحت أستار الكعبة، وظلت تبتهل لتسعين يوما كاملة، أي إله لم يكن ليستجب لمثل هذه الدعوات؟ في ذات صباح استيقظ البخاري فرأى كل شيء، زرقة السماء، وغبرة الصحراء، وتجهم الجبال التي تحيط بمكة، ورأى البيت العتيق بما فوقه من أكسية، استعاد الإمام بصره، ولكنه رأى العالم بطريقة مختلفة، أدرك أنه ترك في ظلمته الأولى عالما مليئا بالنجاسات والأكاذيب والأحقاد الصغيرة، لذا فقد بحث عن جوهر الكلم الشريف، الأمر هكذا يا صديقي المصري، أنا وأنت وكل الزائلين في حاجة إلى بصيرة جديدة، بصيرة تجعلك تتنكب عن كل السبل القديمة لتبحث عن سبل أخرى لم تطرق بعد، كان البخاري أوزبيكيا حقيقيا، لم يكن خيالا زائفا مثلنا.

نسير مرة أخرى في هدأة الليل، يشير إلى الشجرة الباسطة غصونها فوق المنصة الخشبية، وهو يقول:

ـ انظر إلى شجرة التوت هذه، كلنا يعتقد أن الإمام البخاري أكل بعضا من ثمارها وهو يكتب آخر متونه، لذا فإنهم يأتون إليها من كل مكان ليربطوا حول غصونها هذه الشرائط الممزقة من الثياب، أمنية، نذر، تعويذة، لعلها تدفع الشر عنهم، ما أكثر المخاوف في النفس البشرية، لا أحد يريد أن يعيد البصر كرتين، وأن يرى العالم كما رآه الإمام.

نجلس متقابلين على المنصة الخشبية، كل واحد منا قد ثني رجليه تحته، مشهد تقليدي لتلميذ صغير يجلس في مواجهة مولاه، أقول له في إلحاح :

ـ فهل وهبك الله بصيرة جديدة؟

ينظر إلى مليا قبل أن يقول :

ـ عندما كنت في إحدى زيارتي إلى مصر ذهبت لزيارة إحدى المدارس الدينية في بلدة بجانب القاهرة لم أعد اذكر اسمها، كنا وفدا رسميا، وعلى أطراف أحد الحقول قابلت واحدا من الفلاحين، نظر إلى وجهي وعمامتي الملونة في ريبة واضحة، وعندما سألته عن اسمه ظل يلف ويدور ويدخل في عشرات التفاصيل دون أن يعطيني أسمه أو أي معلومات عنه.

ـ إنه ميراث طويل للفلاح المصري من عــدم الثقــة بالآخرين خاصة إذا كان هذا الأخير أجنبيا.

ـ ألا ترى، لقد قلتها بنفسك

ـ لقد قبلت المخاطرة معك، واختبأت في سيارتك تحت جسور الأنهار، وعرضت نفسي لمساءلة الشــرطة، وحتــى وجهة سفري غيرتها لأصحبك إلى هنا، من حقي بعد هذا كله أن أعرف القليل عنك.

يصمت وهو يتأمل النجوم البعيدة، تبدأ ثمار التوت فــي التساقط، طازجة ولزجة، تصيح إحدى القبرات في صــوت ناعس، كأنها تعاني من يقظة مبكرة، يقول :

ـ علي أن أخلع العمامة والعباءة فليس لي الحــق فــي لبسهما في هذه اللحظة.

يطوي العباءة، ويضع العمامة فوقها بعناية، ثم يعود إلى الجلوس في مواجهتي تماما يهتز في حركة بندوليــه وهــو يرتل :

ـ قال فما خطبك ياسامري، قال بصرت بما لم يبصروا به، صدق الله العظيم، ربي ايسر وأعن

ببطء شديد تنساب الكلمات من فمه، متعثرة، متـــرددة، تبحث عن طريق للبداية، لإعادة التكوين دون فساد، يواصل التوت التساقط، ويستدير القمر خلف الغصون، ويبقى صوته هامسا، مناجاة لا يتحدث فيها "نور الله" إلى بقدر ما يتحـــدث إلى نفسه، ينفصل عن جلستنا ولحظتنا ورفقتنا، يـــدخل فـــي لحظات من ظلمة العمى ومحاولة استعادة البصـــيرة، تعيـــد الكلمات تشكيل كل هذه اللحظات المتناقضة، سبات ويقظـــة، موت وبعث.

حكايات بخارى

ـ ٧ ـ

ـ "سبحان الله عدد خلقه، وشرف نفسه، وزنة عرشه، ومداد كلماته، هو الباقي عندما تحين ساعة الـزوال، وهـو القائم عندما ينفخ في الصور وهو النور السـرمدي بعـد أن يدخل الكون في ظلمة المحاق، أما بعد، فلم يبدأ كل شئ من وادي "فرغانة" الذي تسكنه أرواح بعدد نفوس البشر، ولا من سهوب "القفقاس" الباردة التي تنتظر عودة "شاه زنـدا" لعلـه يصلح ما أفسدته الدهر،، ولا من بحر"آرال"، حيـث يأكـل الملح أطراف الشواطئ وينخر عظام الـذكريات، ولكنهـا بدأت من تلك اللحظة في شـتاء "نجمـان"، البـارد عنـدما تقاطعت أحداث القدر كنصلي مقص وتقابلت فيها مع صـنو روحي اللدود وتوأم نفسي الشقية "لطف الله".

في ذلك الصباح الرمادي الذي مازال يذكره وكأنه تلك اللحظة، كان لون السحب كدخان القاطرة، والأرض هشـة بسبب الثلوج التي ظلت تهطل على الوادي طـوال الليـل، انطلقت صافرة القطار للمرة الثالثة و"نور الله" لازال يعـدو فوق الرصيف محملا بحقيبته الثقيلة،إذا لم يلحق بهذا القطار

فسوف يكون عليه الانتظار على هذا الرصيف لمدة ثلاثة أيام كاملة قبل أن يأتي قطار آخر، يلتقط أنفاسه بصعوبة وهو يرى مفاصل العجلات تزوم ويأخذ هديرها في التصاعد، الآلة السوداء التي سوف تقوده إلى رحلة نضجه وخلاصه، إلى " بخارى " تدور العجلات وينبعث منها شرر خفيف فيشعر بأنه لم يعد قادرا على الإسراع أكثر من هذا، بدا أن مستقبله كله مهدد بالضياع وأنه لو فقد هذا القطار فلن يقدر له أن يلحق بأي قطار آخر، ولكن قبل أن يأخذ القطار سرعته حدثت المعجزة، فتح زجاج إحدى النوافذ وتدلى منه نصف جسم فتى في عمر "نور الله" تقريبا، صاح به وهو يمد يده :

ـ حرر نفسك من هذه الحقيبة والقها إلي.

ودون أن يفكر "نور الله" ناوله الحقيبة من خلال النافذة، وفور أن فعل ذلك أحس بأنه قد تورط، وأن عليه أن يفعل المستحيل ليلحق بالقطار الذي بدأ ينفث دخانه مثل حيوان هائج، زاد من عدوه وقدماه تصطكان على قطع الجليد المتناثرة فوق الأرض، رفع رأسه فوجد الغلام الآخر يمسك الحقيبة ويطل عليه من النافذة في إشفاق، مد يده محاولا أن

يمسك أي قضيب معدني يمكن أن يقوده إلى الأبواب ولكنها كانت تتوالى مبتعدة عن يده المخدرة بفعل البرد، أخذت تفلت من يده واحدة بعد الأخر، هتف به الفتى الآخر :

ـ ركز على قضيب واحد ودعه يقترب منك ثم امسك به.

طار صوته مع الريح، وانزلق القطار وتعلقت عينا "نور الله" بآخر الأبواب والقضيب الملتصق به يقترب بسرعة ظل مركزا أنظاره عليه حتى أحس به بالقرب من أنفه، مد يده بسرعة وقبض عليه، طار جسده في الفضاء، ثم هبط ليرتطم بحصى الرصيف، ثم طار مرة أخرى في فراغ بارد، ولكنه لم يفلت يده، ظل يحرك قدميه في الهواء حتى ارتطمت بشيء معدني فوقف عليه وأصبح جسده معتدلا في مواجهة الباب المغلق، دق عليه بقبضته وهو يوشك على البكاء، كان مغطى بالجليد ولم يدر إن كان هناك من يراه أم لا؟، وتخيل أنه سوف يبقى معلقا هكذا على مدى الساعات الطويلة التي يرحل فيها القطار إلى بخارى، ولكن الباب أخذ يرتج ويصدر صوتا كان هناك من يحاول أن يفتحه من الداخل، ثم فتح أخيرا وبدا الفتى الشاحب الوجه خلفه، مد يده

وساعد "نور الله" على الصعود وهو يهتف به: " كنت أعرف أنك سوف تفعلها" اغلق الباب حتى يبقيه بعيـدا عـن الـثلج والبرد والموت، نفض الثلج من على كتفيه ثم قـاده بهـوادة عبر العربات التي كانت ترتج بفعل السرعة، أجلسـه علـى مقعد خال بجوار حقيبته وفحص الجـروح السـطحية التـي كانت تنزف في ركبتيه وقال مطمئنا: " ستكون بخير، ما إن يصل القطار إلى بخارى حتى تكون قد شفيت " وابتسم وهو يعطيه حفنة من الخوخ الجاف، ظل "نور الله" يلفـظ النـوى وهو يحدق فيه، كان في مثل عمره تقريبا ولكنه أكثر طـولا ونحافة، كأنه فرع يابس لشجرة جوز، لا ينسـى "نـور الله" إحساسه أنه أمام فتى صلب، عندما يريد شيئا سوف يحققـه حتى ولو كان الآخرون هم الذين يقومون بفعله، يقـول لـه: "هل أحسست بالدفء قليلا، أنت طالب علم ومتوجـه إلـى بخارى، لعلك ذاهب إلى "مريمـيرعرب"؟ خيل إلـى "نـور الله" أنه قد ابتلع بذرة الخوخ، كان الفتى يسلط عينيـه عليـه كأن ذات نفسه منشورة أمام عينيه، سأله: " وما أدراك؟ يرد الآخر في بساطة : حقيبتك مليئة بالكتب وهذا هو أوان " مير عرب " وضحك ضحكة ما لبث أن بترها وهو يضيف : " لا

تعتقد إنني ذكي لهذه الدرجة الأمر ببساطة إنني مثلك ذاهب لنفس المدينة ونفس المدرسة واسمي "لطف الله" وجلس على المقعد المقابل وأشار له أن يجلس وظل يواصل أكل الخوخ الجاف:

ـ " أنظر كيف كانت بساطة المصادفة ومدى تافهة الكلمات التي تبادلناها، ولكنها كانت لحظة لم أنسها أبدا، ولم استطع الهرب من هذين العينين اللامعتين اللتان لم تكفا عن سبر أغوار روحي فيما بقي من أيامي ".

أوغل القطار في الظلمة، اختفت كل المعالم وانكمش "نور الله" من شدة البرد، واخرج "لطف الله " من حقيبته معطفا قديما من الفرو لعله يخص والده وتغطيا به معا، لم يتخيل أن يقترب من جسد آخر لهذه الدرجة، لم يكن له أشقاء، وقد تعودت خلاياه أن تمتص كل ذرات البرد بمفردها، بدأت أنوار العربة في الخفوت، وكان بقية الركاب قد سبقوهما إلى النعاس، وعلت أصوات الغطيط، عبقت العربة بأنفاس النعاس والكحول، شعر "نور الله" بالدفْ والشبع فأخذ يتكلم، أخذتهما معا أرواح "فرغانة" القلقة عبر سهوب الكروم ومضيق "جنخد" الصخري الذي يشبه جرحا

بالغ الاتساع في أديم الصخر، من خلاله تتدفق ميــاه نهــر "سارداريا" في صخب مثير للرهبة، تسبح أمواجــه محملــة بكتل الجليد، ثم تصطدم متفتتة بالصخور، وتظل تبحث عن منفذ وسط جدران الممر البالغة الصلادة، وأحيانا تنشق كتل الجليد عن جثث طويت في جوفها عبر حدود بــلاد بعيــده، وتنبعث من الصخر أشجار وأعشاب برية لها لــون العظــام العارية، تستيقظ الذكريات المطمورة والحكايات المنســية، ي بدأ التاريخ ــ مثل كل التواريخ ــ بامرأة، ولكنها هذه المرة ترفع سيفا وتدعو الرجل الذي يريدها للنزال، إن هي غلبته صار تابعا لها لا يتزوج غيرها ولا ينظر إلى امرأة أخرى، وإن تغلب عليها صارت تابعة له وجاريــة بــين يديــه، أي صراع قاس كان يدور من أجل أن تتواصل الحياة ولا يفنــى الكون، تحدثا عن وحوش النار التي كلما تنفست أثناء نومها احترقت الغابات وعلت ذرات السناج حتى النجــوم، ولكــن "لطف الله" قطع كل هذا ليتحدث عن جده القرشي الأصــل، أجل كان نسب عائلته يمتد إلى أحد البطون التي جاءت مــع المسلمين الأول واستقرت في المنطقة، كانوا جميعا من قبيلة " قريش" وليس من غيرها، ورغم طــول الوقــت ومــرور

الحقب فقد ظلت هذه الجماعة تحافظ علـــى نقـــاء دمهـــا، لا تتزوج من خارجها، ولا تعطي بناتها لغرباء، حلقة مغلقة من دم مقدس لا ينتمي إلا للصحراوات النائية، كان الجد كائنـــا أسطوريا يمتلك جوادا من فصيلة الخيول "الأرغاماكية" ذات الأصل السماوي التي يتقصد عرقها ممزوجا بالدم وتســـتطيع أن تقطع طول وادي فرغانة الشاسع في نفـــس واحـــد دون وهن أو كلل، تبرق عينا "لطف الله " وهو يتوقف قليلا قبـــل أن يستجمع أنفاسه ليحكي عن لحظة انتصار جده الحقيقيـــة، عندما قام بالرحيل إلى موسكو ليعود بالمصحف العثماني إلى أهله من الأوزبيك، كان هذا المصحف موجودا في ســـمرقند عاصمة البلاد ولكن الروس حين جاءوا ســـلبوها شـــيئين، المصحف العثماني الذي نقلوه إلى متحـــف "بطرســـبورج"، وسلبوا لقبها كعاصمة للبلاد، تلك الســـلطة المهيمنـــة التـــي اكتسبتها المدينة عبر ميراث طويل، لـــم يرضـــوا أن تبقـــى العاصمة تحت هيمنة رجال الدين الذين ناوؤوهم من اللحظة الأولى فقرروا نقلها إلى طشقند المجهولـــة، كـــان الجنـــرال الروسي هو الذي حمل المصحف من فوق قاعدته المحفورة من صخور النيزك ونقله إلـــى المتحـــف، حـــول الـــروس

المصحف من تميمة وشاهد على البركة إلى مجـــرد قطعـــة أثرية جامدة، ولكن المسلمين لم يهدءوا، وحتى بعد أن قـــام الشيوعيون بالثورة وقالوا إن العالم قد تغير وأن كـــل هـــذه الكتب القديمة قد فقدت قيمتها ظلوا يطـــالبون بأقـــدم كتـــبهم وأكثرها قدسية، ورحل وفد منهم كان على رأســـهم الشـــيخ "الرحماني" جد "لطف الله" وهددوا الســـلطات حتـــى فتحـــت أبواب المتحف أمامهم، عادوا بالمصحف العثماني في موكب حاشد، وكان القطار المحمل بالجليد يقف في كل محطة حتى يخرج له الأهالي ليقومون بتحية المصحف العائـــد ويقبلـــون غلافه وهم يبكون، لقد وصف الجد هذا المصـــحف "للطـــف الله"، فهو بالغ الضخامة، صفحاته من جلد الغـــزال الرقيـــق ومكتوب بأحرف عربية ممتدة الخطوط وبلا نقاط، ولا زالت على صفحات المصحف بعض من آثار دماء الخليفة عثمـــان بن عفان الذي قتل وهو يقرأ فيه.

هل ناما، أم أنهما ظلا يواصلان الحـــديث حتـــى بـــدأ الضوء في البزوغ من فوق جبال تركستان، كأنه يولد مـــن ألق الثلوج الراقدة على قممها، كان القطار مازال يواصـــل الزحف وسط سهول الوادي الشاســـع دون أن يصـــل إلـــى

نهايته، صعد بائع لا يدري أحد من أي محطة جـاء، وقـف وسط طرقة القطار وهو يبيع قوالب من الخبز اليابس وأوعية صغيرة من الأرز البخاري وقناني "الفودكا" الصغيرة، ابتسما معا وهما يلتهمان الأرز الأصفر البـارد، الركـاب الـذين يجاورونهما لم يتناولوا طعاما ولكنهم اكتفوا بشرب " الفودكا " لأنها الوسيلة المضمونة للدفء المتواصل طـوال رحلـة القطار، بعد قليل فاحت رائحة الكحول النفـاذة ولـم تكـن الشمس قد أشرقت بعد، توقف القطار في محطة جانبية، لـم يهبط أو يصعد أحد من الركاب، ولكن الذين صعدوا كـانوا بضعة من رجال الأمن بعيونهم الباهتة وثيابهم الداكنة، أخذوا يتفحصون كل الركاب في ريبة، ويفرزون اللفائف الموجودة على الأرفف بواسطة العصي التي يحملونها، ويطلبون فـتح الحقائب الضخمة، وقف القطار طويلا وهم يقومون بعملهـم في برود مثير للغيظ، وجاء ضابط روسي ووقف أمامهمـا، طلب منهما أن يقفا وهو يقول : هل أنتما لوحدكما؟ كان "نور الله" يرتعد، ولكن "لطف الله" وقف أمامه بعوده النحيل وهـو يقول:

ـــ نحن معا، أليس هذا كافيا.

ونظر إليه الضابط وقد أرتج عليه، نظـــر إلـــى بقيـــة الوجوه الخانعة في العربة، بدا كأن هذا الصبي سوف يحدث شرخا في الهيمنة التي يفرضها رجال الأمن، قال الضابط في سخرية :

ــ بطل صغير آخر، هؤلاء القوم لا يكفون عن إنجاب الأوغاد، إلى أين أنتما ذاهبان؟

قال "لطف الله" : إلى بخارى لنتلقى العلم في "مير عرب ".

قال الضابط من بين أسنانه :

ــ مدرسة لعينة، لا أدري لماذا لم يقوموا بإغلاقها حتى الآن.

قال "لطف الله" على الفور: مادمنا ذاهبين إليها فلن تغلق أبدا.

وظل منتصبا بقامته النحيلة، غير مبال بنبرات التهديـــد الموجودة في كلمات الضابط، ولكن وجوده كســلطة للأمـــن كان قد انتهى من فوق القطار، بدا واضحا أن هـــذا التلكـــؤ الذي مارسوه طويلا يجب أن ينتهي، ابتعد الضـــابط وهـــو يخفي غيظه، ثم أشار للجنود أن يتبعوه وعاود القطار السير

مرة أخرى، وتنفس الركاب وهم يرمقون "لطف الله" في إعجاب واضح، ولكنه جلس دون أن ينظر لأحد حتى إلى "نور الله":

ـ " كان هذا أول انتصار صغير يحققه أمامي، ولم أكن أتصور أن يكون هذا الجسد النحيل قادرا على تحقيق أي انتصارات، ولكنه كان قد فعلها، وبدا أمامي في تلك اللحظة أنه الوحيد القادر على مساعدتي على مواجهة ذلك الشيء المجهول "بخارى".

بعد مسيرة طويلة قطعها القطار وليل أرق وصباح منهك بدت قباب " بخارى"، وبدت شوارع المدينة حارة وصاخبة، تفوح منها روائح البهار والقرنفل والياسمين، وتحدق فيك نسوتها بعيونهن الواسعة الشديدة السواد، لم يكن في حواريها أي لون باهت، ولا في تاريخها صفحة مطوية، الألوان واضحة والروائح قوية والشمس لا تتكسر حدتها طوال اليوم، قبضة من الطين وحفنة من الماء وجاءت بخارى، مدينة تصر على البقاء وتقاوم العدم، تمتد أسوارها عبر مدارات الشمس إلى حافة نهر "زرافشان"، قباب قلقة تربض فوق التكايا العتيقة، ودراويش في حالة دائمة من

الوجد الخالص وقلعة من الحجر تنام فوق تلالها الكلسية، وحمائم لا تستطيع الهديل مادام الأمير مستيقظا، وهو لا ينام إلا بعد أن يضع تحت وسادته مفاتيح بوابات المدينة الثلاثة عشر، كل صباح يقف العجائز على الأسوار يراقبون قوافل الحرير وهي تسعى إلى مدينتهم قادمة من صحراء العطش، في الصباح مساومات لا تنتهي، وفي المساء ليل زاهي النجوم ينيره الوميض المنبعث من أجساد الصبايا البضة اللواتي يسعين إلى ذهب التجار، لا تجرؤ عيون الحراس فوق أسوارها على أن تغفل لحظة واحدة، فعلى المدى تمتد صحراء خادعة، تتحول الكثبان فيها إذا جن الظلام إلى جحافل من الغزاة، غفلت العيون ذات لحظة فاستيقظت على جيوش "جنكيز خان"، وقد أطاح بها إعصار له رائحة الدم والعرق، هالت جنوده المعالم التي تراكمت في المدينة، القصور والخانات والمساجد والمغاني، فأمرهم قائدهم "هولاكو" بإحراق كل شيء، وقتل كل حي، امتلأت الساحة الواسعة أمام "مير عرب" بأكوام من الجثث، وحاولوا إحراق المسجد من الداخل ولكن الطلبة والعلماء والدراويش سدوا المداخل بأجسادهم، تلاصقت جثث القتلى مع الواقفين أحياء،

نفرت الخيول فلم تستطع الدخول، وعندما تركــت الجيــوش المدينة المحترقة ظلت الجوارح تحوم في ســماواتها خمســة عشر شهرا كاملة، وامتدت رائحة الجثــث المتحللــة حتــى أطراف صحراء العطش، ثم بدأت أعــواد الخضــرة تشــق ذرات الأرض الدامية، وأخذ الناس يزيلــون بقايــا العظــام وعروق الخشب المحترقة، استردت بخارى أنفاس الحياة من خلال أنفاس الموت، وتواصل طريق الحرير مــرة أخــرى وبدأت القوافل تسعى بين المدن المحترقة، عالم جديد ينهض من تحت الرماد، علت القباب وارتفعت المــآذن، وفرشــت الخانات بالأبسطة الملونة، ووقف المهرجون يدقون أجراسهم المرحة في سوق القلعة، ولكن نبلاء " الأزوبيك " لم يكفــوا عن الصراع فيما بينهم، من الذي يحكــم هــذه "الخيــوات" المتفرقة، في كل يوم عهود جديد وخيانات جديــدة، تفتتــت البلاد الواسعة وتحول السلاطين إلى أمراء صــغار قــوتهم الوحيدة في حدة أطماعهم، وتحول الأمراء إلــى "خانــات " يخشون كل شيء من أول جيرانهم حتى أبواب الحريم التابعة لهم، ثم جاء الروس ليرسموا الخرائط وليعرفوا مواطن القوة والضعف، ثم عادوا بعد ذلك كوكلاء تجــاريين وقساوســة

وضباط متنكرين، وبدأوا ينقبون محاولين أن يعرفوا كل شيء وأي شيْ، التحصينات المتداعية، مؤامرات الحريم، أولاد الخانات المتمردين، الجيوش التي لا يكف جنودها عن الهرب، الضرائب الباهظة، وكان القيصر الرهيب بطرس الأكبر ينتظر سقوط هذه الأراضي الشاسعة كالثمرة، لم يكن هناك أعظم من هذه البلاد ولا أكثر بؤسا، ولكن القيصر لم يستطع أن ينتظر طويلا، دفع بجيوشه وجنرالاته ومدافعه التي اشرف على صبها بنفسه إلى تلك الخانات البدائية، ولكن المدهش أن الطبيعة قد لعبت مع أهل البلاد وآزرتهم، انهزمت الجيوش الروسية وسط متاهات الأنهر المتشابكة والكثبان والأحراش المنزلقة، لم يجد الروس بدا من التراجع، ولكنه كان تراجعا مؤقتا، ظلت الدببة راقدة على الحدود تنتظر المزيد من التدهور دون أن تدري ما هو السبب في هزيمتها، الحل لم يأت من خلال معركة أخرى، ولكن لأن مزيدا من التدهور حدث لأكبر الحوزات الشمالية في كازاخستان، طلبت الانضمام الطوعي للروس، أعطتهم خطوة متقدمة عبر سهوب شاسعة واختصرت عليهم طرقا طويلة ومميتة من الإمدادات، أصبح الروس على الحدود

للبلاد التي يتوقون إليها، أرسوا تحصيناتهم وملاؤها بجنود جوعى من القوزاق والبشكريين المتحفزين للانقضاض فوق أرض جديدة، حارة وغنية وضعيفة، ثم بدأت الخانات في السقوط، والجيش الروسي يتقدم ويضيق عليها الخناق واحدة بعد الأخرى، سقطت "طشقند"، واستسلمت "بخارى"، وقاومت "سمرقند" طويلا قبل أن يضع الدب عليها مخالبه.

ــ " كان علي أن أترك كل هذا الصخب وأن أذهب إلى منفاي الصغير، حجرة جدرانها المتقاربة تشع بالرطوبة والملح، وليس فيها إلا نافذة واحدة تطل على باحة مدرسة "ميرعرب"،لا ينيرها إلا سراج واهن، وجرة من الماء للوضوء، وإناء من الشاي البارد بدون سكر للشرب، وفي وسط الحجرة كان هناك مصحف متآكل الأطراف، وكان مطلوبا مني أن أحفظ الجزء الأول منه قبل أن يسمح لي بمغادرة الغرفة للمرة الأولى".

إن طرق الله غريبة حقا، فهي تقودنا في مساربها الغامضة دون أن ندرك ما هو مقدر لنا، أدرك "نور الله" بطريقة خفية، أن خلاصه الوحيد هو في فك طلاسم هذه اللغة الغريبة التي فرضها عليه وجود القرآن وتلك المدرسة

التي بناها في زمن غابر أمير عربي جاء من اليمن، لا زالت المدرسة تحمل نفس الاسم الأسطوري وإن تغير الأحرف قليلا، "مير عرب" بدلا من "أمير عرب"، ظلت المدرسة تتسع، كأن يد الزمن هي التي تقوم ببنائها، تمتد الأروقة الضيقة وتنتصب الأعمدة الرخامية، وتجد طيور الحمام مكانا للسكنى على حافة الكوات الضيقة، كانت اللغة التي تتردد داخل متاهات الغرف مليئة بكل المعاني التي يجهلها، صحراء مقفرة، وإبل صبورة،وآبار ضحلة، وصبار عطش، وقبائل معتزة بأنسابها، وعشاق يختبئون في ظلال المضارب، ورعاة وأغنام شاردة، صور غريبة بالنسبة لشاب تربى وسط سهول وادي فرغانة الوفير الخضرة، وسط خصب دائم لا يعرف العطش ولا الجوع، كان من الصعب فهم جذور هذه اللغة الغريبة، ولكنها رغم كل شيء كانت خلاصه ولن يتحرر حتى يحمل أبجديتها في قلبه، كان الخبز يابسا والشاي باردا والشيخ الذي يحضر إليه في الحجرة كل صباح ليلقنه مبادئ هذه اللغة يعامله بفظاظة، كأنه هو أيضا لا يطيق الجلوس في نفس هذا الحيز الضيق، لم يكن يدخل من النافذة إلا القليل من الضوء وبعض الهبات من هواء

الأروقة الرطبة، لم تعد هناك الريح القوية التي تحمل رائحة السهل والنهر وحبوب اللقاح والصهد والبرد، كانت المفردات الغريبة هي التي ستقدم له عالما بديلا عن كل الوديان الطليقة التي فقدها:

ـ " قرأت آياتي الأولى " إنا أعطيناك الكوثر، فصل لربك وأنحر " لم أكن أملك من الكوثر إلا جرة من الماء، ولم يكن لدي ما أنحره فأخذت أصلي، لعل بضعة من روحي المسكينة تمتزج بذلك الضوء السرمدي الذي يتسلل إلى من خلال الكوة الصغيرة".

هل كان هذا الضوء قادما من تلك الصحراوات البعيدة، وهل تحولت الغرفة إلى كهف فوق جبل يطل على بيداء مكة وهو يجلس مترقبا حدوث معجزة صغيرة؟ كان يقرأ وهو مستيقظ، ويكرر ما حفظه وهو نائم، تتراقص الحروف أمامه، ناعمة ومنسابة، ليس فيها تلك الزوايا الحادة الموجودة في الأحرف السيريلكية، دون أن يعي كانت الحروف العربية تتسلل إلى روحه وتأخذ منها منتهاها، لا يدري "نور الله" كم بقي على هذه الحال، ولا يدري أيضا إن كان بكامل صحته أم أن يقظته قد تحولت إلى حال من الهذيان المتواصل،

سكاكين وأنصال خفية تغوص تحت جلده كي تنزع جــذور اللغة القديمة، لم يكن يرى "لطف الله"، في تلك المرحلة لــم يكن مسموحا لهم بالتزاور أو التحدث معا بأي لغــة أخــرى غير العربية، وفي ذات صباح حدثت المعجــزة الصــغيرة، استيقظ وهو يقول في عذوبة وسلاسة:" ســبح باســم ربــك الأعلى، الذي خلق فسوى، والذي قدر فهدى والذي أخــرج المرعى فجعله غثاء أحوى،سنقرؤك فلا تنسى، إلا ما شــاء الله، إنه يعلم الجهر ومايخفى" لم تعد هناك مشاكل مع حرف العين أو الصاد أو حتى الطاء،استقام اللسان المعوج، واستقر في داخله قبس من لفح الصحراء، فتح باب الغرفة وانطلــق منها للمرة الأولى منذ أن جاء إلى بخارى إلى الفناء الواســع الذي تحيط به الأعمدة ويتوسطه منبر خشبي موشى بالذهب، صرخ بصوت عال:

_ أيها الأمير العربي القادم من جبال اليمن، لقد حفظت لغتك وعرفت سرك.

تردد صوته عاليا في فراغ الإيوان، تطلع إليه الصــبية الذين يجلسون في الأروقة الجانبية، كانوا بثيــابهم البيضــاء أشبه بالكراكي المرتعدة، يهزون رؤوسهم في انتشاء، لم يدر

"نور الله" إن كانوا قد مروا بنفس التجربة أم لا، هرع عبر الممر الضيق إلى غرفة "لطف الله"، دق بقبضته على الباب الخشبي فلم يسمع ردا، دفع الباب، بدا "لطف الله "، شاحبا ونحيفا، كأنما لم يذق نوما ولا طعاما منذ أن جاء إلى هذا المكان، كأنه يتحول بالتدريج إلى كائن يوشك أن يكون غير مرئي، هتف "نور الله" بالعربية:

ــ لقد عرفت هذه اللغة، أمسكت بها.

حدق فيه "لطف الله" بعينيه الباهتتين وهو يقول في عربية أكثر فصاحة:

ــ لقد حملت الأمانة فحذار أن تشقى بها.

لم يفهم معنى كلماته، ولم يفهم سر كل ذلك الحزن في صوت "لطف الله"، ترك الغرفة وسار مبتعدا، عبر الأروقة مبتعدا وقفز من الباب الخارجي دون أن يعترضه أحد من المعلمين، سار بجوار أسوار القلعة، ودخل في تلافيف الحواري الضيقة، اشتم روائح الصبغات النفاذة لحرير الأطلس، ثم دخل الأسواق المسقوفة حيث يجلس باعة الفضة اليهود بلحاهم البيضاء الرفيعة، قرأ الآيات مرة أخرى بصوت عال، نظر إليه " الطاجيك" وأحنوا عمائمهم الضخمة

في احترام، ورمقه الحرس الروس وهم فوق خيولهم في تكاسل، أوزبيكي أهوج كدأبهم جميعا، ارتفعت دقات الطبول من تحت أسوار قلعة بخاري، رأى "نور الله" زحاما كبيرا من البشر يكونون دائرة فاندس وسطهم، في المنتصف تدور رقصة مجنونة، يقوم بالرقص مجموعة من الفتيات يقفن على رؤوس أصابعهن، حركاتهن ممشوقة وعنيفة، حدق في وجوههن، اكتشف إنهن لسن فتيات، كانوا غلمانا رغم ثيابهم الحريرية وجدائلهم الطويلة،مفعمين بشهوة وخنوثة، رقصة "الباشاس" التي تشتهر بها بخاري في قمة توهجها، تدق الطبول مثل رعد السماء، ويدور الغلمان على رؤوس أصابعهم، يمد كل واحد منهم ساقه اليسرى كخط مستقيم ويتقافز في خفة مع إيقاعات الموسيقى بينما الساق اليمنى مثنية عند الركبة، وطوال الرقص وكوعاه مرفوعتان إلى أعلى دائما، يغطي وجهه أحيانا براحتيه ويصفق بها أحيانا وفق ما تمليه عليه الموسيقى، صفق "نور الله" وقد أصبح جزءا من النشوة التي تغمر الجميع، بل إنه يعتقد أنها لم تقم إلا حفاوة به:

ـــ "وفي تلك اللحظة رأيتها، كأن الأقدار قد جمعت كل أحداثها الجسام في يوم واحد، لم أر في تلك المرأة أول الأمر إلا عينيها الواسعتين، كأنما هما مركز وجهها وبقية الملامح مجرد تفاصيل صغيرة، كانت تصفق مع الراقصين دون أن تراهم، كانت تحدق في أنا وحدي، تضعني كلي في دائرتي عينيها"

كانت اكبر منه سنا وأعلى قامة، جسدها ــ مثل نظراتها ــ واضح وصريح، شعرها مجدول في جدائل صغيرة مسترسلة، معلق في طرف كل جديلة أجراس من الفضة الصغيرة، ويلتف حول جبينها ومؤخرة رأسه عصبة زرقاء، صدرها الشامخ يتشرب هواء النشوة التي تغمر المكان، عيناها توشكان على الإفصاح بالكلمات، نظر "نور الله" حوله ليتأكد أنها لا تنظر إلى أحد غيره، ولكن كانت على شفتيها ابتسامة ساخرة لم يفهم "نور الله" مغزاها، هل تعرفت عليه، هل هي مخطئة في نظراتها، شعر "نور الله" بالتوتر ولم يستطع أن يواصل التصفيق، ترك الزحام وعاود الجري من جديد، عبر سور المدينة القديم، والتف حول القلعة ووجد نفسه في مواجهة حافة نهر "زرافشان"، تشابكت من حوله

الأشجار البرية، واستفز وخزها اللاسع خلايا جسده، بعثــت فيه نوعا آخر من النشوة المؤلمة، خلع أثوابه حتــى اصــبح عاريا ثم قفز في النهر،كان كل ما في داخله مضطربا، وكان جسده نتنا من تطاول الفترة التي قضاها داخل الغرفة، ولــم يكن غير هذا الماء البارد قادرا على إعادة التــوازن إليــه، تقافزت أسماك فضية صغيرة وتناثرت أشعة الشــمس فــي أقواس متكسرة، ضحك في انتشاء، وانقلب على ظهره وهــو يراقب السماء، تذكر الماء الصاخب وهو يفــتت جلاميــد الصخر في وادي فرغانة، الماء هنا كان عذبا ومثلجــا، لــم يحس بمتعة الحياة مثلما يحس في هذه اللحظة، تقلــب علــى بطنه، وفي تلك اللحظة لمح المرأة للمرة الثانية، كانت تنحدر من الشاطئ وتتقدم خائضة في الماء، كان جســدها القــوي يخترق الموج الناعم مقبلا نحوه وقد التصق الثــوب عليــه، تتأمل لحمه العاري بنفس العينين الواسعتين، لماذا تبعته إلى هذا المكان؟، شعر بالبهجة والخوف، وقفت أمامه، مدت يدها ولمست كتفه العاري فدبت في جسده رعدة مفاجئــة وهــي تقول له :

ــ جلدك الشاحب لم يذق بعد شمس بخارى، وعيناك الزرقاوان فارغتان، لم تريا شيئا بعد، من أي بلاد باردة جئت؟

قال دون أن يجرؤ على الابتعاد عنها : من وادي فرغانة.

قالت:لابد أن النساء هناك يمارسن الحب بكامل ثيابهن، وكذلك يفعل الرجال حين ينزلون إلى النهر.

تناولت بكفيها حفنات من الماء وأخذت تنثرها فوق رأسه، أدخلت أصابعها في شعره الجعد ثم جذبت رأسه إلى صدرها، احتواه جسدها الذي كان دافئا رغم برودة الماء، كان خائفا ومبهورا، وكان جسده بالغ النحول من جراء ساعات الجوع الطويلة داخل الغرفة، كانت هي أكثر منه قوة وامتلاء بالحياة، تشبث بها، كان جسدها يدري ماذا يفعل وماذا يريد، ضغطت رأسه حتى انغرس انفه بين ثدييها، اشتم رائحة عطرها وعرقها وعشب النهر وطحالبه، ضمته إليها بحزم ورقة، تدفقت داخله نبضات من سحر الملامسة، لم تكن يداها تضمانه فقط، ولكن ساقيها كانتا تحيطان به أيضا، كان الماء يجعلهما معا أكثر خفة ويجعل أعضاءها

تتزلق متداخلة مع بعضها البعض في نعومة، كأن النهر كله قد تحول إلى فراش رخو والماء البارد يكتسب شيئا فشيئا بعضا من دفء جسديهما، تحولت الرجفة إلى هزات من النشوة تؤلف بين جسديهما، اشترك ثلاثتهم ــ هو وهي والنهر ــ في نفس الإيقاع، بلا خوف من الانكشاف أو الغرق، كل ما كان يفكر فيه أنه يبلغ ذروته تحت فضاء هذه السماء، حيث تحوم فيه طيور غريبة عيونها مستديرة وثاقبة، لا شيء يشبه وحشة الغرفة، كانت هذه المرأة إحدى هبات النهر، سكون ودفء وعذوبة، المرة الأولى التي يلمس فيها امرأة جسدها بمثل هذا السخاء، ومع ذلك يمضي كل شيء في تناسق دون وجل، تساعده هي ومياه النهر المنسابة على أن يستخدم جسده بأفضل ما يمكن، وعندما انتهت اللحظة، توقف كل منهما أمام الآخر لاهثا، أمسكت بقبضته بإحكام وقادته خارجة من النهر، أحس بالخجل وهو يحاول أن يداري عورته ولكنها ابتسمت وهي تقلب في ثيابه الملقاة على الشاطئ:

ــ طالب علم كما أرى، "مير عرب " لا تعلمكم كل شيء، مازال هناك الكثير من الأمور التي عليك أن تجيدها.

انتزع منها السروال وارتداه بسرعة وقد بدأ البرد يغمر جسده مرة أخرى، أما هي فقد واصلت الجلوس هادئة والماء يقطر من جدائلها، تتأمله وهو يرتدي ثيابه في سرعة، تجعله يجلس ملتصقا بها حتى يكتسبا الدفء من جديد، ولكن "نور الله" ظل متوترا، لا يدري ماذا يفعل إذا طلبت منه نقودا، كان متأكدا من أنها سوف تفعل ذلك، ولكنها لم تفعل، ظلت تراقب تردده وهي تبتسم له في إشفاق، قالت:

ـ اسمي "ليليانا" وأسكن في حي اليهود، أليس لك من مأوى آخر غير المدرسة؟

نهض واقفا،نظرت إليه بدهشة وهي تراه متأهبا للعدو مبتعدا:

ـ يمكنك أن تعود إلى المدرسة الآن، ولكن غدا إذا أردت أن تراني فسوف تجدني بالقرب من مئذنة " كالييان" في نفس هذا الموعد.

كانت المئذنة منتصبة في وسط الساحة المواجهة "لمير عرب"، شاهد حجري عملاق، ينبثق من الأرض متجها إلى السماء دون أن يوجد مسجد تحتها، أخذ يعدو، رغم أنه كان ما يزال عاجزا عن إمساك أنفاسه المتلاحقة، كان يريد أن

يبتعد سريعا عن النهر، لا يريد أن يرى أحدا من النـــاس ولا يريد لأحد أن يرى وجهه، صعد إلى القلعة، كانت خالية، لا يوجد فيها إلا حارس نائم على مقعده، ظـــل جالســـا فـــوق أسوارها ينتظر أن يغيب كل شيء في الظلام حتى يســـتطيع التسلل في أزقتها دون أن يراه أحد، لم يكن قادرا، يمكـــن أن يواجه الكراكي في " مير عرب " بثيابهم البيضـــاء الشـــفيفة ولحاهم المدببة، وعند المساء هبط من القلعة، أخـــذ يتجـــول وسط خليط الأجناس الذين تزدحم بهم المدينـــة، بـــدا كـــأن الجميع يعرفون خطيئته، ورغم كل المتاهات التي جاس فيها كان يجب أن يعود في النهاية إلى "مير عرب"، إلى الســـاحة الواسعة المرصوفة بالأحجار الكلسية، كانوا جميعـــا أســـرى ساحة المسجد بعد أن انتهت صـــلاة العشـــاء، تحـــيط بهـــم الحجرات الضيقة، أمان زائف،لو أنهـــم واجهـــوا الخـــارج لوجدوا عالما مختلفا تماما، لمح "لطف الله" جالسا في الصف الأول وجسده النحيل يهتز اهتزازات متواصـــلة، يســـترجع القرآن الرابض في أعماقه، هل كان يعرف أن يوســـف قـــد تعرض في التو للإغواء الأول، وأنه استسلم له دون حاجـــة لشق قميصه؟ أخفض رأسه حتى لا يراه وأسرع إلى غرفته،

أغلق الباب وسمع صوت انصرافهم، سمع بعض الطرقـــات على الباب، ربما كان "لطف الله"، ولكنه لم يرد، لم يشأ القيام من الركن الذي دس نفسه فيه، لم يجرؤ على لمس فراشه أو فتح كتابه أو إشعال السراج أو حتى الشرب من إبريق الشاي البارد، ظل محصورا بين جدارين تاركا الفرصـــة لرطوبـــة الأحجار أن تتسلل داخل جسده حتى تطفئ ما فيه.

لابد وأنه غفا وهو نائم في نفس مكانه، فقد أيقظـــه أذان الفجر فجأة وهو يتردد في جنبات المكان، لم يجـــرؤ علـــى الخروج ليؤدي صلاة الجماعة معهم رغم أنه يدرك أن هـــذا الأمر سوف يزيد من حجم العقوبة التي سوف تتخذ ضـــده، توضأ من ماء الإبريق ووقف يصلي:

ــ "ما إن رددت الآيات الأولى حتـــى أجهشـــت فـــي البكاء،لقد غسلت المياه أطرافي، وكان لا بد من الدموع حتى تغسل أعماق نفسي، كنت أهمهم بالقرآن بشكل آلي، أردد كل ما حفظت من آيات، ولكن حـــين وضـــعت جبهتـــي علـــى الأرض، بدأت في الاسترخاء أخيرا، هبطت السكينة إلى قلبي وأنا أبتهل بأدعية الاستغفار".

في الصباح كان هادئا تماما، خرج من غرفته، واتجه إلى العمود الذي يجلس بجواره معلمه الشيخ عبد المؤمن تحيط به حلقة من تلاميذ المدرسة، توقف قليلا عن درس التفسير الذي كان يلقيه ونظر إليه طويلا ليعرف سبب غيابه، سكت حين لاحظ وجهه الشاحب وعينيه المنطفئتين، ولكنه التفت إليه بعد انتهاء الدرس وهو يقول :

ــ لا نريد أن يعتدل لسانك ويعوج قلبك، تخلفت عن ثلاث من صلوات الجماعة.

رد في صوت خافت: كنت مريضا

قال وهو يدير ظهره: المريض لا يعدو في طرقات المدينة كالبغل الشارد.

وتركه ومضى مبتعدا، فكر "نور الله" مذهولا، إذا كانوا يعرفون ذلك، فهل عرفوا بما دار وسط النهر، ظل جالسا في مكانه بينما واصل الآخرون الانصراف، وحين رفع رأسه وجد "لطف الله" جالسا في مواجهته، يركز عليه عينيه البراقتين، قال:

ــ ما بك، أنت مريض حقا أم أن هناك شيئا أكثر من ذلك؟

قال "نور الله" في صوت مختنق:

ـ لا أستطيع أن أقول لك في هذا المكـان، يجـب أن نكون خارج المسجد.

لم تكن باحة المسجد تحتمل ما سوف يقوله من كلمات، سارا معا إلى الخارج، كانت الشمس حارة ورغم ذلـك لـم يجرؤ "نور الله" على الجلوس في ظلال الجدران، وفـور أن توقفا بعيدا بعض الشيء بدأ يتكلم، حكى كل شيء بالتفصيل، عن تلك الرعشة التي جعلت كل خلية من جسـده تنـتفض، المرة الأولى التي يشعر فيها بهذا الإحساس، والمرة الأولـى أيضا التي يتداخل فيها جسده مع امرأة أخرى، ورغـم قلـة خبرته فقد أرضاها لأنها طلبت أن يلتقيا مرة أخرى، مجـرد الكلمات جعلت جسده يعاود الانتفاض مرة أخرى، كأن جسده قد استحضر هذه اللحظة رغما عنه، أمسـك رعدتـه وهـو يستفيض في الحديث عن حال الندم التي انتابته بعـد ذلـك، واستمع "لطف الله" دون أن يقاطعه ثم قال له:

ـ هل أنت نادم حقا؟

هتف "نور الله" في انفعال:

ــ طبعا، لقد قضيت أسوأ لحظة في حياتي مكوما في الركن وكادت روحي أن تزهق وأنا أصلي الفجر.

بدا أن "لطف الله" لم يقتنع بكلماته لأنه قال له:

ــ حاول إذن ألا تذهب إلى مئذنة "كاليبان" إذا جاء المساء.

أوشك "نور الله" أن يصرخ فيه أنه لن يذهب بالفعل، ولكن رأى عيني "لطف الله" غير المصدقتين، ولكنه بدلا من ذلك هتف به : "تعال معي إذن "سار أمامه إلى حيث توجد الغرفة المعتمة، أمسك "نور الله" بقطعة من الحبال وهتف به : أوثق يدي، ضحك "لطف الله" ضحكة جافة وهو يقول له: " أنت مجنون بلا شك"، ولكن "نور الله" ألح عليه في إصرار، وقال "لطف الله" : وماذا عن الغد، وبعد الغد، هل ستبقى مقيدا، هتف به "نور الله": " سوف يكون جسدي قد برد، وتكون روحي قد هدأت "، وأمسك "لطف الله" بقطعة الحبل، لفه حول معصمه في تردد، ولكنه حين رأى نظرة الإصرار في عيني "نور الله" شده في إحكام، وظل واقفا أمامه قليلا ثم تركه ومضى.

بدأت لحظة النهار تتسرب والخدر يسري في أصــابعه، لم يستطع النوم على جنبه وذراعاه مشدودتان هكذا، هل كان "لطف الله" يريد أن ينتقم منه حين ربطه بإحكام هكذا؟، ظـل جالسا مستندا إلى الجدار، يحس برطوبته وهي تتسـلل إلـى داخله، يردد في داخله كل الكتب التي حفظها غيبا،شـذرات من البخاري ومشكاة الأنوار وتفسير الجلالين والكلم الطيب، تهدج صوته وهو يعيد أبيات جلال الدين الرومـي وأدعيـة النقشبندي، ولكن كل هذا لم يزد جسده إلا جوعـا، جوعـا غريبا لا يشبعه ماء ولا زاد، ليس لديه أدنـى رغبـة فـي الطعام، أغمض عينيه فرأى زرقة مياه النهر، ورأى جسدها يتضوع وسط حبب الماء،وشعر بالدفء يتسلل إلى جسده من أغوار بعيدة، هي الآن تقف في انتظاره بالقرب من المئذنة، ترى إلى أي مدى يمكنها الانتظار، وإلى أي حد تشعر بهـذا الجوع الذي يمضه، هل كان ما فعله صوابا؟ هل كان لا بـد أن يفقدها منذ اللقاء الأول حتى يثبت مدى ندمه، بدأت أشعة الشمس بالهبوط فازداد جوعه، كان قد فـوت كـل مواعيـد الوجبات، ولم تبق له إلا وجبة العشاء، فهل سيتركه "لطـف

الله" يموت جوعا بعد أن قتلـه حنقـا مـن فـرط الرغبـة والحرمان.

لم يفتح الباب إلا بعد أن غابت الشـمس تمامـا، بـدا "لطف الله" رقيقا وليس عدائيا كما كان فـي الظهيـرة، فـك وثاقه، وتأمل معصميه المحتقنين، وهمس قائلا: " لعلـي لـم أكن قاسيا عليك؟" سارا معا عبر الأروقة إلى مكان الوضوء، وتأكد المعلم من عدد الطلبة الذين خلفه قبل أن يرفـع يـده بالتكبيرات، وأخيرا حان موعد وجبة العشاء وخرجوا جميعا إلى صحن المدرسة حيث حملوا أطباق القصـدير وشـرائح الخبز الجاف، وابتسم له "لطف الله" مشجعا، كان قـد تغلـب على لحظات ضعفه ولم يذهب للمئذنة، ليت "لطف الله" يعلم الثمن الذي يدفعه جسده، وهذا الاحتقان الذي يشعر به بـين ساقيه، عاد إلى الغرفة ونام كما لم ينم من قبل ولكنه عنـدما استيقظ مع أذان الفجر كان سرواله مـبللا وكـان عليـه أن يسرع خفية بالاستحمام بالماء البارد قبل أن يلحق بالصلاة.

عندما حان وقت الصلاة من يوم الجمعة كان جسده قـد هدأ، جلس في ركن من المسجد وسط بقية الطلبة وهو يقـرأ في سورة الكهف، ترك معاني الكلمات تنفذ إلى داخله، وهو

يرفع عينه كل برهة ليرقب أهالي بخارى وهم يتوافدون على المسجد، اختلطت عمائم الطاجيك وقلانس الأوزبيك الملونة بالأفغان ذوي اللحى الحمراء والهنود الذين تفوح منهم روائح القرفة والكركم، ورغم أن الخطيب يقول خطبته باللغة العربية التي لا يفهمها الجميع إلا أنهم كانوا يهزون رؤوسهم في نوع من الهيام، تأسرهم جرس الكلمات وهي تتلى عليهم مختلطة بالآيات القرآنية، وعندما انتهت الصلاة كان جميع طلاب "مير عرب " قد ظفروا بفسحة من الحرية تمتد من بعد الصلاة حتى صباح يوم الاثنين، كانوا خلال هذه الفترة القصيرة يمتلكون مصائرهم بأيديهم، الذين يسكنون في القرى القريبة يمكنهم أن يزوروا أقاربهم، أما الذين جاءوا من بعيد ففي المدينة متسع لهم، يكفيهم التجوال فيها والعودة في نهاية اليوم، قال له "لطف الله":

ــ إلى أين تذهب، سوف آتي معك؟

قال "نور الله" ضاحكا: لن تشد وثاقي مرة أخرى، لست في حاجة إلى ذلك.

وانطلق وحيدا تحت شمس المدينة، روحه حرة وطليقة، عرفت الخطيئة والندم واكتملت دورة التجربة، سار مسرعا

عبر السوق المسقوف، وجلس على حافة البحيرة التي تتوسط المدينة أمام "خانقاه نادر"، تأمل البجع الأبيض وهو يدور في دورات لا تهدأ، ومئذنة جوكاشان وهي تلوح من خلف القباب القديمة، والأنفاس الرطبة المحملة برائحة الماء والقليل من العطن، سار عائدا إلى مئذنة " كاليبان"، لمح أكثر من امرأة، ولكن ليليانا لم تكن بينهن، دار حول المئذنة أكثر من مره وبقي منتظرا تحت الشمس، لم يكن هذا هو اليوم ولا هو الوقت ورغم ذلك ظل واقفا، خشيته الوحيدة أن يأتي "لطف الله" ويراه، سأل أحد العابرين عن مكان الحي اليهودي، وبدأ يسير في اتجاهه:

ـ " كنت أتصرف بحماقة، ورغم ذلك لم أتراجع عن حماقتي، كان ذلك الشيء الملح الغامض داخل جسدي قد تغلب كل ما اتخذته من احتياطات، كانت هذه المرأة قد تركت على جسدي أثرا لا يمحى".

لم يكن الحي قريبا كما كان يتصور، كان قد اكتشف أن للمدينة امتدادا في المكان يوازي امتدادها في الزمان، تراجعت أشجار البلوط،والخانات المكسوة بالأزليج الأخضر، وأصبحت الشوارع أقل اتساعا وأكثر كآبة، كأنما تظللها

سماء أخرى بعيدة وتنير شوارعها شـــمس أخـــرى خافتـــة الضوء وباردة بعض الشيء، انحدرت الأرض ودخل "نـــور الله" في نفق جدرانه من الأحجار الضخمة التي تنشع خيوطا من الماء المختلط بذرات سوداء، كأنه يدخل إلى عالم آخـــر، وأن هذا النفق كان برزخا بين عالمين مختلفين، لم يكن يعلم ماذا ينتظره ورغم ذلك واصل الغوص في الحواري الضيقة التي كانت لاتني تتفرع أمامه، لا أشجار ولا مكان للخضرة، بيوت صغيرة ومتلاصقة دون أي فراغ بينها، توحي بالخوف أكثر من الألفة، أبوابها واطئة ونوافـــذها ضـــيقة، معظمهـــا مغلق، سار أمام صف متصـــل مـــن الحوانيـــت الضـــيقة، واجهاتها الزجاجية جميعا مليئة بمشغولات الفضـــة، أقـــراط وعقود وأساور وأجراس صغيرة،دق قلبه وهو يتساءل: ترى هل اشترت أجراسها من هذا الحانوت الضيق، رنت في أذنه رنات الأجراس حين تصادمت عندما بلغـــا معـــا لحظـــات الذروة، تلفت حوله، ولكن الأجراس صمتت، ولم تكن هـــي موجودة، نسوة أخريات يعبرن الحواري، ينظرن إليه شـــذرا أو يبتسمن في وهن، كان النهر بعيدا ولا يبدو أن هذه الشبكة الضيقة من الحواري قادرة على أن تهبه أي شـــيْ، داخـــل

المحلات يجلس الصاغة اليهود، ثيــابهم ســوداء وجــدائلهم الطويلة مرخاة على جنبات وجوههم، منهمكين في الطــرق المتواصل لقطع الفضة الصغيرة، تفوح من الــداخل رائحــة النشادر النفاذة، لعل هذا هو سبب عدم وجود أي خضرة في هذا المكان، لم تكن هناك فائدة مــن التلكــؤ الطويــل أمــام الحوانيت، عاود السير من جديد، هبط درجا حجريا فازدادت الشمس ابتعادا، بدت سقوف البيوت المغطاة بالقرميد الأحمر قريبة منه، والكلاب التي تتمسح في الجدران أكثــر جوعــا، وأصبحت النظرات التي تتأمل وجهه أكثر استغرابا، ما الذي أدخل طالب العلم الغريب هذا وسط أحشاء هذه الحارة ولكنه كان قد مضى لأكثر مما يستطيع العودة، لم تبق إلا المجازفة الأخيرة، لم يكن يجرؤ على سؤال الرجال، ولم يكن يضــمن ردة فعل النساء، واصل السير حائرا، شاهد طفلة صــغيرة، كانت جالسة على حجر عند مفترق الحواري، تهــز رأســها كأنها تستمع إلى إيقاع قادم من داخلها، وتنبعث من جــدائلها رنات أجراس واهنة، تلفت حتى تأكد من خلو الطريق قبــل أن يتقدم منها وسألها:

ــ إنني أبحث عن امرأة جميلة مثلك، شعرها جدائل صغيرة وفيه أجراس من الفضة مثلك أيضا، اسمها "ليليانا"، هل تعرفين بيتها؟

حدقت فيه الفتاة بعينين شديدتي السواد ثم مدت كفها الصغيرة وهي تقول :

ــ هل معك حلوى؟

شعر بالارتباك، دس يده في جيبه، عثرت أصابعه على بضع "الكوبيكات" المعدنية، كان يحتفظ بها كأنها تميمة، جزء من نفقة ضئيلة يأخذها من "ميرعرب" كل شهر، أخرج واحدة منها وقدمها لها، تلفتت هي أيضا حولها في حذر ثم خطفتها من يده،أشارت إلى بيت في منتصف الحارة وهي تقول في ثقة:" هذا هو"، كان بيتا مرتفعا قليلا، يغطيه القرميد، عمامة حمراء متسخة،له نوافذ ثلاث، كل واحدة منها لون مختلف عن الآخر، هل هذا هو بيتها حقا، وهل يمكن أن يتحقق الأمر بمثل هذه البساطة،ماذا عليه أن يفعل، هل يذهب مباشرة إلى البيت، أم يمكن لهذه الفتاة أن تساعده من أجل كوبيك آخر؟

التفت ولكنها كانت قد اختفت، أخذت غنيمتها السهلة وفرت، ظل واقفا وقد ازدادت حيرته، لا يدري إن كانت الفتاة الصغيرة قد دلته حقا أم أنها خدعته؟ اقترب من البيت خطوات مترددة، أرهف أذنيه لعله يسمع صوت أجراس من مكان ما، توقف أمام الباب، مر أكثر من واحد وهم يلقون عليه نظرات من الكراهية، وجودك غير مرغوب في هذا المكان، لم يتحدث إليه أحد، اكتفوا جميعا بهذه النظرات الحادة، كأنهم جميعا كانوا يعرفون أسبابه الخفية، عليه أن يتقدم ويدق الباب، ولكن عليه أن يخترع حجة منطقية قبل ذلك، فقد يكون خلف هذا الباب أخ غاضب أو زوج غيور، كانت هناك نقوش محفورة على الباب الخشبي، ومقبض يأخذ شكل نجمة داود، ربما لو دق الباب تخرج له بنفسها وتنقذه من هذه الحيرة التي يعاني منها، أوشك أن يبكي، أحس فجأة أنه طفل ضائع، وان لحظة النضج ــ التي حسب أنه قد اجتازها وسط مياه النهر ــ لم تحن بعد، ثم سمع صوت الأجراس، واهنة وضعيفة، أحس بيد توضع على كتفه، قبل أن يلتفت أدرك أنها يدها، وسمع صوتها وهي تتساءل مدهوشة:

ـ ماذا تفعل هنا بحق الله؟

التفت إليها، احتوته بعينيها وجدائلها فاشتم رائحة النهر وأحس بالدفء:

ـ لقد أعياني البحث عنك.

ـ لماذا لم تحضر إلى موعدنا إذن، ولماذا تطرق باب هذا البيت؟

هل يقول لها أن فتاة صغيرة قد خدعته، قال: حسبته بيتك.

ـ ولكنه ليس بيتي، وكان يمكن ألا تراني مرة أخرى، سر خلفي، ولكن اترك مسافة عشر خطوات بيني وبينك.

سار خلفها أخيرا، عبر نفس الدروب السابقة، وهبط نفس الدرج الحجري واختفت الشمس وامتلأت السماء بسحب باهتة الحمرة، ورغم الخطوات العشر كان يتناهى إليه رائحة عطرها وصليل أجراسها، لم يعد يبالي بالنظرات التي توجه إليه،ولا إن كانوا يدركون ما بينهما من تواطؤ أم لا؟ كان مسحورا مأخوذ اللب، بتلك العشوائية القدرية التي رتبت لقاءهما، وصلت إلى باب بيت آخر، لا يفترق كثيرا عن

البيت الأول، توقفت برهة أمام الباب لتتأكد من أنه يراها، ثم دخلت وتركت له الباب مفتوحا، تردد قليلا، بدا المدخل مظلما أكثر مما ينبغي، سار في طرقة ضيقة، وجدها واقفة في انتظاره، ثم اشتم رائحة النشادر مرة أخرى، أمسكت يده وقادته إلى الداخل، أحس أنه قد أصبح أسيرا لها، سمع صوتا قادما من الداخل، سعال أجش ثم دقات متواصلة كوجيب قلب واهن، لم توضح له شيئا، اكتفت بأن قادته، دخلا إلى فناء واسع ومظلم، في الوسط يجلس رجل عجوز خلف منضدة خشبية، كانت المنضدة مكونة من كتلة واحدة من جذع شجرة، وكان العجوز يمسك بيده مطرقة صغيرة وهو يدق به على إزميل دقيق، ورغم رأسه المحنية فقد لمح "نور الله" وجهه المليء بالتجاعيد، والنظارة السميكة التي تغطي عينيه، كان هناك كور من نار، ينبعث منه ضوء أزرق خافت، يملأ الفناء بظلال الحركة الرتيبة للرجل العجوز، كما أنه ينعكس على عشرات الأجراس الفضية الموجودة على المنضدة.

كانت ليليانا تمسك بيد "نور الله" وتوشك أن تعبر به الفناء دون أن تتفوه بكلمة واحدة، ولكن الرجل رفع رأسه في

هذه اللحظة ونظر نحوهما، حرك أنفه أولا كأنه يريد التعرف على كل الروائح المختفية خلف رائحة النشادر، هتف :

ــ ليليانا، أنت هنا؟

لم ترد عليه، لاحظ "نور الله" عينيه الخابيتين، لم يكن يعتمد عليهما بقدر ما يعتمد على أنفه الذي كان يتحرك باستمرار، عاد يقول:

ــ أنت لست وحيدة، هناك شخص آخر معك.

قالت ليليانا في اقتضاب وهي تسحب "نور الله" من يده محاولة الابتعاد:

ــ صديق لا تعرفه.

ألح الرجل :إنه غريب، لم يأت إلى هنا قبل الآن، من هو؟

قالت في حدة : قلت لك أنك لا تعرفه، ولا جدوى من التعارف بينكما.

مد الرجل يدا مرتعدة من خلف المنضدة:

ــ دعيه يتقدم، دعيني أصافحه

وأصبح "نور الله" غير قادر على التقاط أنفاسه، بينما كانت هي تلتقط أنفاسها بصعوبة، ازدادت حدتها وهي تصيح:

ــ إيزاك نيقولافيتش، ماذا تريد مني، دعني أتنفس قليلا.

جذبت "نور الله"، عبرا الفناء،صعدا درجات سلم ضيق، وظل يسمعه وهو يردد:

ــ تمهلا قليلا، قليلا فقط، فأنا لا أجد من أتحدث إليه.

وصلا إلى نهاية السلم وعاد صوت الطرق يتواصل من جديد، فكر "نور الله" في حيرة، هذا الرجل الذي تعامله بكل هذا الجفاء من هو؟ هل هو أب عاجز أم زوج مغلوب على أمره؟ وكيف يستطيع أن يقوم بتشكيل الفضة وهو عاجز عن الرؤية لهذه الدرجة، في نهاية الدرج قادته إلى غرفة واسعة، أرضيتها مكسوة بسجاد فاقع الألوان، خليط من الأحمر والأزرق، وعلى النوافذ ستائر من الموسلين الأسود، وفي منتصف الغرفة ينتصب سرير لامع من النحاس، قوائمه الأربعة يحيط بها من أعلى أستار من الدانتيلا المخرمة، مرسوم عليها زهور وطيور وأطفال لهم أجنحة ملائكية

صغيرة، مستكينة تقبع تحت سقف الغرفة المعتم، وفي الركن توجد منضدة الزينة، فوقها مرآة، وصورة داخل إطار عتيق، بجانبه شمعدان كثيــر الأذرع وملـــيء بالشــموع نصــف المحترقة، ويملأ الغرفة كلها عطر نفاذ، ســحبته مــن يــده وأجلسته على حافة السرير وهي تقول في ود وقــد ذابــت حدتها:

ــ اجلس هنا أيها الفقيه الصغير، أليس القدر غريبا، أن تخرج من مدرسة "مير عرب" لتجد نفسك هكذا، جالسا على فراش فتاة غريبة وشبقه.

خلعت العمامة من فوق رأسه ووضعتها برفــق فــوق منضدة بجانب السرير، حدق في الإطــار الموجــود فــوق المنضدة، يطل منها وجه حزين لطفلة وحيــدة، بقعــة مــن الضوء تطل منها عينان حزينتان، تخترقان عتمــة الــزمن الباهتة التي تحيط بهما، كانت تتأمله في صمت، جلست على الأرض، أمام قدميه المتدليتين، يقول لها:

ــ لماذا.. لماذا قدتني إلى غرفتك؟ وقبل ذلك تبعتني إلى النهر؟

خلعت الحذاء من قدميه وهي تقول ضاحكة:

ــ لاشيء، أطبق الناموس الذي يتيح لكل الرجال اليهود أن يستمتعوا بكل نساء الغربـــاء، الأغيـــار دون عقـــاب أو خطيئة، لقد قررت أن أعكس الناموس وأن أطبقه على نفسي، ألست أنت من الأغيار؟

قال في صوت جاف: أجل.

ــ وفقيه أيضا، وتعرف أن القيـــاس هـــو جـــزء مـــن الشريعة.

لم يدر إن كانت تتحدث بجدية أم لا، ولكنها كشفت عن صدرها، بدا شاهقا ومضيئا وسط عتمة الغرفة، هتفت:

ــ هذا جسدي أنا، لا يخضع للنـــاموس ولكـــن علـــى الناموس أن يخضع له.

بلع ريقه وهو يقول: من هو؟

كانت تدرك جيدا ماذا يقصد بسؤاله، ولكنهـــا اقتربـــت منه، أصبح وجهه في مواجهة صدرها تماما، قالت:

ــ آلا تحب جســـدي،هذه الجـــدائل، والثديان،وصـــرة البطن.

بدأ كل منهما في اكتشاف جسد الآخر، في المرة الأولى لم تسمح لهما فورة الشهوة بهذا الاكتشـــاف، ولكـــن دقـــات

الرجل في الأسفل كانت تتناهى إليه رغم ذلك، أمسكت برأسه وجذبته إلى أسفل جسدها،هتفت به : "أنت لست خائفا منـــي، أليس كذلك؟ " كان في حاجة إلى أن يغوص في جسدها، لعل "مير عرب " تبتعد عنه قليلا، لعل تلك الشهوة الغامرة تخفف قليلا من تقاليد الندم، تركها تقوده، تحول جسده كله إلى آلـــة طيعة في يديها، وتعلم فمه أن يحط في المكان الذي تريده:

ــ " عرفت طعم مياه الأمطار والأنهار والينابيع، ذقــت أولى قطرات المطر في جبال تركستان، وانصهرت في فمي الثلوج عند منابع آمودريا، وغرقت في ينابيع الغابـــات فـــي فرغندة، ولكني لم أذق أبدا شيئا في مثل عصارة جسدها.

هل كف الرجل عن طرق الفضة، وهل أوقفـــت "ميـــر عرب" كل طقوسها، وهل غربت الشمس عن بخارى أخيرا، وحل ليل صاف الظلمة بلا نجوم قلقة، يدخلان معا إلى حلـــم قديم، الأنبياء غرباء، والرغبات محتدمة، تأتي الشـــهوة أولا ثم تحل اللعنة بعد ذلك، يلتقـــي جســـدهما وتـــتحطم ســـدوم وعمورة بشواظ من النار، تتحول امرأة لوط إلى تمثال مـــن الملح ما لبث أن ذاب عند أول لمسة مـــن العشـــق، تهتـــف ليليانا:" حبك أطيب من الخمر، وعطرك عـــذب كالعشـــب،

أخبرني يا من تحبه نفسي، أين ترعي، وبمن تحلم في وقت الظهيرة"، يسألها "نور الله" مدهوشا:"أهذه أغنية؟" تقول:"أجل، إنها أقدم أغنية قالتها امرأة على فراش حبيبها، إنها نشيد الإنشاد"، كان أحدهم قد أنكر زوجته مرتين، وعندما طمع فيها الفراعنة والملوك حلت عليهم لعنة لم يكونوا أهلا لها، وفي الكهف شرب واحد آخر الخمر حزنا على دمار مدينته وعندما استيقظ اكتشف أنه قد ضاجع ابنتيه، كانتا خائفتين من انقراض نسلها فجاء نسل كثيف مجلل بالعار، تفيق "ليليانا" من نشوتها، تمسح قطرات من دموع كانت تسكن طرفي عينيها، تقول:

ــ تخيل فتاة صغيرة يغتصبها رجل أكبر منها سنا، وأعتى جسدا، ومع ذلك يدينها الجميع، وبدلا من أن تأخذ قصاصها منه يرغمونها على الزواج منه حتى تصبح عبدة له طوال حياتها، تتحمل رائحة عرقه، ونزوات جسده، كأنها في كفارة دائمة لا تستطيع الفكاك منها.

يقول "نور الله" : هذه الفتاة.. هي أنت؟!

تغطي وجهه بجدائل شعرها، تمتلئ أذنيه بصليل الأجراس فلا يستطيع أن يفرق بين كلماتها وتأوهاتها؟ تسير

عارية في الغرفة المعتمة وتوقد شمعة وحيدة في الشمعدان الكثير الشموع، تتراقص ذبالتها الواهنة فيشع جسد ليليانا بالضوء والفجور والشهوة، كل غوايات العهود القديمة، تختبئ في أحضانه مرة أخرى، ولكن "نور الله" يتذكر أن هناك عالما آخر غير هذا الجسد، يتذكر "ميرعرب" و"لطف الله" ودقات الرجل العجوز في اسفل الدرج، ينهض من الفراش ويأخذ في لبس ثيابه بينما تراقبه وهي مستلقية وعلى شفتيها ابتسامة ناعسة، يقول لها مترددا:

ـ يجب أن أنصرف الآن؟

تمتمت من بين شفتيها:

ـ إني نائمة وقلبي مستيقظ، رأسي قد امتلأت بالندى، وغدائري صبغتها ذرات الليل، قد نزعت قميصي فكيف ألبسه؟

تدير له ظهرها ويسمع أنفاسها وهي تتردد في هدوء، كأنما تواصل حلمها القديم، توقف حائرا، كان يريدها أن تهبط معه، شعر بالخجل لأنه كان خائفا من الهبوط وحيدا، خرج من الغرفة واغلق الباب في إحكام، ثم بدأ يهبط الدرج بأقدام مترددة، تعالت أصوات الدقات، بدا كأن هذا العجوز لا

يعرف الراحة أبدا، لا ينير المكان سوى اللهب المنبعث من الكور، كأنه نبي ضال، حاقت به اللعنة فأخذ يطرق الفضة دون هوادة، خيل ل"نور الله" أنه سوف يفلت من البيت دون أن يستطيع الرجل ملاحظته، ولكن الرجل رفع فمه فجأة وأخذ يتشمم الهواء ونظر في اتجاهه بعينيه المطفأتين ثم قال من بين أسنانه:" اهو أنت؟" تجمد "نور الله" مرعوبا،خيل إليه انه سوف يخرج من خلف منضدته وأجراسه ويهاجمه بتلك المطرقة التي يحملها، ولكن الرجل عاد يقول:

ــ توقف وقل من أنت، تكلم حتى أراك.

ولكن "نور الله" أكمل بقية الدرج عدوا، عبر الفناء من أمامه بسرعة وسمع صوته وهو يلاحقه:

ــ أنت تلهث، أنت خائف لحد الموت.

فتح الباب بسرعة واندفع بجسده خارجا، بعيدا عن "الكور" المشتعل ورائحة النشادر الخانقة، أحس بالنشوة وهو يشعر بهواء الليل يحيط به رقيقا وحرا، يسير عدوا عبر كل الطرقات المتشابكة، خفيفا لا يكاد يلمس الأرض، دروب أصبحت مفتوحة لا يضل فيها أحد، خالية من الناس، تركوا له المجال ليمارس خفته وليجرب الطيران من قاع المدينة

إلى قمتها، عبر النفق الحجري وبدت المدينة ببيوتها وقبابها ومآذنها، اقتربت السماء المحتشدة بالنجوم، حتى أنه لو قفز للمسها بأطراف أصابعه.

عندما وصل إلى "ميرعرب" وجد كل شيء هادئا، انتهت كل الصلوات، ولم يبق إلا حارس ليلي كان نائما بجانب باب صغير نصف مفتوح، دخل إلى غرفته وأغلق الباب خلفه وجرع كل ما في الإبريق من ماء، وغرق في نوم عميق متواصل لم يوقظه منه حتى آذان الفجر.

كان الصباح رائقا، وجسد "نور الله" مسترخ وراض، يتحرك في نعومة بين الأروقة المختلفة، ينتقل من معلم لآخر، ومن حلقة لأخرى، كان يهرب دون أن يدري من عيني "لطف الله" المتفحصتين، طوال فترة الصباح وهو يتحاشاه، ولكنه أمسك به بعد صلاة الظهر، قال له بصوت فيه بعض الحدة:

ــ هل ترد أن تتحدث إلى هنا أم أن علينا نذهب خارج المنزل؟

ظل جالسا أمامه، يعلق على وجهه ابتسامة بلهاء، كان إحساسه بالنشوة أقوى من حاجته للكذب، تأمل "لطف الله"

وجهه في دهشة وغيظ، لم يكن يبدو عليه أي إحساس بالندم، قال في حدة:

ـ لقد ذهبت إليها مرة أخرى أليس كذلك؟ أيـــن..علـــى حافة النهر؟ مصادفة أخرى.

قال "نور الله" فجأة: ذهبت إلى بيتها.

صاح "لطف الله" مفزوعا :

ـ يالله، في حي اليهود،هل كنت تعرفه من قبل؟ كيـــف جرؤت على ذلك؟

لم يبال "نور الله" بفزعة، قال بقين مؤكد:

ـ استمع إلى يا "لطف الله"، دون غضب أو حنق، إنها امرأة كالقدر، ولا راد لما قدر الله، لقد أخلفـــت معهـــا كـــل المواعيد، وأنت الشاهد على ذلك، كيف كان يمكن أن أقابلها في تلك المدينة الواسعة المليئة بالخلق من كل جنس ولـــون، الممتدة والمتسعة مثل أذرع الأخطبوط، ورغم ذلك فقد التقيت بها، ماذا تسمي هذا إذ لم يكن قدرا مكتوبا ومحتما.

حاول "لطف الله" أن يحافظ على هدوئه ولكـــن كلماتـــه كانت حادة:

ـــ هكذا تبرر الأمر لنفسك؟ إذا كنت قد دخلـــت بيتهـــا وضاجعتها على فراشها فقد اخترت قدرك حقا.

ـــ إنها امرأة وحيدة، لا يوجد في بيتها إلا رجل عجوز لا يكف عن صنع أجراس الفضة، رغم أنه أعمى تقريبا.

قال "نور الله" ذلك وهو يحاول أن يهدأ مـــن مخاوفـــه ولكن "لطف الله" كالعادة وصل إلى لب الموضوع:

ـــ ومن هو هذا الرجل، خادم أعمى، أم أب عـــاجز، أم زوج مغلوب على أمره.

ـــ لا أعرف، لم تجبني.

نظر "لطف الله" إليه طويلا،ثم قال في صوت خافت:

ـــ لقد جئنا معا في قطار واحد من وادي فرغانـــة، ولا أريد أن أعود بك وأنت جثة هامدة.

ونهض واقفا، كانت كلماته مليئة بنـــوع مخيـــف مـــن العاطفية، لا تليق مع شخصيته المتصلبة، لم يتحدث إليه في هذا الموضوع بعد ذلك، وانتظمت الحياة اليومية فـــي "ميـــر عرب"، اجتمعت حلقات الدرس وانفرطت، وتجمعت الكراكي البيضاء مثل أسراب طنانة، وأكتشف "نور الله" أنه لا يوجـــد متسع للندم، كان عاكفا على الدرس والتحصيل وأداء الصلاة

في أوقاتها، مبتهلا ومتفانيا، يقابل "لطف الله" بنظرات هادئة ومطمئنة، تصبح اللغة أكثر طوعا له، فيقرأ الشعر وعيــون التراث ويهبط إلى أقبية " مير عرب" حيث توجد العشــرات من المخطوطات المذهبة، ولكن في ركن خفي وعميق يوجد نور الدين الآخر الذي يشم الرغبة المنبعثة من أجساد النساء ويربض منتظرا لحظته، يكبت كل رغباته الحارقة وجوعــه الذي لا يهدأ، تدوي في أذنه تأوهات "ليليانا" مختلطة بطرقات الرجل العجوز، ولكنه يظل نائما مدركا أن وقته لم يحن بعد، كان "نور الله" الأول يستمع إلى القرآن ويذوب وجدا، بينمــا "نور الله" الآخر يستمع إلى نشيد الإنشاد فتنتفض كل خلية من جسده:

ــ " كان الشيطان يحتل جزءا من روحي، من الصعب الخلاص منه،لا توجد فضيلة كاملة، ولا عربدة كاملــة، ولا زهو كامل ولا نشوة كاملة، ذلك الجزء من نفســي الــذي لا أستطيع أن أتخلص منه يجعل كل شيء ناقصا"

لم تتح فرصة اللقاء مع ليليانا إلا بعد أســبوع كامــل، عندما كان يستعد للخروج من "مير عرب" شاهد "لطــف الله" وهو واقف يترقب خطواته، هل كان يدري أنه يشاهد "نــور

الله" الآخر الذي يسير متقافزا نحو بركة "خانقاه نادر"، كـــان اليوم غائما والسحب المتماسكة لا تترك فجوة لزرقة السماء، كان الهواء دافئا ولكن قطرات المطر بـــدأت تهمـــي علـــى المدينة ببطء فغطت كل القباب والمآذن بمسحة من الضـــباب المغبر، رآها قادمة من بعيد، تمشي بخطواتها المعتدة، راعية من جبال أورشليم تقود أغنامها في حواري بخارى، يســـعى هو خلفها، حمل مسلوب الفؤاد، يسيران إلى منطقة الخرائب التي تحيط بجوكاشان، يقفان متواجهان، كل واحد منهما ينظر في عيني الآخر دون أن يحاولا الاحتماء من قطرات المطر التي كانت في ازدياد، قال لها:

ـــ أشعر بالخوف.

ضحكت وهي تقول: لا متعة بدون خوف

أكد على كلماته: هذا العجوز الذي لا أدري مـــن هـــو يشعرني حقا بالخوف.

قالت له مؤكدة : لن يكون اليوم في البيت.

ـــ من هو على أي حال؟

ـــ قلت لك أنه لن يكون موجودا.

ـــ هل يمكن أن نذهب إلى مكان آخر؟

ـ خذني إذن إلى غرفتك في "مير عرب".

لم يكن هناك بدا من السير خلفها محافظا علـــى نفـــس المسافة الفاصلة، عبورا للأزقة الضيقة وهبوطا مع الـــدرج الحجري، يرمق العابرون خطواتهم المفضوحة، ويـــدركون إلى أين ينتهي المطاف، سرير نحاسي تشع قوائمـــه شـــمس باهتة، وسحب من شراشف الدانتيلا، فناء البيت كان خاليـــا، "الكور" مطفأ والأجراس الصغيرة ليست في مكانهـــا، تتهـــد "نور الله" في ارتياح، هل يمكن أن يظفر بمتعة دون خوف؟، كانت قد سبقته إلى أعلى، صعد الدرج، خطا فـــوق الســـجاد الفاقع الألوان وكانت "ليليانا" عارية، أسبوع مـــن الانتظـــار يجعلك أكثر حرصا على الوقت، ويجعلك جائعا لدرجة مـــن الصعب إشباعها، قال لها أن تدفق رغبتها لا يضاهيه ســـوى تدفق المياه في منحدرات فرغانة، ولايضاهي ثلـــج الجبـــال سوى نصاعة جسدها وسط ملاءات الفـــراش، ولا يضـــاهي هضابها إلا نهديها لحظة أن يشرئبا، قالت له ضاحكة: أنـــت تتعلم سريعا رغم أنني امرأتك الأولي، هل تتعلم بهذه السرعة في "مير عرب"، كان قد نسي "نور الله" الآخر، ولكنه لم ينس الأسئلة التي طرحها عليه "لطف الله"، قال لها: هذه الفتاة التي

اغتصبت وأرغمت على الزواج من مغتصبها، هــل كانــت أنت؟ قالت:ربما كنت أنا، ربما كانت غيــري، النــاموس لا يفرق بين فتاة وأخرى، قال: هل كانت تسعى للانتقام أمــام عين زوجها وأهلها؟ قالت: كف عن طرح الأســئلة، الآن لا يوجد إلا بيت خال وفراش وامرأة راغبة، خلاصــهما هــو إفلات العنان لجسديهما، يغرقان معا في عتمة مــن العــرق واللهاث، غفيا معا وقد تداخلت أعضاؤهما واختلط عرقهمــا، ولعل نفس الحلم طاف في ذهنهما، خليط من العبير وصلصلة خافتة لأجراس فضية.

ولكن "نور الله" انتبه من غفوته على صــوت أنفــاس ثقيلة، كأن الغرفة قد امتلأت فجأة بذئاب جائعــة، لــم يكــن يعاني كابوسا غريبا، كانت الغرفة فعــلا مليئــة بأشــخاص يشبهون الذئاب، لحاهم كثيفة وجدائلهم طويلــة، لــم يتبــين عددهم، أربعة أو خمسة، نهض "نور الله" وهــو يحــاول أن يداري عريه، كان ظهرها هي أيضا عاريا أمام أنظــارهم، وكانت أنفاسها لا تزال تتردد في هدوء، وثيــابهم الســوداء تتداخل في عتمة الغرفة وتحولهم إلى كتلة واحدة لا تتحــرك فيها إلا عيونهم الغاضبة، عند الطرف الآخر من السرير كان

الرجل العجوز واقفا مستندا إلى القائم النحاسي، كأنـــه يســـد المدخل الوحيد للغرفة، صاح أحدهم:

ــ اهبط من فراشها أيها النجس.

استيقظت ليليانا مفزوعة، جلست في الفــراش دون أن تهتم بإخفاء صدرها العاري، حدقوا فيهــا جميعــا بعيــون مبهورة ولكنها هتفت من بين أسنانها:

ــ ماذا تفعلون في بيتي؟

تخلص أحدهم من سطوة النهد العاري وصـــاح وهــو يشير إلى "نور الله":

ــ جئنا لننتزع هذا النجس من فراشك.

حولت بصرها إلى الرجل العجوز الذي كـــان مـــازال ممسكا بالقائم المعدني:

ــ وأنت، كيف أدخلتهم إلـــى غرفتـــي أيهـــا الأعمـــى العجوز؟

لم يرد الرجل، تقدم اثنان من الرجال وانشبا أظافرهمـــا في جسد "نور الله" العاري يحاولان إخراجه مـــن الفـــراش، ولكن ليليانا أمسكت به وهي تصـــرخ : "اتركـــوه"، دفعهـــا أحدهما بعيدا وهو يدمدم: "عاهرة مثلك لا يجب أن تـــتكلم"،

صاح "نور الله" وهو يحاول أن يقاوم الأذرع الممتدة حولــه مثل المخالب، ولكنهم تدافعوا، قيدوا حركات ذراعه، وحملــه الآخرون من قدميه، وهتف أحدهم في حنق: لن نقتلك ولكــن سوف نخلصك من هذا العضو الدنس، كور رجل أخر قبضته وهو بها فجأة في بطن "نور الله"، أحس أن أحشائه على وشك أن تخرج من فمه، صرخت ليليانا مرة أخرى ولمــع نصــل سكين في عتمة الغرفة، توسلت إليهم: اتركوه، لن آت به هنا مرة أخرى، قال الرجل الذي يمسك بنصل السكين: يجب أن نتأكد أولا من أنه لن يعود إلى فراشك أو فــراش أي ســيدة أخرى، لم يعد "نور الله" يدري من أين توجه لــه اللطمــات، كان جسده عاريا وضعيفا وعلى وشك التهاوي، أحس بطعــم الدم اللزج وهو يسيل من فمه، اقترب الرجل بالنصل وحكــه في جلد صدره كأنما يختبر مدى مضاء النصل، تفجر خــط من الدماء من الجرح، بكت ليليانا وهي توصل توسلها لهــم: لا تفعلوا به هذا، إنه مازال صغيرا، قــال "نــور الله" وهــو يحاول أن يلفظ الدم الذي يملأ فمه: بــالله علــيكم، ســوف تقتلونني، أمسك الرجل بعضوه، كــان صــغيرا ومنكمشــا، ونهضت ليليانا وهي عارية تماما، أمسكت بالرجل العجــوز

وتشبثت بثيابه وهي تقول له : بحق الله، لا أريد قتيلا في بيتي، ولكن العجوز رفع يده فإذا به يحمل المطرقة الفضية الصغيرة ويهوى بها على رأسها، لم تكن ضربة قوية ولكنها جعلتها ترتد وقد تركت علامة حمراء على جبهتها، صرخ "نور الله" وهو يحس بملمس النصل البارد أسفل جسمه مرة أخرى، ولكن دوى صوت آخر قادم من مدخل الغرفة:

ـــ اتركوه

قيلت بصوت قوي وحازم فالتفتوا جميعا نحو مصدرها، كان "لطف الله" يقف وخلفه مجموعة من طلبة "عرب مير"، اجسادهم تتراوح طولا وقصرا ولكنهم جميعا في ثيابهم البيضاء وعمائهم الضخمة أشبه بقبضة متحفزة، لم يكونوا يحملون أي نوع من العصي أو المدى ولكن مجرد حضورهم كان مفاجئا ومباغتا، امتلأت الغرفة فجأة بعشرات الشهود حتى أن الأيدي التي كانت تقبض على "نور الله" قد تراخت فتهاوى على الأرض، تقدم "لطف الله" وخلفه أربعة من الطلبة ورفعوه، أسندوه بواسطة أجسادهم وبدأوا يسيرون به خارج الغرفة، ومازال الذهول مسيطرا على الباقين،

وحدها "ليليانا" هي التي شهقت في صـــوت عـــال قبـــل أن تنخرط في البكاء.

بينما كانوا يهبطون به الدرج اكتشفوا أن بدن "نور الله" العاري قد أخذ في الارتجـــاف، خلـــع "لطـــف الله" عباءتـــه ووضعها على كتفه وهو يقول:

ــ كدت تقتل نفسك، كان يجب أن تعرف أن هذا الرجل العجوز هو زوجها.

شهق "نور الله" وأمسك نفسه بصعوبة من أن ينفجر في البكاء وهو بين أيديهم، واصل الطلبة سيرهم الصامت تحـــت المطر الذي أصبح أكثر غزارة حتى خرجـــوا جميعـــا مـــن تلافيف الحارة المتشابكة:

ــ" فعلها "لطف الله" وأنقذني من جديد، انتشـــلني مـــن موت محقق مجلل بالعار، كأنه كان يمسك بأطراف قدري، لا أدري كيف حدد مكاني ووصل إلي، ولكن يبدو إنني كنـــت مفضوحا أكثر مما ينبغي، وأن بخارى أصغر مما يلزم، لقـــد كان الموت شديد القرب مني، ولكن المدهش أن "لطـــف الله" كان أقرب منه".

كم يوم يلزم حتى تلتئم الجراح، وكم يوم يكفي للنسيان، وهل كان يمكن لكل هذه المهانة أن تبقى خـــارج الأبـــواب العتيقة "لميرعرب"؟ تحول المطر إلى سيول عندما عـــادوا جميعا إلى داخل المدرسة، كانوا يرتجفون من التوتر ومـــن شدة البلل، وكان المطر قد أرغم المدينة أيضا على إغـــلاق عيونها فلم تعد الفضيحة علنية، تركوه في غرفته وانصرفوا جميعا إلى غرفهم بلا لوم ولا عتاب، وظل هو جلسا يرتجف في ركن الغرفة دون أن يتوقف المطر، لم ينم للحظة واحدة حتى جاء صباح رمادي داكن، ومرة أخرى لم يجرؤ علـــى الخروج لصلاة الفجر، تحسس جروح وجهـــه فوجـــدها قـــد انتفخت لدرجة واضحة، سمع طرقا على باب الغرفة وفـــتح الباب وبدا أحد العاملين في المدرسة، نظـــر إلـــى جلســـته المنكمشة وإلى ملامحه المنتفخة، قال:

ـــ الشيخ الأكبر يريدك أن تصعد لمقابلته الآن.

بدا واضحا أن المطر لم يقدر على منع الفضيحة مـــن الانتشار داخل المدرسة، وقف الرجل بالقرب من الباب حتى تمكن "نور الله" من لبس ثياب لائقة، ثم ســـار خلفـــه عبـــر الأروقة المبللة، كان المطر قد توقف أخيرا، ولكـــن رائحـــة

العفونة التي كانت كامنة في ثنايا الجدران القديمة قد أيقظتها الأمطار وأصبحت تملأ الأروقة، أحس بالاختناق، أحس بالوهن أيضا يدب في ساقيه وهو يصعد السلم الحجري، نظر إليه الرجل في رثاء دون تعاطف، ونظر إليه بعض طلاب المدرسة العابرون، كان من النادر أن يصعد واحد منهم إلى الطابق العلوي دون أن يكون هناك أمر جلل، سارا بعد ذلك في ممر طويل مضيء بعض الشيء، توجد على الجدران التي تطل نوافذ صغيرة مشغولة بالزجاج الملون، أما على الجانب الآخر فقد كانت فتوجد غرف الأساتذة متجاورة ومغلقة الأبواب، كانا يتجهان إلى صدر المكان حيث توجد القاعة الرئيسية، أحس بساقيه وهما تزدادان ضعفا، نظر إلى العامل في توسل، لو أنه يسمح له بالعودة، يسمح له بالهروب، ولكن الرجل في هذه المرة كان ينظر له في توعد، دفعه أمامه دون رفق حتى أصبحا قرب الباب، طرقه وفتحه ثم دفعه إلى الداخل، حاول "نور الله" أن يتنفس فلم يجد هواء، تطلع حوله بعيون زائغة، رأى عمائهم جميعا، بيضاء وأسطوانية، عريضة من الأعلى وتضيق كلما هبطت إلى الجبهة، جميعهم هنا، الأساتذة يجلسون على جانبي القاعة،

والشيخ الأكبر يجلس في صدر المجلس، كفوا جميعــا عــن الحديث وأخذوا يعبثون في لحاهم في صمت، كانت جــدران القاعة من حجر صلد، تتدلى من السقف ثريا خشــبية مليئــة بالقناديل النحاسية الداكنة، لا توجد فيهــا إلا نافــذة واحــدة مشغولة بالخشب المعشق وتطل على فناء المدرسة، غاصت قدما "نور الله" في سجادة قديمة عالية الوبر، أحس أنه علــى وشك الغرق في موج متلاطم من الخيوط الملونة، تطلع "نور الله" إلى الشيخ الأكبر ولحيته الشهباء وهو منكفئ يوقع بعض الأوراق، كان أمامه طبق كبير مليء بحبات من الكرز الكبير القاني، قطرات من دم متجمد، تقدم "نور الله" خطوة أخــرى وهم يواصلون التحديق فيه بنفس الصمت، تمنى لو أن هــذه الخيوط تتحول إلى أحراش كثيفة تخفيه عن عيونهم، توقــف في مكانه عاجزا عن التقدم أو التراجع، أخيرا رفــع الشــيخ الأكبر رأسه قليلا عن الورق الذي يوقع وعدل النظارة قليلا ثم حدق فيه وأشار إليه بإصبعه فخر "نور الله" على ركبتيه، عاد الشيخ الأكبر إلى مراجعة الأوراق، وأمسك "نــور الله" نفسه بصعوبة حتى لا تنهمر الدموع من عينيه، كانوا جميعا يعبثون في لحاهم ويتأملون الإصابات المنتفخة في وجهــه،

أدلة بينة لا يمكن دحضها، رفع الشيخ الأكبر رأسه أخيرا وهتف في صوت جهوري:

ــ أطلب المغفرة.

قال "نور الله" بصوت متحشرج: العفو والمغفرة يا مولانا، رحمات.

قال الشيخ: ليس مني، ولكن من الغفور الرحيم.

همهم المشايخ كلهم في صوت واحد : لا إله إلا الله، فارتج على "نور الله" وقد أدرك أنهم قد أوقعوا به، تلفت حوله مذعورا مثل فأر، خفت ضجة التوحيد وعاد صوت الشيخ متهكما ولائما:

ــ ماذا فعلت بنفسك وماذا فعلت بنا؟

جف حلق "نور الله" فجأة، هل كان الشيخ الأكبر يتوقع إجابة منطقية عن سبب ما حدث؟ استرد أنفاسه الضائعة ثم قال فجأة وقد وجد السبب المنطقي الذي يبحث عنه:

ــ الشيطان، أجل، الشيطان قد غلبني على أمري.

قلب الشيخ شفتيه في امتعاض وهو يقول:

ــ ما أكبر الجرم وما أهون الاعتذار.

وبدأ هو أيضا يعبث في لحيته كأنه لم يتخذ قراره بعد، تنهد وهو يقول بصوت خافت:

ـ يبدو أننا كأساتذة وكرجال دين قد فشلنا في أن نعلمكم ماذا تعني الفضيلة، إنها ليست مقاومة الغواية،ولكن التعايش معها، يجب على الفضيلة أن تجاور الغواية دون صراع، فلا أحد يستطيع أن يقاوم طوال حياته، عش معها ولكن لا تستسلم لها، الفضيلة ليست كلمة، إنها تلك العباءات التي نرتديها، والعمائم التي نغطي بها رؤوسنا، الحجة التي نعيش بها في مدينة الغواية التي أسمها " بخارى"، مجرد قناع نحافظ به على هويتنا وسط مدينة تموج بجنسيات شتى وديانات لا حصر لها، وغوايات بعدد أحجارها القديمة.

سكت، ولم يدر "نور الله" إن كان الشيخ الأكبر يتحدث إليه، أم إلى الأساتذة، أم أنه كان يتحدث إلى نفسه؟ ظلوا جميعا صامتين، فقط أصابعهم هي التي ظلت تداوم على تخلل اللحى، لم يكن الشيخ ينتظر ردا ولا تعليقا ولكنه نظر مباشرة إلى عيني "نور الله":

ـ لم تجبني على سؤالي، ماذا فعلت بنفسك وماذا فعلت بنا، سوف أجيبك أنا، لنفرض أن زوج هذه السيدة قد قدم

شكوى لسلطات السوفيت، ماذا سيقولون عنا وهم لا ينقصهم سوء الظن بنا، أترى تلك الفسيفساء التـــي تكســـو جـــدران المدينة القديمة، بخارى مثل هذه الفسيفساء، كل قطعة مركبة على الأخرى في توازن حرج، لو اختلت قطعة فكل شـــيء مهدد بالانهيار، لقد أخلت عملتك الشائنة هذه بذلك التـــوازن الخفي وغير المرئي للمدينة.

لم يفهم "نور الله" ماذا تعني هـــذه الكلمـــات المركبـــة بالضبط، ولكنه وجد أن عليه أن يقول شيئا، قال:

ـــ لم أكن أعرف.

تنهد الشيخ بحرقة وهو يقول:

ـــ ما حدث قد حدث، لذلك لا مكان لك بيننا.

خيل إلى "نور الله" أنه لم يسمع الكلمات الأخيرة جيـــدا، قال في تردد:

ـــ ماذا يعني هذا يامولانا.

ـــ كما قلت أنا، وكما سمعت أنت.

ـــ ولكن يامولانا، هذا هو خطئي الأول وسوف يكـــون الأخير، وقد طلبت المغفرة وأعلنت التوبة.

ـ يجب أن يكون هناك عقاب، فالغواية على مبعدة أنملة منا، تكفي زلة قدم واحدة ويهوي فيها الجميع، هذا رادع لكل من لا يستطيعون التكيف والعيش بجانب الغواية دون الوقوع فيها.

ـ وهل أنا كبش فداء للجميع.

ـ أنت العاصي الأول.

انتفض "نور الله" واقفا في ذهول، نظر إلى المشايخ لعل أحد يتدخل لإنقاذه، كانوا هم أيضا غارقين في الذهول، ولابد أن الشيخ الأكبر قد أحس بمدى قسوته، فقد قال بعد فترة:

ـ سوف نسمح لك بالبقاء حتى تلتئم جروحك، لا نريد أن تخرج من "ميرعرب" ووجهك يحمل آثار ما حدث، وربما وجدنا لك مكانا في مدرسة أخرى في "خيفا" أو "سمرقند"، والآن انصرف إلى حجرتك وكن مستعدا للمغادرة حالما يتحسن وجهك.

عاد الشيخ الأكبر إلى أوراقه وقد حسب أنه بذلك قد أصبح عادلا، استدار "نور الله" وغادر الغرفة وسار طويلا

عبر الطرقة الموحشة، هبط الدرج الحجري دون أن يجد في طريقه أي مخلوق:

ـ "كانت هذه أشد لحظات حياتي مرارة، كنت موقنا أن كل المدارس والمساجد والخانقاه في تركستان سوف تغلق أبوابها في وجهي، وأن علي أن أعود مخذولا مسود الوجه إلى وادي فرغانة، في هذه اللحظة كرهت "لطف الله"، كان الأجدر به والأهون على نفسي أن يتركهم يقتلونني في حارة اليهود".

بينما كان يعبر الأروقة الرطبة ويقترب من باب غرفته، لدهشته الشديدة وجد نفسه يتمنى لو أنه يجد "ليليانا" بداخلها، كانت هي الوحيدة في تلك اللحظة المقفرة التي ستمنحه الحنان والمشاركة التي يحتاج إليهما، لم يحملها أيضا أي نصيب من اللوم، كل ما يعرفه أنها قد أعطت روحه طاقة من الجنون وحررتها من أسر هذه الغرفة، كانت هي ذنبه وخلاصه، متعته وندمه، ولكنها لم تكن في الغرفة، كان "لطف الله" هو الذي يجلس في انتظاره، وقف "نور الله" أمامه، مكسور النفس منتفخ الوجه وبلا مستقبل، خاف ألا تحمله قدماه فاستند إلى الباب وبدأت الدموع التي أمسكها

طويلا تطفر من عينيه، ونظر إليه "لطف الله" وهو يقول في رقة:

ــ هون عليك.

لم يكن غاضبا أو لائما كعادته، ولكنه بدا كأنه عـــارف بما آل إليه مصيره، عرف بنفس الطريقة الخفية التي جعلته يفك طلاسم حارة اليهود وينفذ إليه من خلالها، صمت "لطف الله" قليلا ثم عاد يقول معتذرا:

ــ لم يكن أمامي خيار، إما أن أتركك تقتل في فـــراش هذه المرأة الغريبة أو أستعين بالآخرين وأفضح سرك، منـــذ أن تتبعتك وأنت تدخل هذه الحارة وقد أدركت أن حياتك قـــد أصبحت على حافة الخطر.

قال "نور الله" بصوت ملتاع: ولكن الأمر وصـــل إلـــى الشيخ الأكبر.

ــ لم أقم أنا ذلك بالطبع، ولكن كيف كنت أســـتطيع أن أكمم كل الأفواه؟

ــ لقد قضي علي، وسوف أغادر المدرســـة فـــور أن تشفى جروحي.

ولدهشته الشديدة تنهد "لطف الله" في راحة وهو يقول:

ـــ مازال هناك وقت، فرصة للمراجعة وربما التسامح، لو أن الشيخ الأكبر أراد بالفعل أن يعاقبـك لجعلـك تغـادر بخارى منذ هذه اللحظة، ولكنه اختار أن يبقي مسـاحة مـن الوقت.

لم يكن "نور الله" يتوقع أي نوع من المعجزات، ولكـن كلمات "لطف الله" جعلته يهدأ قليلا، نظر إلى وجهـه لعلـه يتبين إن كان يقول صدقا أم أنه فقط يطيب خاطره، واصـل "لطف الله" القول:

ـــ هيا نخرج، سنسير معا أمام الجميع حتى يعرفوا أننا ما زلنا أصدقاء مهما حدث.

جلس "نور الله" على الأرض منهكا: لا أقدر على السير ولا أستطيع الظهور خارج "مير عرب".

ـــ سوف نذهب إلى مقام " النقشبندي"، فلنستعن بأوليـاء الله،ربما انقضت حاجتك.

ـــ كيف سأخرج بهذا الوجه المتورم؟

قال "لطف الله" في مرح:

ـــ لقد كان شيخنا "النقشبندي" يعمل نقاشا وسوف تعجبه تلك النقوش المرسومة على وجهك.

سارا معا عبر الباب الواسع إلـــى المدينـــة الرماديـــة، حرص "لطف الله" على السير بجواره بينما سار "نور الله" هو محني الرأس، لم يرد لأحد من المدرسة أن يرى وجهه، ولم يرد أن يرى أيضا المعالم التـــي تربطـــه بالمدينـــة، كـــأن تضاريسها كانت تربطه بجسد المرأة التي عشقها، دخلا فـــي زحام سوق الحرير والبضائع التقليدية الموجود أمـــام مقـــام السامانين، تتعالى أصوات الباعة بكل اللغـــات وهـــي تبيـــع بضائع فارس والصين، كل أنواع البضائع ما عدا الجواري، كان "لطف الله" يعرف طريقه جيدا، وصلا إلى ساحة مليئـــة بالعربات الخشبية التي تجرها البغال، كان الحوذية يجلســـون فوقها مستغرقين في النوم، البغال أيضا كانت نائمـــة وهـــي واقفة على قوائمها، ركب "لطف الله" أول عربة صادفها وقال للسائق:" قصر هندوان"، بدأت العربة في السير دون أن يبدو أن أحدا منهما ــ الحوذي والحصان ــ قد استيقظا من النوم، سارت تحت سور القلعة ثم انحرفت في الطريـــق الترابـــي المؤدي إلى خارج المدينة، كانت هناك عربات أخرى تجرها الثيران قادمة من القرى القريبة وهي محملة بسلال الكـــرز والخوخ والسفرجل، من بعيد بـــدا النهـــر رماديـــا ومتألقـــا

فأغمض "نور الله" عينيه، حاول أن ينأى عن موقع غوايتــه الأولى، فردوس الماء المذاب من ثلوج نقية كالرغبة، عــذب كالشهوة، لاسع ومميت كوخز النحل، تبتعد أسوار بخارى، ويبدأ الخلاء المؤدي إلى صحراء التتار، مــزارع متنــاثرة، وأطلال من قصور الخانات القدامى، أبوابهــا قــد خلعــت، وأسوارها قد هدمت، وابتعدت القوافل عن مسارها، تتــنفس من خلالها الريح المحملة بالرمل والصهد، كأنه صدى الحداة القدامى وهم يتنادون لحظة الخطر، أحس "نور الله" أن هــذه الأطلال تشبهه تماما، وحيدة ومعزولة، مصير ضائع وســط الخلاء، ظلت العربة تخب بالسير، لا يقطع السكون إلا وقــع أقدام البغل وغطيط الحوذي، بدا مقام "النقشبندي"، الأســوار الممتدة من الآجر الأصفر، والقبــاب الصــغيرة المتتابعــة والآيات القرآنية المحفورة والمطعمة بالفسيفساء، هبطا مــن العربة وسارا عبر البوابة إلى ممر طويل تحف به شجيرات صغيرة من الزهر الأبيض، كأنها تماثــل خطــوات الشــيخ الورع فوق الأرض، زحام من الزوار والمصلين، يحتشدون في الأبهاء والأروقة، وفي وسط المكان، تحت شجرة باســقة الفروع غائرة الجذور يرقد الإمام النقشبندي تحت مقام مــن

رخام شاهق، توقفا أمامه وقرءا الفاتحة، وقال "لطـف الله" :" دعنا نصل".

عندما سمع التكبيرات الأول وهي تتردد علـى لسـان "لطف الله" استيقظ في داخله "نور الله" الأول، الذي يسـحره جرس اللغة، وتشتعل روحه بوهج الصحراوات البعيدة، عاد يصلي بنفس التهجد، ترى هل يمكن أن يشـفع لـه الأمـام ويلتمس له العفو والمغفرة، أحس انه لـم يكـد يشـبع مـن بخارى، حين لذ الأنس قليلا، هجم الصبح هجـوم الحـرس، جلسا مطأطئ الرأس كأنه يخشى أن يـرى الإمـام وجهـه المنتفخ، كانت هناك امرأة تتشبث بحافة القبر الرخامي وهي تبكي في حرقة، رفع "نور الله" وجهه وتأمل ظهرها، نهضت إلى غصن الشجرة الذي يكاد يلامس رخام القبـر وربطـت حوله قطعة من القماش، حبس أنفاسه، أهي ليليـان؟ نفـس الطول ولكن جدائل شعرها مغطاة، أرهف أذنيه لعله يسـمع صلصلة الأجراس، ثم أكتشف أن نور الثاني قـد حـل فـي داخله، عبرت نفسه لحظة الخشوع إلى لحظة الرغبة خلال ومضة من الزمن، قال "لطف الله" باسما وهـو يحـاول أن يستعيده:

ـــ آلا تريد أن تربط أنت أيضا قطعة من القماش حتـــى يستجيب الإمام لرغباتك؟

قال "نور الله" في شرود: ماذا؟

اختفت المرأة خلف حشود الزوار، ونهض رجل هـــذه المرة، طويل وشديد النحافة، يمسك في يده عددا من الخيوط الملونة، ربط اثنين منهما بعناية حول غصن الشـــجرة، ثـــم عاود الجلوس في الركن، كان منظره آســـرا، تلـــك اللحيـــة المائلة للحمرة التي تحيط بوجهه، وشعره العاري المتهدل في خصلات جعداء، كان فيه شيء بري وفطري، وكان يملـــك عينين براقتين، تتجولان في قلق وسط أرجاء المكان، كأنمـــا اختزن طاقة جسده كله في هـــاتين العينـــين، تبـــادل معهـــم النظرات ولكن يبدو انه لم يرهما جيدا، بعد فترة نهض أيضا وربط المزيد من الخيوط، ولكنه حين عاد جلس بجانبهمـــا، قال له "لطف الله" باسما:

ـــ ما كل هذه الخيوط، هل أنت مثقل بالأمنيـــات لهـــذه الدرجة؟ لو أن الإمام النقشبندي مازال حيـــا لحـــارب هـــذه البدعة؟

قال الشاب وهو يبادله الابتسام، تكلم في صوت خافت كأنه يهمس:

ــ وربما شاركهم في عقد هذه الخيوط، لقد كان يعرف جيدا أن أحلام الناس وأمنياتهم لم تكن يوما بدعة، هذا هو التاريخ الحقيقي، أمنيات حارة لأناس غير قادرين على تحقيقها، ولكن أنتما طالبا علم "من مير عرب"، أليس كذلك؟

بسط كفه إليهما وهو يقول في انشراح:اسمي عبد الله قادري.

هتف "لطف الله" على الفور: أنت شاعر بخارى

ابتسم " قادري " وهو يقول: ياله من لقب، نعم أنا شاعر هذه المدينة البائسة والعظيمة، ولكني لا أعرف إن كنت استحق هذا اللقب أم لا.

ــ نادرا ما أقرأ الشعر، ولكني عثرت على ديوان لك داخل المدرسة.

ــ أتعني أنه يوجد ديوان لي داخل "مير عرب"، لقد تطور شيوخنا كثيرا.

ـ لا أعتقد أنهم قد قراؤه، لقد كنت أنا الذي قمت بفتح أوراقه المتشابكة، ولكن أنت لست ملحدا أليس كذلك، لأنك لو كنت ملحدا فعلا فماذا تفعل إلى هذا المكان؟

ـ جئت إلى هنا حتى أكتب قصيدة جديدة، تعودت على ذلك، وكل خيط ملون أضعه حول غصن الشجرة هو مقطع من قصيدتي، أم كوني ملحدا أم لا فلا اعرف ماذا يعني هذا، إن كل ما يربطني بالعالم موجود على هذه الأرض، الناس وتواريخهم وأحزانهم التي لا تنتهي، حتى الآن لايوجد ما يربطني بالسماوات البعيدة، حتى مقام النقشبندي هذا، هو أحد الأشياء التي تربطني بهذا الأرض، فهو ليس مجرد مقام لمتصوف عاش منذ خمسمائة عام، إنه حياة كاملة.

قال "لطف الله" في إصرار: ولكنه كان أولا وأخيرا رجل دين

ـ ليس بالمعنى الحرفي للكلمة، ربما كان أكثر من ذلك،سوف أحكي لك قصة عنه.

استند قادري إلى أحد الأعمدة وأغمض عينية كأنه يلملم شذرات حكايته من الماضي البعيد، قال في صوت خافت:

ـ كان النقشبندي يصر دائما على أن يأكل مـن عمـل يده، كان كما تعرفون يشتغل بالنقش على المعادن، لدرجة أن الناس قد نسوا اسمه الحقيقي وأطلقوا عليه لقـب صـنعته " النقشبندي"، رفض عطايا الملوك وهدايا الأغنيـاء، وفضـل حياته الشاقة التي لا تنتهي،فـي ذات يـوم توقـف أمامـه تيمورلنك وهو يقود جيشه، كان لايزال أسمه الأمير تيمور، مجرد حاكم صغير على مقاطعة صغيرة هي " كيش"، ومـع ذلك كان يحلم بكل بلاد ما وراء النهر، يريد أن يستخلصـها لنفسه من خانات "التشاغاناه" الذين كانوا يفرضون قبضـتهم على مصائر الخلق منذ الاجتياح المغولي الأول، التقى الرجل الذي زهد في كل شيء مع الرجل الذي كان يريد كل شـيْ، كان تيمور فوق جواده، تأمل الشيخ المنكب على عمله لحـد الفاقة، قال له: هل تعرفني؟ نظر النقشبندي إلى ساقه، ثم رفع بصره وحدق في عيني تيمور البراقتين ثم عاد ليعكف علـى النقش وهو يقول: ولكنك سوف تغدو معروفا، ولن يسـتطيع مخلوق واحد إنكار وجهك في كل تركستان، بل وابعد مـن ذلك كثيرا، تفاعل تيمور بهذا الرد فعاد يسأل مـدققا: فهـل سأستخلص لنفسي هذه الأرض من خانات"التشاغاناة"، قـال

النقشبندي: سوف تملك أرضا لا تقدر السحب علـــى الســفر فيها ولا الرياح على عبورها وسوف يدين لك مــن الخلــق أكثر من نمل سليمان، ولكنك لن تستطيع التحكم فــي النـــور الذي يدخل عينيك، ولا الأرض التي تطأهــا قــدماك، قــال تيمور :أعرف أن هناك ثمنا ما يجب أن يدفع، ولكنه يبدو هينا مادمت سأنتصر، ابتعد تيمور وقد حسب أن الثمن هينا، وأن الصفقة أكبر من ترفض، خاض العديد من المعارك الدامية، وتحالف مع أعدائه ومثل بأصــدقائه، ولــم تصــف ميــاه "أموداريا" من الدم لسنوات طويلة، وعندما امتلــك نصــف البلاد كان قد فقد عينا من عينيه، فقد جزءا من نور العــالم، ولكنه استمر في الحرب، كانت هي خبزه اليــومي، وكانــت المدن المحترقة هي بهجة قلبه، ثم ملك النصف الثاني، وفقد ساقا من ساقيه، أصبح "تيمورلنك"، تيمور الأعــرج، ولكنــه كان قد أصبح قاهر العالم، وسلطان أخصب أراضي الــدنيا، وتحققت النبوءة بشكل أو بآخر، وتذكر تيمور نقاش المعادن الزاهد الذي تنبأ له بكل هذا فقرر أن يرسل له هدية، جارية وجواد وكيس من ذهب، ولدهشته الشديدة قبــل النقشــبندي الهدية، حتى الزهاد لا يســتطيعون أحيانــا رفــض الهــدايا

الفاخرة، هكذا فكر تيمورلنك وهو عازم على زيارته، ولكنه وجده على نفس حاله، منهمك في العمل لحد الفاقة، قال تيمورلنك مستغربا: فماذا فعلت بالهدايا التي أرسلتها إليك، قال النقشبندي دون أن يرفع رأسه عن الطبق الذي ينقشه: أما الجارية فقد كانت جميلة، ولكن الحرية أجمل، لقد أعتقتها وهي الآن زوجة وعلى وشك الإنجاب، وأما الجواد فقد كان من سلالة كريمة الأعراق، ولكن عرق الناس أكرم، لذا فهو يساعد الفلاحين في حرث الأرض، أما الذهب فمن الذي يستطيع أن يقاوم سحره، لذلك أعطيته لتلاميذي من صغار النقاشين ليعيدوا صياغته وتحويله إلى حلي للنساء، وهكذا ترى أيها السلطان العظيم أن هداياك كلها قد تم الاستفادة منها على خير وجه"

قال "لطف الله" : يالها من حكاية، ولكن هل حدثت فعلا؟

قال قادري: كان خليقا بها أن تحدث.

قال "لطف الله": أقول لك مرة أخرى، أنه كان متصوفا وزاهدا، ولكنه لم يكن له شأن بالسياسة.

قال قادري:

ـ وهل تحسب أن السياسة بعيدة عن أبواب "ميرعرب"، ما سوف يحدث سوف يقلب الأمر رأسا على عقب، كما تقول النبوءة، سوف نمتلك أطراف الأرض، ولكننا سوف نفقد جزءا من نور العالم، ولن نسير باستقامة على الأرض التي نطأها.

نهض قادري ببط ء، بدا وكأنه قد أتم قصيدته في التو، ربط كل ما في يده من خيوط في غصن الشجرة، وضع يده على قلبه وانحنى محييا وهو يقول لهما:" الله حافظ"، ثم استدار منصرفا، وظل الاثنان يتطلعان في أثره طويلا:

ـ " لم أشترك معهما في الحوار، ولكنني لم أنس كلمات"قادري" من يومها، هذا الوجه النحيف الشاحب بدا لي وكأنه خارج من أحد الكتب المقدسة القديمة، نبي ضال، صوت وحيد صارخ في البرية، يحذر من عمى لا نراه ومن عرج سوف يقصم ظهورنا".

عندما عاد "نور الله" إلى "ميرعرب" كانت جراحه قد بردت قليلا، ظل حبيس غرفته في انتظار القرار النهائي، ولكن الأيام توالت، وبدا كأن الشيخ الأكبر قد نسي تهديده، ورغم ذلك لم يجرؤ على الخروج والمشاركة في حلقات

الدرس، كان مجرد ظهوره سوف يذكرهم بكــل العقوبــات المفروضة عليه، من مكتبة المدرسة أحضر له "لطــف الله" ديوان " قادري" فأخذ يقرأه ويعيد قراءته أكثــر مــن مــرة، تشكلت الكلمات وصعد من بين السطور ملــوك الأوزبيــك ورعاتها مكللين بتيجان من زبد وروث وندف من ثلج، شفاه تحمل نصف ابتسامة وقلوب منفطرة متشوقة لعدل لا يجيء، ما أكثر الغزاة الذين مروا وأحرقوا الأخضر واليابس، ومــا أشجع الذين ماتوا وهو يحاولون سد الثغــرات فــي أســوار المدن، وما أقل الحالمين واقصر عمرهم، وما اجمل النســاء وما أسرع تقلباتهن، وما أشد ارتفاع الطيــور ومــا أوهــن أجسادها، وما أثقل السحب وما أشح المطر، وما أعتى حكام هذا الزمان وكل زمان، وما أوهن ما شيدوا، ما أكثر الغنــاء دون طرب، وما اجمل كلمات الحب وأندر لحظات العشق.

في عتمة الغرفة الضيقة فتح "قادري" له أبواب عالم من الحزن على كل ما كان والرجاء في كل ما هو آت، لم يكــن "نور الله" يدري بتلك الحركة المحمومة التي تسود المدرســة الخارج،لم يفهم معنى صوت الأقدام التي تعبر الأروقة فــي كل لحظة ولا تنقطع على مدار الساعة، ولا روائح المنظفات

الخانقة، ولا ذلك الرجل المريب الحاد النظرات الذي دخـــل غرفته في الصباح وجعل يسأله عشرات الأسـئلة الدقيقـــة، حسب في البداية أنه أحد العاملين بالمدرسة جاء يبلغه قـــرار الشيخ الأكبر، ولكن الرجل أوضح له بصورة مباشرة وحادة أنه من رجال الأمن، سأله عن اسمه وبلدته وأهلـــه وتـــاريخ التحاقه بالمدرسة، والتصق "نور الله" مرعوبا بالحـــائط وقـــد اعتقد أن زوج "ليليانا" قد تقدم بشكوى للســلطات الرســمية، ولكن الرجل انصرف بعد أن دون كل البيانات في الســجل الذي كان يحمله، ظل "نور الله" جالسا جامدا في مكانه حتـــى فتح الباب وكان القادم هذه المرة هو "لطف الله" وهو مصفر الوجه، هتف به:

ــ هل شاهدت رجال الأمن؟

قال نور الدين خائفا: هل جاءوا من أجلي؟

ــ كف عن هذا، المسألة أخطر من شخصك العظيم، لقد قرر القوميسير السوفييتي أن يزور المدرسة، ولا يعلم إلا الله ماذا يوجد خلف هذه الزيارة، فهذه هي المرة الأولـــى التـــي يخطو فيها مسئول سوفييتي داخل أسوار المدرسة، يا إلهـــي،

كأن قادري كان يتنبأ بأنه حتى "ميرعرب" لـن تسـتطيع أن تبقى السياسة خارج أبوابها.

ــ ولكن ماذا يردون منا؟

ــ هذا هو السؤال، إن "ميرعرب" هي اكبـر مدرسـة دينية في وسط آسيا كلها، ومع ذلـك فضـل السـوفيت أن يتجاهلوها، لقد ضيقوا الخناق عليها قليلا، وأشـعروها أنهـا ليست بتلك الأهمية في أحيان أخرى، ولكنهم في نهاية الأمر تركوها في حالها، ترى هل تغير الوضـع؟ أم أن الـزعيم "ستالين" قد أرسل قواته وهو ينوي أن يقتحمها فـوق بسـاط أحمر.

خرجا معا من الغرفة، لم تكن هناك حلقات للدرس ولا طلاب للعلم، عمال التنظيف كانوا هم فقط الذين يعملون بكل همة، يحاولون إزالة غبار الزمن وبقايا الدم المتجمد من أيام جنكيز خان، بين الحين والآخر كان يظهر بعـض المشـايخ وهم يعبرون الأروقة عدوا، أو بعض الطلبة الذين يتلفتـون حولهم حائرين، لم يلتفت أحد إلى "نـور الله"، تـرى هـل تراكمت أوراق التفاعلات الجديدة على الورقة التي تتضـمن

قرار فصله، لقد اصبح الجميع مثله، من الشيخ الأكبر حتى أصغر المشايخ ضحية الخوف والتوجس.

في الصباح المبكر، امتد بساط أحمر بالغ الطول من داخل المدرسة، هبط الدرج الحجري، وعبر الساحة الواسعة حتى مئذنة "كاليان"، وقف كل الطلبة والحرس على جانبيه، بينما وقف بقية المشايخ بالقرب من باب المدرسة وهم يحيطون بالشيخ الأكبر، ورفعت الأعلام الحمراء التي يزينها المنجل والمطرقة في كل مكان، وكان "نور الله" يشعر بسعادة غامرة، فقد كان يقف بين الطلاب مرتديا ثيابه البيضاء وحاملا مصحفه كما تقضي الأوامر، لم تفرق بينه وبين الآخرين، ولم يفطن أحد إلى أنه مفصول من المدرسة، وبقدر ماكان باديا من مشاعر الخوف والقلق على وجه الشيخ الأكبر كان "نور الله" يوشك على التقافز من شدة الحبور، ولكن الشمس كانت غائبة، وكانت السحب المتماسكة تفاجئهم بزخات خفيفة من المطر، وقبل أن يصل القوميسير كانوا جميعا يرتجفون، وكان رجال الحرس يراقبون الجميع في شك وتوجس، ثم علت الضجة من بداية الطريق وأقبلت

سيارة سوداء ضخمة إلى الساحة، وقفت عند حافة البساط الأحمر تماما،حانت اللحظة.

هبط القومسير من السيارة، طويلا، عريض الكتفين في بزته العسكرية الزيتية الداكنة، تغطي صدره أوسمة كثيرة ملونة، هل خاض حقا كل هذه المعارك التي تدل عليها هذه الأوسمة؟ كان يحمل غطاء الرأس تحت رأسه، وبدا شعره باهتا بلون القش، وبشرته شديدة الشحوب، مشدودة على عظام الوجه، نظر إليهم بعيون ميته دون أن يثير فيه هذا الحضور الكثيف أي نوع من الانفعال، كان ـ كما توحي أنواع الأوسمة ـ قد خاض العديد من معارك الحرب، وتم اختياره بعناية كي يعيد النظام في هذا الجزء المتخلف من الإمبراطورية، خطى فوق السجادة دون أن يأبه بالنظر إلى الصفين اللذين ينتصبان على جانبيها، اتجه مباشر للشيخ الأكبر الذي وضع يده فوق قلبه وهو يحني رأسه في وقار، وقف القوميسير وأحنى رأسه هو أيضا، تصافحا دون مودة، مجرد تلامس لأكف غريبة، أشار الشيخ الأكبر إلى داخل المسجد وأفسح له الطريق ليدخل أولا، فهل حلم جنكيز خان بمن يرحب به هكذا على أبواب "ميرعرب"؟ ظل الطلبة

واقفين في أماكنهم، وعاود المطر الهطول في بطء، ابتعد الحراس قليلا، ولكنهم ظلوا خارج المدرسة، لم يكن يسمح لهم بالدخول، وأشار المشايخ لكل الطلبة حتى يدخلوا إلى الفناء.

كان الفناء مبللا ولكنهم تجمعوا جميعا في كتلة بيضاء مرتجفة، وصاح الشيخ عبد المؤمن:

ـ افتحوا مصاحفكم واقرأوا بصوت عال.

جلسوا جميعا على الأرض المبللة، بدأوا يرتلون جميعا من سور مختلفة من القرآن، في البداية لم يكن هناك انتظام في الأصوات، بعضها كان عاليا وبعضها كان بطيئا، ثم مالبثت أن تمازجت معا في هدير متصل، أزاحت الصمت البارد والمتوتر، بدت مثل نوع من الاحتجاج والتحدي لكل ما تمثله هذه الزيارة، كانوا يدركون دون أن يرفعوا رؤوسهم أن القومسير في الأعلى، يستمع بأذن واحدة للشيخ الأكبر بينما يستمع إليهم بالأذن الأخرى، اندمجوا جميعا في التلاوة واخذوا يقرأون نفس السورة ويهتزون في نفس الإيقاع، تشبعت ذرات الهواء بالأصوات وحملتها عبر الأروقة والنوافذ خارج أسوار المدرسة إلى بخارى المرتجفة تحت

المطر، سمعه الحراس فأحسوا فأخذوا يزومون في تململ، ونهض أهالي بخارى وقد سرت رعدة في أبدانهم، أحسوا جميعا أن هناك أمرا جلل على وشك الحدوث، هيمن الصوت البشري على عالم الأحجار والصمت وزخات المطر، وتحولت أجساد الطلبة المترنحة إلى جسد واحد، جسد مبلل وحي وقوي وقادر على المقاومة، ملأت الآيات داخلهم بدفء الصحراء وتحولت بخاري إلى نقطة تعبرها الروح إلى برزخ لا نهائي بين الرمال وزرقة السماوات، لم يدروا إلى أي مدي بلغ جنون الحراس، ولكن القومسير أنهى حواره مع الشيخ واضطر للانصراف على عجل وقد فقد كل الأبهة والجلال اللتين دخل بهما.

ثم بدأت الأصوات تخفت بالتدريج، أحسوا بالإنهاك، وحين رفعوا رؤوسهم وجدوا الشيخ الأكبر واقفا على رأس الفناء، تماما كما حدث في يومهم الأول في الدراسة، كان صامتا، محاولا قدر الإمكان أن يبقي وجهه جامدا خاليا من أي انفعال، خيم الصمت واشرأبت الأعناق نحوه، وبدا الشيخ في البحث عن كلمات مناسبة لا تكون ثقيلة الوطأة كذرات المطر الآخذة في التثاقل:

ــ الحمد لله الذي أعزنا بالإسلام، وبعث إلينا سيد الأنام، وأهدانا القرآن، أما بعد فقد اجتمعت اليوم مع قومسير الــبلاد وابلغني قرار مجلس السوفيتات العليا..

توقف عن الكلام كأنه يبحث عن المزيد من الشــجاعة ليذكر نص الكلمات، ثم واصل القول:

ــ يمنع استخدام اللغة العربية في تدريس أي نوع مــن العلوم الدينية أو الدنيوية، كما يمنع استخدام الحرف العربــي الشريف في أي نوع من المراسلات والمكاتبــات واســتبداله بالحرف السيرليكية المعتمدة في كافــة عمــوم جمهوريــات السوفيت.

صمت الشيخ الأكبر وترك الفرصة لمشــاعر الــذهول الصامت حتى يستولي على الجميع، ألسنة معقودة، ورؤوس فارغة، لم يجرؤ أحد أن يتصور في هذه اللحظــة أن هــذه الكلمات الموجزة تعني إغلاق "مير عرب" التي ظلت أبوابها مشرعة طوال كل هذه القرون الماضية، هبط الشيخ الأكبــر وقد انحنى ظهره وضاعت هيبته، وظلت الكراكي البيضــاء واقفة في مكانها، كل ما قدر عليه الطلبة في تلك اللحظة هي محاولة إخفاء المصاحف تحــت ملابســهم حتــى لا تتلفهــا

الأمطار، فكر "نور الله" في نفسه:" يا إله العرش المجيد، لم يتم فصلي وحدي ولكن كل من في المدرسة قد تم فصلهم"، تلفت حولهن سوف تخلو كل الأعمدة من حلقات العلم، ولن يصلي أحد في هذا المحراب، ولن يعتلي أحد هذا المنبر، ولن تجد الغرف الضيقة من يقيم فيها سوى العناكب والفئران، كان "لطف الله" هو أول من تخلص من ذهوله، كان قد خلع عمامته وبدت رأسه الحليقة لامعة من البلل، نهض ووقف في نفس المكان الذي كان يقف فيه الشيخ الأكبر وهو يصيح:

ـ هذا اعتداء على الدين والإسلام، لا دين بغير لغة، ولا قرآن بغير لغة، ولا فقه بغير لغة، اللعنة على البلاشفة الملاحدة.

كانت هذه هي الصرخة الأولى التي ردت للجميع حياتهم، تعالت الصيحات وكلمات الاحتجاج، كان تحريم اللغة العربية يعني حرمانهم من الفرصة الوحيدة التي أتيحت لهم في أن يكون كيانا ذا شأن، سوف يضيع منهم هذا اللسان المتميز الذي يمنحهم المكانة والتقدير، بدونه سوف يتحولون إلى أجراء وحرفيين لا قيمة لهم، أشخاص هامشيون في مجتمع هامشي، اندفعوا مثل موج هادر نحو "لطف الله"،

نزعوه من على المنصة الحجرية وحملوه على أكتافهم، صاح وهم يرددون خلفه:

ـــ يسقط البلاشفة والملاحدة.

ارتجت جدران "ميرعرب" بالهتافات، هتافــات غريبــة وسط جدران لم يتردد بين جنباتها سوى ذكر الله، من أعلــى أطل عليهم الشيخ الأكبر وبقية المشايخ بوجوه مصفرة، كانوا قد قاموا بأقصى ما يمكنهم حين جعلوا كلمات القرآن تصــل إلى أذن القومسير السوفيتي لعلها تزيل ما فيها من صمم، أما هذه الصرخات بسقوط البلاشفة فحتى الخانات العظام الــذين انحدروا من أصلاب تيمورلنك لم يقدروا عليها.

بشكل غريزي بدأ حشد الطلبة وهم يحملون "لطف الله" يتجهون خارج أبواب المدرسة، انحدروا على الدرج وعبروا الساحة وداروا حول مئذنة "كالبيان" ثم انطلقوا إلى شــوارع المدينة، حتى المطر توقف من فرط الدهشة، فتحت المدينــة عيونها فرأت هذا الحشد الأبيض وهو يخوض فــي مياههــا وأوحالها ويهتف بسقوط الذين يمسكون برقابها، بــدا كــأن "بخارى" التي تبحث عن صوتها الذي فقدته طويلا قد انطلق خلال هذه الحناجر الصغيرة، ولكن الهتــاف كــان مثيــرا

للرعب:" يسقط الملاحدة والبلاشفة"، تقدم "نور الله" وساهم في حمل صديقه، فتحت المدارس الحكومية أبوابها واندفع منها حشد من التلاميذ الصغار وأخذوا يرددون نفس الهتاف، كانت أسوار القلعة تطل عليهم كأنها تترصد خطاهم وتعرف مآلها، انفرجت وجوه الباعة عن ابتسامة مستغربة،وللحظات تألقت أسنة الذهب في أفواه الرجال والنساء العابرين،نظر رجال الشرطة المحليين إلى الحشد الذي يتزايد في حيرة، هل يجرؤون على مهاجمة حفنة من طلاب الدين ومن تلامذة المدارس الصغار، تعرفوا فيهم على أخوتهم وأبناء عمومتهم، صغار غاية في الشجاعة حقا، ولكنهم لا يدرون إلى أين يمضون، استكملت المدينة يقظتها وانضم إلى الحشد جمع آخر من المتعطلين والحانقين والمفلسين والمؤرقين والعاشقين والغاضبين والحالمين، انطلق الاحتجاج في سماء المدينة كسحب الشتاء ولم يعد يستطيع أحد أن يخمده، حتى لو أنه خمد هذه المرة فسوف يبقى كامنا في خزائن الصدى الذي يسري في عروق المدينة.

توقف الحشد فجأة قبل أن يصل إلى أبواب قلعة بخارى، كان هناك حشد من الحرس الأحمر يقفون أمامهم في صفوف

ممتدة تسد كل الطرق أمامهم، يرتدون الخـوذات المعدنيـة ويمسكون بـالهروات، توقفـت الهتافـات، كيـف عرفـوا بالمظاهرة، وكيف توقعوا خط سيرها واستعدوا لهـا؟ مـن خلف الجنود جاءت شاحنة ضخمة،ملأ هدير محركاها الخشن الأفق، التهم صوتها كل همسات الخوف، صمت "لطـف الله" وهبط من فوق الأعناق، توقفت الشاحنة في منتصف الساحة وقفزت منها ثلة أخرى من الجنود وهـم يمسـكون بنـادق سريعة الطلقات، ثم هبط من العربـة سـجين واحـد مقيـد بالأصفاد، بالغ الطول، شديد النحول، وله لحية خفيفة شهباء، سار محاولا أن يبقى منتصب القامة، مرفوع الرأس، رغـم القيود والإنهاك، همس "نور الله" مرعوبا:" يارب السـماوات انه قادري"، كان متفردا وغريبا ولايتناسب جسده الواهن مع كل هذا الحشد المسلح، قطع "لطف الله" صمت الرهبة مـرة أخرى وهو يصيح:

ـ يا قادري نحن معك، الله معك.

استدار "قادري" نحوهم، تطلع عبر حشود الجنود إلـى الجمع الحاشد، كان وجهه حزينـا وعـل شـفتيه ابتسـامة مريرة،لم يكونوا جميعا يعرفون من يكون، ولكنهم رأوا فيـه

جزءا من محنتهم، شريكا لهم وضحية مثلهم، هتفوا باســمه في صوت ملئ بالحرقة والغضب، واصلوا الصياح دون أن يقودهم "لطف الله" هذه المرة، وبدأ رجال الحرس الأحمر في التحرك نحوهم.

حدث صدام لا رحمة فيه، انقلبت بيوت المدينــة رأســا على عقب، وامتلأت السماء بالعصي والخــوذات والوجــوه الروسية التي تصرخ في وحشية، بدأ الحشــد فــي التفتــت، تحول الطلبة إلى قطيع من الكراكي المذعورة تغري بالصيد والمطاردة، صاح "لطف الله" محاولا إنقاذ ما يمكن:" لنعد إلى "ميرعرب" ونتحصن بها، وقبل أن يتم جملته هــوت عصــا غليظة على رأسه، كانت كلماته قد جعلت رجــال الحــرس يعتقدون أنه الزعيم الخفي لهذا الحشد، ارتمى على الأرض، تفجر الدم من جبينه، اقتحم "نور الله" حاجز الحرس، تحمــل الضربات التي سقطت على جسده وكتفيه، ورفع جسد "لطف الله" الغائب الوعي، بدأ الطلبة في العدو المفــزوع ورجــال الحرس يلاحقونهم:

ــ "لا أدري كيــف وصــلت أنــا و"لطــف الله" إلــى "ميرعرب"،ولكن الأمر كان مختلفا هذه المرة، لم أكن عاريا،

وكان "لطف الله" جريحا، ولم يكن يحملني أنا وأخطائي على كاهله، كنت أنا الذي أحاول أن أحافظ على ما بقي من حياته، ولكن كنا مازلنا أبعد ما نكون على التعادل.

أغلقوا باب المدرسة الضخم خلفهم، وضعوا المـزاليج والرتاجات وظلوا مستندين إليه بظهـورهم، كأنمـا كـانوا يتوقعون سماع حمحمات خيل جنكيـز خـان، كانـت رأس "لطف الله" تنزف، وأحضر أحدهم رباطا وبعض المطهرات وملاعق من البن ووضعوها داخل الجرح، كان الـدم الـذي سال يخفي ملامحه تقريبا، ورغم ذلك كان مازال قادرا على الكلام:

ــ لن نغادر هذه المدرسة حتى لو هلكنا جوعا.

لم يقتحم الحرس المدرسة، كان الأمر مختلفا عن الزمن القديم، ولكن ليس إلى حد كبير، فرضـوا عليهـا حصـارا صارما من الخارج، لم تكن "ميرعرب" قلعة قديمة، ولم يكن من فيها من الطلبة محاربين أشداء، كما لم يكن هناك ثمـن لسقوطها، ولكن الحصار استمر، هبط المشايخ مـن أعلـى وانضموا للطلبة في الفناء، ضمدوا الجراح، ومسحوا الـدماء من على الوجوه، ثم فتحوا المصاحف وبدأوا القـراءة وهـم

يحاولون إمساك دموع القهر والحنق، فهل يمكــن أن ترفــع آيات الذكر الحكيم تلك النقمة التي حلت بهم؟ في الأعلى كان الشيخ الأكبر جالسا بحيث يراهم وهم جالسون فــي الفنــاء ويراه الجميع، لم يتصور أحد أن هذه المدرسة التي بدأت من حلم أمير صحراوي وقاومت كل تقلبــات الــدهر يمكــن أن تتحول إلى اثر صامت تعلوه الأتربة ويسوده صمت المقابر، كانوا جميعا من خلال تلك القراءة اللاهثة يحاولون أن يدفعوا الصمت والموات الذي يترصدهم.

اقبل ليل متوتر وحزين وبارد، لا أحد يــدري إن كــان النوم قد عرف طريقه إلى جفون أهل بخارى، وهــل ظــل الحرس على الدرجة نفسها من التأهب والاستفزاز؟، ولكــن الطلبة ظلوا في أماكنهم وكذلك الشيخ الأكبر، لم يكن هنــاك طعام، الأطعمة القليلة التي كانت موجودة نفدت في الساعات الأولى من الحصار، وأصاب الإنهاك حناجر الطلبــة فنــام معظمهم في أماكنهم، ومر الليل طويلا، ولكن الشمس لم تأت في اليوم التالي، توقف المطر وحلت بدلا منه رقــائق مــن الضباب الشفيف، كأنمــا أراد أن يخفــي ملامــح الضــرب والعسف والجوع، حل نوع من الهدوء الزائــف، لــم يعــد

بمقدورهم معاودة التلاوة، وأتاح ذلك لهم أن يستمعوا إلى وقع أقدام جنود الحرس وأوامره المختلفة وأصوات الشاحنات الضخمة.

كان الذين يفرضون الحصار هم الذين شعروا بالملل أولا، بدأوا يخاطبونهم من خلال مكبرات الصوت:

ــ اخرجوا من المدرسة وسوف نترك لكم الفرصة للمرور في سلام، لن يؤذى أحد ولن يعتقل أحد.

لم يتحرك أحد من الداخل، ولم يحاول أحد من الخارج أن يقتحم المكان، ابتسم "لطف الله" في شحوب وهو يقول له:

ــ يبدو أننا سنعود معا أخيرا إلى "وادي فرغانة"، ولكن موتى.

لم يكن متوفرا لديهم غير الماء الذي كان يستخرج من بئر قديمة داخل المدرسة، كانوا قد أكلوا كل شيء تقريبا بما فيها مخلفات القمامة من الأيام الماضية، وظلوا يحدقون في بعضهم البعض بعيون زائغة، كل شيء وصل إلى طريق مسدود، وعندما بدأت الظلمة تحل على المكان نهض الشيخ عبد المؤمن واقفا، تأملهم طويلا كأنه يحاول أن يطبع وجوههم البائسة في ذاكرته، في البداية حسب الجميع أنه

سوف يؤذن لصلاة لم يعد أحد قادر على القيام إليها، ولكنـــه نظر إلى أعلى حيث يبدو ظل الشيخ الأكبر وهو فـــي نفــس مكانه، ثم سار مترنحا عبر الفناء، اتجه إلى خلفية المســجد، راقبه الطلبة بقلوب واجفة وهو يمد يده ويرفع رتاج البـــاب الصغير الموجود في آخر الجدران، ثم يفتح ويخرج منه دون أن يبالي بإغلاقه خلفه.

ظل الباب مفتوحا، ثغرة لا يجرؤ أحد علـــى إغلاقهـــا، تتأرجح ضلفته العتيقة مع الهواء البارد، وترسل مفصـــلاته الصدئة رعدة في أجسادهم، راقبه "نور الله" طويلا ثم أغمض عينيه من فرط اليأس والجوع، لم يجرؤ أحد على أن يكـــرر ما فعله الشيخ عبد المؤمن، من الخـــارج تناهـــت أصـــوات الحرس وهم يغيرون مناوبة الليل، لم يكن هناك أصوات غير طبيعية، من الواضح أن الشيخ قد عبر كل الحواجز وذهـــب إلى مكان ما حيث الدفء والشبع، كـــان وجـــه "لطـــف الله" شاحبا لدرجة لم يتصور أنه سوف يشهد فجر اليوم التـــالي، ربما كان في سبيله إلى تحقيق حلمه، أن يصمد الجميع حتى الموت، ولكن الظلمة تكاثفت وظل الباب مفتوحا ولم يعد أحد يرى الآخر، قال "نور الله" خائفا ومتوجسا:

ــ يا "لطف الله"، هل أنت حي.

وأتاه صوته واهنا كأنه قادم من عالم آخر: مازلت.

كانت أجسادهم مخدرة تماما، خفت حدة الألم وقرصة الجوع، وخيم عليهم سكون يشبه نذر النهاية، بدأت بعض الأصوات اللاهثة تعلو، وسمعت أصوات خطى واهنة فوق الأحجار، وبدأت الثغرة المفتوحة في الجدار الخلفي تبتلع كل الظلال المتحركة، وكان الفجر يبدو نائيا وبعيدا.

فتح "نور الله" عينيه فوجد أضواء الفجر الشاحبة، ولم يكن هناك إلا القليل من الطلبة وأقل القليل من المشايخ، وكانت أنفاس "لطف الله" مازالت تتردد وهو جالس مستندا إلى العمود، حدثت المعجزة واستمد جسده طاقة الحياة من مصدر مجهول، كانت بقع الدم متجمدة فوق جبهته ووجه شاحب وابتسامته واهنة، ورغم ذلك لم يستطع "نور الله" أن يخفي خيبة أمله، قال:

ــ لقد انصرف معظم الناس.

قال "لطف الله": الجوع كافر.

تطلع "نور الله" إلى أعلى، كان الشيخ الأكبر في نفس جلسته، قال:

ــ أليس الموقف قاسيا عليه وهو في مثل هــذه الســن، كيف يجلس هكذا دون أن يتحرك من مكانه؟

رفع "لطف الله" رأسه وتأمله في إمعان، ثم قال فجأة:

ــ هيا بنا نصعد إليه.

قال "نور الله" في سخرية: المرة الوحيدة التي صــعدت فيها إلى أعلى تم رفدي من "ميرعرب".

ولكن "لطف الله" تحامل حتى ينهض مستعينا بــالعمود، هتف في وهن :"دعني أستند إليك"، لا يدري أحد مــن أيــن تأتيه هذه الإرادة القوية، بدءا في السير معــا عبــر الفنــاء، حدقت فيهما العيون الفاغرة والأجساد غيــر القــادرة علــى الحركة، أعطيا ظهريهما للثغرة التي كانت ماتزال مفتوحــة، سارا تحت الأروقة حتى وصلا للدرج الحجري، بــدءا فــي الصعود، كان الصمت مطبقا وأنوار النهار رماديــة داكنــة، كانا يحسان بالدوار الشديد، وكان يشتد كلما صعدا درجــة جديدة، سارا عبر الطرقة الخالية الطويلة، وكانت القاعة تبدو في نهايتها، مفتوحة الأبواب، ولا يجد من يمنعها من دخولها، وقفا بجانب الباب، فكر "نور الله" متوترا، ربما يتذكر الشــيخ الأكبر وجهه وينتفض ثائرا فيه، قال:

ـــ سوف أبقى أنا في الخارج.

قال "لطف الله" : أهذا وقته، لابد من وجود من اســتند إليه وأنا أتحدث معه؟

توقفا بالقرب من الباب، وظل "نور الله" متوجسا، ورفع "لطف الله" صوته لأقصى ما يستطيع:

ـــ يا مولانا،هل تسمح لنا بالدخول؟

لم يرد عليه، لم يلتفت حتى نحوهما برأسه، كان صوت " لطف الله" قد دوى وسط صــمت القاعــة ورددت صــداه الجدران القديمة، تقدما منه ببطء وخوف، وجه الشيخ الأكبر مرتاح القسمات، وشفتيه تفتران عن ابتسامة تشوبها المرارة، ولكن عينيه كانتا منطفئتين، هتف "نور الله" في خوف:

ـــ يا مولانا، هل أنت بخير؟

لم يرد، مد يد "لطف الله" يدا مرتعشة ولمس يد الشــيخ الأكبر التي كانت موضوعة على ركبته، جافة وباردة، ولكن هذه اللمسة كانت كافية حتى يختل التوازن الواهن الذي كان يحفظ الجسد في مكانه، مال فجأة وسقطت العمامة من فــوق رأسه، تراجعا في فزع، وظلت العمامة تتدحرج على الأرض وقد انحل الشال راسما خطا أبيض بطول القاعة، نظروا إلى

اسفل، كان ما بقي من الطلبة والمشايخ يقفون في الفناء وقد اشرأبت رؤوسهم وهم يحاولون فهم ما يحدث، صاح "نور الله" وهو يوشك أن يجهش بالبكاء:

ـ بالله عليك يا "لطف الله"، دعنا نغادر هذا المكان قبل أن يتحول إلى مقبرة لنا جميعا.

كان "لطف الله" مذهولا، يراقب الجسد المائل الذي يوشك على السقوط من فوق المقعد، قال في عجز حقيقي:

ـ وهل سنتركه هكذا؟

ـ وهل كنا نحن المسئولون عن موته؟.

ولكن "لطف الله" لم يتحرك، بدا غارقا في حالة من الأسى، كان من الصعب أن يقتنع أن كل شيء قد انتهى، قال في عناد:

ـ على الأقل، فهو يستحق منا صلاة الموتى، لعل الله يغفر له ولنا جميعا.

ورفع يديه بموازاة صدغيه وهو يصيح:" الله أكبر"، تبعه نور الدين وهو يبكي بين كل ركعة وأخرى، في الأولى قرأ الفاتحة، وفي الثانية طلب الرحمة لنفسه في مواجهة ذلك المجهول الذي ينتظره، وفي الثالثة طلب الرحمة لكل من

ماتوا غدرا وجوعا وتوقا وفي الرابعة دعا من أن أجل أن يخرجوا بأمان من هذه المصيدة الجهنمية، وفي الخامسة دعا من أجل ألا يقع مرة أخرى في شرك الغواية، وفي السادسة صلى من أجل أن ينتهي الجوع وتنقشع سنوات الرعب، وفي السابعة نظر إلى "لطف الله" وصلى من أجل أن يرحمهما الله في زمن لا رحمة فيه، سبع ركعات من الشهقات والدعوات الباكية، ووجه الشيخ يحدق فيهما دون غضب أو رضى، وأخيرا اكتملت الصلاة وتليت الفاتحة والترحمات، واستند "لطف الله" إليه وعبرا القاعة وهبطا الدرج الحجري، وعندما وصلا إلى الفناء وجداه خاليا تماما.

مثل غيرهما، مثل كل الجوعى والمهزومين، خرجا من الباب الصغير، قابلتهما ريح باردة قادمة من اتجاه صحراء التتار، رمقهم الحرس بعيون مزدرية، تركوهما يهبطان الدرج الحجري الذي قد لا يعاودان الصعود عليه مرة أخرى، بدت الشمس سجينة خلف تلال من السحب الداكنة، وأصبحت "مير عرب" خالية تماما إلا من جثة شيخ عجوز، سارا دون أن يكون لهم أي ملجأ آخر في "بخارى" إلا محطة القطار:

ــ "كما جئنا نعود، كأن دخان القطار قد رسم لنا خــط المصير المشترك، كان علينا أن نعود إلى وادي "فرغانة" بعد أن فقدنا براءتنا، وضاعت أحلامنا، كنــت أدرك جيــدا أي مصير تعس سوف يكون في انتظاري، وان أهلــي وســوف يحملونني ذنب كل الأحلام التي أهدرت، وكان هذا أشد مــا يثير رعبي"

هتف بي "لطف الله" مفزوعا: ماذا ســتبقى هنــا، فــي بخارى؟

قال "نور الله":

ــ أجل، ماذا لي في "نجمان" ستعود أنت إلى أســرتك، وكلهم من كبار رجال الدين، وسوف تكون أنت مثلهم ســواء فتحت "مير عرب" أبوابها أم لا، أما أنا فسوف أعود إلــيهم خائب الرجاء، سأصبح جزءا يضاف إلى فقرهم وضعفهم، لا أتصور نفسي عائدا فاشلا

ــ أنت لم تفشل، ولكن الظروف أرغمتنا جميعا علــى الفشل، كل مدارس وسط آسيا سوف تغلق أبوابها ولن تكون هناك مدارس دينية لأحد.

ــ وهذه هي أهمية الأسرة بالنسبة لك، سوف تعطيــك الهالة الدينية التي جئت من أجلها، لا أحد ســيبالي إن كنــت أتممت تعليمك أم لا، لقد أخذت بخارى جزءا من روحي دون أن تعطيني شيئا، لا أعرف ماذا سأفعل ولا كيف ســأعيش، ولكني سأبقى.

اقترب "لطف الله" منه واحتضنه، كان الاثنان متماسكين، استنفدا كل ما في داخليهما من دموع وانفعــالات، همــس : "عدني آلا توقع نفسك في المتاعب"، فهم "نور الله" ماذا يعني، قال ضاحكا: "المرء لا يخرج من غرفة الإعــدام مــرتين"، وجاء القطار ينفخ دخانا كثيفا وصوتا كضربات الرعد، حانت لحظة الفراق، واعتقد كل منهما أنه لن يــرى الآخــر مــرة أخرى:

ــ ولكن كما يقال فإن مسالك الرب غريبة.

كانت تلك أيام لا يعرف إن كان يسقطها من عمــره أو يضاعفها، كان ضائعا بلا مستقبل، ووحيدا دون "لطف الله"، غريبا في مدينة مليئة بالشراك، ولكنه كان حرا، بلا مــاض، أتيحت له الفرصة أن يبدأ تجربة نضجه بلا وصاية من أحد، دون تلك الرويلات الشحيحة التي كانت تهبهــا لــه "ميــر

عرب"، حتى الجوع والنوم في العراء يبدوان ثمنا مناسبا لتلك الحرية، لم يدر أنه في تلك اللحظة كان قد وقع أسيرا لعشق هذه المدينة، لكل لحظات المتعة والألم في حواريها القديمة، كأن شواهدها قد رسمت تضاريسها في أعماق نفسه، كانت روحه القديمة قد أعتقت من الموت قبل الرمق الأخير، وما يجول في بدنه الآن هي روح مستعادة، نفحة من حياة جديدة.

هبط إلى عالم البيع والمساومة في سوق المدينة، محلات وباعة وتجار، طاجيك يطرزون عباءات الرجال وصدريات النساء بخيوط من قصب لامع، وأوزبيك يفردون أثواب الأطلس الزاهية الألوان، وهنود يرصون أجولة القرنفل والبهار، وتتار يساومون على أسنان الذهب المسروقة من الموتى ويقسمون بأغلظ الأيمان أنها مصفاة من تبر نهر "زرفشان"، وصينيون يصنعون خلطة سحرية من الأعشاب والمقويات الجنسية، وكازاخ يقطعون لحم الخيل المبرد إلى كتل داكنة اللون، وقوزاق يحملون اثقل أحمال السوق، وكوريون منبوذون محكوم عليهم بتنظيف الأوساخ.

لا يذكر "نور الله" المهنة الأولى التي عمل بها في سوق بابل هذا، ولا المكان الذي قضى فيه ليلته الأولى، هل كان في وكالة الخضراوات الطازجة، وهل قضى الليل في مؤخرة إحدى الشاحنات، أم في محل توزيع الأغذية عندما نام فوق أجولة السكر وصناديق الصابون، لا يذكر لأنه قد تعود، تعودت أنفه على كل الروائح، وتقبل جسده النوم على كل أنواع الافرشة، الخشنة والرطبة والمبللة، ولكنه لم يتعود كل أنواع المهن التي دخلها، كان جسده يخونه أحيانا فلا يتحمل وطأة العمل، كانت كل أشتات المدينة الهامشية كانت تنافسه، لم يتركوا له سوى الأعمال التافهة الأجر، ولكنه رغما عنه وعنهم كان يكتسب مهارات العمل الشاق، تخشن يديه، ويزداد جسده صلادة، تعود على جلسات الرجال الصاخبة وهم يمضغون التبغ ويشربون الشاي البارد ويتحدثون بفحش عن كل امرأة تمر بهم، ألف اكفهم وهي تضربه على ظهره، وتعلم أن ينام في فجوة ضيقة وسط أجسادهم وأن يتحمل أنفاسهم المثقلة بالفودكا الرخيصة، وأن يوقف تحرشاتهم الجنسية، بدت "ميرعرب" وغرفها الضيقة وتلك اللغة الغريبة مثل حلم بعيد المنال، تلقفه العالم الواسع

وأعطاه الجرعة المقسومة له من الشقاء، جسد منهك دوما، جائع غالبا، خفيض الرأس تحت ثقل ما، لا وقت لديه للرغبات إلا رغبة واحدة هي البقاء، لا يهدأ في مكان ويبدأ في التقاط أنفاسه إلا ويفاجأ بالرحيل إلى مكان آخر، عاش في كل أسواق الدينة ووكالاتها إلا حارة اليهود، لم يكن هناك غريب يجرؤ على الدخول والعمل بها، كما أنه أيضا كان راغبا عن ذلك، مرة واحدة ترك فيها العمل بإرادته، عندما كان يعمل في إحدى وكالات الزيت بالقرب من بقايا معبد الساميين عندما فوجئ بها في مواجهته، كانت تسير شاردة حتى أنها أوشكت أن تتعثر فيه، رفع رأسه فوجد "ليليانا" تحدق فيه مدهوشة، كانت شديدة الشحوب، وكان هو بالغ النحول، تحيط بوجهه لحية خفيفة تزيد من بؤس مظهره، أحاطته ــ كالعهد بها ــ بعينيها الواسعتين وجدائل شعرها ذات الأجراس، تأملا بعضهما دون حراك، من داخل الوكالة صرخ رئيس الشغيلة يأمره بالإسراع، أصيبت ليليانا بالفزع وأحس هو بخجل طاغ، خفضت بصرها وحمل هو أثقاله، وأسرع كل واحد منهما في اتجاه مختلف، وفي المساء طلب أجره من رئيس الشغيلة وانصرف إلى متاهة الحوانيت

والأقبية التي تخزن فيها البضائع ويحشر فيها الأجراء وقــت النوم.

وأخيرا واتاه الحظ الحسن، في مصادفة نادرة اكتشــفوا في وكالة الأقمشة أنه يجيد القراءة والكتابة وحساب الأرقام، توقف رئيسه ـــ الذي لم يكن هو نفسه يجيد هذه المهارات ـــ مدهوشا، فغر القوزاق أفواههم، وهبط مدير الوكالـــة بنفســـه وعقد له اختبارا فوق قطعة قماش بيضاء، ثم طلب منـــه أن يصعد من القبو إلى الدور العلوي للوكالة، كانت هناك دفاتر نصف ممزقة وأرقام نصف مطموسة ومطالبـــات حكوميـــة تهدد الوكالة بالإغلاق، وكان أمامه أســـبوعا واحـــدا ليعيـــد ترتيب كل هذه الفوضى وإلا عاد إلى القبـــو مـــرة أخـــرى، إضاءة صغيرة في ليل الشقاء، فجأة أصبح له مكتب يجلـــس خلفه وأجر ثابت كل شهر، والاهم من ذلك كله مكان يـــأوي إليه كل ليلة، غرفة صغيرة في رواق "طاكي" علـــى حافـــة المدينة القديمة، ترك الأقبية والمخـــازن الخلفيـــة وأصـــبح بمقدوره أن يتأمل السماء الغنية بالنجوم من خـــلال نافذتـــه، كتب أول رسالتين، واحدة لأهله والأخرى "للطف الله"، وأكل

لحما وشرب مرقا ساخنا على حافة بحيرة خانقاه وتأمل امرأة أوزبيكية عابرة ذات سن ذهبية تخلب اللب:

ـ "ولكن يبدو أنه لا نهاية لأحـــزان هـــذه المدينـــة، لا أعرف كيف تناهى إلى الخبر، هل سمعته من المذياع الضخم الموجود في أحد أركان الوكالة، أم ذكره أحد الزبائن بشـــكل عابر، أم أن أصداءه كانت تسري في العروق السرية للمدينة بحيث يعرفه الجميع في وقت واحـــد، كـــان موعـــد إعـــدام "قادري" قد تحدد".

لم يكن قادري هو وحده الذي سوف يعدم، كان هنـــاك ثلاثة آخرون سمع "نور الله" أسماءهم للمرة الأولى، تشولبان وفرقان وباتو، هل كانوا هم أيضا شعراء حالمين؟ وهل كانت أشعارهم من الخطورة بحيث تجئ من العاصـــمة الكبـــرى "موسكو" إحدى فرق الإعدام خصيصا للقيام بهـــذه المهمـــة، ارتعد "نور الله" وهو يســـتعيد ملامـــح "قـــادري"، الملتحـــي الشاحب وقوامه النحيف بالغ الطول، نبي باعه أقرب النـــاس إليه بحفنة من الروبلات، كان الإعدام سيتم في صباح اليـــوم التالي، موعد من المستحيل تأجيله، كانت السلطات السوفييتية

قد أصرت أن يتم الإعدام في "بخارى" حتى تلقنها الدرس وتجعلها تكف عن إنجاب المتمردين.

في تلك الصباح الرمادي البارد وقف "نور الله" تحت أسوار سجن القلعة، كان يمني نفسه بأن هناك كذبة ما، وأنهم لن يجدوا في جسد قادري متسع كاف لطلقات الرصاص، سوف يصدر عفو في اللحظة الأخيرة، وربما يستمع آمر فرقة الإعدام لإحدى قصائده ويدرك كم أنها مثيرة للشجن وكم أنها قليلة الخطر، ربما في هذه اللحظة يأمر جنوده بخفض بنادقهم، ولكن متى استطاعت الكلمات أن توقف الرصاص؟ ولكن الكثير من أهالي المدينة بدأوا أيضا في التجمع تحت السور، وجوههم تشي بأن هذا الكابوس هو حقيقة واقعة، تفرقوا في بقع متلاصقة كأنهم يحتمون في بعضهم البعض، نسوة عجائز وبنات صغيرات، يلبسن السواد ويبكين في صمت، جلس "نور الله" خائرا فوق إحدى الصخور، لو أن "لطف الله" كان هنا، هل كان يخفف قليلا من هذا الكابوس؟، من بعيد بدت فتاة ترتدي ثوبا أحمر، بدا شكلها غريبا وسط هذا الضوء الرمادي، وبالمقارنة مع النسوة المتشحات بالسواد، بدت مفزوعة مثل طائر سقط من

عشه تحت شجرة غريبة، اقتربت منه فأدرك من ملامحها أنها روسية، كانت بشرتها شديدة البياض وعيناها زرق وشعرها في لون بذرة الخوخ، قالت:

ــ لماذا يبكون هكذا، أنا مرعوبة من كل هذا العويل،هل مات أحد؟

قال "نور الله" : هناك من هو على وشك الموت.

قالت وهي توشك على البكاء:

ــ بدأت أشعر بالخوف من هذه المدينة، منذ أن جاء بي إلى هنا وأنا لا أشعر إلا بالطقس الحار والنظرات المعادية.

فجأة دوى صوت انفجار مكتوم، دوي رعد متتابع، انطلقت في السماء أسراب من طيور مفزوعة، حامت في الفضاء دون أن تجد مأوى تهبط إليه، طفرت الدموع من عيني "نور الله"، تذكر كل ما مر به، كانت سنوات عمره أقل من أن تحتمل كل هذه الأحداث العاصفة، وكل هذا القدر من خيبات الأمل، ازداد فزع الفتاة وهي تهتف:

ــ أنت تبكي أيضا، هل هم أقاربك أيضا؟

ــ كأنهم كذلك.

ـــ يا إلهي، لو أن أبي يجد لنا مدينة أخرى تكون أقـــل حزنا.

جلست بجانبه، سار صف من الرجال العجائز منكســـي الرؤوس، وأجهشت النسوة في البكاء، أطلت مجموعـــة مـــن الحرس من فوق الأسوار في قلق، ثم عادت أصوات الرعـــد المكتوم تدوي من جديد وارتعدت الفتاه وهي تهمس خائفة:

ـــ كم عليهم أن يقتلوا؟

هل كانت هذه الدفعة الأخيرة من الطلقات موجهة إلـــى صدر "قادري"، هل تركوه للنهاية حتى يستمتعوا برؤية وجهه المعذب وهو يستنفد آخر الأنفاس وينزف آخر قطرات الدم، هل كان دمه قانيا مثل أختام الشمع الأحمر التي تم وضـــعها على أبواب "ميرعرب"، مازالت الطيور تنطلق مفزوعة فـــي السماء، مثلما انطلقت "الكراكي" البيضاء من خلـــف أســـوار المدرسة، في رحلة لا نهائية لا مستقر لها، كـــان "نـــور الله" يبكيهم جميعا، يبكي أسراب الكراكي التائهة التـــي تفرقـــت فزعة كهذه الطيور، وأمسكت الفتاة بيده وهي تقول:

ـــ أنت تبكيني أيضا، لماذا علينا أن نجلس هنا ونستمع لكل ذلك؟

سارا مبتعدين وسط طريق تظلله أشجار الجهنمية، لا يذكر انه سار فيه قبل الآن، كانت تلمسه بكتفها أحيانا، كأنها من خلال هذه اللمسات الواهنة تستمد منه الأمان، لم يحاول الالتفات إلى الوراء، لأنه كان يعرف أن أسوار سجن القلعة تطل عليه مهما حاول الابتعاد:

ـ "كانت "نتاشا" أكثر براءة من أن أعاملها كفتاة روسية، لم تكن من السادة الذين يحكموننا، ولا الذين يطلقون النار على الشعراء النحاف من بني جلدتنا، كانت أكثر رقة وساذجة من أن تكون غازية أو مستعمرة، لم تكن أكثر من فتاة مسكينة جاء بها أبوها إلى المكان الخاطئ في الزمن الخاطئ.

بدأت علاقتهما من رماد هذه اللحظة، لم يسقط المطر ولكن الشمس لم تشرق، حلت الألفة بينهما ببطء، بهجة خافتة كبزوغ ضوء أو ضربة وتر، حلق "نور الله" لحيته واشترى ثيابا جديدة، ولكن أحزانه الداخلية ظلت كما هي، في الوكالة رأي صورة "ستالين" وهي تطل عليه، الزعيم الأوحد والمنتصر دائما، يرتدي حلته العسكرية المزينة بصفوف من الأوسمة والنياشين، شاربه الذي يخالطه الشيب

كث ورفيع الأطراف، بينما تفتر شفتاه عن ابتسـامة نصـف ساخرة ونصف عبثية، ولكن من المؤكـد أن عينيـه كانتـا ميتتين، تحدقان فيه دون أن تريا أحدا، إله أسطوري صامت ومتسلط وموجود دوما، لم يستطع "نور الله" التعـود علـى رؤيته هكذا كل صباح دون أن يشعر بغصة في حلقه ودون أن ينكفئ على الدفاتر المليئة بالأرقـام، وعلـى الحـروف السيريلكية التي حددت مصير حياته، ودون أن يشعر أيضـا ـ ورغم إحساسه بحدة المخاطرة ـ وجد نفسه منساقا إلـى نتاشا.

وهما يشربان عصير الرمان في مقهى منعـزل علـى أطراف المدينة، حدثته عن موسكو، مدينة الثلج والشـموس النادرة، عن الكنائس والقصور والقباب الذهبيـة، تـذكرت مدرستها المفتوحة التي لا تشبه أبدا تلك المدرسة الصـغيرة المغلقة التي وجدت نفسها فيها الآن، ثم حدثته عن أسـرتها، جاء أبوها إلى "بخارى" منذ أشهر قلائل ليعمل خبيرا صناعيا في أحد المشروعات الجديدة، هو الذي اختار المدينة وأصـر على الانتقال من موسكو، كأنه يهرب من شيء ما لا يريـد مواجهته، وبدت أمها أشبه بضحية تحاول أن تقاوم قـدرا لا

مفر منه، لم يفد الجدل ولا المشاجرات شبه اليومية بينه وبين أمها، لم تفلح الدموع ولا كئوس الفودكا ولا معارك الفــراش الخاسرة في إزالة التوتر الموجود في البيت دوما، وأخيــرا اتفق الاثنان على هدنة مؤقتة، ولكن إلى أي مدى يمكــن أن تدوم، واصلت الحديث وهي تسير معه على حافة النهر:

ـ لا أستطيع أن أعرفك على أبي فهو صعب المــزاج، ولكن عندما تعود أمي من موسكو، وهي ستعود قريبا سوف أعرفك عليها، سوف تحبها كثيرا لأنها دائمة الضحك، حتــى وهي تتشاجر مع أبي، تختلط ضحكاتها مع دموعها.

وضع يده حول كتفيها وقبلها برقة تحت شجرة عتيقــة باسقة، في البداية كانت شفتيها رقيقتين وباردتين، ثــم بــدأتا تذوبان بين شفتيه، بدت مثل زهرة دائمة التقلب، كل لون من ألوان فساتينها يغير من شكلها، لا شيء يبقى ثابتا إلا ذلــك الشعر بلون بذرة الخوخ وتلك العينين التــي تحتشــد فيهمــا سماوات صغيرة، وكلما ضحكت طفرت منهما الدموع، كانت تقبله كثيرا وهي تقول أنها تحب ملمس شفتيه ورائحة جلده، كان ما يحدث معها مختلفا عن "ليليانــا"، تحولــت نيرانهــا المضطرمة إلى وهج دافئ يسكنه ويضيئه.

ليلتهما المفضلة كانت دوما ليلة السبت، الليلـــة التـــي يعكف فيها أبوها على الشراب، كانت تتسلل من البيت عندما تمتلئ أنفاسه برائحة الكحول ويعلو صوت شخيره، ولكنهـــا في هذه الليلة ــ في منتصف الأسبوع ــ وجدها في انتظاره خارج وكالة الأقمشة، كانت ترتجف، أخذها تحـــت ذراعيـــه وسار بها مبتعدا وسط الابتسامات المتواطئة للعـــاملين فـــي الوكالة، احتضن جسدها البارد في ركن مظلم لعل رجفتهـــا تهدأ قليلا، قالت وهي تشهق من خلال دموعها:" لن تعـــود"، حدق فيها "نور الله" ببلاهة:"مـــن؟"، قالـــت:" أمـــي.. لقـــد هجرتنا؟"، كان الكابوس الذي حاولت "نتاشـــا" أن تتجاهلـــه، وحاول أباها أن يغرقه في شراب "الفودكا" قد تحقـــق، حيـــاة أخرى قد تحطمت،أحاطها بذراعه وسارا مـــع فـــي ظـــلام المدينة، وسط شوارع تضيئها المشاعل المضطرمة، تكلمـــت كثيرا وبكت أكثر، هبطا كل الدرج الحجري فـــي المدينـــة، وسارا تحت كل الأقواس، حكت له عن الأيام الأخيرة لأمها، عندما تعللت أن الجدة مريضة في "موسكو" وأنها يجـــب أن تذهب لتطمئن عليها، لم يكن أبوها مرتاحا لذلك، ولكنها ظلت تلح عليه حتى وافق، خيم على البيت هدوء ميت بعد رحيلها،

لم يجرؤ أحد منهما ــ نتاشا وأبوها ــ على النظر في عيني الآخر، كان الأمر أقسى من أن يواجهاه، ثم ذهبت هي هــذا الصباح لتجد تلك الرسالة القصيرة والباترة في انتظارهــا :" آسفة ياصغيرتي،تحملت الكثير من أجلك، ولكنك كبرت الآن وسوف تعذرينني، لن أستطيع العودة، ولكنك ستظلين ابنتي"، رغم أنها كانت تعرف كل شيء فلم تصدق الكلمات المكتوبة، ورغم أنها كانت ترى كل شيء فقد اسودت الدنيا في عينيها، احتضنها "نور الله"، قبلها حتى سخنت شفتيها ولكن جســدها ظل باردا، قالت:

ــ لا أريد العودة لأبي الآن، أخاف أن أراقبه وهو يقتل نفسه، خذني عندك.

كان وجهها لامعا، وشعرها متهدل في خصلات متفرقة، وكان هو خائفا، لماذا لا يأتي له الحب إلا على حافة الخطر، قال لها:

ــ سوف أعود بك إلى أبيك.

قالت في دهشة: ولكن لماذا،أريد أن أبقى معك الليلــة، أرغب في ذلك حقا؟

ماذا يمكن أن يقول لها، كيف يشرح لها أسـباب ذلـك الخوف الرابض في أعماقه، وذلك البون الذي يفصل بينهما، سار معها وهو يشاهد إحباطها يزداد مع كل خطـوة، كـان هناك نصف قمر في السماء اهتديا به وسط الدروب المظلمة بعيدا عن أعين حرس الليل، كان بيتها على أطراف المدينة، بيت حجري يغطيه القرميد وتحيط به حديقة برية تفوح منها روائح البرتقال والسفرجل، كانت النوافذ مظلمة، ولابـد أن أباها قد شرب كل خمور الدنيا ورقد في الظلام، قالـت فـي انكسار:

ــ شكرا لأنك كنت معي هذه الليلة.

لم تنظر إليه، لم تقبله، سارت فوق الحشائش الطويلـة، كأنها تسبح فوق بحر أخضر هش، اختفت داخل البيت، وظل هو واقفا قليلا لعله يشاهد اشتعال الضوء، أو يسمع صـوت حركة ما، ولكن الظلام والصمت ظلا سائدين.

لم يرها بعد ذلك، انتظرها طويلا فلم تسع إليه، تركتـه تحت وطأة الإحساس بالندم لأنه تخلى عنها، ربما احتقـرت خوفه من الاقتراب منها، هل كان خائفا حقا أم أنه الإحساس

بأنه دون ذلك، حاول أن ينساها، ظل يدفن نفسه في أوراق الدفاتر المتآكلة، ولم يعد يبال بإحصاء الأيام التي تتوالى:

ـ "ولكني استيقظ هذا اليوم على صباح مختلف، حين وصلت للوكالة وجدت الذهول على وجوه الجميع، كانوا جميعا يتحركون في خوف وصمت، ولأول وهلة أحسست بالذنب لسبب لا اعرفه، لم أجرؤ على سؤال أحد، ولم يتبرع أحد بإخباري ولكنني حين رفعت بصري لصورة الزعيم "ستالين" التي كانت معلقة دوما أمامي وجدتها مكللة بالسواد".

هبط قلب "نور الله" في جوفه قبل أن يطرح على نفسه السؤال، هل مات؟ هل جرؤ الموت عليه حقا؟ كيف استطاع أن يغافل كل ما حوله من حرس وأن يواجهه قبل أن يمد يده المرتعدة ويقبض روحه؟ كانت الصورة كما هي لم تتغير، نفس الابتسامة المتهكمة والنظرة الميتة، ظل جالسا في صمت، ولم يظهر أحد من الزبائن، بدا أن قلب العالم قد توقف أيضا، وأخيرا قال المسئول عن الوكالة:

ـ فلنشارك الأمة أحزانها، سوف نغلق أبوابنا اليوم.

انصرفوا في صمت وأخيرا جرؤ "نور الله" على سؤال أحد العاملين الذين كانوا يسيرون بجانبه:

ــ كيف مات؟

لم يجرؤ على أن يلفظ بالاسم، رد عيه الآخر أيضا دون أسماء:

ــ لا أحد يدري، بل لا أحد يعرف متى مات، لقد كانوا خائفين من الدخول إلى مكتبه دون استئذان، كانوا يعتقدون طوال المدة التي اغلق فيها المكتب على نفسه أنه على قيد الحياة، لم يكتشفوا موته إلا بعد أن طالت مدة غيبته وتصاعدت رائحته.

المدينة كلها كانت تتحرك بنفس الصمت والخوف، ربما كانوا يتوقعون أن العالم سوف يتداعى في أي لحظة، فكر "نور الله": هل تعفنت جثته، هل جرب مصير كل الذين تعفنوا في المنافي البعيدة جوعا وقهرا، عاد إلى غرفته، أغلق الباب واغلق النافذة، وقف على فراشه الخشبي وهتف من أعماق نفسه:"أخيرا،مات ستالين"، صرخ وضحك وقفز، حلم أن ستالين ولم يجئ، وأن "ميرعرب" لم تغلق أبوابها، وان الحياة تسير دورتها العادية، ظل داخل الغرفة حتى حل المساء، ونام نوما عميقا حتى الصباح.

استيقظ مبكرا ورأى الشمس تشرق صـــافية، الوكالـــة مغلقة، وبقية حوانيت المدينة مغلقة أيضا إلا تلك التي تبيـــع الزهور، كانت هناك جموع من أهـــالي المدينـــة يحملـــون وورودا قانية ومدعومة الأسـعار، يسـيرون نحـو مبنـى القومسيرية لتقديم العزاء، وحمل "نور الله" ورودا هو أيضا، مورقة وحزينة وعليها قطرات من الندى، ولكنه سـار فـي عكس اتجاههم جميعا، وضع الورود تحـت أسـوار سـجن القلعة، بدت غريبة وسط أعواد الصبار، كان الصمت يخـيم على المكان، بلا أصوات كالرعد ولا طيور مفزوعة، هتـف "نور الله":" هذه الورود لك يا قادري، لجسدك النحيـل فـي مثواه الغريب، ولذلك التوهج الذي انطفأ في عينيك، فلتحـل الرحمة عليك وعلى كل من مات غدرا"، استدار لينصـرف فوجد "نتاشا" واقفة في مواجهتـه، ترتـدي نفـس الفسـتان الأحمر، كأنهما يلتقيا سويا للمرة الأولى، قالت:

ــ كم أنت قاس يا "نور الله".

سارا معا في الطرقات شبه الخالية، كانت غاضبة لأنـه تخلى عنها بمثل هذه السهولة، كانت قد قضت مع أبيها أياما غاية في التعاسة، فكرت أن تأتي إلى "نور الله" كثيرا ولكنها

كانت تشعر بالإهانة، كان هو فرحا وهو يمسك بيديها، وهو يختطف من وجنتيها بعض القبلات، لم يبال بأحد، قادها بيسر إلى الأزقة التي تحيط بمسكنه، أخذها هكذا في وضح النهار، رغم أنف كل المدينة المرغمة على الحــزن، كــان يحقــق انتصاره الشخصي وهو يراها تهبط الدرج الحجري مســتندة إلى كتفه، خائفة ومنساقة، عبرا القبور والأطــلال والأســبلة الخالية من المياه، شاهد وجوه النسوة العجائز وهي تطل عليه في خوف، قالت لها طفلة صغيرة تعبر الحارة: "كــم تبــدين جميلة، كأنك شمس صغيرة"، ضحكت "تناشــا" فــي حبــور وصعدت إلى غرفته وهي تمسك بأطراف ثيابه، دخلا وأغلق الباب والنافذة خلفه في إحكام، سادت الغرفة عتمــة دافئــة، استلقيا معا فوق الفراش الصغير وأخذ يدخل أصــابعه فــي خصلات شعرها حتى استكانت تماما، سرى سحر اللمســات المتتابعة في جسدها وخلع ثيابها ببط ء، لم تكن تلبس قطعــا كثيرة، وبدا جسدها رقيقا ونهديها صغيرين وشاهقي البياض كالحليب المصفى، احتقن وجهها وحاولت أن تخفيهما بيدها، ثم أرختهما حين أحست بشفتيه وهما تهبطان إليهمــا، كــان جسدها طيعا في حاجة إلى جسد آخر يلامسه، يخرج ما فيه

من برودة الحزن، تركته يمدها بالدفء الذي تحتاج إليه، وكان هو أيضا يحاول التحكم في درجة الجوع الذي يشعر به، وكلما ازداد إيقاع جسديهما ازداد إحساس الفرح الذي يشعران به، كانا جسدين صغيرين وفتيين، وكان تلاصقهما حميما وشاعريا، يبحثان معا عن بداية جديدة تعيد لفعل الحب رونقه، وعندما وصلا إلى الذروة معا بدا كأن جسديهما قد امتزجا في لحظة الانصهار الوجيزة وقد تشكلا من جديد.

وحدها عرفت "نتاشا" طريقها إلى تلك الغرفة الصغيرة بعد ذلك، قضيا معا أمسيات طويلة، وتأملا معا السماء الغنية بالنجوم من خلال النافذة، مارسا الحب كثيرا وغفيا وحلما معا، ولكن تلك الغفوة الخارجة عن كل زمن لم تدم طويلا، كان الحرس عرفوا هم أيضا طريقهم إلى غرفته، لم يتصور أن لديهم القدرة على سبر أغوار كل هذه الطرقات المتداخلة، وأن يصلوا إلى المنزل الذي يسكن فيه، ما حدث أنه أستيقظ في الصباح ووجدهم وقوفا بالقرب من رأسه، كان واثقا أنه قد أغلق باب غرفته بعد أن أوصل "نتاشا" إلى بيتها، وكان الفراش مازال يحمل رائحتها، هل هي التي دلتهم عليه؟ أم أن أباها قد فطن للأمر؟ حملوه بثياب نومه، هبطوا به على

الدرج الحجري دون أن يتركوا قدميه تلمسان الأرض، قذفوا به داخل شاحنة ضخمة كانت تقف في مدخل الشارع الواسع، أحاطت به مجموعة كبيرة من الحرس، وضع أحدهم حذاءه فوق صدر "نور الله" حتى يبقيه في موضعه على الأرض، كان الحرس كثيرين وحانقين، كلما حاول أن يرفع رأسه وجد وجوههم محمرة من شدة الاكفهرار، رحلة بلا نهاية، ظلت رأسه ترتطم بالأرضية كلما ارتفعت الشاحنة أو انخفضت، ماذا سيفعلون به؟ هل هذا من أجل علاقته "بنتاشا"؟ أم من أجل فرحته بموت "ستالين"؟ أم من أجل حزنه على موت "قادري"؟، وهل تسير الشاحنة إلى نفس المكان الذي تفزع فيه الطيور ويلقى الشعراء حتفهم؟ توقفت الشاحنة أخيرا، دفعوه إلى الخارج، كانت الشمس مازالت مشرقة وبقية العالم مازال موجودا، لم يكن المبني هو سجن القلعة، ولكن كان مبنى القومسيرية بنفسه بكل ما عليه وحوله من أعلام حمراء، يا إلهي ما هو الجرم الذي يعتقدون أنه قد ارتكبه؟، دفعوه عبر طرقة مكسوة بسجاد أحمر، عبر العديد من الأبواب المغلقة والحرس الذي يقف منتصبا، ألقوا به في غرفة جانبية خالية من الأثاث، ثم بدأوا يضربونه بقسوة،

ضربوه بالأحذية وقبضات اليد وكعوب البنادق، لم يعد يدري من أين تنهال عليه الضربات، لم يعد هنـــاك جـــدوى مـــن الصراخ، لم يعد هناك مكان لا تهبط عليه الضـــربات، فقـــد الإحساس بالألم وارتمى على الأرض مثل خرقة دامية.

عندما أفاق أخيرا كان وحده، الظلام يسود الغرفة، ظل ملقى بلا حراك، لا يدري كم من الوقت مر عليـــه، ولكـــن أعضاءه كانت متيبسة، وكل حركة يقوم بها تزيد من ألمه، لم يكن هناك جدوى من الحركة ولا قدرة على التفكيـــر، كـــان الوقت متشابها والصمت سائدا فظل في المكان نفسه، كـــان فقط يسمع أنفاسه تتردد وهذا يعني أنه مازال على قيد الحياة، سمع صوت باب الغرفة وهو يفتح، غمره ضوء ساطع، فتح عينيه فوجد العديد من الأحذية اللامعة تحـــيط بـــه، ارتفـــع إحداها وهوت بسرعة لتضربه في جنبه، صرخ في ألم، سمع صوتا يقول:" إنه مستيقظ، خذوه"، أحس بالأيدي وهي ترفعه من ذراعيه، جرجروه على الأرض خارجين به من الغرفة، ظل جسمه يرتطم بالسجاد الممتد وهم يدخلون به إلى غرفـــة أخرى، وألقوه على الأرض، تركوه وسمع صوت الباب وهو

يغلق خلفهم، كانت الغرفة مضيئة، وكان "نور الله" ينام على سجادة عالية الوبر، وسمع صوتا باردا يهتف فيه:

ـــ لن تبقى راقدا هكذا طوال الليل، انهض.

صوت آمر وحازم، تلوى نور الدين وهـــو يحـــاول أن ينهض دون أن يكسر المزيد من عظامه، ارتكز بركبتيه على الأرض واستند إلى أقرب جدار واخذ يتسلق بجسده عليـــه، استطاع أن يرى المكتب الضخم المزدحم بالأشياء، ثـــم رأى صورة ضخمة للزعيم الراحل وهي مجللـــة بالســـواد، رأى صورا معلقة، وستائر قرمزية، وأرفف مليئة بالكتب القاتمة، ثم رأي أخيرا الرجل الجالس خلـــف المكتـــب، رأى بزتـــه العسكرية وأشرطته الحمراء وأوسمته الملونة، ثم رأى عينيه الزرقاوين الباهتتين كأنها نظرة رجـــل ميـــت، كـــان هـــو القومسير السوفيتي، تماما كما رآه في "مير عرب" في ذلـــك الصباح الممطر، كان يجلس خلف المكتب ممســـكا بعصـــا صغيرة ذات مقبض فضي، يهزها ببطء وهو يحـــدق فيـــه وعلى شفتيه ابتسامة ساخرة:

ـــ أهو أنت إذن، دون جوان "مير عرب"، قديس فاسق كما ينبغي أن يكون، كنت أحسبك شيئا مختلفا.

وقلب شفتيه في امتعاض وهو يواصل تأمله، وفكر "نور الله" : كالعادة، إنهم يعرفون كل شئ، ظل واقفا مستندا إلـــى الحائط، عاجزا عن أن يفرد قامته، قال القومسير :

ــ لا يمكن لمثل هذه المدرسة إلا أن تنتج شـــواذا مـــن أمثالك، أفضل ما حدث أنها قد أغلقت أبوابها.

ماذا كان يمكن أن يقوله "نور الله"، ولم يدر على وجـــه التحديد ما التهمة الموجهة إليه، نهض القومسير مـــن خلـــف كتبه، واصل النظر إلى جسده الدامي في احتقار، مد العصـــا وحرك بها وجه "نور الله" ليرى مدى إصابته،ثم قال:

ــ ماذا تحسب نفسك، كازانوفا وقد أخذ هيئة أحد شيوخ الإسلام، في البداية تصعد إلى فراش تلك الزوجـــة الشـــبقه وتدع زوجها يمطرني بالشكاوي، والآن تغرر بتلـــك الفتـــاة الروسية الصغيرة، ماذا تظن نفسك أيها القذر؟

هوى على وجهه بالعصا، أحس "نـــور الله" بمقبضـــها الفضي وهو يرتطم بوجهه، وكان الدم دافئا ولزجا، تأوه في صمت، كان يريد أن يسقط على الأرض ولكنه لم يجرؤ على ذلك، ماذا كان يمكن أن يقول له، هل يحدثه عن "نـــور الله" الآخر الذي يسكنه، صاح القومسير فيه:

ــ هيا تكلم، حدثني عن الشيطان الذي يسكن في داخلك، ربما تعتقد إنك تستطيع أن تخدعني كما فعلت مــع شــيخك السابق؟ أستطيع أن أرسلك إلى "سيبيريا" مــن أجــل هــذه الأفعال، دع شيطانك يسكن معك في وسط الثلج.

كان جائعا ومتعبا ويدرك أنه لا جدوى من الكلام، رفع عينه ببط ء، رأى وجه القومسير يتطلع إليه بعينيه الميتتــين، قال له في همس:

ــ ماذا تفضل، الخروج من هنا أم الذهاب إلى منفى لا تشرق عليه الشمس؟

بحث "نور الله" عن صوته، أخرج كل توسلاته في كلمة واحدة:

ــ أرجوك.

حدق فيه القومسير، بدا كأنه كان يريد مــن البدايــة أن يستمع فقط لهذه الكلمة المتوسلة، ظل يحدق فيه قليلا وهــو يواصل ضرب كفه بالعصا، سار إلى مكتبه وهو متبرم ولكن "نور الله" سمعه بوضوح وهو يقول:

ــ هذه المدرسة اللعينة سوف تعاود فتح أبوابها، وهــو أمر سيء لم يكــن أحــد يتمنــى حدوثــه، ولكنــه ســوف

يحدث،وسوف يعود إليها أمثالك من الشواذ ومثيري الشغب، من المؤسف أن "ستالين" قد مات وإلا لما رأت هذه المدرسة النور مرة أخرى.

لم يصدق "نور الله" إذنيه، هل قيلت هذه الكلمات حقا وهل ستفتح "ميرعرب" أبوابها؟ هل يمكن أن تعود الكراكي البيضاء بعد رحلة الشتات الطويلة، هل يمكن أن يجد طريقه إلى غرفته وأن يستعيد مفردات اللغة التي هجرها؟ قال القومسير وهو يركز عليه نظراته:

ــ أعرف أنه لا مكان لك في هذه المدرسة، فقد طردك منها شيخها لسوء سلوكك.

كانت هذه أقصى لحظات عذابه، إنهم يعرفون هذا الأمر أيضا، قدر مسلط عليه يعرف كل نقاط ضعفه، ولكن القومسير عاد يقول متهكما:

ــ من حسن حظك أن الشيخ الأكبر قد مات، إننا نستطيع أن نعيدك للمدرسة ونمزق كل أوراقك السيئة القديمة، ولكن عليك أن ترد لنا الجميل، لست الشاذ الوحيد في هذه المدرسة، ولكن سوف تكون عيننا بها، لا نريد أن يخرج منها أعداء جدد، هل تفهم ماذا أعني؟

قال "نور الله" في ضعف : سأحاول.

قال القومسير:من الأفضل أن تكون ذكيا بدرجة كافيـــة لتفهم أنك قد نجوت من الذهاب لســيبيريا، التغريـــر بفتـــاة روسية قاصر ليست بجريمة سهلة.

ــ لن أكرر مثل هذا الأمر، يكفي ما أشعر به من خوف

ــ عليك أن تخاف منا فقط، ولن تكون آمنا على نفسك إلا إذا قمنا نحن بذلك، أريدك أن تعد تقريرا أسبوعيا تكتـــب لنا فيه كل أحداث المدرسة من الداخل، كل ما يقوله الطلاب والأساتذة، وكل ما ينوون القيام به، نريد أن نعرف أفكـــارهم في النهار وأحلامهم في الليل.

كان "نور الله" مضطربا، جائعـــا ومفزوعـــا، الأشـــياء تتلاحق من حوله وهو عاجز عن أن يبدي رأيا، كان أضعف من أن يبدي رأيا، تخيل وجه "لطف الله" ووجوه بقية زملائه، الذين جلسوا حوله في حلقات العلم كل صباح وضمتهم معـــا صلاة الجماعة، الذين أخرجوه من حارة اليهود وساروا معه في المظاهرات وتلقوا هراوات الحرس وأوشكوا على الموت جوعا في فناء المدرسة، تخيل نفسه وهو يعريهم كل أسبوع أمام هاتين العينين الميتتين، ولكن هل كان يمكنه الـــرفض،

ماذا لو كان "لطف الله" في محله، هل كانت تتأتى له القــدرة على رفض هذا الأمر ومقاومته؟

اقترب القومسير منه وأخذ يضربه على كتفه بالعصــا ضربات خفيفة متتابعة وهو يقول :

ـ لن تخدعنا، ولا تحاول القيام بذلك، جائزتك الكبــرى أنك قد أفلت من عقابنا، ولكن سيف هذا العقاب سوف يظــل مسلطا على عنقك.

لم يصدق "نور الله" نفسه وهو يخرج من باب المبنــي الضخم، كان يلمس الأرض في وهن، ويوشك أن يفقد توازنه مع كل خطوة، ســار وســط تلافيــف الأعــلام والحــرس المتأهبين، كان حلمه قد تحقق وسوف يعود إلى "مير عرب" ولكن بأي ثمن، وسوف يقابل "لطف الله" ولكن بأي وجه؟:

ـ يا رحمن يا رحيم، ياساتر العيوب وخــافي القلــوب ومغمض العيون، ومحيط بكل الأسرار، لماذا أقول لك كــل هذا؟ كنت أود أن أقص عليك فقط واقعة محددة فإذا بــأغوار النفس تتفتح، وإذا الظلمة تنزاح ويخرج ما كان مخفيــا فــي طبقات الذاكرة، لقد دام ذلك الحريق الــذي اشــتعل داخلــي طويلا، ولكن بقاياه رماده مازالت في داخلي، تطمر كل مــا

فيها من خير ومن شر، لقد حاولـــت ألا أؤذي أحـــدا ولكـــن الزمان كان مؤذيا لنا جميعا.

كان الصباح مضيئا رغم أن شمسه لـــم تشـــرق بعـــد، ورغم أن ريحه باردة،كانت محطة بخـــارى علـــى حالهـــا، أحجار قديمة ووجوه متعبة، انجلى دخان القاطرة وبدا وجـــه "لطف الله"، نحيفا وشاحبا تتوسطه عينان ماضيتان، كأن أيام الجوع في فناء "مير عرب" لم تغير ملامح جسده رغم مرور كل هذه الأشهر، احتضنا بعضهما وبكيا وسارا معـــا عبـــر طرقات المدينة وتحت أسوار القلعة، حكي له "نور الله" عـــن كل شيء إلا عن سبب آثار تلك الجروح التي كانت ما تزال آثارها باقية في وجهه، كانا يسيران معا في نفس الطريـــق، ويتوجهان إلى المدرسة نفسها، يتحدثان معا باللغـــة العربيـــة السامية، لم يعودا مرغمين على استخدام أي لغة مبتذلة، حيث لا يتمكن أن يفهمهما أي العامة الذين يمرون بهما، ولكن مـــا أشد اختلاف المصائر التي تحددت لكل منهمـــا، بقـــدر مـــا تتشابك الخطى بقدر ما تتباعد.

ــ "مضت أيام الدراسة، أحداث قليلة، وتقارير أسبوعية مثيرة للملل، لم اجرؤ على أن اكتب كلمة واحدة ضد "لطف

الله"، لم اعرف إن كان بذلك احميه أو أساهم في إثارة الريبة حوله، لم أقابل القومسير من يومها، ولم أحاول أن أسير في الطريق الذي يؤدي إلى بيت "تتاشا"، لكنني داومـت علـى مقابلة رجال الأمن، في كل مرة كنت أقابل واحـدا مختلفـا، ولكن طريقتهم في معاملتي لم تتغير، مزيج من الريبة في كل ما أقول، والاحتقار لما أكون، اكتشفت أنني لم أكن وحـدي الذي أقوم بهذا العمل، كانت أخباري دائما ناقصة أو قديمـة، ورغم ذلك كانوا يؤكدون لي في كل مرة:"نعرف أن التقارير تافهة، ولكنك أصبحت رجلنا، حتى بعد أن تتخـرج سـوف تظل رجلنا"، لقد قلل هذا من درجة إحساسي بالـذنب رغـم إنني كنت موقنا أنني لن أستطيع الإفلات من قبضتهم، أصبح الشيخ عبد المؤمن هو الشيخ الأكبر لمدرسة "مير عـرب"، وهكذا اكتمل تحول الزمان، كـل الـذين تخـاذلوا صـعدوا وسادوا، وبدا "لطف الله" غريبا في عصـر غريـب، كنـت أجلس إليه أحاول آلا أستمع إلى ما يقوله حتى لا يعلق فـي ذاكرتي شيء منه، كنت طوال هذه الأيام الطويلـة والثقيلـة أتساءل ترى هل سيحدث يوما ويشك في الـدور المـزدوج

الذي أقوم به، كلا لم اكن أنا الذي أقوم به، كان هو "نور الله" الآخر، ذلك الذي عجزت دوما عن التخلص منه".

يتوقف سريان الكلام، يرتفع صوت آخر من هدأة الليل، ليست أصوات الضفادع وجنادب الليل وهمهمـــات الطيـــور، يكف "نور الله" عن الهذيان، ويلتفـــت ناحيـــة مقـــام الإمـــام البخاري، أمسك أنفاسي أنا أيضا، يخيل إلى أنه بعـــد يـــوم حافل هكذا، وحديث مثل هذا إنني سوف ألمح الإمام البخاري قادما، ربما كان غاضبا لأننا استحضرنا لمقامـــه كـــل هـــذه الدناءات الدنيوية، لكن القادم كان رجلا ضئيل الحجم يحمـــل مصباحا مضيئا، مجرد حارس ليلي يتلفت حوله، لا يفـــتش عن شيء بقدر ما هو مذعور، أصدر صوتا خائفا حين شاهد ظلالنا ونحن نجلس تحت شجرة التوت، ثم تمالك نفسه وتقدم منا رافعا المصباح إلى أعلى، يتبين وجه "نور الله" فيشـــهق في انبهار وهو يقول:

ــ تباركت الأرض التي تسير عليها يا سيدي ومولاي، لم يخبرني أحد أنك تشرفنا بزيارتك.

يومئ "نور الله" برأسه دون أن يرد، أرى وجهه لامعا، هل كان يبكي أم أن ندى الليل قد كساه قناعا براقا، تراجع الحارس بظهره وهو يواصل الانحناء:

ـ تباركت يا سيدي،تباركت.

يسود الظلام مرة أخرى، لم يبق من ظلمة الليل إلا القليل، نظل جالسين صامتين، ولكن كل واحد منا يرى الآخر ويسمعه بوضوح، أحس أننا قد مضينا معا في تلك الليلة أبعد بكثير مما استغرقت منا الرحلة خلال الأيام الماضية، ولكن ترى هل عرفته أكثر أم أنه ازداد غموضا بالنسبة لي، قال في صوت هادئ وقد استعاد إهاب "نور الله"، رفيق السفر:

ـ سوف يؤذن الفجر بعد قليل، ويجب أن أؤمهم في الصلاة، خذ قليلا من الراحة ونلتقي في الغد.

قلت: سوف أصلي الفجر خلفك.

ـ ٨ ـ

لا أذوق النوم إلا قليلا، فقط تلك البرهة الوجيزة بين الفجر وبداية صعود الشمس، استيقظ مفزوعا على صوت همهمات طاغية، أجد نفسي على سرير صغير وسط قاعة مليئة بالأسرة الخالية، على جدران القاعة وسقفها نقوش

وآيات قرآنية، تتحول الهمهمات إلى هدير خافت، أسير بين اليقظة والنوم إلى أقرب نافذة، أزيح الستار وأنظر إلى الخارج، تبدو الحديقة التي كنا جالسين فيها بالأمس مختلفة تحت ضوء الشمس، مزدحمة بالمئات من البشر، رجال ونساء يرتدين الملابس البيضاء، قطع ثلجية متألقة تحت الشمس، يتدافعون بالمناكب وهم يحاولون الاقتراب من المنصة الخشبية التي كنا نجلس عليها بالأمس، أرى "نور الله" جالسا في الوسط من كل هذا، مرتديا عباءة موشاة بخيوط من الذهب، والعمامة ــ مثل تاج ــ فوق رأسه، خان عظيم انبعث من أعماق الماضي، حاملا خطاياه ومهابته، كانوا يسألونه، يريدون أن يعرفوا منه أشياء كثيرة، ويظل يسمع أصواتهم حتى يعلو هديرها، ثم يرفع يده فيهدأ كل شيء ويبدأ في الكلام، يعلو صوته شيئا فشيئا، تتابعه عيونهم وتتشرب آذانهم كلماته، تهدأ الريح ويتوقف ورق الشجر عن الاهتزاز، من الواضح أنه لم ينم طوال الليل ومع ذلك فلم يفقد حيويته وتوقده، أقف مشدوها، لا أفهم ماذا يقولون، ولكن كل المعاناة والعذابات تبدو على وجوههم وفي الطريقة التي يرددون كلماتهم على مسامعه، لقد جاءوا إليه من كل مكان،

اختزنوا كل ما مروا به من أجل مجيئه، هل فعل ما يستحق كل هذه القدسية أم أنهم كانوا في حاجة إلى قديس؟ لاتــزال الحكاية ناقصة.

يدخل القاعة شخص ما، إنه الشيخ عبد الرازق، يقترب منى وهو يحني رأسه قائلا:

ــ مولانا أمرنا أن نعد لك الطعام عندما تستيقظ.

أشعر أنه حتى تناول الطعام سوف يكون عملا بذيئا أمام هذا المشهد الذي يحدث أمامي، أقول:

ــ أشكرك، لا أريد.

يصمت الرجل قليلا، يقول وهو يبدو محرجا:

ــ مولانا يرجو منك شيئا آخر، فكما ترى، لــن يكــف الناس عن التزاحم ليلا ونهارا لعدة أيام، لقد جاءوا من أماكن بعيدة، يطلبون منه النصح والهداية، لذلك لا يريد أن يعطلك عن الذهاب إلى سمرقند، وسوف نتكفل نحن بهذا الأمر.

أعاود النظر من خلال النافذة، أرى ذلك التفاعل الجياش بينه وبين من يحيطون به، ليلة كاملة وأنا أستمع إليه دون أن أتوصل لحل لغزه، ومع ذلك ما زلت أبعد ما أكون عن ذلك، كان من العبث أن يعود سائقا لي مرة أخــرى، وكــان مــن

المستحيل أن أقبل بذلك، اشعر أنني قد أصبحت أقرب إليـــه، رغم كل الذين يحيطون به، والذين يعرفونه أفضـــل منـــي، اصبح هناك رباط خاص يربط بيننا، نسجت خيوطه من ندى ليلة الأمس ومن بقايا ثمار التوت المتســاقطة، ومـــن تلـــك اللحظة الدقيقة التي تتوق فيها النفس للخلاص فتـــزيح عـــن جسدها أردية الصمت، كأنه كان ينتظر شخصا عابرا مثلي، ليحمله جزءا من عبء أثقاله التي ناء بها طويلا، قلت له:

ــ قل لمولانا أنني سوف أنتظره، مازلت فـــي حاجـــة للحديث معه.

ترى هل فهم مغزى رسالتي، سوف يمـــر علـــي يـــوم طويل دون أن أعرف ذلك، فالناس لا يكفون عن التوافد، ولا يكف هو عن الحديث إليهم والصلاة بهم، رجـــال يتوكـــأون على العصي، ونسوة يسحبن أطفالهن المرضى، وزوجـــات ضارعات، توسلات لا تنقطع من أجل رحمة أرضية، تمضى أحداث اليوم على هذه الوتيرة، أجلس فـــي الغرفـــة الخاليـــة أراقب أنماط البشر التي تتوافد، يتحول صوته ليصبح إحدى أصوات الطبيعة من حولي، أقرأ المزيد من آيـــات الفاتحـــة للإمام الميت وأتصفح الكتب الموجودة في مكتبتـــه، ويحـــل

الليل أخيرا، يبدأ الناس في التراجع تاركين أرجاء الضـــريح مليئة بالمخلفات، ينسحب "نور الله" إلى غرفة جانبية ليرتـــاح قليلا، أحاول أن أغفو قليلا، ولكن الشيخ عبد الرزاق يجـــئ ليدعوني للعشاء، عشاء يضمنا جميعا، يجلس "نور الله" فـــي صدر المجلس، متعبا لا يكاد يمس الطعام، يلقي علي نظرات سريعة، ثم يتشاغل في الحديث مع الذين يجاورونـــه، بيننـــا شيء مؤجل، يبدأ طلاب المدرسة في رفع صحاف الطعـــام ووضع أطباق الفاكهة، أجده منشغلا فـــي الحـــديث معهـــم، أنهض وأسير في الحديقة، ما يزال العمـــال منشـــغلين فـــي تنظيفها، وفي السماء قمر بعيد مائل للصفرة، ترى كيف يبدو لونه فوق سمرقند؟

أجلس فوق المنصة الخشبية، أحس بلفح الهواء، تتساقط في كفي بضع من ثمار التوت، أمضغ طعمها المســكر فـــي بطء، يسترخي جسدي وأغرق في نوم قلـــق، تتـــداخل فـــي ظلمته وجوه كثيرة، وجه "نور الله" مع بقية الأشخاص الذين ظل يحكي عنهم طوال الليل، ووجوه لأناس عرفتها ذات يوم، جاءت من مصر وارتدت الأقنعة وانخرطت فـــي الكـــابوس دون حاجة للغة أو منطق للأحداث، تتـــدافع إلـــى عشـــرات

الصور غير المترابطة، أفتح عيني فأجد "نور الله" جالسا أمامي، على كفيه العباءة المذهبة، ولكن رأسه عار قد خلع عنه العمامة، يبتسم وهو يتأملني وأنا أحاول أن أستعيد يقظتي، أتلفت حولي، القمر قد أصبح أسطع ضوءا وأدق حجما، والحديقة خالية من حولنا، أقول له:

ـ هل راقبتني طويلا؟

ـ النوم هو اعتراف صامت يكشف فيه جسم المرء عن كل ما يخبئه؟

ـ هل تكلمت أثناء نومي؟

ـ حتى الآن لم تفعل، ولم تفعل في يقظتك، ولكن يوما ما سوف تكون في حاجة لأن تفضي إلى بكل شيْ.

ـ ولكنه دورك الآن، فهل سوف تواصل كشف ما تخبئه؟

ـ ما بقي يحتاج إلى قدر كبير من الشجاعة، حتى أستعيده من لفائف الذاكرة، إنه حملي الأكبر وسري الأعظم، ولكنك غريب، الغريب بئر لا قرار له، رب يسر وأعن.

مرة أخرى يعيد ""نور الله"" فتح أغوار الماضي، تلك اللحظة الفاصلة التي انتهت فيها الدراسة في "مير عرب":

ـ "ذقنا أخيرا حلاوة لحظة التخرج التي تأخرت بعض الشيء، أطلقت الكراكي أجنحتها وحان وقت خروجها للأفق الواسع، أصبحنا شيوخا صغارا بعمائم ملفوفة، واسعة من أعلى وتضيق كلما انحدرت إلى أسفل، ولكن كان لكل منا جراحه الخاصة، وقف كل منهم في مواجهة الآخر، مرة أخرى أصبحت أنا و "لطف الله" على مفترق طرق، لم يكن مقدر لنا أن نعيش في مكان واحد، وكان هذا أفضل.

وقف "نور الله" يتأمله وهو يحمل حقيبة ثيابه، نفس الحقيبة التي جاء بها،سأله:

ـ أين تذهب يا "لطف الله"؟

ـ إلى " خيوة"، لعلني أجد ما أبحث عنه، في الفترة التي كنت فيها خارج المدرسة اكتشفت أننا لا نعرف شيئا عن العصر الذي نعيشه ولا العالم الذي يحيط بنا، هذه الأسوار العالية القديمة قد عزلتنا، في بلد هو أصلا معزول عن عالم الإسلام، إننا نعاني عزلة خانقة يا "نور الله"، الإسلام غريب، ونحن أكثر غربة، الشيوعية تسود، والوجودية تبهر عقول الشباب، العالم يتقدم ونحن على هامشه، ما نملكه هو صيغة تقليدية قديمة، في"خيوة" سوف

أقابل أكبر علماء الدين في تركستان وسوف أدرس المزيد من المخطوطات القديمة والكتب القادمة عبر الحدود، ربما نجد طريقة يتواءم بها الإنسان مع هذا العصر المتقلب، لماذا لا تأتي معي؟

لم يستطع أن يقول له أن الأوامر قد صدرت له بالتوجه إلى "طشقند"، كان هو رجلهم وكانوا يعدونه لمنصب هام في الإدارة الدينية، من هذا المكان يمتد نفوذ لا يتصوره الخيال،من جبال سيبيريا في الشمال حيث أكواخ المسلمين المنسيين، إلى سهول كازاخستان اللانهائية المليئة بالخيول الفتية السوداء ومن جبال قرقزيا القديمة ذات التجاعيد الوعرة، إلى أرض التركمان حيث تمضي الأنهار في شرود ويلعب الرجال بأنصال السيوف، خليط من تاريخ وأساطير شائخة تمتد من خطوات القوافل على طريق الحرير، إلى أضرحة الأولياء الذين يسيرون فوق الجمر دون أن يمسهم ضر، إلى ملوك المغول الذين سادوا وعاثوا، وخانات التتار الذين عمروا بقدر ما خربوا، عروق من الصخر والملح تمتد عبر الفيافي النائية إلى ذلك المبنى التاريخي الذي يبدو هادئا في أطراف طشقند:

ـ "أقسم إنني حين دخلت هـذا مبنـي الإدارة الدينيـة لمسلمي آسيا كنت أريد أن أكون إنسانا جديدا، كانوا هم الذين جاءوا بي إلى هنا و ولم يكن مطلوبا منـي أن أعـد هـذه التقارير التافهة التي لا تخرج عن الثرثرة، ولكن ما أصـبح مطلوبا مني أكثر بذلك بكثير، ورغم كل تلك القيود القاهرة، كنت أريد أن أترك كل هذا وراء ظهري وأبدأ مـن جديـد، واخترت أن أبدأ ذلك من تلك القاعة الرطبة التي يوجد فيهـا مصحف سيدنا عثمان".

سار "نور الله" خلف قيم المحفوظـات عبـر الطرقـة الطويلة، كان الرجل يحرك في يده المفتـاح الضـخم فـي عصبية كأنه لم يتعود بعد على الإمساك به، من خلف النوافذ المتتابعة كانت تبدو معالم طشـقند، المدينـة التـي سـرقت الحظوة والمكانة في غفلة من الزمن، هبطا الدرج إلى قبـو رطب، بـدت الأرفـف مزدحمـة بأكـداس مـن الكتـب والمخطوطات، شواهد صامتة على التاريخ المنسـي لتلـك البقعة من العالم، اتجه القيم إلى نهاية القبو حيث توجد خزانة من الحديد الصلب بابها مصنوع من الزجاج السميك، يضيئها نور واهن، اقترب "نور الله" ودقق النظـر، بـدت الرقـائق

متراكمة فوق بعضها البعض، أحس بالرهبة في أعماقه، كانت أشبه بكائن عتيق ورابض، يحمل كل بصمات الزمن وآثار الفتن، مد القيم يده ليفتح باب الخزانة وهو يرتعد، كأنه يجاهد شيئا في نفسه يمنعه من ذلك، تراجع وهو يمد المفتاح إلى "نور الله" قائلا:

ـ تباركت يا سيدنا، هلا تكرمت أنت وأخرجته من خزانته.

زادت رعدة القيم من الرهبة التي كان يحس بها "نور الله"، تناول منه المفتاح ومد أصابعه ولمس الرقائق الناعمة، أحس كأنها توشك أن تتحلل تحت أصابعه، فاحت منها روائح المسك والكافور والزعفران، ظل مترددا، خائفا من أن يقبض عليها، كأنها طفل رضيع يخشى أن يحمله بطريقة خاطئة، قال القيم وهو على وشك البكاء:

ـ احمله ياسيدنا، ربما حلت البركة علينا جميعا.

تجرأ "نور الله" وجذب رقائق جلد الغزال، حملها ووضعها على المنضدة، ووقفا سويا يتأملانها في انبهار، ثروة لا تقدر بثمن من النادر أن تغادر مكانها، قلب الصفحات فامتلأ المكان بذرات دقيقة وغدا الجلد واهنا ولكنه

متماسك، أكتسب سمة الدهور المتوالية ورائحتهـــا، روائـــح الأيدي التي لمستها، مقدسة ومدنسة، السيوف التي رفعت من أجلها، عن حق أو على باطل، الأقوام التي تداولتها، خشـــية منها أو يقين بما فيها، واصل "نور الله" تقليب الرقائق، بـــدت الكلمات سوداء وكبيرة، بدون تشكيل أو نقاط، أشبه بغصون جافة متكسرة، تناثرت وتماسكت وأعطت جلد الحيوان الفاني صفة الأبدية، نهض الخليفة عثمان بـــن عفـــان مـــن بيتـــه الصحراوي المتواضع الذي يحكـــم منـــه مملكـــة مترامـيـــة الأطراف، أمر بإحراق كل المصاحف إلا مصـــحفا واحـــدا، نسخة واحدة أجمع ثقاة الصحابة على صحتها، الوحي كمـــا جاء والكلمات كما رددتها شفتا الرسول الكريم، بلا نسخ ولا تحريف، ومع ارتفاع ألسنة اللهب في ساحة المدينة اكتســـبت هذه النسخة صفة التفرد، حاول الخليفة أن تكون رائحة الجلد المحترق هي نهاية عهد من الخلاف والتناحر، وأمر أن يـــتم نسخ خمس كتب من تلك النسخة الفريدة، ثم يقـــوم الرســـل بحملها إلى بقية الأمصار، ولكنه لم يدر أن الفتنة نائمة تحت الرماد لا يكفيها حرق المصاحف، كان الخليفة قد احكم حديث السماء، ولكن من يحكم وقائع الأرض؟

كان القيم يقف بعيدا، يحرك أصابعه في رغبة حارقة للمس صفحات المصحف ولكنه يبدو عاجزا عن ذلك،قال:

ــ تكرم يا سيدنا وانظر إلى سورة البقرة، الآية الخامسة.

كان "نور الله" قد رحل بعيدا في الزمن، ولكنه أطاع كلمات القيم بأصابع مرتعدة، قلب الصفحات حتى ظهرت الآية، قرأها بسهولة لأنه كان يحفظها أصلا:" أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون"، لكن الحروف القديمة كانت متآكلة، عليها بقع متناثرة ذات لون داكن غير محدد، تكون شكلا غامضا كأنها ترسم مصيرا مجهولا، كأن هذه الصفحات قد فتحت على أزمنة من الخوف والأسى، قال "نور الله" في خفوت:

ــ ما هذه؟

قال القيم: هذه قطرات من دم زكي مبشر بالجنة، ولكنه قتل بغير حق، دم سيدنا عثمان.

كانت السيوف مشرعة وإمام المسلمين منكفئا يقرأ في هذه الصفحات، اغرورقت عينا "نور الله" بالدموع، بيت الإمام محاصر، بنفس قسوة الحصار الذي فرض على "مير

عرب"، خمسون يوما كاملة وكل ثوار الأمصار قد تجمعوا، نزعوا من المدينة سلامها النوراني، لم يأت للخليفة المدد الذي وعده به معاوية ولم يفكر أحد من جند المدينة لنجدته، لزم الصحابة بيوتهم عن عجز أو عن تواطؤ، وجاء زمن الحجيج فأدوا المناسك وزاروا قبر المدينة وأكلوا تمر المدينة الريان ثم انصرفوا، لم يبال أحد بأن خليفة النبي محاصر، لم يقودهم في مناسكهم ولم يؤمهم في صلاتهم، تلفت "نور الله" حوله مذعورا، كان القبو قد امتلأ بريح الصحراء، وبصرخات الغضب والتوعد، وكان الإمام قد صعد فوق ظهر بيته مستندا إلى زوجته نائلة، أطل على وجوه الذين يحاصرونه منذ خمسين يوما، كانوا قد منعوا عنه الماء والطعام ووقفوا جميعا يترصدون أنفاسه الأخيرة، قال كأنما يرثي لحظاته الأخيرة في عالم ظن فيه أنه ظل الله :

ــ لقد اشتريت بئر "رومة" من مالي وجعلته سقاية للمسلمين، وأنا أول من يحرم من مياهه، وحين ضاق مسجد الرسول بالمصلين اشتريت أرضا وضممتها إليه، وأنا أول مسلم يمنع من الصلاة فيه.

كان يدرك أن هذا يوم موته، وأن ما يحدث هو جــزء من العذابات الأرضية التي عليه أن يجتازها وصــولا إلــى الجنة التي بشر بها، عليه أن يتحملها جوعا وعطشا وقهــرا، كل الذين حاولوا أن يحملوا لهم الطعام والشراب تعرضــوا للضرب والإهانة، حتى علي بن أبي طالب صرخ فيهم:" إن الروم يأسرون فيطعمون ويسقون، فما بالكم أنتم؟" ولكن من يبالي بصوت صارخ وحيد في برية شاسعة مــن الصــمت، الإمام فقط هو الذي قال وصيته الأخيرة:

ــ والله لو قتلوني فلن يصلوا بعدي جميعا أبــدا، ولــن يحاربوا عدوا جميعا أبدا.

ثم انكفأ على المصحف يبحث في كلماتــه عــن مــلاذ أخير، ولكن الثوار صنعوا ثغرة في الجدار الطيني، هــوت السيوف على رأسه فشجتها، وحاولــت زوجتــه أن تحميــه بجسدها فبتروا أصابع يدها، هز "نور الله" رأسه كأنما يريــد أن يفيق من هذا الكابوس الزمني المتكرر، قال:

ــ ولكن أليس من الغريب أن يقطع هذا الكتاب المقدس كل هذه الفلوات حتى يصل إلينا؟

قال القيم: الحكايات حول ذلك كثيرة يا سيدنا، ولكنه ميراث لنا من مئات السنين، لقد حفظناه بعيدا عن عالم الفتن.

لم تعبر رقائق المصحف كل هذه الوهاد والأنهار اعتباطا، إنها هدية قدرية، علامة على بعث جديد سوف يبزغ من هذا المكان، هل كان السلطان الظاهر بيبرس يعرف ذلك حين حنت جذوره إلى الأرض الذي نشأ فيها قبل أن يأسر ويخطف، هل تصاعدت آماله حين صعد نجم "برمكه خان" زعيم القبيلة الذهبية التي هزمت قياصرة الروس، كانت هذه القبيلة المغولية النادرة قد دخلت الإسلام حديثا، فأثارت عداوة الخان الرهيب هولاكو، وأحس بيبرس بنوع من القرابة خاصة أن عدوهما كان مشتركا، لذلك أرسل "لبرمكة خان" هذه الهدية الثمينة حتى يضمن صداقته وتحالفه، ولكن "نور الله" يهز رأسه دون أن تقنعه هذه القصة القديمة:

ـ من المستحيل أن يتخلى سلطان مملوكي شديد التطير عن وديعة بمثل هذه القداسة، لقد كان سلاطين المماليك يتفاءلون ويتشاءمون من أي شيء يبقيهم على عروشهم الشديدة الاهتزاز، فكيف يفرط سلطان مثل بيبرس في شيء كان يمكنه الآمان والشرعية.

قال القيم: أليس هذا حالهم جميعا حتى يومنا هذا؟

من المؤكد أن مثل هذا المصحف قد أخذ حين أخذ عنوة واقتدارا، أخذه نفس الرجل الذي استولى على سلطان الدنيا، فلم يمنع العرج "تيمورلنك" من الرحيل إلى آخر بلاد المسلمين والاستمتاع بحرقها، كان مسلما حقا ولكنه كان تتريا أصيلا لا يصفو مزاجه إلا عندما يشم رائحة المدن المحترقة، وأصابه الندم بحق عندما أدرك أن جنوده وهم يحرقون دمشق قد أحرقوا نسخة أصلية من القرآن كانت محفوظة داخل المسجد الأموي، كان هو أيضا يبحث عن شيء يؤكد شرعيته، شيء يقيني غير السيف والنشاب ومشاعل الحرق، أراد أن يمتلك شيئا لا تقدر السيوف على امتلاكه، لقد عاش بعد إحراق بغداد لحظات كثيرة من الندم، وعبثا حاول أن يحصل من ابن خلدون على مبرر لأفعاله، ولكن العيون والجواسيس نقلوا إليه خبرا طيبا، هناك نسخة أخري أصيلة من القرآن موجودة في مدينة البصرة، جاءت بها نائلة بنت الفريفصاء من المدينة بعد أن مات زوجها الخليفة عثمان، ومازالت صفحاته تحمل آثار دمه، وأسرع "تيمورلنك" قام بالشيء الوحيد الذي يجيده، فرض الحصار

على مدينة البصرة وهدد فقط بإحراقها، وعندما خرج إليـــه كبراؤها كان الثمن الوحيد الذي طلبه في مقابل عـــتقهم مـــن النار هو ذلك المصحف النادر، وقد حصل على ما أراد وإن لم يعرف أحد عن كان قد أحرق المدينة بعد ذلك أم لا؟

قال القيم:جاء بها "تيمورلنك" إلى ســـمرقند، عاصـــمة الدنيا في ذلك الوقت، ووضعت في صومعة خاصـــة قـــرب مكان الصوفي "خاجا أحرار"، ولم تكن تظهر أمام النــــاس إلا في المناسبات الخاصة، كانت توضع على حجر خاص وسط مسجد "سرجان" يسمى حجر القرآن ويطوف حولها الجميع.

أمام هذا الحجر وقف الجنرال الروسي "ايراموف"، كان يدرك أن نفوس أهل سمرقند متعلقة بها، وان عليه لكي يؤكد انتصاره أن يهدمه، ولكن المشكلة كانت في تلك الرقائق من جلد الغزال التي كانت تمنحه ذلك الخلود وتربط هؤلاء الناس بذلك الماضي البعيد، ولن يتمكن من أحداث القطيعة مع هذا الماضي، إلا بعد أن يقضي على آخر هذه الرمـــوز، ولكـــن ماذا يفعل مع شيوخ الصومعة؟ قال القيم:

ـــ لم يمت "تيمورلنك" أو على الأقل لم ينته أسلوبه، فقد حاصر الجنرال الروسي الصومعة وهدد الشيوخ بالحرق إذا

لم يسلموه المصحف، وعندما خضعوا له مقهــورين، أخــذ المصحف ونقله إلى عاصمة الإمبراطوريــة "بترســبورج"، ولمدة خمسين عاما ظل المصحف أسيرا في مدينة الجليــد، وضع داخل متحف فخم لا يمكن أن ترتقي إليــه صــومعة "خاجا أحرار" المتواضعة، ولكنه كان أسيرا، التــف حولــه عشرات من علماء الدين واللغة ودرسوا كل سطر فيه، ولكنه كان أسيرا، أعيد ترميمه وصنعت منه عشرات النسخ طبــق الأصل، ولكنه كان أسيرا، ولم يكف أناس تركســتان عــن المطالبة بعودته، وكما يقال يا سيدنا لا يموت حــق وخلفــه مطالب، فقد أضطر السوفيت لإعادته بعد خمسين عاما مــن الأسر.

لم يصدق "نور الله" أن هذه الرقائق الناعمة قد تحملــت كل صنوف الدهر وخشونته، كان ملمسها بأصابعه يربطــه بتجربة عميقة، تلك اللحظة النادرة التي فيها يــرتبط البشــر الفانون بسرمدية الخلق والتكوين، كل ما مر به مــن وهــن وتخاذل كان مجرد لحظات ضعف عابرة، وأن روحه ــ مثل مصحف الشيخ القتيل ــ تمر بمرحلة مؤقتة من الأسر، وأنه يوم ما سوف يتحرر من ســلطة القوميســرات، والتقــارير

المخزية، وذلك الشخص الآخر الرابض في أعماقه، أعاد المصحف إلى مكانه، وأسرع القيم وأغلق باب الخزانة وهو يوشك أن يبكي، هتف:

ــ في كل مرة يتاح لي أن ألمس هذه الصفحات المقدسة، لا أجرؤ على ذلك، حتى الآن لا اشعر أنني أستحق ذلك.

هكذا بدأ حياته في "طشقند"، يحاول أن يعمل بأقل قدر من الأخطاء، ولم يكن من سبيل أمامه إلا أن تعمل كل الشخصيات المتناقضة داخله بكفاءة وبحذر، كان مفتي "تركستان" يعامله في قلق، ربما كان يشعر في أعماقه أن هذا الفتى الذي حل عليه من مقاعد الدرس في بخارى هو المفتي القادم، وأنهم في انتظار زلته الأولى، وما أكثر الزلات عند السوفيت، مارس "نور الله" وظائفه وانفتحت أمامه البلاد مثل عالم سحري، لم تكن طشقند تطل على بحر ما، ولكنها كانت تملك سماء مفتوحة رائقة الزرقة، مدينة من السهل التخفي فيها وسط مزيج من الأعراق المختلفة، والألسن المتداخلة، تخفي تفاصيلها مساحات كثيفة من الخضرة، ونصب من المباني الأسمنتية، نهر صناعي حفره السوفيت حتى يزين

وسط المدينة بعد أن هدمتها الزلازل، وعندما ذهب "نور الله" لمقابلة "قومسير طشقند" وجد ملفه القديم أمامه، لعنة تلاحقه من مكان إلى آخر، لم يكن يفترق في مظهره ولا في حدة كلماته عن رفيقه في "بخارى"، كأنه مثله مصبوب في نفس القالب، وأحس "نور الله" أمامه بنفس مشاعر الغضب والخجل والعجز، كأن العالم كله مكون من شبكة لعينة من القومسيرات، خرج من عنده إلى شوارع طشقند والتقط أول امرأة، أفرغ فيها كل إفرازاته الحانقة، تحولت المدينة إلى مصيدة واسعة يتجول فيها الفأر على راحته، ويتذوق أنواعا مختلفة من الجبن، المهم ألا يخدش جلده، كانت أمامه عشرات المناصب التي عليه أن يرتقي إليها، وكانت أخبار "لطف الله" قد تباعدت، لابد أنه قد غرق مع شيوخ "خيوة" في عالم من الظلال الخفية لا تعلم عنها السلطات شيئا، كانت كل التقارير التي ترد للإدارة خالية من أسمه، لم يدر أيهما أشقى، "لطف الله" وظلاله المعتمة، أم "نور الله" التي توشك أضواء المناصب أن تحرق روحه؟:

ــ" تلقيت مكافأتي الأولى، تم اختياري عضوا في الوفد الرسمي الذي سوف يمثل المسلمين السوفيت في المؤتمر

الإسلامي في القاهرة، كان مفتي تركستان هو رئيس الوفـــد، ولكن من المؤكد إنني كنت رجلهم وموضع ثقتهم، ومن ناحية أخرى فقد حانت اللحظة التي أرى فيها بلدا إســـلاميا كبيـــرا ومسلمين كثر دون قومسيرات.

ارتجف قلب "نور الله" وهو يشاهد ملامح تلك المدينـــة الإفريقية كما تبدو من الجو، بيوت يكسوها الغبـــار، ونهـــر مياهه بنية اللون يشق قلبها، كائن خرافي مترامي الأطراف، هبط من الطائرة فاشتم رائحة هواء ساخن له رائحة الرمـــل، ورأى وجوها ممتزجة بالسمرة، تفتر عن ابتسامة مضيئة لا تلمع فيها أسنة ذهبية، ملامح قوية محددة وعيون بلون العسل الداكن، بينما بدا الوفد السوفيتي أشبه بدمى محمرة الوجـــوه وهي تخب في العباءات الواسعة وسط مدينة هجرت التاريخ دون أن تكون هناك ملامح ظاهرة للفساد، كان الزحام شديدا لدرجة أن "نور الله" أوشك أن يمسك بطرف عبـــاءة المفتـــي حتى لا يضيع، استقبلهم مشايخ الأزهر بالأحضـــان، بـــدت كلماتهم وتعبيرات وجوههم كمن يستقبل سجناء طالت فتـــرة اعتقالهم، كيف أحوالكم، هل يسومونكم الشيوعيون العـــذاب؟ كيف خرجتم من خلف الستار الحديـــدي؟ وهـــل مـــا زلـــتم

قابضين على دينكم كالقابض على الجمر؟ كان عليهم أن يستمعوا دون كلمة وأن يهزوا رؤوسهم دون دلالة، لم يكن يحق لهم الإدلاء بأي أحاديث، أو المشاركة في جلسات المؤتمر، سوف يجلسون فقط في المقاعد الخلفية بصفتهم مراقبين، عليهم أن يحرصوا فقط على شيء واحد، أن تلتقط لهم عشرات الصور وأن يظهروا في نشرات الأخبار، علامة مؤكدة على الانفتاح الجديد للسوفيت وقبولهم تلك الجرعات الضئيلة من أفيون الإسلام.

كانت قاعة المؤتمر بجامعة القاهرة حافلة بكل ألوان البشر، سود وحمر وبيض وصفر، استطاع الصوت الوحيد الذي صرخ في برية العرب أن يشدهم برباط واحد، تأملهم "نور الله" مذهولا، كان ينتمي إليهم وهم ينتمون إليه، تبادلوا معا كل أنواع التحايا التي تتخللها كلمة الله، الحمد لله والله حافظ والله كريم والله الحارس والله الموفق، يتصافحون بكلتا اليدين، ويضعون أيديهم على قلوبهم، يتبادلون الانحناء، ويلمسون أكتاف بعضهم في ود، ويحكون أنوفهم في أنوف بعضهم البعض، كان الجميع يحاولون التحدث بالعربية، بألسنة معوجة وتعبيرات مضحكة، تتردد كل عبارات التفخيم

التي تحفظها اللغة،حضرتكم، فضيلتكم، معاليكم، سـماحتكم، نيافتكم، غبطتكم، تخرج من تجاويف الفم لتضفي على كـل عمامة وعباءة هيبة خاصة، صعد على المنصة شيخ الأزهر كي يسبح ويمجد اسم الله، خفت الأصوات، وعلت همهمـات الاستحسان، وأحس "نور الله" أنه جـزء مـن هـذا الجمـع الحاشد، وانه قد أصبح أكبـر مـن الوشـايات والتهديـدات الصغيرة، تأمل مفتي "تركستان" الذي كان من المفتـرض أن يجلس بجانبه، ولكن منظمي المؤتمر أصروا على أن يجلس في الصفوف الأمامية وسط الشخصيات المهمـة، يـوم مـا سوف يحتل هذا المنصب، وعليه أن يؤهل روحه لهذا اليوم.

قبل أن ينتهي الخطاب رأي "نور الله" شخصـا نحـيلا يدخل من باب القاعة، كان يسير علـى أطـراف أصـابعه، محني الرأس بعض الشيء كأنـه يريـد أن يمـرق دون أن يلحظه أحد، دار ببصره حتى رأي المقعد الخالي بجانب "نور الله" فاتجه إليه، لاحظ "نور الله" وجهه الشديد الشحوب وهـو يقترب منه، وجه مضنى ومحروم من الشمس، بلون الحنطة الداكنة، يقترب من الستين من عمره، قبل أن يجلـس ألقـى التحية عليه والتقت عيونهما، كانت عيونـه تنطـق بالتعـب

وبليال طويلة من الأرق، على وجهه ابتسامة شاردة، ولكنـــه تمهل قليلا حين شاهد وجه "نـــور الله" الأبـــيض المشـــرب بالحمرة وعينيه الزرقاواتين، ما أكثر وجوه الإســـلام، ســـاد الصمت قليلا ثم ارتفع صوت التصـــفيق محييـــا المتحـــدث الجديد، وفكر "نور الله" وهو يتأمله بنظـــرة جانبيـــة: كأنـــه "قادري" وقد عاد من جديد، أكبر سنا وأكثر تعبا وفي أهـــاب مصري، ترى هل يقتلون الشعراء هنا أيضـــا؟ بعـــد برهـــة سمعه وهو يتحدث في همس، لم يكن يلقي قصيدة ولكنه كان يسأله:

ـــ من أين أنت؟

احتار "نور الله" بأي تعريف يقدم له نفسه، كانت له أكثر من هوية، هوية عامة عليه أن يجأر بها فـــي كـــل محفـــل، وهوية أخرى ضائعة في تفاصيل الخرائط ورابضـــة تحـــت رماد ذاته، ولكن ماذا لو كان هذا الرجل جاسوسا مصـــريا؟ ماذا لو نقل إليهم تجاهله للقومية الكبرى التي جاء منها؟ قال في قهر: سوفيتي، وقال الرجل في صوت مرح ومتـــدفق لا يتمشى بوجهه المتعب:

ــ أعرف أنك مسلم سوفيتي ولكن من أيهم؟ هل أنــت تترى، كازاخي، بشكيري، شيشاني، أوزبيكــي، طــاجيكي، شركسي، أم أنك روسي متنكر؟

قال "نور الله" في سرعة: أوزبيكي وأقسم على ذلك؟

كان قد فهم أشياء كثيرة ولكنه لم يكن قد فهــم مغــزى السخرية المصرية، اتسعت ابتسامة الرجل حين أحــس بمــا سببه له من رعب، كان واضحا أنه عليم بالخارطة الخفيــة للقوميات، مد يده وهو يقول:

ــ اسمي سيد قطب، واحد من عباد الله سخره للكتابــة في شئون المسلمين، يمكنــك أن تــدعوني كاتــب ومفكــر إسلامي، هكذا يعرفونني في هوامش المقالات التي أكتبها.

صافحة في حبور وهو يقول: "نور الله" من الأوزبيــك المسلمين.

قال الرجل: بل أنت سامري طيب.

انتهت الخطب والتقديمات، جاءت الاستراحة التي لابــد وأن الجميع كانوا ينتظرونها، التفت "نور الله" ليتعرف عليــه أكثر ولكنه لم يجده، ذاب بين الحضور، بحث عــن الوفــد المرافق له، كان المفتي واقفا مع بعض الأفارقــة يتبــادلون

الحديث، أحس أن هذا الرجل بهذه الكلمات القليلة التي قالها له قد أفسدت عليه جو المؤتمر، أصبح الجو خانقا، كأن الكلمات قد استهلكت ما في القاعة من هواء نقي، ثم ظهر الرجل في الوسط وسط هالة غريبة، ليست من النور ولكن من البشر، تدور حوله دوامات متصلة من كل ألوان الخلق، يصافحونه ويقبلونه ويأخذونه في أحضانهم، موجة أثر موجة، أفارقة وأسيويون وبوشناق وبوسنيون، وهو مركزها جميعا، وقف شيوخ الأزهر عاجزين وقد أحسوا أن إيقاع المؤتمر قد افلت من أيديهم، حتى الأمام الأكبر ظل واقفا فوق المنصة وهو عاجز عن كظم غيظه، كان هذا الرجل الذي وصل متأخرا، والذي يبدو انه لم يكن مدعوا أصلا قد امتلك زمام المؤتمر من هؤلاء الشيوخ المعممين وأطاح بكل الشكليات الهشة التي أعدوها، هبط "نور الله" مسرعا على الدرج إلى حيث يقف المفتي وشده من كمه كطفل مذعور،التفت إليه مدهوشا، وهتف "نور الله" بسرعة:

ـ من هذا الرجل؟

نظر المفتي إلى حيث يشير وبدا على وجهه أنه لم يتعرف عليه، قال "نور الله" مؤكدا:

ـ لقد عرفني على نفسه، اسمه سيد قطب، كاتب ومفكر إسلامي.

امتقع وجه المفتي فجأة، لم يشعر بالأفارقة وهم ينسحبون هم أيضا فور سماعهم بالاسم، قال:

ـ لا تقترب منه، إنه خطر، خارج عن النظام، كان يجب ألا تتكلم معه أصلا.

ولكن الأفارقة الذين كان يتحدثون مع المفتي كانوا في هذه اللحظة يحتضنون الرجل الغامض في ود وحبور، انصرف المفتي مسرعا وتركه حائرا، أي نظام هذا الذي خرج عليه هذا الرجل، لم يخطئ كثيرا حين رأى فيه " قادري" آخر، كانت الدوامات لا تنتهي، وأحس "نور الله" أنه رغما عنه، ورغما عن أوامر المفتي، يقترب منه، يزداد اقترابا دون أن يتحرك من مكانه، أصبح في مواجهته تماما، يتأمل قسمات وجهه التي لم تستطع إثارة اللحظة أن تخفي ما فيه من تعب وإجهاد، حدق فيه مبتسما:

ـ أيها السامري الطيب، من الجميل أن أتعرف عليك مرة أخرى.

ومد يده يصافحه من جديد، ولكن الأمر كان مختلفا هذه المرة، أحس "نور الله" بورقة صغيرة وهي تندس في كف يده، احمر وجهه وتلفت ليرى إن كان أحد قد لاحظ ذلك، ولكنه قبض على الورقة، قال الرجل:

ـ علي أن أسرع بالانصراف قبل أن يتدخل رجال الأمن ويفسدون المؤتمر بسببي.

ولوح له بيده ملوحا للجميع، ثم اختفى بسرعة وسط دوامات الناس، ظل "نور الله" مذهولا، لم يتوقع أن يفاجئه هذا الرجل الغريب بهذا التصرف الأكثر غرابة، أسرع إلى دورة المياه وانزوى في ركن منها ليفتح الورقة، كانت مكونة من سطر واحد، عنوان ورقم هاتف، هل كان يريده أن يذهب إليه، ولكن لماذا اختاره هو بالذات من بين كل الذين يعرفونه جيدا، صعد إلى غرفته وهو مازال محتارا، وفي المساء اضيئت المصابيح المنشرة حول الفندق بلون اصفر فاقع، بدت مصابيح الصوديوم كأنها تنفث غبارا صحراويا لا ينقطع، ظل "نور الله" واقفا خلف النافذة يتطلع تدريجيا إلى الشوارع وهي تخلو من الناس، لم تصل إلى درجة الإقفار التي يمكن أن تصل إليها بخارى أو طشقند، كان البشر هنا

ـ في تلك البقعة الضيقة على ضفتي النهرـــ أكثــر ممــا ينبغي، في تلك الساعات القليلة كان قد عــرف أكثــر مــن معلومة مخيفة عن هذا الرجل الضئيل، كان أخطر بكثير مما به يوحي جسده الواهن، ربما تكمن خطورته الحقيقيــة فــي تلافيف ذهنه، وفي الفكر الذي يطرحه، أكثر من ذلك التنظيم الذي كان ينتمي إليه، حقا أن النظام قد تمكن مــن القضــاء عليه، ولكن فلوله مازالت رابضــة تحــت الأرض تنتظــر اللحظة التي تثب فيها، كان من المقدر له أن يبقى في السجن مدى الحياة، لولا أن صحته قد ساءت، وتركه فــي الســجن سوف يتحول إلى فضيحة أخلاقية لم يكن النظام في مصــر قادرا عليها، وتم الإفراج عنه من بين أسنانهم، ورغم ذلــك فقد ظلت الصورة غامضة في ذهن "نور الله"، لم يكن يدري بالضبط ماذا يعني تنظيم "الإخوان المسلمين"؟ ولماذا حاولوا اغتيال رئيس البلاد ولماذا وقعوا جميعا في هــذا الخــلاف المأساوي؟ ولكن يبقى السؤال، هل يستجيب لدعوته؟، كــان "نور الله" قد عاهد نفسه آلا يقدم على أي مغامرة متهــورة، كان لديه من رصيد أخطائه مع النساء ما يكفي، ولــم يكــن يريد أن يضيف إلى ذلك أخطاءه مع الخارجين عن النظــام،

ولكن رغم كل شيء فهذا الرجل يبدو مثيرا للاهتمام، ولـــو كان "لطف الله" موجودا لتبعه دون تردد، والأكثر أهمية مـــن كل ذلك أنه خصه هو بالدعوة.

وجد نفسه ــ كدأب "نور الله" الآخرــ يغـــادر غرفتـــه ويهبط الدرج، تلفت حوله، لو أن هناك من يقومون بالمراقبة فهم لاشك يجيدون التخفي، ولكن ما بالهم بشيخ غريب يسعى لتنسم بعضا من هواء الليل، ابتعد عن الفندق مسافة كافية قبل أن يستوقف إحدى سيارات الأجرة، أعطى ســـائقها الورقـــة التي كانت ما تزال مطوية في جيبه، بدأت السيارة تغـــوص في ظلمة المدينة، وامتد النهر مثل حيوان رخو، مظلم وممتد حتى حافة الأفق، كان السائق يتحدث عن شيء ما، لهجتـــه غريبة، يتحدث بسرعة ويلتهم الحروف الأخيرة في كل كلمة، وكان يقطع كل جملة بضحك أجش لم يدر "نور الله" ســـببه، واصل السير حتى أصيب "نور الله" بالدوار، كـــان رائحـــة المدينة تملأ صدره وتستولي عليه، وجد نفسه عـــاجزا عـــن التفكير وعن الاستماع لصوت مشاعر التردد في داخله.

توقفت السيارة أخيرا أمام بيت متواضع تحيط به أشجار عجوز معمرة، ولكن "نور الله" هتف به:

ــ امض في طريقك.

دهش السائق ولكنه مضى مبتعدا، قبل نهاية الشارع عاد يأمره بالتوقف وهو يقول له:

ــ هل أنت متأكد من أن هذا هو البيت الموجود في العنوان؟

قال السائق: وهل يمكن أن أخدع شيخا جليلا مثلك.

لم يعرف أن كان السائق صادقا أم ساخرا، هبط من السيارة وظل واقفا حتى انصرفت واختفت أضواؤها، تلفت حوله، ثم بدأ في السير على قدميه عائدا إلى الشارع نفسه، كان خاليا، مظلما وموحشا، أين يمكن أن يربض الشخص الذي يقوم بالمراقبة، كان متأكدا أنه موجود ولكنه عجز عن تحديد مكانه، لم يجد بدا من التوجه إلى البيت وليكن ما يكون، صعد فوق درج متآكل شبه معتم، في نهاية الدرج كان هناك باب خشبي له شراعة من الزجاج المعتم، من خلفه يبدو الضوء وتسمع حركة خافتة، طرق على الباب، وفي الحال أحس بحركة مفزوعة، بدا أن مجرد الطرقات قد أثارت رعب كل من في الداخل، وبعد برهة فتحت الشراعة

الزجاجية وظهر وجهه الشاحب، حدق فيه قليلا قبل أن يقول وهو غير مصدق:

ــ أهو أنت أيها السامري الطيب؟ لم أصدق أنك سوف تستطيع أن تجد طريقك إلى بيتي.

حتى "نور الله" نفسه لم يكن يصدق أنه جاء، تمهل قليلا حتى يتمكن من طمأنة أهل بيته قبل أن يدعوه للدخول، خطى "نور الله" وهو منكس الرأس، كانت الأرض مفروشة ببساط مصنوع من بقايا الأقمشة، تتداخل فيه الألوان في عشوائية، عبر الصالة الضيقة إلى غرفة أكثر ضيقا، تذكر على الفور غرفته في "ميرعرب"، الفرق كان في تلك الكمية الكبيرة من الكتب التي كانت تحيط بجدرانها وتزيدها ضيقا، كتب متلاصقة، تمتد من الأرض للسقف، المرة الأولى التي يرى فيها "نور الله" كل هذا الحجم من الكتب باللغة العربية في مكان واحد، حتى في مكتبة الإدارة الدينية كانت الكتب الروسية تزاحمها وتتفوق عليها، قرأ العناوين بسرعة، تراث وفقه ولغة وفلسفة وتاريخ وعلوم والكثير من كتب الأدب، لابد أنها هي التي أصابت جسد الرجل بكل هذا السقم، فالإطلاع عليها أكثر من طاقة فرد واحد، قال قطب:

ـــ خذ راحتك، رغم إنني أشك في استطاعتك أن تشعر بذلك وسط زحام الكتب.

أزاح "نور الله" بعضا من الكتب من فوق مقعد قديم وجلس عليه، كان المكتب الذي أمامه محملا هو أيضا بالكتب، كان وجه الرجل قد نطق وجهه بالحبور أخيرا، لم يستطع أن يخفي سعادته بالزيارة، قال:

ـــ نحن هنا نقدم الشاي ساخنا ومحلى بالسكر، أم تفضله على الطريقة الأوزبيكية.

قال "نور الله" : إذا كنت في القاهرة فافعل كما يفعل القاهريون.

ضحك الرجل للمرة الأولى، واكتشف "نور الله" انه لم يفقد بعد ضحكته الطفولية، صافية ومجلجلة، انسحب ليعد الشاي، وأتيحت الفرصة له ليتأمل المكتبة براحته، يا لله ما كل هذه الكتب وكل هذه الأفكار الحديثة، أي سور وضعونا خلفه في تلك الأرض المحاصرة بالأنهار، ود لو ينهض ويتصفح هذه الكتب، ولكن ما لفت نظره بالفعل هي تلك الأكوام الهائلة من الأوراق المكتوبة، كانت متراصة فوق بعضها، كل كومة منها مربوطة بحزام، بدت أشبه

بمخطوطات الوراقين القديمة، ودخل سيد قطب حاملا صينية الشاي، كأنه وراق آخر يحمل عـــدة الكتابـــة القديمـــة، دواة وعيدان من البوص ورمل ناعم للتجفيف، وكأنه سيعكف في التو على النسخ والتدوين، تأمله نـــور الـــدين وبـــدأ يشـــعر بالأمان، كيف يمكن أن تخاف هذه السلطات العاتية من مثـــل هذا الوراق النحيل؟، رغم كل شيء فلم يكـــن هـــذا الرجـــل مطاردا ولا مفزوعا، كانت يمتلك القدرة على لم شتات نفسه ووضع كل الأفكار التي تؤرقه على الورق، وما كان أكثرها، يقول في مرح:

ــ ضع لنفسك ما تريد من السكر أو لا تضع، أما أنـــا فإنني أمرؤ صعيدي لا أشرب الشاي إلا ثقيلا وبمذاق العسل.

أشار "نور الله" إلى رزم الأوراق المتراصة وهو يقول:

ــ ما هذا يا شيخ قطب، أهو مؤلف جديد؟

بدا أن اللقب، بتلك الطريقة الفخمة التي نطق بها "نـــور الله" الكلمات قد أعجبته، أمسك برزمة من المخطوطـــة فـــي حنان، أزاح ما عليها من غبار لا يرى بلمسات رقيقة ثم قال:

ــ لو أنني لم أكتب غير هذا الكتاب لكفاني ذلـــك، إنـــه رسالة عمري واشعر بعمق انه خاتمة أعمالي، إنـــه تفســـير

جديد وعصري للقرآن، سوف يكون في ثلاثين جزءا تماما مثل أجزاء القرآن، كل ما أتمناه أن تتاح لي الفرصة كي أنتهي منه قبل أن أدخل السجن من جديد.

ولكن "نور الله" لم يستطع أن يخفي دهشته، هتف وهو يرشف الشاي الساخن:

ــ ولكنك كما سمعت خارج لتوك من السجن، متى كتبت كل هذا؟

قال ببساطة:

ــ في السجن بطبيعة الحال، لقد لجأت دور النشر التي أعمل معها إلى حيلة في غاية السذاجة ومع ذلك فقد نجحت، لقد رفعت علي قضية وعلى الحكومة بحجة أن وجودي داخل السجن لن يجعلني أتمكن من الوفاء بتعاقدي معها، وأن عليها أن تجعلني أواصل الكتابة، من المدهش أن المسئولين البيروقراطيين داخل السجن قد أصابهم الرعب وسمحوا لي بالكتابة، لقد منحوني مساحة هائلة من الحرية دون أن يدروا بذلك، ففي النهاية لم يسجنوا سوى جسدي.

احتار "نور الله"، هل يسأله عن هذا المؤلف أم عن تجربته الطويلة داخل السجن، ولكن الشيخ قطب لم يكن في

حاجة لمن يسأله، تناول كوب الشاي وجلس خلف المكتب وبدأ يشربه بسرعة، وهو يضيف:

ــ كان أشد ما أفتقده في السجن هو كوب من الشاي الساخن مثل هذا، حتى الآن لا اصدق إنني أحس بسخونته في كفي.

ــ ماذا كانت تهمتك؟ تفسير القرآن؟

ــ عشر تهم على الأقل، الانتماء إلى تنظيم محظور هو الإخوان المسلمين، محاولة اغتيال رئيس الجمهورية، محاولة قلب نظام الحكم، استخدام العنف ونشر الأفكار الهدامة وغير ذلك، كان نصيبي في مقابلها خمس عشرة سنة، قضيت منها عشر سنوات، لم أعتقد إنني سوف أخرج منها على قيد الحياة، ولكن يقال ــ ولا أعرف إن كان هذا الأمر صحيحا أم لاــ أن الرئيس العراقي عبد السلام عارف هو الذي توسط من أجل هذا الإفراج المبكر، يبدو أنه قد قرأ لي كتابا في مكان ما، ولابد أنهم أيضا قد خافوا من أن تتعفن جثتي داخل السجن.

فرغ من شرب الشاي في رشفات قلائل، وهو يتساءل:

ــ ما أخبار السجون عندكم يا شيخ؟

ـــ مساحات شاسعة من الثلــوج لا يســتطيع أحــد أن يغادرها حيا.

ـــ في مصر تحاصرنا الرمال الساخنة.

ترى أين أنت الآن يا "لطف الله"، هل مازلت متخفيا في عالم الظلال، وهل ستجد من يتوسط لك إذا ذهبت إلى عــالم الثلوج، حاول "نور الله" أن يركز في اللحظة الراهنة، قال:

ـــ هل كتبت الكثير يا شيخ قطب؟

أشار الرجل في لامبالاة إلى رف مزدحم بالكتب وهــو يقول:

ـــ كما ترى، لم أكن ذا نفس راضية، طوال عمري وأنا أمارس النقد، بدأت أولا بنقد الأدب، ثــم أخــذت فــي نقــد المجتمع، وقادني ذلك إلى نقد الفكر الجاهلي الذي يحكم هــذا المجتمع، ولكن هذا لا يساوي كتابا واحدا أريدك أن تأخــذه إلى بلدك وأن تدع كل من تعتقد أنه قادر على التفكيــر فــي أمور ديننا ودنيانا أن يقرأوه، لقد وضعت فيه خلاصة عمــر كامل من القهر والنفي والسجن والبحث، إنه ثمــرة ســؤالي وإلحاحي على الله سبحانه وتعالى أن يهديني سواء السبيل.

مد يده وأخرج كتابا صغيرا وناوله إلى "نور الله"، تطلع إلى عنوانه "معالم على الطريق"، هل كان هذا الكتاب هو سبب دعوته لزيارته في المنزل، هل المطلوب منه أن يحمله إلى تركستان، رفع "نور الله" رأسه وتأمله، كانت شخصيته مزيجا من حزم "لطف الله" وشاعرية "قادري"، ويبدو أنه مثلهما يسعى إلى قدره المحتوم، نهض الشيخ قطب، تلفت حوله انتابته فجأة حالة من القلق والتوتر، قال:

ــ ألا ترى مدى ضيق هذه الغرفة،إن أنفاس الحرية فيها قليلة، ما رأيك أن ننطلق إلى الخارج، إلى ظلام الليل؟

قال "نور الله" في تردد: ولكن ألست مراقبا؟

ــ بالطبع أنا مراقب، ولكنها مراقبة بائسة، منذ لحظات كان الشخص المكلف بمراقبتي هنا،داخل المنزل، كان يطلب عشاء وكوبا من الشاي، تخيل كيف يمكن أن يراقبني هذا المسكين وسط هذا البرد والظلام وهو جائع ومقرور هكذا، هيا، لقد كف في النهاية عن متابعتي في جولاتي الليلة، أنه يعلم أنها أشبه بتيه بني إسرائيل.

كان الشيخ قطب في حاجة إلى فراغ الليل الممتد، إلى لمسات من الهواء النقي، أحس "نور الله" أن عطشه للحرية لم

يرتو بعد، كان يكفيه أن يجلس في هذه الغرفة في لحظات الكتابة فقط، لعل إحساسه بأن هذه اللحظات قصيرة ومؤقتة هو ما يجعله يسعى دوما إلى حيث يمتد فراغ لا يحده أفق، هبطا معا فوق الدرج المتآكل، خرجا إلى الشارع الضيق، أشار الشيخ قطب إلى ركن مظلم ملاصق للمنزل وهو يقول:

ـ هنا يجلس المسكين.

كان هناك رجل بالفعل يقبع فوق الأرض مستندا إلى الجدار وقد التف في معطف قديم ووضع على رأسه غطاء صوفي، كان بائسا بالفعل، كيف لم يره وهو يستعد لدخول المنزل، رفع الرجل إليهما وجه متعب تأملهما قليلا في حيرة، هل ينهض ويسوح خلفهما في الشوارع أم يبقى في مكانه واثقا من عودة المشبوه، تثاءب في تعب ثم أغلق عينيه وانكمش على نفسه، تركاه وواصلا السير، دخلا وسط تلافيف من الشوارع التي تحيطها الأشجار، ظل الشيخ قطب يسير مسرعا وصامتا كأن له غرضا يسعى إليه بلهفة، لم يسترح إلا عندما وجدا نفسيهما على شاطئ النيل، هدأ من سرعته والتفت إليه وهو يقول في نبرة يغلب عليها المرح:

ــ أنت من بلاد الأنهار، وهذا هو نهرنا الوحيد، آخـــر فرصة للحياة بالنسبة لنا.

كان الهواء يزوم في صوت خافت وهو يحرك أغصان الشجر، وخيل إلى "نور الله" أنه يسمع استغاثات الطيور وهي عاجزة عن التثبت في أعشاشها، ورغم ذلك بدا النيـــل مثـــل كائن ضخم مستغرق في النوم رغم الأضواء التي تتـــراقص على سطحه، كان هناك مركب ذي شراع أبـــيض مرتفـــع، طائر ليلي وحيد الجناح، يسبح عكس التيار، قال "نور الله":

ــ إنه نهر وحيد حقا، ولكن ما اشد مهابته.

تأمل الشيخ قطب المركب في شرود، بدا كأنه يســـتعيد بعض اللحظات القديمة:

ــ ولدت بجوار هذا النهر شأن العديد من المصـــريين، وتعلمت الكثير من قسوته، قريتي اســـمها "موشـــا" بجـــوار أسيوط، عندما يفيض هذا النهر كان يحيط بقريتي ويعزلهـــا عن العالم، لم نكن نستطيع أن نغادرهـــا أو نعـــود إليهـــا إلا بواسطة القوارب، كنا نعيش على حافة الغرق في بيوت مبللة ومهددة بالانهيار، لم يكن النهر قدرنا، ولكننـــا نحـــن الـــذي صنعناه، تخلفنا وتواكلنا، هكذا عالم الإسلام، جزر غرقـــى،

معزولة، تحيط به أمواج تلك الحضارة الزائفة، والحقيقة أنها ليست حضارة إنها جاهلية جديدة.

قال "نور الله":

ـ ولكنكم ياشيخ قطب لستم مثلنا، أنتم تعيشون في ظل أنظمة إسلامية، تمارسون كل شعائركم في حرية دون تسلط، لا يوجد حظر ولا حصار.

قال الشيخ قطب في قوة:

ـ هذه الأنظمة لا تحمل من الإسلام إلا الاسم والشعار، من يحكموننا هم الطواغيت، إننا نعيش ياشيخ "نور الله" في جاهلية جديدة كما قلت لك، نفس الجاهلية التي عرفها التاريخ قبل الدعوة الإسلامية، لأننا نحكم بشرائع وقوانين وضعها البشر ولم يضعها الشرع الإلهي.

ـ وما عيب هذه القوانين؟

ـ إنها تتنكر لمبدأين أساسيين جاءت بهما الدعوة الإسلامية، أولهما هو ألوهية الله في مواجهة ألوهية البشر، وثانيهما هو حاكمية الله في مواجهة حاكمية البشر الذين يعبدون بعضهم البعض من دون الله.

كان كلامه قاسيا ومثيرا للدهشة، يشعر بــه "نــور الله" أكثر منه، ولكنه لا يستطيع التعبير عنه بهذه الطريقــة، ولا يستطيع أن يتصور إعادة عجلة كل هذا الزمن إلى غياهــب الجاهلية، من المؤكد أن القومسير كــان طاغوتــا صــغيرا، ستالين كان صنما معبودا، وكانت كــل القــوانين ومازالــت تحاصره وترغمه على أن يعيش بنصف قلب ونصف عقيدة، كان الليل يأخذهما بعيدا، كأنهما يسعيان إلى منبع هذا النهــر الغريب، بل الشيخ قطب نفسه كان يسعى إلــى منبــع أبعــد غورا، يريد أن يوقف الــزمن وأن يقــبض علــى رمالــه المنسربة، ربما يمكنه أن يعيد تجربة الدعوة الأولى بتمامها، يحلم أن تأتي طليعة مؤمنة، كأنهم صحابة جدد، بعثوا بعد أن أتم الصاحب الأكبر رسالته، وختم شــرائعه، تجتــاز كــل التفاصيل وكل المراحل، بكل ما فيها من آلام لأنــه الــثمن الطبيعي لمثل هذه المهمة، المرحلة الأولــى إعــداد خفــي وترقب وانتظار، تماما كما حدث في بدايات الــدعوة داخــل مكة، وربما تطول هي أيضا إلى ثلاثة عشر عامــا، جهــادا داخليا، يتستر أحيانا ويجهر عن نفسه أحيانا، ولكنه يجب أن يتواصل حتى يكشف الأقنعة عن طواغيــت الحكــام وتقــيم

الحاكمية لله، وتلي ذلك فترة المدينة التي تقام فيها الحكومة الإسلامية جهارا نهارا، فتصنع فتحا جديدا وتحطم كل ما تم بناؤه من أوثان، فياله من حلم يا شيخ قطب؟

كانت قدما "نور الله" قد أحستا بالتعب، ولكن بدا أن هذا الرجل النحيل لا يكل من السير ولا يكف عن الحلم، كانت طاقة التحدي التي بداخله لا تتأثر بجسده الواهن ولا بالنظام الذي يواجهه، تذكر كلمات المفتي، وتذكر أنه قد خاض في مغامرته أكثر مما ينبغي، كان الشاطئ الذي كان خاليا في أول سيرهما قد امتلأ بمخلوقات الليل، رجال شرطة يتسكعون، يتأملون ما حولهم في ريبة دون أن يتعرضوا لهما، باعة الذرة المشوي وحمص الشام، نسوة داكني الملامح يدخن في شراهة، قوارب صغيرة مزينة بمصابيح مرتعدة يدعوك أصحابها في إلحاح للتنزه على صفحة النهر، ورغم قدمه المتعبة لم يكن قد أشبع فضوله من الرجل، كان يستعد من اجل سؤاله الأخير، قال:

ـ ولكن يا شيخ قطب، ما أنت حقا، هل تطالب فقط بإصلاح ديني، أم أنك خارج على النظام، كل ما أعرفه أن

هذا الرجل "عبد الناصر" يتمتع بسمعة طيبة، فهل هو طاغية لهذه الدرجة؟

بدا على الرجل وهن مفاجئ حتى أنه لم يستطع الوقوف منتصبا، استند إلى السور المطل على النهر، وعندما تحدث كان صوته مليئا بالمرارة، قال:

ــ هؤلاء العسكر، لقد آمنت بهم أكثر مما ينبغي، عندما قاموا بالثورة أحسست أنهم قاموا بها من أجلي، ومن أجل "موشا" الغارقة وسط فيضان النهر، لقد دافعت عنهم وعن أخطائهم اللعينة، حتى عندما قتلوا عمال "كفر الدوار"، ولكنني لم أستطع أن أدافع عنهم وهم ينحون مبتعدين عن الإسلام، فلا حاكمية إلا لله، ولا شريعة إلا من الله، ولا سلطان لأحد على أحد لأن السلطان كله لله.

توقف، كان الحديث والانفعال قد أجهداه، وكانا قد وصلا معا إلى نهاية طريق ما، أشار الشيخ قطب إلى المبنى المرتفع المطل على النهر وهو يقول:

ــ هاهو فندقك، لقد حرمتك من ساعات من النوم.

ولكن "نور الله" أمسك في يده الكتاب الصغير وهو يقول:

ــ لماذا دعوتني إلى بيتك يا شيخ قطب؟

قال ببساطة:

ــ من أجل أن أعطيك هذا الكتاب، لقد كانت "تركستان" ذات لحظة عقل الإسلام وروحه المتيقظة، وربما استطعنا أن نستعيد هذا العقل الذي افتقدناه طويلا، اقرأ هذا الكتـــاب، إن فيه خطتنا من أجل بعث الإسلام، هل تذكر كتـــاب "لينـــين" الشهير "ما العمل؟"، ربما يشبهه الكتاب في تحديده العملـــي، ولكنها خطتنا التي يجب أن يعرفها الجميع؟

احتضن "نور الله" الكتاب، كان يحمل حلم الشيخ قطـــب وربما وصيته الأخيرة، تلفت حوله، كان الشارع خال من أي سيارة، وهو يتساءل:

ــ كيف ستعود كل هذه المسافة؟

قال وهو يبتسم: على قدمي طبعا، كيف أفوت لحظـــة تبدو فيها المدينة بهذا الاتساع وتلك البراءة.

ألقى عليه السلام وأدار ظهـــره وعـــاود الســـير فـــي خطوات منتشية، ظل "نور الله" يراقبه وهو يواصل الابتعاد:

ــ " لقائي به كان قصيرا، ووداعي لـــه كـــان أخيـــرا، فعندما عدت إلى القاهرة مرة أخرى كانت حافلة بكل شـــيء

ما عداه، لقد مر بي أشبه بنبي غريب في زمن غريب، يبشر بحلم الإنسان النقي، حلم أكبر من طاقتنا جميعا"

لم يفتح الكتاب إلا والطائرة تمرق بـه عبـر السـماء وأفريقيا تبتعد، تحجبها عنه أكوام من السحب الرمادية، كان لقاؤهما جولتهما معا قد مرت في سلام، حسبها الجميع سعيا وراء مغامرة ليلية، لم ير الشيخ قطب في قاعة المؤتمر بعد ذلك، كأنه كان قد جاء خصيصا من أجله، ليعطيه هذا الكتاب المركز الذي يحوي حلما كان عصيا عن التحقـق، طـوى صفحاته الأخيرة عندما بدت "طشقند" مثل مدينة غافية فـي حضن زمن لا يتغير، ورغم كل ما تتغنـى بـه الصـحف السوفيتية من أنها "يوتوتبيا" الشيوعية إلا أنها الآن تبدو قرية ضائعة، باهتة الأضواء، عاجزة عن دفع كميات الظلمة التي تحيط بها.

خيل إليه أنه قد نسي القاهرة، استغرقه عمله في الإدارة وفي التجوال بين الجمهوريات المختلفة، شاهد جميع أشـكال المسلمين، كانوا هم أيضا لا يحملون من هـذا الإسـلام إلا الاسم ونسب الوراثـة، كـانوا بؤسـاء، سـنوات الضـغط المتواصلة قد زرعت في داخلهم الخوف من القيام بأي طقس

من طقوس العبادة؟،كانوا خاضعين تماما، كأن سنوات القمع أغلقت في وجوههم كل أبواب الأمل، كان الإسلام يذوي في "الكومينات " المتباعدة، خيل إليه أنه قد نسي الشيخ قطب، أو على الأقل وجد أفكاره مثالية أكثر مما ينبغي، قــرأ الكتــاب أكثر من مره دون أن يتوصل إلى وسيلة تنقذه من ورطتــه الشخصية فما بالك بورطة الإسلام، تحول كلماته إلى شــوكة مؤلمة لا يستطيع أن يتجاهلها، أو يعمل بما فيها، عزم علــى أن ينفذ وصية الشيخ، فليذهب الكتاب إلى من يستحقه، إلــى "خيوة" حيث يوجد "لطف الله"، الوحيد القادر على اســتيعاب هذا الحلم العصي المنال، وضعه داخل مظروف مغلق وسلمه إلى أحد مشايخ "خيوة" الذين كانوا يمرون بالعاصمة، وتخيل مرة أخرى أنه قد نسي الكتاب والرجل الذي خلفــه، ولكنــه أرغم على تذكره وهو يركب الطائرة مرة أخرى مسافرا إلى القاهرة بعد أشهر قلائل:

ــ " كنا تقريبا نفس الوفد الذي سافر في المرة الأولى، ولكننا كنا في مهمة مختلفة، كان عبد الناصر الذي أخذ ينحو بشدة نحو تطبيق النظام الاشتراكي، قد قبض على كل الذين يعارضونه، أسلوب مألوف وطبيعي عندنا وعنــدكم، وكــان

واجبنا ــ كما أكد لنا القومسيرــ أن نذهب إليه، كوفد من المسلمين السوفيت لنبلغه تأييدنا إزاء ما فعله ضد المسلمين في بلاده، مفارقة مثيرة للسخرية، لو عرض القومسير هذا الأمر على "لطف الله"، لرفض الأمر وربما بصق في وجه القومسير وتحمل نتيجة فعلته، أما أنا فقد ركبت الطائرة وسط وفد من الدمى وذهبت معهم للتهنئة لأنه قد تفضل وقبض على الشيخ قطب".

قضى "نور الله" ليلته الأولى في رحلته الثانية للقاهرة وهو مقهور وكسير الفؤاد، كان الأمر أشد مرارة مما اعتقد، بعد ان وصلت طائرتهم بقليل علم أن كان حكم الإعدام قد صدر بحق الرجل الواهن النحيل، بحق السماء، لماذا كانوا في عجلة من أمرهم إلى هذا الحد؟ رغم الاستقبال الذي لقوه ورغم أن شيوخ الأزهر كانوا يبدون لهم علامات الترحيب إلا أن جوا من الرهبة كان يسود كل شيْ، كان "ديموقليدس" قد شرع سيفه وجعل العاصمة الأفريقية تنام مرتجفة الفرائص، وفي الصباح المبكر جاء رجال الأمن وفحصوهم جيدا قبل أن يصحبوهم في عربة شبه مغلقة إلى "قصر القبة"، كانت المدينة على وشك اليقظة، تتحسس خطاها في

حركات غير واثقة، تأمل وجوه البشر العابرين، كـم واحـد منهم يشعر بالحزن من أجل الشيخ المغدور، كانـت صـور الزعيم بوجهه الأسمر وضحكته المشـرقة تمـلأ الميـادين والشوارع المؤدية للقصر، هل هي سعادة نصر مـا، وهـل يستأهل الانتصار على شيخ واهن القوى كل هذه الضـحكة، هبط الوفد أمام البوابة الداخلية للقصر، وساروا جميعا فـوق طرقة من السجاد الأحمـر، تخطـف أبصـارهم عدسـات التصوير التي لا تكف عن الوميض، لـم يكـن "نـور الله" مضروبا أو مهانا أو مقبوضا عليه، فلماذا إذن يتذكر إذن تلك المرة الأولى التي دخل فيها مبني القومسيرية في "بخارى"؟

فتح أمامهم أكثر من باب، وتحولت ممرات القصر إلى متاهة ملكية، وكانوا يقتربون ببطء من المكان الذي يكمـن فيه عبد الناصر، كان واقفا أمامهم، يصافحهم واحـدا بعـد الآخر، وعدسات التصوير قد انتابتها حمى مجنونـة، كـان وجهه أكثر سمرة مما يظهر فـي الصـور، ولكـن عينيـه النافذتين كانتا تضيئان وجهه، تضفيان عليه نوعا من السحر الآسر، ولكن أنفه الضخم كان يكشف عـن ميلـه الغـامر للسيطرة، لم يكن يبتسم تقريبا، وكـان يـرد علـى كلمـات

المجاملة والتأييد بإيماءات غامضة، ترى هل يتشابه هذا القصر مع قصور "الكرملين"، كانت التيجان المذهبة تملأ أركان القاعة، لم يحاول إخفاءها، بل ربما كان يستمتع بوجودها، كان هناك إفطار خفيف في ركن من القاعة، وطوال الوقت و"نور الله" يراقبه من بعيد، يخاف أن تظهر على ملامحه كل ما يخفيه من مشاعر، وظل أيضا حريصا أن يكون اقلهم كلاما، ولكنه لدهشته الشديدة وجده يقترب منه، يقف أمامه كأنه قد أدرك بغريزة فذة أن لديه ما يقوله، توقع أن يقول له هذا القومسير الأسمر نفس الجملة فجأة: أنا أعرف كل ما تخفيه، ولكنه لم يقل ذلك، قال له بهدوء:

ــ كيف حالك يا شيخنا؟

كان مجرد سؤال مجاملة تقتضيه أمور الضيافة، كان يحدق فيه بلا ابتسام ولا اهتمام، قال "نور الله":

ــ بخير ياسيدي الرئيس، بخير

ولكنه لم يكن يستطيع أن يتوقف، أحس أنه يوشك أن يجهش بالبكاء، أن ما في داخله أشد قسوة من أن يكتمه أو يتحمله، بدا كأن الشيخ النحيل قد وضع بين يديه جزءا من مصيره، وأن مسيرتهما معا على شاطئ النيل كانت مصادفة

قدرية، اختزلت المسافات ومزجت بين زمنيهما، وجد نفسه يقول كأنه يستخلص جزءا من روحه:

ــ إنه شيخ عجوز، واهن القوى.

نظر إليه في تمعن، بدا كأن ذكاؤه الحاد قد خانه، ربما للمرة الأولى في حياته، قال مستفسرا:

ــ من تعني؟

قال "نور الله" بصوت بالغ الخفوت تمنى آلا يسمعه أحد غيرهما:

ــ الشيخ قطب.

لم يبد على وجهه أي تعبير، لا مفاجأة ولا غضب، سلط عليه عينيه كأنه يعيد تقيمه أو يحاول أن يعرف كنهه، رفع حاجبه قليلا وقال بتمهل وبصوت أكثر خفوتا:

ــ هل هذا رأيك الشخصي أم أنه موقف رسمي؟

قال في اعتذار مخنوق: شخصي بالطبع، أعرف أنه ليس من حقي أن..

رفع يده يسكته بإشارة موجزة وهو يقول:

ــ أنت تتحدث العربية بشكل جيد، ليتك تعطي أمورك المحلية نفس الاهتمام.

أدار ظهره ومضى مبتعدا، توجه للمفتي وأخذ يتحدث إليه، ترى هل يخبره بما قاله "نور الله"، هل يحدثه عن مدى وقاحته، ظل "نور الله" يراقبهما واجفا، لم ينظر أحد نحوه، وعندما غادروا القصر كان هو وحده الذي يشعر بالهزيمة، لم يحدثه أحد طوال الطريق، من الواضح أن الرئيس لم يتكلم، كان الأمر أتفه من أن يثير قضية من حوله، أخذ "نور الله" يدعو الله ألا يتم الإعدام إلا بعد أن يغادر مصر، لم يتحمل أن يجلس تحت أسوار القلعة مرة أخرى ليسمع الطلقات المميتة ويرى الطيور المفزوعة، ورغم ذلك عندما ركب الطائرة شعر بالخجل لأنه لم يبد إلا هذا الاعتراض الهزيل، كان في حاجة لمن يحدثه، لمن يصف له هذا الإحساس العميق بالذنب الذي يستشعره.

بعد أيام من وصوله إلى "طشقند" ودون أن يخبر أحدا ركب القطار، قام برحلة طويلة كان يجب أن يقوم بها منذ زمن بعيد، عبر صحراء" قزيل قوم"، عبر وديان وسهول، وطوال الطريق وهو يعد كشفا طويلا بكل الأخطاء التي اقترفها، حانت لحظة الحساب التي أجلها طويلا، كان يبحث عن شيء يعيد الأمان إلى روحه المرتجفة، كان يعرف أنه لا

يوجد في هذه السهوب الشاسعة من يستطيع أن يمنحه المغفرة، وأن المسافة شاسعة بينه وبين السماء النائية.

كانت "خيوة" مدينة غريبة، لم تغادر التاريخ إلا قليلا، شوارعها ومعظم بيوتها تنتمي إلى عهود الخانات، سار في الشوارع القديمة وتقبل تحايا الناس واستمع إلى كلماتهم، يا إلهي،كم تبدو هنا الروسية بعيدة والعربية قريبة من ألسنتهم، ذهب إلى المدرسة الدينية التي يلقي فيها "لطف الله" دروسه، لم يكن موجودا، لاوجود لمكتبه، كما لا يوجد أسمه على لائحة المحاضرين، مسكنه الصغير مغلق، صاحبة البيت التي ترعى شئونه لم تر شيئا ولم تسمع شيئا، كان بقية الذين قابلهم يظهرون ضيقهم، كان السؤال يخرجهم من ألفتهم اليومية وصمتهم القسري، ذهب إلى ركن المسجد الذي كان "لطف الله" يجلس فيه وسط حلقة الطلاب، جلس أمام المحراب الخالي، كانت معظم الفسيفساء التي تكسوه قد تساقطت، لم يبق على الجدران إلا حروف من آيات ناقصة، هل جلس "جنكيزخان" في هذا المكان، هل بكي خجلا من كل ما اقترفه كما يقال، ترى لماذا انتابته هذه اللحظة من الضعف، ولماذا لم يبادر بإحراقه كعادته؟ لقد أبقى على

البقعة الوحيدة على ظهر الأرض التي شهدت لحظة ضعفه، ربما كان في هذا المكان سر آسر يصيب الإنسان بهذا الضعف، كانت هناك العديد من الحمائم التي تنام في دعة في الكوات التي تحيط بقبة المسجد، راقدة فوق بيضها، غير مهددة برحيل مباغت، المصلون شاحبو الوجوه يتظاهرون أنهم مجرد زائرين للآثار، يقيمون صلواتهم وهم وقوف، دون ركوع أو سجود، كل شيء هنا محرم حتى السؤال عن صديق قديم، خرج "نور الله" من المسجد وهو خافض الرأس، أخذ القطار يهتز به عائدا إلى "طشقند"، يحيط به أناس غرباء تفوح منهم روائح نتنة، لماذا يكثر المسلمون من شرب "الفودكا" أكثر من الروس؟:

ـ في "طشقند" عشت زمنا ميتا، جسدا بلا روح تستحق أن تقبض أو تبعث، لا أدري كيف ترقيت في الإدارة الدينية، لم أصبح مديرها فقط ولكنني استطعت الإفلات من كل الذين يحاولون التعلق بعباءتي وجذبي إلى الوراء، والشيء القليل الأهمية في ذلك الزمن استطعت أن أتزوج، زوجا تقليديا خاليا من الحب والبهجة والشبهات، يناسب جسدا بلا روح كجسدي".

لم يكن "نور الله" وحده هــو الــذي يشــعر بــأعراض المرض، الدولة كلها كانت تحتضر، تتفسخ أطراف البراري الواسعة، وتقصد أعراقها كل ما فيها من دماء،من النــادر أن يشاهد المرء لحظة غروب إمبراطورية بكل تلك الضــخامة وكل هذا الجبروت، في العادة يبلغ عمــر لحظــات التحلــل عقودا طويلة من الزمن، ولكن ما يحــدث الآن هــو أشــبه بالانهيار المفاجئ، كل الشعارات التي ارتفعت اكتشف خطأها فجأة، وفي كل لحظة كان يتم اكتشاف عدو كان من الواجب التخلص منه منذ زمن، بشكل أو بآخر أصبح الكل مدان دون سبيل للخلاص، تحول الحوار إلى صــرخات، ثــم جــاءت الدبابات لعلها تخرس كل الأصوات، كان "الأوزبيك" الــذين كانوا ذات يوم فخر الاشتراكية قد أصبحوا ذنبهــا الأوحــد، غاضت المياه في ارض الأنهار وجفت زهور القطن قبل أن تتفتق عن لمحة من التوهج، ثم تغلب اليأس الخوف وخــرج الأوزبيك الذين صمتوا طويلا إلى الشوارع وهم يصــرخون في صخب، تذكر "نور الله" المظاهرة الأولى من اجل إنقــاذ "ميرعرب"، كانوا يصرخون الآن من أجل خلاص نفوسهم، ترك القومسير كل ما كان من عنده من تقارير وملفات وفــر

هاربا، انهارت أسطورة السوفيت، ووقف الناس أمام المبنى الضخم مذهولين، وتمنى "نور الله" لو أنه يدفع نصف عمره حتى يوجد من يحضر إليه كل ما يخصه من أوراق وتقارير داخل هذا المبنى، بكل سوءاته ونقاط ضعفه، أحس أنه قد أصبح عاريا أمام الجميع، تنسلت خيوط العباءة وانفرطت العمامة من فوق رأسه، وجد "نور الله" نفسه يرتجف بردا وخوفا، لم يقدر حتى على الذهاب إلى مكتبه في الإدارة الدينية، ظل حبيس بيته لأيام طويلة، لم يجرؤ على النظر حتى لوجه زوجته ولا لبناته الصغيرات، ثم تحولت أصوات الاحتجاجات إلى أصوات فرح، لم تأت الدبابات السوفيتية التي كان يتوقع الجميع قدومها، ضلت طريقها وسط المتاعب الجديدة في شوارع موسكو، ارتفعت أهازيج الفرح وأصبحت أبواق سيارات لا تنقطع، ورفرف في الجو علم أزرق مليء بالأهلة التي تحيط بها النجوم، خرج من زمن ما ليرتفع عاليا بدلا من الأعلام القانية الحمرة، وكذلك انبعث لحن تركي قديم، مليء بالشجن والذكرى ليكون نشيدا وطنيا، أخيرا أصبح هناك وطن، وليس جزءا نائيا من إمبراطورية واسعة، غيرت الريح اتجاهها، وتفتقت زهور القطن البيضاء فتدفقت

مياه الأنهار تحت كل الجسور القديمة، وظل "نور الله" هـو الوحيد الغارق في صمته الخانق، متى سيأتون إليـه ومتـى تحين لحظة الحساب؟، متى تفصح هذه الدولة عن وجههـا، وأين أنت الآن يا "لطف الله"، في الشـمال وسـط أصـقاع سيبريا، أم في الشرق في وهاد قرقيزيا، هل يمكن أن يتذكره أحد أم سيضيع ذكره وسط هذه التغييرات المتوالية؟

أيام كثيرة مرت وهو أسير الصمت والعزلة، لم يجـرؤ على الخروج إلا عندما هدأت الضجة في كل الطرقات وبـدا أن الحرس قد ملوا من مداهمة البيوت، أحس بالحيرة وهـو يسير في شوارع طشقند المغطاة بندى الصباح، كانت هنـاك بقية من خريف شاحب، وأشجار مبللة الغصون تبـدو مثـل أشباح طالها ضوء النهار وهي مازالت في غفلتهـا، أشـباح مثله تعاني من ماض قلق ومسـتقبل غـائم، كانـت الإدارة الدينية شبه خالية، رفع الحارس الليلي يده في تكاسل وهـو يحيه، لم يحاول اعتقاله أو حتى منعه من الدخول، هبط إلـى القبو حيث يوجد المصحف العثمـاني راقـدا فـي قفصـه الزجاجي، رأى قطرات الدم وهي تنساب خارجة مـن بـين الصحائف المطوية، صعد إلى أعلى حيـث يوجـد مكتبـه،

نظيفا ومرتبا بعناية متعمدة، جلس وفتح أمامه بعض المراجع القديمة وأخذ يحاول التشاغل بالقراءة، اطل عليه وجه "لطف الله" من مكان ما، ألم أحذرك من غواية " طشــقند"، بــدأت أصوات الحياة تدب ببطء في طرقات الإدارة، وقــع أقــدام ولغط وأصوات متداخلة، كأن كل شيء لم يغير وكأنه يعيش يوما عاديا من أيام الوظيفة.

فتح الباب ورآهم جميعا واقفين وهم يحدقون فيه، لعلهم كانوا يتساءلون من أين جاء هذا الشبح؟ تــدخل حمزاتــوف سكرتيره الخاص، أشار لهم في حزم أن يبتعدوا جميعا، ثــم جلس أمامه دون أي كلفه، لم يجرؤ على فعل ذلك من قبــل، نظر مباشرة إلى عينيه وهو يقول:

ــ أين كنت بحق الله يامولانا، إنهم يبحثون عنك، جاءوا إلى هنا أكثر من مرة، وظل هاتف منزلك يرن دون مجيب، هل سافرت خارج طشقند؟

شعر "نور الله" بالضيق من جلوسه أمامه ومن طريقتــه في الكلام، ضيق أكثر من الخوف الذي في داخله، قال:

ــ من الذي يريدني؟

تلفت حوله قبل أن يقول: أجهزة الأمن طبعا.

ــ ألم يرحلوا؟

ــ رحل السوفيت فقط، كل شيء باق على حاله وهم يريدونك على وجه السرعة.

كابوس لا ينتهي، ولكن يبدو أن الأمور لم تصل به إلى حد الإدانة، وربما تحدد هذه المقابلة المصير الذي ينتظره، خرج من الإدارة الدينية وواصل السير على قدميه حتى منتصف المدينة، كان في حاجة إلى إنهاك جسده لعل روحه تهدأ قليلا، كان مبنى الأمن على حاله، لم تزل من على واجهته إلا الأعلام والشعارات السوفيتية، ولم يزل من على أرضه إلا السجاد الأحمر العتيق، انكشف قبح الدرج المتآكل، وبدا قدم الجدران العارية، ولكن العديد من الوجوه لم تتغير، والمكاتب موجودة بنفس التراتب، ولكن السوفيت لم يكونوا خلفها، كانوا أوزبيك يحاولون عبثا التخلص من مفردات اللغة الروسية التي كانت تلفهم بقيود غير مرئية، ولكن هذا لم يغير كثيرا من الأمر، في نفس المكتب الذي كان يدخله، استقبله شخص ما، اكتشف بصعوبة أنه ليس "القومسير" القديم، ربما كان يراه بعين الوهم، وربما كان إتقان الآخر للتقليد هو السبب الذي جعل "نور الله" يعتقد في كل مرة أنه

يقابل قومسيرا جديدا، نفس الوجه الشاحب المستطيل الذي حرم طويلا من نور الشمس، العينان الباردتان ونبرات الصوت الحادة، ولكن بلهجة مختلفة، كان يحاول أن يطوع اللغة الأوزبيكية النيئة للغة المخابرات، والأرجح أنه لم يكن لينجح في ذلك، ففور أن أخرج الأوراق من داخل الملفات القديمة فرضت اللغة الروسية نفسها عليهما، أنه أمر مفزع أن تبقى أسيرا للذين فروا، كان القومسير الأوزبيكي يتحدث كثيرا، ولم يكن "نور الله" يستمع إليه بشكل حقيقي، لم يعرف إن كان يتحدث إليه كمدير للإدارة الدينية أم بوصفه متهما، نهض أخيرا وتناول ملفا لم يره "نور الله" من قبل، أخرج منها صورة باهتة بالأبيض والأسود وألقاها أمامه، انتفض "نور الله" واقفا، تناولها بأصابع مرتعدة وعينين توشكان أن تدمعا وهتف في حرقة:

ـ "لطف الله"، هل ما زال على قيد الحياة؟

قال الرجل ببرود يفلق الحجر:

ـ لقد عاد يثير لنا المتاعب مرة أخرى.

إنه حي إذن، حي ويمارس حياته الطبيعية، يثير المتاعب كدأبه، أحس "نور الله" بفرح غامر، كأن جزءا من

روحه الميتة قد دبت فيها الحياة، ود لو يصيح، لو يحتضن هذا القومسير الذي يحدق فيه بغباء، هتف في لهفة:

ــ أين كان،ماذا فعل، ما أحواله الصحية، كيف أفرج عنه؟

لم يجب الرجل، كان مشهد "نور الله" يثير شكه، لم يتوقع أن يكون بمثل هذا الحبور من أجل شخص مثير للمتاعب، قال محاولا أن يسيطر على الموقف:

ــ نعرف جيدا صلتك به منذ أيام "ميرعرب" ولكن هذا لا يعطيه وضعا خاصا.

ــ أين هو؟

ــ في "تجمان"، لقد عاد إلى وادي فرغانة، ويجب عليك أن تذهب لرؤيته فورا، أنت الوحيد القادر على منعه من الانتحار.

جلس "نور الله" في مكانه، كانت كلمات الرجل ونظرته الغاضبة قد قتلت لحظت الفرح المفاجئة، واصل كلماته:

ــ إنه يلعب هذه المرة لعبة خطرة، في عهد السوفيت كان يكتفي بالاعتراض بالقول فقط، ولكنه هذه المرة يقوم

بعصيان حقيقي للدولة، وهو أمر لا يمكن التسامح فيه أبدا خاصة في هذه المرحلة.

ظل "نور الله" يواصل التحديق فيه وهو عاجز أن يفهم أي شيْ، بدت كلمة "عصيان" بالغة الغرابة بالنسبة لشيخ معمم مثل "لطف الله". كان الرجل حديث العهد بعمله لذا فهو منفعل أكثر مما ينبغي، يستخدم الألفاظ في غير محلها، قال:

ــ أي نوع من العصيان، لا تقل لي إنه يحمل سلاحا.

ــ لقد قام هو وبعض من رجال الدين والشباب المتعصب بالاستيلاء على بعض مقار الحزب الشيوعي التي خلت بعد رحيل السوفيت واعتصموا بها.

ــ ربما كانوا يريدون تحويلها إلى مراكز دينية، تعليم، درس، حفظ قرآن، إنها أمور يمكن التفاهم حولها.

ــ لا تفاهم مع أي نوع من أنواع التمرد، لقد أعلنوا بالفعل أنهم يريدون دولة تقوم بتطبيق الشريعة الإسلامية، بل واختاروا لها اسما أيضا "إسلام ستان".

كان الرجل يريد أن يحسم الحوار، ألقى بالملف بأكمله أمام "نور الله" وهو يهتف:

ـ هذا تقرير كامل ومفصل به كل الوقائع، وأسماء كل الذين تهوروا واحتلوا المقار الحزبية وعلى رأسهم هذا الرجل "لطف الله"، إقرأوه جيدا وسوف تعرف حجم المؤامرة على دولتنا الوليدة، إننا نستطيع أن نقتحم هذه الأماكن ونقبض عليهم أو حتى نقتلهم جميعا، نعرف أنهم عزل تقريبا، ولكن كما قلت نحن لا نريد أن نبدأ دولتنا بمذبحة، خاصة إذا كانت مذبحة لرجال دين، أنت تفهمني بطبيعة الحال.

قال "نور الله" بصوت جاف:

ـ أفهم ذلك،ولكنني لا أفهم ما هو المطلوب مني أن أفعل.

ـ اذهب إليه، تقول التقارير القديمة أنك كنت صديقه ورفيق دراسته، هناك تقارير مفصلة تركها لنا السوفيت عن علاقتكما معا، إنه لا يستمع إلى صوت العقل في هذه اللحظة، ولكنه سوف يستمع إليك، هكذا نأمل على الأقل، أنت ورقتنا الأخيرة قبل أن نقوم بتصرف عنيف، حاول إقناعهم أنهم إذا سلموا أنفسهم لن نمسهم بأذى.

ـ هل هذا معقول؟

ــ نحن لسنا سوفيت، ولسنا معاديين للــدين، ولكننــا لا نريد من رجال الدين أن يلعبوا بالشعارات، قل له أن اللعــب بالنار سوف يحرق أصابعه.

كان يعلم أن رجلا محترق القلب مثل "لطــف الله" لــن يهتم كثيرا بإحراق أصابعه، ولكنه كان يريد أن يراه وحبــذا لو كان حيا، فتلك البرية ستكون شديدة موحشة دون أن يوجد من يصرخ فيها، هل كان لكتاب الشيخ قطب تأثيره الذي قاده إلى هذا الموقف، هل ساهم دون أن يدري في إيقــاظ الحلــم الكامن في داخله، أم أن ما فعله هو اللمسة الأخيرة في درب العذابات التي سار عليها من أن خرج مــن خلــف أســوار "ميرعرب"، قال:

ــ لم يعد هناك متسع من الوقت، هناك طــائرة ســوف تحملك الليلة إلى وادي فرغانة.

كان من المحتم أن يمضي إليه، قال قبل أن أنصرف:

ــ عندما اصل إلى هناك سوف أدخل إليه وحدي.

كانت طائرة صغيرة بمحركين لهما صــوت مــزعج، وكان قمر الخريف المائل للصفرة يحتل منتصــف الســماء، يختفي أحيانا تحت جناح الطائرة ثم يبزغ من جديد، وكانــت

رائحة الفودكا كالعادة تفوح من معظم الركاب، لماذا لم ترحل هذه الرائحة مع السوفيت؟:

ــ كنت أسأل نفسي والطائرة تخوض وسط سحب سوداء كثيفة، ترى كيف أصبح شكل "لطف الله" بعد كل هذه الأيام، هل تجرأ الشيب عليه ووخط شعره، وماذا حل بذلك الضوء النافذ الذي يشع من عينيه، كيف يمكن أن أهرب من وطأتهما ومن إحساسي بالذنب وأنا أحاول إقناعه بالتخلي عن طريقه بعد أن أدمى القتاد قدميه، من أغوار الماضي يستيقظ "قادري" ويفتح الشيخ قطب عينيه، أحس أنني مسئول بشكل أو بآخر عن موتهما، ترى هل أتمكن من إنقاذك يا "لطف الله"؟

كانت نجمان هادئة، ترقد شوارعها تحت خضرة الأشجار القديمة، والمباني القديمة والذكريات التي كان يحسب أنها انقضت، الأشياء لا تموت هنا وإنما تولد من رحم بعضها البعض، الريح تجرف الورق المتساقط و"نور الله" يمضي وحيدا، كانت لديه معلومات كاملة عن الأماكن التي استولوا عليها، والمقر الرئيسي الذي أتخذه "لطف الله" ليتحصن به، كان من الصعب اختراقه دون معركة ولابد أن

القومسير الأوزبيكي كان يعرف ذلك عندما طلب وساطته، ولكن ترى هل يتوقع "لطف الله" قدومه؟

وقف أمام المبني الذي أصبح قديما وقبيحا، ربما كان كذلك طوال الفترة السابقة، تحطمت النجمة الحمراء التي كانت تعلوه وهبطت كل رايات المطرق والسندان، لم تبق إلا راية سوداء وحيدة، الراية التي كان يحملها الرسول في غزواته، تتحرك مع الريح،تحاول أن يجد لها مكانا دائما تحت سماء فرغانة، تقدم من الباب، برز من مكمن مظلم عند المدخل شابان يحملان الهراوات، كانت لحيتهما طويلة وشعثاء، حدقا فيه، في الثياب الدينية التي يرتديها، بلع "نور الله" ريقه وهو يقول:

ــ أريد أن أقابل الشيخ "لطف الله".

بدا أنهما قد تعرفا على وجهه، لعلهما كانا يفكران في الصعود لأخذ الأذن أولا ثم قررا تحمل تبعة الموقف، هتف أحدهما في حرج:

ــ أعذرنا يا شيخ ولكن يجب أن نفتشك أولا.

فرد "نور الله" ذراعيه في استسلام، ومد الشاب يدان مترددتان ومررهما على جسده ثم أشارا له بالدخول، وصفا

له أين يوجد الشيخ "لطف الله" بشكل عشوائي فلم يكـن فـي مقدور أي واحد منهما أن يغادر مكانه، دخل في ممر طويل مظلم مليء بالحفر والنتوءات، وعلى جانبيه العديد من الغرف المغلقة، بدأ قلب "نور الله" يدق في وجل، كان يـدخل ذلـك العالم الصعب والمتقشف الذي هرب منـه طـويلا، كيـف ستكون لحظة الحساب، أي الحجج يمكن أن يسوقها، شـاهد غرفة مضيئة ومفتوحة في نهاية الممر، سار وهو يستند إلى الجدار خشية أن تخونه قدماه، كان "لطف الله" جالسـا علـى سجادة الصلاة وأمامه مصحف مفتوح، مستغرق في القراءة، يهتز دون صوت، يختزن كل المعاني في أعماقـه، توقـف "نور الله" دون أن يجرؤ حتى على إلقاء السلام، كـم يبـدو نحيفا ومتوحدا وغريبا، كأنما ألقت عليه أيام المنفى طابعهـا البري الموحش، أحس بوجوده فرفع رأسه، لم يكن في وجهه إلا عينان مجهدتان تحيط بهما هالات من السواد وأنف بارز ولحية مسترسلة قد تكاثر فيها الشيب، لم يبد عليه أنه قد ظفر بأي لحظات من الدعة والراحة منذ سنوات طويلة، ابتسم في وهن وهو يقول:

ـــ السلام عليك ورحمته وبركاته، الله حافظ، أهو أنـــت أخيرا يا "نور الله".

كان يتوقع قدومه إذن، لم يكن مندهشا بدرجة كافية، لم يحدث هناك عناق ولا بكاء، كل واحد منهـــا ظـــل متمســـكا بأهداب العالم الذي جاء منه، تحرك "نور الله" ودخل الغرفة، جلس على مقعد في مواجهته تماما وتنهد هو يقول:

ـــ أنا وأنت أخيرا يا "لطف الله".

جريحان بلا جروح ظاهرة بعكس ما كان الحال عليـــه قديما في " ميرعرب"، يصمتان طويلا، كل واحد منهما يمعن النظر في الآخر حائرا،لا يعرفان كيف يمكـــن أن يواصـــلا حوارهما المقطوع منذ آماد بعيدة، ولا كيف يصـــلان بـــين طرقهما المتباعدة، قال "نور الله":

ـــ لقد بحثت عنك طويلا يا "لطف الله".

قال: أجل، أعرف أنك ذهبت إلـــى "خيـــوة" و"كـــازان" و"عشق آباد"، أحيانا كنت تبحث عني، وأحيانا تبحـــث عـــن نفسك، كان بحثا غير مجد يا "نور الله"، كنت في لا مكـــان، بلا زمن يعاش، حتى أنا نفسي لا أصدق إنني مازلت علـــى

قيد الحياة، لقد عبرت برزخ الفناء والبعث يا "نور الله"، وهانحن ذا نلتقي من جديد.

كف عن الكلام وحدق في وجه "نور الله"، للحظة رأى فيهما الوميض الذي كان يعرفه، ليس بنفس القوة ولا النفاذ، ولكنه موجود، عاد يقول في سخرية ممرورة:

ــ لا تقل لي أنك جئت لتنضم إلينا، لو كنت تنوي ذلك فليس لك مكان تقيم فيه، بقية شيوخ فرغانة وخيوة وتركستان يملأون بقية غرف هذا المكان.

قال "نور الله" في صوت خافت:

ــ يجب أن تغادروا جميعا، سوف تحدث مذبحة، لو أصررت على البقاء في هذا المكان.

ــ مازال البعض يفضل الشهادة حتى في هذه الأيام.

ــ آلا يكفي أنك عبرت ذلك البرزخ ذات مرة وعانيت غفوة الموت والنشور، أريدك حيا

ــ ومن يكره الحياة، ولكننا في مفترق طريق يا "نور الله"، لا يستحق أن يرث هذه الأرض إلا القابضون على دين الله، ذهب السوفيت وانتهي زمن الخوف والتقية، وكل ما

تراهم حولك هم ورثة غير شرعيين لأرض لم تكن أبدا لهم، فإذا لم يجئ الإسلام اليوم فلن يأتي أبدا.

بحق فاطر الأرض ورافع السماوات ومجري الفلك في البحر العميق، من أين يستمد كل هذه القوة، ألا يعرف أنه يقف على حافة الهاوية، وهل يعتقد أن السوفيت قد رحلوا دون أن يتركوا أتباعا على نفس الدرجة من الشراسة، أم أنها نزعة انتحارية كانت كامنة في أعماقه ولم يرها، كان "لطف الله" قد شرد بعيدا، بدا كأنه يستكشف حجبا ما، قال:

ــ حلمت بهذا اليوم وسط أصقاع سيبريا، كنا معتقلين في بيوت خشبية مليئة بالثغرات خارج بلدة "كامتشاتكا"،لم تكن هناك تدفئة، ولم يكن يحيط بالبيوت التي تضمنا إلا سور خشبي متهالك، ومع ذلك لم يفكر أحد في الهرب، لأن هذا يعني الضياع وسط هذه الأصقاع اللانهائية، كان هناك حارس روسي ضخم لا يكف عن شرب "الكفاس" ولا يكف أيضا عن ملاحقتي، كان يعطينا دائما أقل الطعام، ويقطع الماء الساخن والكهرباء في ليالي الشتاء عندما يصبح الليل بالغ الطول، ولابد أنه هو الذي اخترع العمل الذي كان مفروضا علي القيام به، كان هناك هرم كامل من الأحجار

علي أن أنقله من مكانه إلى مكان آخر، وعندما كنت أنتهـي من نقل آخر حجر كان علي أن أعيدها إلى مكانها الأول مرة أخرى، هكذا وهكذا وهكذا، فعل جنوني وبالغ القسـوة، فـي الوقت الذي كان بقية السجناء يذهبون فيه إلى ورش النجارة والحدادة ويقيمون بأعمال ذات معنى، كنت أقوم بهذا العمـل العبثي يوما بعد آخر، كنت في نهاية كل يـوم علـى حافـة الجنون والانهيار، كان هذا العبث أشد قسوة من النفي والثلج والعزلة، وهذا الضابط الروسي لا يكف عن السخرية منـي، لم تكن هناك خطابات تصل إلي، لا شك أنه كان يخفيهـا أو يدمرها، ثم جاء هذا اليوم عندما استيقظت بعد الفجر بقليـل وأديت صلاتي على حافة نهر "الدوب" المتجمد، كان يومـا نادرا كفت فيه الثلوج عن التساقط واسـتوت الأرض وبـدا الأفق البعيد، كان هناك نور رمادي غامض يشع مـن بـين أغصان الغابة السوداء القريبة منا، كانت غابة كثيفة متشابكة الغصون بحيث لم أتعرف أبدا على تفاصيلها، ولكـن هـذا النور بدا كأنه شمس خجول قطعت رحلة طويلة مـن فـوق هضاب الأوزبيك لتصل إلى هنا، منهكة ولكنهـا موجـودة، تبحث عن أرض مناسبة تشرق عليها، ليست بالتأكيـد هـذا

الجحيم البارد الذي كنا نعيش فيه، ظللت واقفا أحـــدق فـــي النور وهو يتسع شيئا فشيئا، كانت رؤية حقيقية لا أعتقـــد أن أحدا في هذا المكان التعس قد رآها غيري، رؤيـــا "إســـلام ستان" التي لم تأت بعد، ضوء بازغ في أفق من جليد، أخذت أقرأ سورة الفتح خاشعا ومبهورا، "إنا فتحنا لك فتحا مبينـــا، ليغفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، ويتم نعمته عليـــك، ويهديك صراطا مستقيما"، عدت إلى كوخي وقـــد اطمأنـــت نفسي أخيرا، فوجئت بالباب وهو يفـــتح ورأيـــت الضـــابط الروسي وهو عار تماما، كان جسده القرمزي يرتعد، يصرخ في بصوت متدله: " ألا تريد أن ترحمني، ألا تعرف مـــدي العذاب الذي أعانيه وأنت هنا بقربي دون أن أنالك"، وقفـــت مذهولا وحاول هو الاقتراب مني فابتعدت فـــي اشـــمئزاز، ارتمى على الأرض وهو يصرخ: " لا تتركني أيها المســـلم النجس"، ولكن الرؤيا كانت قد اكتملت، الضابط ملقى كالجيفة والضوء يزداد سطوعا في الخارج، كنت قد انتصرت علـــى المنفى، عبرت البرزخ يا "نور الله" بعد أيام صـــدر الأمـــر بالعفو عني، ظل الضابط يحدق في وأنا أبتعد، كان قد ارتدى ثيابه واستعاد وجهه قسوته التي هي جزء من قسوة الطبيعة،

عدت إلى وادي فرغانة في الوقت المناسب تماما، كنت أعرف أن الطرق قد أضيئت وأن لحمهم العاري سوف يرتمي تحت أقدامنا وأن "إسلام ستان" سوف تجئ.

توقف "لطف الله" عن الكلام، وحل بينهما صمت عميق، كأنهما وحدهما لا في هذا المبنى المعتم فقط، ولكن في العالم كله، وجد "نور الله" أن عليه أن يتكلم، ولكنه لم يكن يملك ما يخفف عن هذا الشيخ النحيل مرارة المنفى، قال:

ــ رؤياك صحيحة ياشيخ "لطف الله"، ولكننا نعيش في الزمن الخطأ، لم يحن زمن هذه الرؤيا بعد.

اكتشف "نور الله" أن الغرفة تمتلئ رويدا بالناس، كان المشايخ الذين قرروا الاعتصام معه قد استيقظوا من نومهم أو انتهوا من صلواتهم، تجمعوا حولهم وهم مستندين للجدران، آثار الإجهاد وقلة النوم كانت واضحة عليهم جميعا، كانوا يحلمون في خوف، يدركون في أعماقهم أنهم يخوضون معركة خاسرة ولكن لا مفر منها، تذكر "نور الله" وجوه طلاب "مير عرب" وهم تحت الحصار، تأملهم قليلا، شعر بالرثاء لهم ولنفسه، واصل القول:

ـــ لن توجد" إسلام ستان" بدون مسلمين، المسلمون الموجودون الآن في فرغانة وطشقند وبخاري وعشق آباد وسمرقند وباكو وجمبول والمآتا وخوارزم مجرد مصادفة تاريخية، ولدوا وعاشوا في أرض كان الإسلام فيها غريبا، أنهم مسلمون بالاسم فقط، ولكنهم لا يعرفون شيئا عنه، نفوسهم صفحات بيضاء عليها بعض حروف روسية وبقايا تعاليم شيوعية وخوف غامض من المستقبل، ماذا تريد من كل هؤلاء.

قال "لطف الله": ولد الإسلام غريبا.

قال "نور الله" :ولكننا لسنا أنبياء، وليسوا هم بقريش، وليست هناك أصنام حول الكعبة، المسألة خطرة، هذه دولة تبزغ من ظلام الغيب، وهي ليست عزلاء، ولاتولد بشروطنا، ما جدوى أن تموت ويموت معك كل هؤلاء العلماء الذين ظلوا قابضين على دينهم كالقابض على الجمر طوال السنوات الماضية، إنهم آخر من بقي من روح الإسلام في هذه الأرض وفي هذا الزمان.

قال "لطف الله": لا تسترخص الموت والشهادة يا "نور الله"، الذل هو ترك الجهاد، ماجدوى أن يعيش الإسلام ذليلا

وغريبا، لو انحسر هذا المد لتركنا عرايا خجلين لأننا لم نقم بما يجب القيام به.

كان بقية الشيوخ قد جلسوا على الأرض، ملأوا الحجرة والطرقة الممتدة أمامها، كانوا يتابعون الحوار وهم مكتـومي الأنفاس، يدركون أن مصيرهم سوف يتقرر من خلال هـذه الكلمات المتبادلة، للمرة الأولى شعر "نور الله" أنه قوي، وأنه قادر على مقارعة "لطف الله" بالحجة، كان يريـد أن ينقـذه وينقذهم من صدام محتم، والأهم من ذلك انه كان يدافع عـن نفسه، عن اختياراته، ولم يكن واثقا إن كانت هذه الفرصـة سوف تتاح له مرة أخرى أم لا، تذكر وجـه الشـيخ قطـب وتتأمل وجه "لطف الله"، يارب السموات، كم تتشابه وجـوه الشهداء، ولكنه لم يكن يود الحديث عنه، لم يكن حضوره في هذه اللحظة ليقوي حجته، قال:

ـ في مصر كان هناك شيخ للإسلام، من المؤكد أنـك قرأت له يا شيخ "لطف الله"، اسمه الشيخ محمد عبده، عـاش أحداث إحدى ثوراتهم الوطنية التي انتهت بكارثة الاحـتلال البريطاني لبلاده، تماما مثلما ابتلينا نحـن بـالروس، كـان الاحتلال قاسيا وقويا ومتمكنا مثل أي احتلال حتى أصـيب

المصريون باليأس العميق، لم يكن هناك حل ولكـــن الشـــيخ الجليل وجد وسيلة للخلاص، فتح عشرات المدارس ومئـــات الكتاتيب الصغيرة حتى يعلـــم الأولاد، ورأى فـــي الأزهـــر مؤسسة عاجزة عن دفع الضر فأخذ ينفخ فيها الحيـــاة، كـــان يدرك أن الجهل آفة، وأنه هو الذي جاء بالاحتلال وليســـت فقط قوة السلاح، لقد راهن على المستقبل ياشيخ.

ــ أنت تريد أن تؤجل كل شيْ، لو فعلنا ذلـــك فســـوف يوطدون سلطتهم ويتحولون إلى خانات جدد يحكموننا بالحديد والنار، إنها لحظتنا لنقيم دولة العدل حتى ولو دفعنا حياتنـــا ثمنا لها.

ــ وماذا لو ذهب شيوخ فرغانة وخيوة وبخارى، مـــن يبقى لينور ويعلم ويحافظ على هذا الدين؟ لو أن أمرهم قضي فسوف يولد الخانات الذين تخشاهم دون أن يعترضهم أحـــد، ستعود الأرض لجاهليتها الأولى.

من الخارج تعالت أصـــوات الشـــاحنات ووقـــع أقـــدام الجنود، أصداء لنفس الأصوات التي كانت قادمة من اللحظة التي حوصرت فيها "مير عرب"، سار أحدهم إلـــى النافـــذة ونظر منها ثم قال في صوت هامس:

ــ لقد امتلأت الساحة بالجنود.

سمعه الجميع، حدق "لطف الله" بعينيه النافذتين في وجهه، ترى هل يتهمه بنصب هذا الشرك، وهل كان يتوقع ألا يأتوا، قال أحد الشيوخ في تردد:

ــ هل سيجرؤن على قتلنا فعلا؟

قال "نور الله":

ــ أضمن لكم الأمان، أضمن لكم ممارسة دوركم وتعليم الناس، حتى لا تتركوا ساحة الدين خالية، غدا سوف تمتلئ الأرض من حولنا بالملحدين والمبشرين والرهبان.

بدا الشيخ خائفا وغير فاهم، أخذ يردد في بلاهة:

ــ ولكن السوفيت قد رحلوا

قال "لطف الله" في أسى: يبدو أنهم لم يرحلوا

قال "نور الله": رحلوا ولكن دون أن يتركوا فرجة كبيرة من الأمل، مجرد شعاع رمادي كالذي رأيته في غابات سيبريا، صدقني ياشيخ "لطف الله"، في هذه اللحظة لن تكون الشهادة مفيدة ولا الانتحار مجد، الناس عاجزون وليسوا في حاجة إلى شهداء، إنهم في حاجة لمن يأخذ بأيديهم.

حتى الآن لا يدري "نور الله" من أين جاءت قوة منطقه، ربما لأنه كان واقعيا اكثر من الـلازم، رأى مـاهو كـائن وعرف ما سيكون، كان يملك الـذرائع التـي أيقظـت فـي المشايخ رغبة الحياة، كان وجوده بجرمه الذي امتلأ بعـض الشيْ، بعمامته النظيفة وعباءته الفاخرة أشد هـذه الـذرائع إقناعا، نظروا مرة أخرى من النافذة وازدادت درجة رعبهم، بدأوا يتحركون في توتر، لم يتكلم "لطف الله"، ابتلع غصـته وظل صامتا، انسحب البعض، عدوا إلى غرفهم وأغلقوهـا، ووقف البعض مترددا، ولكنهم ابتعدوا جميعا عن الشـيخين المتواجهين، أدرك "نور الله" أن سنوات القمع الطويلـة لـن تبقيهم أبطالا حتى النهاية، كانت كلماته قد خدشـت سـطح الشجاعة الهش الذي يغلف أرواحهم، وكشفت عـن مكـامن المخاوف الرابضة في أعماق كل منهم.

قال "لطف الله" في غيظ مكبوت:

ــ لقد أفسدت كل شيْ.

ــ كل شيء كان فاسدا يا "لطف الله".

ــ لقد جعلتهم يدركون هواننا على أنفسنا، وقلة حيلتنـا، لن أغادر هذا المكان.

ــ قل لي ما جدوى الاستشهاد وسوف أكون رفيقا لك.

ــ لم تكن يوما رفيقا لي، ولا رفيقا بنفسك.

ــ على الأقل سوف أكون رفيقك إذا قدر لك أن تموت في هذا المكان.

ربما كان "لطف الله" صادقا رغم مرارته، كانا معا دائما رغم أنهما لم أن ينظرا إلى الشيء نفسه، في الوقت ذاته، ساد الصمت على جلستهما مرة أخرى، "لطف الله" على سجادة الصلاة، و"نور الله" على مقعد في مواجهته، هذا التاريخ البائس يعيد نفسه حقا، صوت الأقدام الخافتة يقطع الصمت الرابض بينهما، بعضها يتسلل خفية، وبعضها يعدو، ولكنها ترحل بعيدا، شيئا فشيئا يسود الصمت ويحل الظلام، حتى القوات الرابضة خارج المبنى بدا أنها هي أيضا قد كفت عن الحركة وغرقت في السكون، من المؤكد أنه لم يبق سواهما في هذا المبني المظلم البارد، لم تعد هناك كلمات تستحق أن تقال، بدأ جسم "لطف الله" يهتز وهو جالس أمام المصحف المفتوح، لم يمد يده ليقلب صفحاته، ولم يكن هناك ضوء يوضح الكلمات، كان يستعيد الآيات المحفوظة في داخله ويهتز على إيقاعها، كان قريبا كما كان قديما، بعيدا

كما سيظل، كان غاضبا لأن حلمه الضخم لم يحتمل ضـــربة المطرقة الأولى فتفتت، أغمض "نور الله" عينيه فرأى "لطف الله" صغيرا وهو يمد له يده خارجة من نافذة القطار، يأخـــذ متاعه ويحمل أثقاله، ورآه وهو يهزه في عنف لعلـــه يفيـــق ويبتعد عن كل النساء الشبقات اللواتي يسلبنه ماء شبابه، ثـــم رآه مرة أخرى جريحا تحت هراوات الحرس ولكنه عنيد كما كان وكما سوف يكون، هاجمته كل الصور القديمة، وتقلـــب جسده في جلسته ولكنه لم يستطع أن يفتح عينيه، لم يســـتطع أن يواجه الصديق الذي خانه.

استيقظ "نور الله" مرعوبا، كان قد غفا فوق مقعده، ولم يكن يضيئ الغرفة إلا بقايا الضوء القادم من الخارج، لم يكن "لطف الله" موجودا، لم يكن له أي أثـــر، ولا حتـــى ســـجادة الصلاة أو المصحف الذي كان يقرأ فيه، نهـــض "نـــور الله" وأخذ يعدو بطول الممر، هل تركني ومضى، لم يكـــن هـــذا دأبه، خرج من باب المبني، الجنود يحيطون به من كل جانب وأضواء سياراتهم مسلطة على المدخل تكاد تعمـــي عينيـــه، رأي ظلالهم، الخوذ فوق رؤوسهم والبنادق في أيديهم، لابـــد أن هذا هو المشهد الذي آثار فزع الجميع، تنحى جانبا عـــن

الضوء، كان القومسير الأوزبيكي واقفا ينظر إليه متجهما، واضح أن العملية قد طالت أكثر مما توقع، هتف "نور الله":

ـــ أين الشيخ "لطف الله"؟

قال القومسير: أنت أدرى بذلك، لم يخرج من المبنى حتى الآن، لقد رصدنا خروجهم جميعا ولم يكن هو من بينهم.

قال "نور الله" في حيرة:

ـــ كان معي في نفس الغرفة، غفوت قليلا، وحين استيقظت لم يكن موجودا.

أشار القومسير للجنود، صرخوا في قوة وهم يقتحمون الباب، شعر "نور الله" بالفزع من صراخهم، هل سيجدونه في الداخل، هل سيقتلونه ويحملونه وزر دمه، أم أنه قد غادر المبنى بطريقة ما وحدثت المعجزة، ظل واقفا وهو يرتعد، راقب الابتسامة القاسية التي كانت تعلو وجه الرجل وهو يسمع قعقعات الجنود في الداخل، بعد دهر طويل من الزمن عاد القائد وهو يقول:

ـــ المبنى خال تماما، لقد فتشناه بدقة.

زفر "نور الله" أنفاسه وهو يوشك أن يجهش بالبكاء، تحققت المعجزة إذن، هرع القومسير الأوزبيكي للداخل حتى يتأكد بنفسه، واعترى "نور الله" خجل شديد، سار على قدميه مبتعدا عن المكان، كان قد احتفظ بمنصبه حقا ولكنه أجهض حلما، لم يستطع أن يقضي الليل في نجمان، لو طلع عليه النهار لحاسبه الجميع على ما اقترف لسانه في الظلام، لم تكن هناك طائرة، ولكن قطار الليل كان يتأهب للقيام، كان يسير به نحو كابوس مظلم من الوهاد والهضاب، هل انتهى الطريق كما بدأ يا "لطف الله"، هل كنت خائفا عليك أم أن خشيتي كانت على نفسي.

عندما وصل إلى طشقند لم يجد وقتا للراحة أو لتبرير ما فعله، كان هناك موعد هام في انتظاره، وكان وزير الأديان هو الذي استقبله بنفسه، كان غاضبا لدرجة انه أعتقد "نور الله" أنه سوف يوبخه، ولكنه لم يفعل قال في اختصار:

ـ الدولة تقدر لك ما فعلته، لقد جنبت البلاد مذبحة لم تكن هناك ضرورة لها، لقد تم تعينك مفتيا للبلاد.

لم يقدم له التهنئة، صافحه فقط في برود، هل كان غاضبا عليه لأنه نال هذا المنصب، ظل "نور الله" واقفا

مذهولا، كان هذا المنصب هو آخر ما يطمح إليه، أهو مكافأة خالصة لأنه حول رفيق عمره إلى مجرم هارب، أم تمهيــدا لدور جديد، هل سيخرج الآن ليرتــدي عبــاءة اكثــر ثقــلا وعمامة أكبر حجما، ويتسلم سلطات أوســع، دون أن يبكــي على مصير المفتي القديم، ودون أن يعرف لماذا تــم عزلــه سريعا هكذا؟ قال الوزير فجأة وكأنه قرأ كل ما يــدور فــي رأسه:

ــ كل ما في الأمر أننا لا نريد أن نكرر هنا ما حــدث في طاجكستان.

قال "نور الله" في بلاهة حقيقية:

ــ لقد قاموا بإجراء انتخابات وصعد الإسلاميون إلــى السلطة..

قال الوزير في غضب حقيقي:

ــ هؤلاء الحمقى قاموا بنفس الخطأ القاتل الذي حــدث في الجزائر، لقد صعد المتشددون إلى السلطة بواسطة هــذه الصناديق اللعينة.

قال "نور الله" في إخلاص حقيقي:

ــ حمدا لله لأننا لم نقم بهذه الانتخابات.

لم يكن الرد مناسبا ولا يتسم بالحصافة لأن غضب وزير الأديان قد ازداد وأنهى المقابلة سريعا، بينما كان "نور الله" يستعد لدخول مكتبه الجديد كان يفكر متهكما من نفسه: سوف ينشر الخبر غدا في الجريدة الرسمية وسوف يقرأه "لطف الله" ويعرف أنه لا نصيب له أيضا في تلك الصفقة، لا أحد يستطيع أن يقاوم قبضة دولة ولدت من رحم الاستبداد الآسيوي، حتى ولو كانت في بداية عهدها، كان على "نور الله" أن يواصل الرحيل مرة أخرى إلى مختلف المناطق، ليؤكد منصبه وسلطة الدولة التي تقف خلفه، تردد قليلا عندما حان موعد رحيله إلى وادي فرغانة، لم يقابل أحدا من رجال الدين الذين فروا في ظلمة المبنى، كانوا مثله على الدرجة نفسها من الخجل والشعور بالذنب، حتى بعد أن قامت الحرب في طاجيكستان كما توقع الجميع لم يخفف هذا من هذا الإحساس:

ـ "هل لم يعد هناك مجال للقاء مع "لطف الله"، اعتقدت ذلك، ربما لأنه دخل إلى عالم الظلال مرة أخرى، ربما لان الطرق بيننا قد زاد تباعدها ولم يعد هناك مبرر للقاء، ولكنه رغما عني وعنهم كان موجودا، كانوا قد تراجعوا عن كل

وعود الأمن التي بذلوها،كلما اشتد القتال في طاجكيستان زادت المداهمات والاعتقالات، كأنما كانوا يريدون تفريغ البلاد من شيوخها، وجميعهم كانوا ينطقون باسم "لطف الله" كأنه تعويذة، كان قويا أكثر مما حسبت، ربما كانوا جميعا ـ داخل سجونهم ـ ينتظرون عودته إلى وادي فرغانة ليحررهم ويجمعهم حوله، وربما كنت أنا أيضا أنتظر عودته".

كان هناك حفل ضخم مقام بوزارة الخارجية على شرف وفد إسرائيلي يزور البلاد، كان على "نور الله" أن يكون في مقدمة الحضور حتى يؤكد مقولة الدولة المنفتحة على كل الأديان، كان الإسرائيليون يحملون وعودا خلابة بتطوير كل شيء في البلاد، بدءا من الزراعة ورفع إنتاج القطن إلى ثلاثة أضعاف، إلى تطوير أجهزة المخابرات وجعلها قادرة على سماع وجيب قلوب الناس، كل شيء كان قابلا للمقايضة في بلاد الوعود الخفية، كانوا جميعا يشربون الفودكا المخففة بعصير الفواكه، فودكا جاءت هي أيضا من إسرائيل، كانوا يريدون أن يؤكدوا تفوقهم حتى في مجال المشروبات الروحية، لم يكن "نور الله" يشرب، كان فقط يستمع في ملل

إلى مسئول إسرائيلي يحدثه عن هذه اللحظة التاريخية التـــي يلتقي فيها الإسلام واليهودية في بلاد ما بعد النهرين، وأنهما يمكن أن يقدما معا مثلا لهؤلاء العرب المســاكين الــذين لا يرون أبعد من أطراف أنوفهم، ويتصارعون معهم من أجــل قطعة حقيرة من الأرض، كان يتحدث إليه بوصــفه مســلما آخر، أقل حقدا وعداء، كان على "نور الله" أن يكون لطيفــا وكيسا والرجل الأصلع لا يكف عن الكلام مازجــا التركيــة بالعبرية كأنهما تنتميان لجد واحد، لم ينقذه من هذا الحوار إلا مجيء أحد الندل ليخبره أن هناك من يريد محادثة فضــيلته على الهاتف.

من الطرف الآخر كان ســكرتيره حمزاتــوف يقــول بصوت مرتجف وأجش:

ــ هل هناك أحد بجانبك، هل ينصت إلينا أحد؟

قال "نور الله" في إيجاز: تكلم

ــ لقد قبضوا على الشيخ "لطف الله"، مازالت التفاصيل غير كافية، ولكن يقال أن القوات الشيوعية في طاجكيســتان قد أصابوه قبل أن يقبضوا عليه ويسلموه إلى السلطات هنــا،

لقد كان هو وأفراد من تنظيم العدالة يقيمون في الجبال القريبة من الحدود، أنه الآن في سجن طشقند.

قال "نور الله" وهو يحاول أن يتمالك نفسه:

ـ هل إصابته خطيرة.

ـ لا أدري، لقد ألقي القبض على الكثيرين منهم، وتم نقلهم إلى السجن في سرية تامة، لم يشاءوا حتى أن ينقلوهم إلى إحدى المستشفيات.

عاد "نور الله" إلى جو الحفل، كانت هناك خطب للترحيب، وكان عليه أن يأخذ دوره في الخطابة، ولكنه لم يكن يرى أحدا ولم يستمع إلى أحد، اصبح شرابه مرا، وتداخلت وجوه الذين يحيطون به، يهود وروس وأوزبيك، أشار بيده يعتذر عن الكلام ومواصلة الحضور، سار مترنحا عبر القاعة، وكان هواء الخارج خانقا تماما كالهواء في الداخل، ارتمى في السيارة دون أن يخر السائق عن وجهته، سارا على غير هدى، كانت ظلال الأشجار السامقة تحيط بهم مثل أعمدة الخطايا السبع، كل خطيئة تعقبها أخرى، توقفت السيارة أمام إشارة ضوئية واهتزت الأرض بشدة، فكر "نور الله": إنه زلزال، لا أريد أن أموت وحدي، قال السائق:

ـ يا مولانا هذا مترو الأنفاق يمرق من تحتنا.

أحس "نور الله" بالحمق والخوف، بدت الأشجار مثل حيوانات أسطورية سوف تظل تطارده إلى كل مكان حتى تعتصره بين أغصانها، لم يستطع أن يتجاهل أن "لطف الله" جريح وسجين في نفس المدينة التي يتجول فيها على غير هدى، هتف بصوت أجش:

ـ استدر، توجه إلى السجن.

هتف السائق في دهشة: السجن؟ في هذه الساعة؟

نظر إليه نظرة أسكتته، غير السائق اتجاهه، وبدأ يجتاز الشوارع الآهلة بالبيوت والناس والتماثيل الحجرية، خفتت الأضواء وبدأ العمران في التراجع، كان في حاجة إلى هذه اللحظة من الإظلام حتى يستعيد رباطة جأشه، وحتى لا يرى السائق الدموع المتجمدة في عينيه، لماذا يجب يا "لطف الله" أن تكون بهذا النقاء وسط عالم بهذا الدنس، ولماذا يعيد التاريخ نفسه دائما، بعد فترة من السير المتواصل بعيدا عن قلب المدينة، هاهو يقف تحت أسوار السجن الذي برز من خلف التلال تحيط به الأضواء الصفراء الساطعة من كل جانب.

توقفت السيارة أمام الباب الرئيسي للسجن، هبط "نـــور الله"،كان الهواء قد أصبح باردا وعنيفا، كان يرتجــف وهــو يدق على الباب وحراس الأبراج يراقبونه في دهشة وتحفز، ربما رأوا سيارته وما عليها من علامات رسمية، وهذا هــو ما جعلهم يترددون في إطلاق النار، ظلوا جميعــا رافعــين السلاح دون أن يدرون ما يفعلون بها، فتح باب صغير فـــي البوابة، ظهر اثنان من الحرس، نظــرا إلـــى هيئتــه فـــي استغراب، قال "نور الله":

ــ أنا مفتي البلاد، أريد أن أقابل آمر السجن.

نظر إليه الحرس مدهوشين، تأملوا عمامته الضـــخمة، وعباءته الموشاة، قال أحدهم:

ــ من تكون بحق الله؟

قال "نور الله": تأمل وجهي جيدا، ربما تتذكر الصـــور التي تنشرها لي الصحف.

استدار أحدهما وأخذ يعدو إلى الداخل، وظل الحـــارس الآخر واقفا ممسكا ببندقيته وهو ينظر إليه في عـــداء، بعـــد برهة من الزمن عاد الجندي يتقدمه واحد من ضباط السجن، مجرد ضابط ليلي مصاب بالحيرة، لا يعرف سبب الزيـــارة

ولا صفتها الرسمية، رحب به وهو يقوده إلى مكتب متواضع بجوار البوابة، ثم توقف أمامه متسائلا عن سبب الزيارة، قال "نور الله":

ـ أريد أن أرى الشيخ "لطف الله".

ازدادت حيرة الضابط، تلفت حوله لعل أحد يهب لنجدته، ثم قال أخيرا بصوت مبحوح:

ـ ربما كان علي أن أقوم ببعض الاتصالات أولا.

وأسرع إلى الخارج مرة أخرى، تركوه وحيدا، ربما كان على "نور الله" أن ينتهز الفرصة الآن ويضم عباءته وينصرف، ينقذهم جميعا وينقذ نفسه من هذا الموقف، ولكنه ظل جالسا يسمع صوت وقع الأقدام، كان وجوده في حد ذاته حالة طارئة أيقظت كل من في السجن، ولكن الضابط غاب طويلا، واضح أنه كان ينتظر صدور سلسلة من الأوامر المتراتبة، ثم عاد أخيرا وهو شديد الشحوب، قال:

ـ عفوا يامولانا المفتي، لقد تلقيت إذنا بالموافقة، يمكننا أن نذهب إلى زنزانته الآن.

سارا معا، عبرا الفناء المفتوح على السماء، فتح أحد الحراس بابا حديديا وسمح لهما بالدخول ثم أغلق الباب من

خلفهما، عبرا طرقة مظلمة، واجههما باب حديدي وحـــارس آخر، أكثر من عشرة أبواب عكرت مفاصلها هـــدأة الليـــل، كيف يمكن العودة مرة أخرى عبر هذه الأبواب المغلقة، ماذا لو لم يوجد واحد من هـــؤلاء الحـــراس أو ضـــاعت أحـــد المفاتيح، قال الضابط هامس في اعتذار:

ــ أخشى أنه ليس في صحة جيدة، ولكننا ــ واقسم على ذلك ــ لسنا السبب في ذلك.

سارا طويلا عبر صفوف طويلة من الزنـــازين، هـــل للدولة أعداء بهذه الكثرة؟، توقفا أخيرا أمام إحداها، تفوح من داخلها رائحة عطنة، أدخل الضابط المفتاح الذي كان يحمله، دفع الباب المعدني فأصدر صريرا عاليا، قال:

ــ هل تحتاج إلي؟

قال "نور الله": يارب يارحمن، كلا.

ابتعد الضابط، خطا "نور الله" داخل الزنزانـــة، كانـــت مظلمة لا يضيئها إلا النور الموجود في الطرقة الخارجيـــة، ظل واقفا حتى تعودت عيناه على الظلمة، وأخيرا رأى كومة ملقاة على الأرض، لا تتحرك، ويبدو أنها حتى لا تتنفس، لم يبد على صاحبها أنه سمع صوت الخطوات، ولا صوت فتح

الباب،كتلة لم تعد الأصوات تعني لديها أي نوع من الأمل، لا تحس ولا تريد أن تحس، رفع "نور الله" يده يريد أن يلمسه، أن يتأكد أنه مازال على قيد الحياة، ولكنه لم يجرؤ على ذلك، استند إلى الجدار وهو يأخذ أنفاسه في صعوبة، قال في خجل:

ـ أنه أنا يا "لطف الله"، رفيقك القديم "نور الله".

لم يبد على الجسد الملقى أي استجابة، هل هو حي، أم أنه يكتفي فقط بتجاهله، هل خدعوه وادخلوه إلى زنزانة خاطئة لا يوجد بها إلا هذه الجثة الهامدة، اقترب منه، مد يده وتجرأ هذه المرة ولمس جسده، كان فيه بعض من الدفْ وكانت خلاياه ترتجف، أمسكه من كتفه وأعانه حتى استند إلى الجدار، كان جسده مطواعا، غاية في الخفة، ثم رأى لمعة عينيه، اضيئت في لمحة خاطفة فاهتز كيان ""نور الله""،لا يملك مثل هذه اللمحة التي فيها الكثير من سحر النجوم سوى "لطف الله"،أجل، كان الضوء المعتم ينعكس في عينيه الحيتين وهما تحدقان فيه، غاصت روح "نور الله"، كان حيا على حافة الموت، ما بقي من عمره بضع أنفاس واهنة، هتف:

ــ هل تسمعني يا "لطف الله"، هل تراني؟

كان واثقا أنه يسمع ويرى، ولكن ربما لم يكن قادرا على الكلام أو راغبا فيه،جسده الهش الرقيق كان هو فقط الذي يرتجف، هل يتركه، هل يأخذه في أحضانه، هل يحاول أن ينتزعه من هذا المكان ولو كلفه ذلك حياته، وجد نفسه يقول بصوت مرتعد:

ــ لم أتصور أن تصل بنا الأمور إلى هذا الحد يا "لطف الله"، وجهك الدامي وجسدك المليء بالجروح، وتلك الروح التي تسكن جسدك المهشم، أي ثمن هذا الذي تدفعه وحدك، ولماذا تجعلنا نخجل من أنفسنا إلى هذه الدرجة، يا"لطف الله" لا تكن قاسيا علينا، نحن لا نملك روحا شفيفة مثل روحك يمكن أن تتحمل كل تلك المعاناة، مازال الإسلام غريبا، ولسنا سبب غربته، ولكنه تاريخ طويل من فقدان الطريق وترك الجهاد والتباس الأعداء، ليت السوفييت لم يرحلوا، على الأقل كنا نعرف أننا نواجه أعداء حقيقيين، أما هؤلاء فقد جعلونا نحلم دون جدوى، كنت ضحية هذا الحلم اللامجدي، لم استطع حمايتك، والمؤسف إنني صعدت فوق لحمك العاري، فليغفر الله لنا جميعا.

ظل يحدق فيه ولكن الكتلة التي كانت يوما "لطــف الله" ظلت صامتة، لا يبدو عليها من أثر للحياة إلا تلك الأنفــاس الواهنة، وتلك الومضات الخاطفة، لايدري "نور الله" إن كان يستمع إليه أو يعي بوجوده حقا، أم انه غائب في عالم آخر، خشي أن يكون بذلك يساهم في تعذيبه، عاد يســجيه علــى الأرض مرة أخرى، فلينعم بقليل مــن الراحــة فــوق هــذه الأرض الصلبة التي لم ترحه يوما، كــان بــاب الزنزانــة مفتوحا، والضابط يقف في انتظاره، ظل جالسا على الأرض مستندا إلى الجدار،ثم نهض في انكسار وخرج من الزنزانة، أغلق الباب فاختفى "لطف الله" عن نظره، سار ببط ء خلــف الضابط وقال بصوت محتقن:

ــ ألا يمكن أن نأخذه إلى إحدى المستشفيات؟

لم ينطق الضابط، بدا كأن صمته جوابا كافيا، لا يعرف بدأت الأضواء تغمر كل ممرات السجن كأنها يقظة مفاجئــة، سمع أصوات عشرات من وقع الأقدام المذعورة، عبر هــو الضابط كل الممرات، انغلقت خلفهمــا عشــرات الأبــواب، و"نور الله" طوال هذه المسافة يحاول الــتحكم فــي ســاقيه المرتعدتين، كان ما يساعده على السير فقــط هــي غريــزة

الابتعاد عن هذه الزنزانة، الهروب من ذلك المصدر العميق للذنب، أدرك فجأة أن درجة قربه من "لطف الله" كانت دائما شديدة الألم إلى نفسه، اتجها إلى قاعة واسعة مضاءة، وكان فيها مجموعة من الرجال، معظمهم يرتدون زي الشرطة الرمادي الداكن، كلهم كانوا واقفين ما عدا رجل واحد يجلس إلى منضدة وأمامه بضع من الأوراق، نهض واقفا حين رأى "نور الله"، تعرف عليه على الفور، معالي وزير الداخلية شخصيا، وجهه ممتلئ وشاربه كث، وسنته الذهبية تلمع، صافح "نور الله" ولابد أنه لا حظ برودة يديه والرجفة التي تهزه، قلب "نور الله" وجهه بين مختلف الموجودين، بادلوه نظرات جامدة، ولكن الوزير رفع يده فاستدار الجميع وتسللوا جميعا من باب صغير في نهاية القاعة، لم يبق إلا هما واقفين، كل واحد منهما يرمق الآخر في تساؤل، وأخيرا قال الوزير في صوت حيادي:

ــ لم أتوقع أن تأتي لرؤيته بهذه السرعة.

قال "نور الله" وهو يحاول التماسك:

ــ ولم أتوقع أن يتم تتبعي بهذه السرعة أيضا.

ـــ من يكلف بحماية دولة وليدة مثل دولتنا لا يجـب أن ينام.

سكت "نور الله" قليلا ليؤكد له أنه يقدر كلماته، ثم قال:

ـــ ربما كان علينا أن ننقل الشيخ "لطف الله" إلى إحدى المستشفيات.

رفع الوزير رأسه مفزوعا وهو يصيح:

ـــ كنت اعتقد أنك ستقول لي أنه قد حان الوقت لنحسم هذا الأمر ونتخلص من هذه العصابة.

ـــ أي عصابة؟

حاول الوزير أن يتخلص من لحظة الغضب التي انتابته وأن يستعيد ابتسامته:

ـــ عفوا يا شيخنا، أنت لم تر إلا الزنزانة التي يوجد فيها هذا ال"لطف الله"، ولكن بقية الزنازين محتشدة بهم جميعا، لقد انتشروا من وادي فرغانة إلى دوشانبيه كالطاعون، الفتنة أكبر مما تتصور يامولانا، هؤلاء فقط هم الرؤوس المدبرة لتنظيم العدالة، أما بقيتهم فلا زالوا على الحدود، يحملون السلاح ويستعدون للانقضاض علينا وإذا لم نكن حازمين معهم فسوف نفاجأ بفيالقهم هنا على أبواب

طشقند، لم يعد هناك وقت نضيعه، ولو لم نكن قد تقابلنا هذه الليلة لكنت حددت موعدا للمقابلة.

قال "نور الله" وهو يبلع ريقه:

ـ وما هو المطلوب مني؟

ـ الحق الذي أعطاه لك الله والسلطة التي خولت مسئوليتها، الفتوى.

ـ أي فتوى؟

ـ ضد كل هؤلاء الخونة الذين خرجوا عن النظام واستباحوا قتل الأبرياء، أم تريد أن تكرر هنا مأساة طاجكيستان، كلهم مدانين، أنت بنفسك توسطت لهم ذات يوم وجعلتهم يفلتون من أيدينا، لن يحدث هذا مرة أخرى، يجب أن تصدر فتوى بخروجهم عن الدين، إنهم جميعا كفرة مرتدون، يستحقون ما ننزل بهم من عقاب.

حدق "نور الله" فيه مدهوشا، فاجأته الكلمات، لم يدرك من قبل أنهم في حاجة إلى تبرير ومباركة، ترى هل فعلوا ذلك عندما قتل الشيخ قطب في مصر البعيدة، قال في صوت ضعيف:

ــ الأمر لا يتم هكذا، لابد من أسانيد من القرآن والسنة، لابد من قرائن فقهية.

أسرع الوزير إلى المنضدة، قلب في الأوراق المتناثرة فوق المنضدة، امسك عدة أوراق منها وقدمها له مؤكدا:

ــ علماء الرئاسة قاموا بذلك، هذه فتوى متكاملة، مزودة بكل الأسانيد الشرعية من قرآن وسنة لا ينقصها فقط إلا أن تضع توقيعك عليها.

أمسك "نور الله" بالأوراق، أحس بغضب عارم يهز جسده كله، ألم يكفهم ما فعلوه به، هل يريدون أيضا أن يحولوه إلى قاتل، تذكر وجوههم جميعا، طلاب "ميرعرب"الذين حاقت بهم ظروف الزمن القاهرة، وهو يهتزون غائبين عن العالم، مندمجين كجسد واحد في آيات القرآن، المآل والخلاص، وجوه فتية ونقية كثلوج المرتفعات،وهم يخرجون من حجراتهم الصغيرة كالكراكي البيضاء، يسعون إلى شمس الله وظله ونهاره وليله وحره وبرده ولظاه وثلجه، وهم يسترون جسده العاري في حي اليهود، ويتلقون الضربات في ساحات بخارى، يلتئمون جوعا

وخوفا داخل أسوار المدرسة، هل كان عليه أن يوقع وثيقة إعدامهم جميعا، هتف من بين أسنانه:

ـ بحق الله والرسول والخلفاء، بحق خوجا أحرار والنقشبندي والبخاري وكل الأئمة الذين خرجوا من هذه الأرض التي تغذيها أنهار الجنة، هذا لا يكون، ولن أوقع هذا البيان الجائر أبدا.

حدق الوزير فيه مذهولا من ردة فعله، ثم قال في همس كالفحيح:

ـ من المؤكد أنك لا تعني الكلمات التي تقولها الآن يامولانا المفتي، هذه أوامر عليا.

ـ لا يوجد فوق رأسي سوى السماء، ولن أقتل أحدا باسم كلمات الله.

ـ أعزك الله يا مولانا، نحن لا نتحدث عن القتل وإنما عن القصاص العادل، أنت متعب بلاشك، لذا فقد اختلطت عليك المعاني، سوف اعتبر إنني لم أسمع منك شيئا، وسوف أترك لك هذه الأوراق حتى الصباح حتى تأخذ قرارك بعقل يقظ ونفس مطمئنة، عم مساء ياسيدي.

وهو يعبر فناء السجن تساقطت منه الأوراق واحدة إثر أخرى، وبدأت أضواء السجن في الانطفاء، ضوءا بعد آخر، خرج من الباب الضخم، كانت السيارة في انتظاره، لم يركبها، ظل يسير شاردا فوق أديم الأرض، فوجئ السائق فأخذ يسير بموازاته،وهو يهتف:

ـ يامولانا، السهوب خطرة وموحشة، اركب السيارة، أرجوك.

نظر "نور الله" إليه، إلى السيارة الفخمة، إلى الثياب التي يرتديها، كل شيء يبدو غريبا، نظر إلى نفسه، كم يبدو فخما وسمينا ونظيفا وموقرا إلى درجة تثير التقزز، تكاثف الظلام وانتهى الطريق المعبد، بدأ يتعثر في الحفر المظلمة، لم يكن هناك مهرب، توسل السائق:

ـ يامولانا، إن هناك مواقع عسكرية في الأماكن التي تحيط بنا، من الممكن أن يضربونا بالرصاص الحي.

انهار مذعورا داخل السيارة، وأسرع السائق بالابتعاد قبل أن يغير رأيه، فتح كل نوافذ السيارة لعله يظفر بنفس نقي، بدت أضواء طشقند بعد سير مذعور، هدأ السائق من سرعته كمن نجا من كمين مميت، شارع"زرافان" مزدحم

بالعشاق الصغار ورسامي الوجوه وباعة اللحم المحترق، قال للسائق:

ــ تمهل قليلا.

واصل السائق احتجاجه:

ــ هؤلاء المراهقون الصغار سوف يزعجوننا.

تأملهم من نافذة السيارة، شارع مكتظ لا يبدو أن النوم يعرف طريقه إليه،بنات أنصاف عرايا، وشباب صغار يتجرعون علب البيرة، جمع صاخب من الأوزبيك والروس والكوريين والطاجيك والكازاخ، ولابد أنهم في علب الليل السفلية يتعاطون المخدرات، لم يكن الحلم بتلك الدرجة من النقاء الذي تصوره "لطف الله"، هل يجدي الدم المسكوب، لو انه تركه وتبعه في طريق الاستشهاد،هل كان هذا يغير من الأمر شيئا.

كان البيت مظلما والجميع نائمين، جلس على أول مقعد صادفه، أحس بانكسار لم يعرفه منذ إغلاق "ميرعرب"، مد يده وأغلق الهاتف، لابد وأنهم يتداولون الآن ماذا يفعلون به، أحس في وحدته المظلمة أنه أقوى منهم جميعا، كانوا قتلة، وكانوا يريدون منه أن يبرر عملية القتل التي سيقومون بها،

أغمض عينيه لبرهة من الزمن، فجاء "لطف الله" ومسح على رأسه بحفنة من الماء الدافئ، قال له هذا ماء الشيخ عيسوي في تركستان، عذب ومبارك، أحس أن جسده كله قد استعاد عافيته، التأمت كل الشروخ التي كانت تدمي روحه، ثم دوى طرق عنيف، كان هناك من يدق بقبضته على الباب حتى يوشك أن يخلعه، نهضت زوجته وابنتاه مفزوعات، وتكومن في ركن المنزل، كانوا جميعا يعرفون ماذا تعني هذه الدقات اللحوحة مع خيوط الفجر الأولى، نهض مترنحا وفتح الباب قبل أن يكسروه، كان القومسير الأوزبيكي يقف شخصيا وخلفه عدد من الجنود في ثيابهم الرسمية، قال باختصار:

ـ نحن مكلفون باصطحابك إلى المطار، خذ ما تحتاج إليه بسرعة.

لم يكن هناك جدوى في المقاومة، أو التعلل بالسؤال عن التفاصيل، كانت زوجته تبكي، والبنات يحدقن دون فهم، ولم يكن السقوط من أعلى السلم إلى أسفله بالشيء الغريب في هذه البلاد المترامية، قادوه في صمت، وشهقت زوجته فرمقها حتى تسكت، ولكن البنات واصلن البكاء وهن يمسكن بأذيال ثوبها، رمقه المارة القليلون في فضول ثم ابتعدوا إلى

الجانب الآخر من الطريق، لم يتوقف أحد ليسأل، وكانت المدينة يلفها سروال من الضباب الغامض، كأنه لم يهبط عليها إلا ليمحو أثر ما حدث، سارت العربة كأنها تخترق حجبا بلا نهاية، وظل الرجال صامتين، جامدي الوجوه، دخلوا بوابات المطار عبر عشرات الحواجز الأمنية، وقفت السيارة أمام سلم الطائرة مباشرة، اصطحبوه في كل خطوة، وعندما التفت ليلقي نظرة الوداع على طشقند وجد الضباب مازال يلف كل شيْ:

ــ " أيام موسكو كانت كلها متشابهة ومعتمة، كنت قد زرتها كثيرا قبل ذلك، ولكن هذه المرة عششت برودتها في خلايا روحي، لا أدرى أي شيء أكثر مرارة في المنفى، الخوف أم الجوع أم الوحدة، نفدت نقودي وكان من الصعب علي أن أتسول، تظاهرت بالاقتراض، بعض تلامذتي وزملائي القدامى تكفلوا بإقراضي في أول الأمر، ظنوا أنني أمر بفترة مؤقتة من الأفول سوف أسترد بعدها مركزي وهيبتي، ثم أدركوا أن من سقط لا يعاود النهوض من جديد، بدأت أقوم بكل الأعمال التي يمكن فقط أن تبقيني على قيد الحياة، ولكني كنت أرتجف،لا أدري إن كنت قد أنقذت

روحي أم أن هذه كله قبض الريح، أي دفء يمكن أن تحمله لي هذه الحدائق الشتوية التي لا يذوب جليدها أبدا".

في يوم غائم عرف بإعدام "لطف الله" وأسماء أخرى، وعرف أيضا أنه قد تم عزله من منصبه، ولم يكن هناك مكان لمزيد من الحزن، مادام العالم على حافة الهاوية فكل شيء قابل للموت، ولكن متى تحين هذه اللحظة، هل كتب عليه أن يحفر قبره تحت ركام هذا الجليد، كان يجلس وحيدا في أحد المساجد الخالية من الناس وبدأ يبكي بحرقة، اقترب منه شيخ المسجد وجلس بجانبه، ربت على كتفه وهو يقول:

ـ ياشيخ "نور الله" لقد كنت مفتيا، ولا يجب ألا تموت إلا وأنت مفت، لا عمل آخر لك، وليس لك من الأرض إلا ما يشغله جسدك، ولا من الطعام إلا ما يسد رمقك، ومن المتاع إلا ما لبست فأبليت، ولا تدرى نفس ماذا تفعل غدا، ولا تدرى نفس بأي أرض تموت، عد إلى أرضك، ومهما فعلوا بك فلن تكون إلا أنت.

يالله، كم كانت الفكرة بسيطة وآسرة، أن يعود ويموت في الأرض التي حاولوا انتزاعه منها، ولكن كيف يعود وهم يترصدون عودته، لم يكن أمامه إلا أن يسلك أكثر الطرق

طولا وأقلها مباشرة، ركب القطـــار المتجـــه إلـــى ســـهوب "كازاخستان"، ظل القطار موغلا في الســـير كأنـــه يســـعى لمصير مجهول، تتابعت الأيام مع ظلمة السهوب وضـــوئها، وتبدل الخوف بشجاعة اليأس، بدت الماآتا بالغـــة الخضـــرة والبرودة، ولكنه ظل في القطار، كان يريد مدينة أكثر دفئـــا، ظل القطار يواصل الرحيل و"نور الله" يواصل اليقظة والنوم حتى توقف أخيرا عند المحطة الأخيرة في "شمكنت"، لم تعد القطارات تمضي أبعد من ذلك، وكانت المـــآذن ذات القمـــم الفضية المدببة تلوح من خلف بيوت المدينـــة، ســـار وســـط شوارعها وناسها، عندما كان يأتي إلى هنـــا فـــي زياراتـــه التفقدية كانوا يمزحون معه عن الفرق بينهمـــا، فـــالأوزبيكي يقوم بزراعة كل أرض يراها حتى آخر ذرة من التربة، أما الكزاخي فيترك العشب حتى يبسط مداه.

لم يعد يفصله عن طشقند إلا بضع تلال والقليـــل مـــن الكيلومترات، لو أنه رفع قامته قليلا لـــرأى طيفهـــا الأزرق، قضى الليل نائما متجولا في ظلمة المدينة، كانت " شـــمكنت" قد تعودت على الإظلام مع غروب الشمس، لم تعد لديها من إمدادات الطاقة أن تضئ شوارعها أو تسخن مائها البـــارد،

وحتى البيوت كانت إما مظلمة أو معتمـــة الإضـــاءة، أمـــا ماحولها من قرى وبلدان صغيرة فقد دخلت ظلمـــة القـــرون الوسطى، لم يشأ "نور الله" أن يـــذهب إلـــى بيـــت أي مـــن معارفه، خاف أن ترصده العيون وأن يعرفوا أنه قد اقتـــرب من الحدود أكثر مما ينبغي.

قبل أن ينقشع الضباب استطاع أن يركب إحدى سيارات الأجرة، اندس بين ركابها بلحيته المزرية وثيابه المبللة مـــن ندى الليل وجواز سفره الذي لا يحمل تصريح العودة، كانت سيارة روسية قديمة تحمل أكثر من العدد المطلـــوب، وتـــئن كلما ارتقت مرتفعا من الأرض، ولكن الطريق الإسفلتي كان ممتدا دون عوائق، بدأت الســـهوب البريـــة فـــي الاختفـــاء وتحولت تدريجيا إلى حقول مقسمة ومزروعة، تراجعت برية الكازاخ، وتفتقت زهور القطن وبدت عناقيد الكرز المتوهجة، ظهرت على جانبي الطريق بضع من الفلاحات وهن يلبســـن ثياب الأطلس الصاخبة الألوان، كان قلبه ينفطر وهو يستنشق الهواء المتدفق إلى السيارة وقد أصبح أكثر دفئا، وأصـــبحت الألوان أكثر زهوا، أغمض فرأى "لطف الله" وهو يبتسم لـــه مرحبا بعودته وطلب منه ضاحكا أن يحدثه عـــن يهوديـــات

بخارى، سمع ضجة عالية ففتح عينيه، إنها الحدود، زحام من الناس والشاحنات وأكواخ البيع التي أقيمت على عجل، باعة المرطبات والملابس والبضـــائع المهربـــة، بـــدت بوابـــات الدخول، الحد الفاصل الذي يحول بينه وبين منزله، أعمـــدة مرتفعة مقام عليها قباب صغيرة متتابعة لها لون الفضة، كان حرس الحدود مشغولين بملاحقة بالشاحنات الضخمة، يعيدون تفتيشها ويدخلون في مساومات صاخبة مع ســائقيها حـــول الإتاوة المطلوبة، لم يلتفتوا إلى عربـــة الركـــاب المزدحمـــة بوجوه بائسة وهي تتمهل أمامهم، أشار لهم أحد الجنود بـــلا مبالاة فواصلت السيارة ســيرها، ازدادت ســـرعتها وهـــي تواصل الابتعاد، امتلأت عينيه بالـــدموع وامـــتلأ الشـــارع بأشجار التوت والخوخ والسفرجل:

ــ "طشقند أخيرا، بيتي، وآخـــر مـــابقي مـــن دنيـــاي، زوجتي وبناتي يستقبلنني بفرح وآسى، حجرتـــي وصـــوان ملابسي وفراشي وكتبي الناطقة بالعربية ومركوبي وعباءتي وسجادة صلاتي، أصلي وأتناول طعاما ساخنا وأنام، لم يأت رجال الشرطة إلا منزلي إلا في اليوم الثالث، اقتادوني فـــي صمت إلى أحد الأقسام، جلست في زنزانة لمدة يـــومين دون

أن يستدعيني أحد، ثم أفرجوا عنى دون أن يعيــدوني إلـــى المنفي، ولم اكن أنوي أن أعود، كانت عجلة الدولة قد دارت بدوني، وتخلصت من أعدائها دون معاونتي، ربما أدركوا أن الموت يمكن أن يطولني هنا مثل أي مكان آخــر، تجولــت وبحثت عن عمل، وقبض علي أكثــر مــن مــرة، أحيانـــا يضعوني في زنزانة، وأحيانا يكتفون بإيقــافي فـــي الـــركن لبضعة ساعات، مهما فعلوا كنت متواجدا في المكان، بـــدون عمل، ولا مهارات خاصة، مجرد مفت سابق، لم يكن أمامي إلا العمل على هذه السيارة، أطوف هاربا على المدن، أعيش على هوامشها غالبا، وأعيش في قلبها أحيانا، وأدفع الثمن في كل حين، وهاأنا ذا".

حكايات "سمرقند"

ـ ٩ ـــ

لم تبد "سمرقند" بهذا البعد رغم أن ما يفصلني عنها هو عدة كيلومترات قليلة؟ السيارة التي أركبها الآن جديدة بعض الشيء، على الأقل أجود حالا من سيارة نور الله، والشـــاب الذي يقودها اصغر سنا، يبدو هادئا، لحيته رفيعـــة ولكنهـــا مكتملة، تطوق وجهه، يتحدث العربية ببطء حتى لا يخطـــئ في تصريف الأفعال، يقول لي:

ــ اسمي "إسماعلوف" وقد أوصاني مولانـــا أن أقـــودك إلى فندق في "سمرقند" وسوف يلحق بك فيما بعد.

تمرق السيارة بصعوبة من وسط زحـــام النـــاس، مـــن العبث أن أجلس في انتظار نـــورالله، ومـــن المســـتحيل أن أتصوره سائقا لي مرة أخرى، أغادر مقام الإمـــام البخـــاري بينما حشود من الناس تهرع في عكس اتجاهي إلى الـــداخل، يسعون جميعا إلى "نور الله"، تخوض سيارتنا فـــي وســـطهم بصعوبة، يمر وقت طويلا قبل أن نـــتمكن مـــن اجتيـــازهم، تخفت أصواتهم بكل ما فيها من عذابات وترحم، كيف عرفوا بحضوره؟، وكيف حملت الريح كلماته إليهم عبر كـــل هـــذه

السهوب، كيف أحسوا بتواجده الحي بينهم، هل عرفوا بالتضحية التي قدمها وهل يجزونه عليها بهذا السعي وتلك اللهفة على سماع كلماته، الباعة على جانبي يصيحون في خيبة أمل، الزوار المتدافعون لا يلتفتون إلى البضائع التي يعرضونها، ننفذ أخيرا إلى الطريق العام وتصبح قرية "خرجنت" خلف ظهرنا، شوارعها خالية إلا من عصف الريح، كأنها قد أفرغت في مقام البخاري كل ما فيها من سكان، بدا النهر متفردا ووحيدا وهو يقودنا إلى "سمرقند"، أقول محاولا كسر جمود الصمت فيما بيننا:

ـ هل كنت تعرف الشيخ نور الله من قبل؟

يقول اسماعلوف: سمعت عنه كثيرا ولكنها المرة الأولى التي أراه فيها.

ـ ماذا سمعت عنه؟

ـ شيخ مبارك، زار الأراضي المقدسة وامسك بأستار الكعبة، وتوضأ بماء الحوض الساخن في مقام "آسفي"، لم يعد هناك الكثير من أمثاله هذه الأيام.

لا يكمل، يكتفي بتلك الأقوال العامة، ويتشاغل الحديث عن معالم الطريق الذي نعبره بسرعة، تلوح أكواخ صغيرة

وسط الحقول المترامية، بقايا خانات حجرية قديمـــة، آثـــار طريق الحرير تلوح وتختفي، لمحات من حلم عابر، تظهـــر أكثر من قرية، تتناثر كأنها حول المدينة البعيدة النائمة فـــي الضباب، يهتف الشيخ الصغير متحمسا وهو يشير إليها:

ــ أسماء هذه القرى كانت القـــاهرة ودمشـــق وبغـــداد وشيراز، لقد أطلق تيمورلنك أسماء الحواضـــر الإســـلامية الكبرى حتى تزهو "سمرقند" عليها جميعا.

أقول في سخرية: كنت أعتقد أنه كان يهوى فقط إحراق المدن.

يقول في جدية:

ــ إلا "سمرقند"، لقد أراد أن تكون هي المدينة الوحيدة وسط عالم مليْ بالمدن المحترقة، أو على الأقل يتحول كل ما عادها إلى قرى بلا ذكر ولا جلال.

نعبر جسرا خشبيا قديما وتبدو أشباح البيوت المتراصة تحوم فوقها دوائر من الطيور، نصعد فوق التل الذي يشرف على المدينة، يقول لي:" هذا هو تل "أفروساب" الشهير، اقول له:" توقف قليلا"، أهبط فوق التل الذي امـــتلأت الحكايـــات القديمة بذكره، حكايات من الزهو والندم عن مدينـــة كانـــت

يوما ملكة الدنيا، زهوها يفوق كل المدن، في يدها مصائرهن، من كل العظمة التي عرفتها الدنيا، ألا تقف هي نبيلة وفريدة؟ هكذا رآها الشاعر الأمريكي "إدجار ألان بو" وهو يرنو إليها من الحافة الأخرى للعالم، كان التل بأشجاره وأشواكه البرية وبالصخور التي بقيت من أوابد قديمة أشبه بتاج ملكي يمتد صاعدا من حافة النهر وينحدر حتى بوابات المدينة، مكون من طبقات من الأزمنة المتداخلة، طبقة فوق أخرى، ومدينة تندثر كي تولد من بين ركامها واحدة جديدة، قال اسماعلوف:

ــ فوق واحد من هذه الصخور بكي الاسكندر العظيم وأعلن ندمه العظيم، كانت جيوشه قد اجتاحت ذلك الخط الفاصل بين الشرق والغرب، لحظتها كان خطا وهميا لا أثر له على تضاريس الجغرافيا، ولكن قواده أحسوا أنهم فجأة قد انتقلوا إلى عالم آخر، وأن أقدامهم سوف تطأ نهاية الأفق عما قليل، لم تلحظ عيونهم الباردة ذلك الجمال المتفرد لملكة الدنيا "سمرقند"، حطموا أسوارها التي لم تكن أبدا منيعة، كانت مبنية من أكداس من الطين الهش، ربما لأنها لم تتوقع أن يتعامل معها الأعداء بتلك الشراسة، انقضوا عليها،

أحرقوا قصورها وخاناتها وحماماتها التي لم يكن ينقطع منها البخار، لم يبق منها إلا حطام مدينة بائسة، كان الوحيد الذي فطن إلى ما حدث هـو القائـد نكراسيسـوس، أدرك أنهـم يدمرون جمال العالم الذي تراكم عبر قرون طويلة من الزمن وصنع من مهارة الآلاف من البشر، قال للإسكندر: مـولاي القائد العظيم، لقد بعدت الشقة بيننا وبين جبال مقدونيا، ولـم يعد باقيا من هذا العالم إلا تضاريس الأرض الباهتة، لم تعـد هناك مدن عظيمة نقوم بغزوها، وحتى هـذه المـدن يقـوم جنودنا بتدميرها، فما جدوى المزيد منها، قال الإسكندر: لـم اعهدك جبانا يا نكراسسوس، تتخلى عني وسـط المعركـة، قال: لم تعد هناك معركة يامولاي، إنني أشعر أن موت هذه المدينة يعني موت العالم، كأنها النذير لموتنا نحن أيضا، قال الإسكندر: بل موتك أنت وحدك، وأهوى عليه بالسيف، تلقى القائد الشجاع الذي لم يهزم في معركة الطعنة في استسـلام، وبدت في عينيه نظرة من الرضا المؤلم، كان قد وصل إلـى نهاية طريقه، وفور أن واراه الثرى أحس الإسكندر بالوحـدة والندم، بدت رحلة الحرب مؤلمة وموحشة وبلا نهاية، بـدا العالم بلانهاية وبلا رفيق، بدأ الغازي العظيم في البكاء، لـم

يكن أحد قد شهد دموعه من قبل، ولكنه كان يبكي موته، كان الأمر أشبه بالنبوءة لأنه هو مات بعد أشهر من ذلك اليوم في مكان ما على حدود الهند.

نهبط إلى السيارة وأنا أتساءل: ترى لماذا يقتل الملـــوك دائما أفضل الأصدقاء ثم يجهشون بالبكاء؟، نستدير حول تل الندم قبل أن ندخل إلى "سمرقند"، ليس كمـــا دخلهـــا عمـــر الخيام، نفس تواقة للعشق وروح ذائبة من الوجد، ولكن بقلب فطرته تعاسة التجربة، كنت أريد أن أستعيد بعضا من زمني الضائع من خلال طرقات هذه المدينة التي حاول الغزاة عبثا إحراقها، وجاهد العشاق دوما من أجل بعثها، عنقـــاء بائســـة تخرج من رماد الحرائق لتعود إليها، تستقبلنا أشجار المدينـــة الظليلة،أشم عبقها وهو يتسلل من خـــلال نافـــذة الســـيارة، صفوف متتابعة من المساكن الكئيبـــة المتشـــابهة، مشـــهدها يوحي بالإحباط بعد رحلة بهذا الطول، أتلفت، أبحث عن أثر للمدينة التي عشقتها قبل أن أراها، أقول:

ــ أين نحن الآن؟

ـــ في إحدى شوارع المدينة الحديثة، إنه يدعى "بولفار ابراموف"، لا تقلق، لقد أوصانا مولانا أن ننزلك في أحد الفنادق بساحة "ريجستان"، في قلب المدينة القديمة.

تواصل السيارة اختراقها للشوارع المختلفة، الوجوه أكثر سمرة من طشقند، تتراجع صفوف البيوت الكئيبة قليلا لتكشف عن معالم المدينة، تماثيل من بقايا المرحلة الشيوعية، هنا ينتهي الجزء الروسي من المدينة كما يقول اسماعلوف، تضيق الشوارع ويختفي طابعه المعاصر، تظهر المعالم القديمة كأنها تشق طريقها عبر غبار الزمن، مجد آفل يعاود البعث أمام عيني، مساجد ومآذن وساحات وأبهاء سامقة، مكسوة بملايين من قطع الفسيفساء التي تتألق تحت ضوء الشمس، مدينة تخطف الأبصار، جمال صاف لم يعكره مرور الزمن ولا صروف الدهر، في كل لحظة أهتف به أن يتوقف، يخيل إلي أن ما أراه هو حلم عابر سوف يتبدد ما أن أدير له ظهري، يقول اسماعلوف في رفق:

ـــ دعنا نذهب للفندق أولا يا سيدي، إنه قريب من كل هذه المعالم، يمكنك أن تسير إليها على قدميك.

يريد أن ينهي مهمته ليعود سريعا إلى مقام البخاري، لو أنه تركني أسيرا للحظات الانبهار هذه لمــر اليــوم دون أن نتحرك من مكاننا، نتوقف أخيرا أمام مبنـــى عـــال عتيــق الطراز تحيط به أعمدة ترفرف عليها أعلام ملونـــة قديمـــة، ندخل في بهو تغطي أرضيته سجاد أحمر متآكل، أما جدرانه فمغطاة بالخشب البني الداكن والمرايـــا الباهتـــة، تـــذكرني الموظفة البدينة التي تقف خلف منصة الاســتقبال بـــالأفلام السوفيتية القديمة، روسية طاعنة في السن تحدق في بريبـــة وهي تقول:

ــ هل أنت أفغاني؟

أهز رأسي بالنفي وأخرج لها جـــواز ســفري مؤكـــدا، تبحث عن التأشيرة الخاصة بزيارة "سمرقند"، كل مدينة هنـــا في حاجة لتأشيرة خاصة بها، تخبئ الجواز في درج تحـــت الطاولة وتعاود الصياح:

ــ الدفع يجب أن يكون مقدما وبالدولار.

يدخل معها إسماعلوف فجأة في مساومة حادة يعلو فيها صياحهما معا، لا أفهم ماذا يحدث ولكنني أخشى أن ينتهـــي

الأمر بطردنا، لحسن الحظ يهدأ الحوار بالتدريج، ويبدو أنهما قد توصلا معا إلى نقطة للترضية، يلتفت إلي وهو يقول:

ــ لقد خفضت ثمن الغرفة، ولكن يجب أن نراهـــا أولا حتى نتأكد إن كانت تستحق هذا الثمن أم لا.

تلقى إلينا المفتاح بلا اهتمام، نصعد درجا خشبيا يصدر صوتا مزعجا، الغرفة واسعة ولكن الســرير بـــالغ الصـــغر والحمام بالغ الضيق أيضا، منضدة ومقعدين ونافذة بلاستائر، كان من الممكن أن أرفضها لولا ذلك المشهد البـــاهر الـــذي تطل عليه، وتلك القبة الهائلة المكسوة بالقيشاني الأزرق كأنها سماء صغيرة، مكورة ومكتملة، أهتف مبهورا:

ــ سوف أسكن بها.

يقول في امتعاض: إنها لا تساوي نصف قيمتها.

لم يكن يرى ما أراه، لا يدرك أن مشهد القبة يملأنـــي بنشوة تجعلني على استعداد لأن اقضي الليل مســتيقظا فـــي الصباح حتى أرى الشمس وهي تولد من زرقتها، أقول:

ــ سوف أكون مرتاحا، ولكنني أريد أن أعرف فقط أسم هذه القبة الساحرة التي توجد أمامي.

ـ إنها قبة مسجد لم يكتمل طوال تاريخه، مسجد "بيبي خاتون".

يتركني ويهبط ليحضر حقائبي، يسألني بعدها إن كان ثمة رسالة أريد أن أوصلها لمولاه نور الله، أرجو منه أن يخبره فقط أنني في انتظاره، أغلق باب الغرفة وأصبح وحدي أخيرا، استلقي على الفراش الضئيل، أتذكر أنني لم آخذ كفايتي من النوم طوال الليالي الماضية، هذه الرحلة الغريبة بكل ما فيها من أحداث ومصادفات قد أنهكتني تماما، أغمض أجفاني المتعبة وأسمع أصوات المدينة وهي تأخذ في الخفوت حتى يسود الصمت.

استيقظ وبقايا الشمس تنحدر خلف القبة الزرقاء، تحيطها بوهج من الأرجوان، أتوقف مبهورا أمام هذا الجلال المهيب الذي يهب قبسا من ضوئه لكل هذه الأطلال، أبدل ملابسي في سرعة، أعبر الممر الضيق وأخرج من الفندق، أبدأ في صعود المنحدر نحو أطلال المجمع الضخم، أعرف إنها كانت أحب زوجات "تيمورلنك" إلي قلبه، ربما كانت أصغر هؤلاء الزوجات وأكثرهن سطوة، ومن المؤكد أن الكلمات لم تكن كافية للتعبير عما في قلب هذا الغازي القاسي القلب

فاستبدلها بهذه الأطواد الشامخة المكسوة بالفسيفساء، أدخل من البوابة الرئيسية من تحت قوس حجري مازال متماسكا، تسند جانبيه مئذنتان سامقتان، تنغرسان في الأرض كأنهما جذعا شجرة، خلفها يبدو الإيوان الضخم الذي ترتكز القبة عليه، كان هناك شرخ في وسطها، كانت عوادي الزمن وقسوة الزلازل أحدث هذا الصدع في قلبها، رغم ذلك فالفتحات الموجودة في القبة مليئة بالحمائم، أضع يدي على الفسيفساء الذي يغطي الواجهة، ملمسه دافئ، كأن في داخلها حياة متوهجة لم تخمد، في منتصف الديوان توجد منصة حجرية ضخمة ترتكز فوق قوائم تسع، لابد وأن هذه هي منصة القرآن التي كان يوضع عليها المصحف العثماني، أتذكر فجأة كل الكلمات التي قالها لي الجنرال العجوز عن هذه المدينة، عشقه وملاذه الأخير، كل ما صوره لي من مشاهد حية بحيث جعلها تتجسد أمامي في هذه اللحظة.

خلف القاعدة الحجرية يرقد ضريح "بيبي خاتون"، أشاهد حوله مجموعة من الفتيات يقفن حوله ويتمسحن فيه، مازال هناك من يترحم على هذه الزوجة الجميلة، أبواب المسجد ــ أو مابقي منها ــ مفتوحة، مصنوعة من معادن

سبع، أبهاء وأقواس ومقرنصات وآيات قرآنية، تسبيحات لا تنقطع، بعد برهة اكتشف أنني قد أصبحت وحدي، انصرف الجميع ولم يبق غير الورق المتساقط من أشجار البلوط، أشعر بالغربة والألفة في آن واحد، أجلس على حجر أمام منصة القرآن وأترك النهار ينسحب من حولي، من بعيد ألمح طيفا واقفا بالقرب من الضريح، رغم العتمة أتبين أنها امرأة بجسدها الفاره وشعرها المسدل، كانت ترفع كفيها قريبا من وجهها، تبدو مستغرقة في الدعاء، لو قدر "لبيبي خاتون" أن تبعث من جديد فسوف تكون هكذا، طيف في نهاية يوم عابر، المرأة مستغرقة في دعواتها لدرجة أنها لم تلحظ وجودي، تدور حول الضريح وهي تلمس الرخام الذي يكسوه بيدها، كأن هذا التلامس يقيم صلة بينها وبين صاحبة القبر، تطاير شعرها قليلا مع هبات الهواء، فظهر بعضا من ملامحها، كأنها مرسومة من ظل وضوء، أود أن أهتف مناديا إياها، لكنني أخشى أن تحملها ريح المساء وتمضي بها بعيدا، تدور حول القبر كأنها تؤدي طقسا، ثم تبدأ في الابتعاد، تذوب وسط العتمة، هل كانت حقيقة، أم أن طيفها هذا كان أجمل من أن يكون واقعا، بدأت ارتعد من برودة المساء، ابدأ في

الانحدار مع شوارع المدينة، أشم روائـــح البهـــار وزهـــور الليلك، كانت الشوارع تستمد أضواءها من قمر وحيد، قمـــر شاهد بزوغ مولد الزمن وتقلباته في نفس هذا المكان، أواصل السير فوق شوارع مرصوفة بالأحجار القديمة، أجلس فـــوق مقعد خشبي تحت ظلال أشجار "الليلـــك"، أتـــنفس رائحـــة الزهور القادمة من كل مكان، مدينة خصبة، اخفت في تربتها كل عظام الموتى وحولتها إلى زهر بري.

أعود إلى الفندق، ساكن وشبه مظلم، تناولني السيدة في الاستقبال مفتاح غرفتي دون أن تفتح عينيها، أصـــعد إلـــى غرفتي، سيدة روسية أخرى في منتصف العمر تجلس خلف منضدة، إنها المسئولة عن هذا الدور، لم تكن نائمة، كانـــت جالسة وأمامها زجاجة كاملة من الخمر، حدقت في بعيـــون غائرة كأنها لا تراني، وجهها يحمل بقايا من جمالها القـــديم، شعرها فضي أشعث وبشرتها بالغة الشحوب، ولكـــن طـــلاء شفتيها القاني يعطيها منظر الحيوانـــات المفترســـة، يتســـم بالتعاسة والشرود، أدخل إلى غرفتي دون أن نتبـــادل كلمـــة واحدة، أجلس في ظلمة الغرفة دون أن أخلع ثيـــابي، أدرك فجأة أنني طوال هذه الرحلة كنت أواصل الهرب بلانهايـــة،

وأنني قبلت طائعا الدخول في تلك المغامرة التي أتاحها لـــي "نور الله" دون قصد، سمعت طرقا على الباب، كانت المـــرأة واقفة مستندة إلى حافته، شعرها متهدل ورائحة الكحول تفوح منها، تشير إلى الزجاجة التي تمسكها في يدها وهي تقول:

ــ ألست وحيدا أكثر مما ينبغـــي، "ســـمرقند" مدينـــة الوحدة، ولكن يمكننا أن نتناول كأسا معا.

كانت بالغة التعاسة، ولكنني أستطيع أن أحتمـــل جســـدا آخر بجانبي، ما جدوى مزج التعاسة بالكحول، أقف حائرا لا أدري كيف أغلق الباب في وجهها دون أن اجرحها، تهتـــف بي في حدة:

ــ لا أريد شيئا منك، دولاراتك القذرة لا تعنيني، كل ما هناك أن الليل يبدأ مبكرا ولا ينتهي.

أقول في صدق: إنني آسف.. حقا آسف، ولكنني...

تدير ظهرها وتتركني، أسمعها تهمهم بكلمات روســـية غاضبة، ربما كانت تسبني وتشكك في رجولتي، أغلقت بابي ومازالت أصداء صوتها تتناهى إلي، توقفت تحت دش الماء البارد فازدادت رعدتي، خبأت نفسي تحت الأغطية وتمنيـــت نوما لا تكون فيه أحلام مفزعة.

في الصباح تتسلل الشمس مباشرة إلى عيني، لم تكن هناك ستائر وكانت غرفتي عارية تماما تحت السماء الزرقاء والشمس التي تبزغ من خلف القبة، أكتشف مدى جوعي، لم أتناول طعاما منذ أن غادرت مقام "البخاري"، أرتدي ثيابي بسرعة وأغادر الغرفة، سيدة الأمس نائمة في مكانها، رأسها منطرح إلى الوراء وهي فاغرة الفم، صوت تنفسها عال ومتحشرج، شعرها أشعث، وثيابها منحسرة عن فخذيها، والزجاجة ملقاة على الأرض بجانبها، فارغة تماما، ترى هل كانت ستكون أقل تعاسة لو سمحت لها بالدخول إلى غرفتي، لم يزل الوقت مبكرا للاستيقاظ، أهبط على السلم، إحدى عاملات التنظيف تحرك مكنستها في تكاسل، أسألها عن مكان المطعم فلا تفهم كلامي، أشير لها نحو فمي، فتشير إلى طرقة جانبية، مطعم ضيق، بضع مناضد لا يوجد عليها مفارش، لم يكن هناك أثر لطعام، أظل جالسا دون أن يطل علي أحد،أدق على طرف المنضدة دون جدوى، هل أخرج وأبحث عن مكان آخر؟

أسمع حركة خافتة، ألتفت إلى الوراء، أرى جانبا من وجه فتاة يطل علي قبل أن تختفي سريعا، ألمح خصلة من

شعرها بلون قشر البندق وبشرتها البيضاء، لا أرى ملامحها بوضوح، ولكن هذا الظهور الوجيز يغير من سكون اللحظة، أجلس صامتا، لا أدق على المنضدة ولا أفكر في الانصراف، تعود الفتاة وهي ترتدي مريولا أبيض، تدخل خلف الحاجز وتضيء النور في واجهة عرض زجاجية صغيرة، دون أن تسألني تبدأ في إعداد الطعام، تقطع قطعة من الجبن وتضعها فوق الميزان، تفعل ذلك أيضا مع الخبز والزبد وحتى المربى، تزن كل شيء بدقة كأنها معادن ثمينة، تقدم لي القطع الباردة فوق طبق اجرد، أظل جالسا معقود اليدين، لم يكن هناك ما يغري في تناوله، تشير إلى بضع بيضات متناثرة خلف الزجاج، أشير برأسي موافقا، كنت خائفا من أن تقدمه لي باردا هو أيضا، ولكنها تذهب في الخلف وتبدأ في إشعال الموقد، يسري في المكان أخيرا بعض من الدفء، أبدأ في تأمل وجهها الجميل، شعرها معقود خلف رأسها، ولكنه مسترسل حتى منتصف ظهرها، وعيونها فيها الكثير من زرقة السماء، تعود وهي تحمل طبقا من البيض وكوبا من الشاي، أقول فجأة بالإنجليزية:

ــ أنت "بيبي خاتون"، كنت متأكدا من ذلك.

تلتفت إلي مدهوشة وترد هي أيضا بالإنجليزية: ماذا؟

أقول في حماس وقد أسعدني أنها قد فهمتني وتواصلت معي:

ــ أنت ذلك الطيف العابر الذي رأيته بالأمس عند الضريح.

تقول باسمة: هذا هو اسمي "طيف"، تماما كما في العربية.

قلت في إلحاح طفولي:

ــ ولكنك هي، كنت تطوفين حول ضريح "بيبي خاتون" في دورات متتابعة كأنك تؤدين طقسا معينا أليس كذلك؟

تزداد ابتسامتها إشراقا:

ــ ربما كان عليك أن تسأل "بيبي خاتون" نفسها.

تنصرف من أمامي، يصبح الطعام البارد أطيب مذاقا، آكل بشهية وبجوع حقيقي دون أن أرفع عيني من عليها،اتأملها وهي تجهز الأطباق والملاعق في حركة لا تهدأ، وعلى شفتيها نفس الابتسامة الأنيسة، تحمل الطابع الرهيف لكل الأطياف، يبدأ الزبائن في التوافد وتمتلئ المناضد الخالية، أناس من مختلف الأشكال، تجار منتفخو

الأوداج، عجائز بلحي رفيعة ومسترسلة كلحى الماعز وعلى رؤوسهم عمائم مثلثة ملفوف بشكل اسطواني، نساء بـــدينات أيديهن مليئة بأساور الفضة وأسنانهن مكسوة بالذهب، يتحدثن في صخب، تتصاعد أدخنة السجائر ويصبح المطعم الضـــيق خانقا، لم أعد أرى طيفا بوضوح، تتحرك بـــين المناضـــد، وتزن قطع الجبن والخبز قبل أن تقدمها، لـــم تعـــد تبتســـم، تتحرك بينهم بجسدها فقط، تاعدت فرصتي للحـــديث معهـــا والتعرف عليها، أنهض وأسألها عن حســـابي، تتطلـــع إلـــي بعينين حالمتين، أدفع لها ضعف ما طلبته مني فتعاود النظر إلي، أخرج من جيبي الورقة الصغيرة التي احتفظت بها كل تلك السنوات، وأقول لها:

ــ أريد أن أذهب إلى هذا العنوان.

تتأمل الحروف السيرليكية المتشابكة أمامها:

ــ يبدو عنوانا قديما جدا، لقد تغيرت كثير من المعـــالم وأسماء الشوارع

ــ كيف أصل إليه؟

ــ أنت في حاجة إلى سائق سيارة أجرة عجوز جدا.

تتركني وتمضي إلى زبائنها، لا تنسى أن تمنحني ابتسامة صغيرة، أخرج إلى شوارع المدينة الناعسة، أعيش لحظات يقظتها الأولى، تحت أشجار السرو يمتد شارع ملئ بالأوراق المتساقطة، يبدأ الناس في الازدحام، خلطة البشر المتنوعة التي تراكمت في المدينة، تاريخ وقائعه مدونة على جلود الناس، كل غزوة تجلب جنسا، وكل دولة تولد عرقا، أتراك وجوههم البيضاء تحمر لحظات الدهشة والغضب، وطاجيك سمر براقو العيون، وأنوف تركمانية قانية، وشعور روسية في صفرة القش وبياض الفضة، وعيون مغولية منحرفة دوما إلى الأعلى، لا يوجد من يتشابه في هذه المدينة إلا صفوف المباني الإسمنتية وسيارات "الفولجا" المتهالكة، أقرأ اسم الشارع بحروف لاتينية "طشقند سلكيا"، يقودني دون أن أدري إلى ساحة المدينة القديمة "ريجستان"، اقف مبهورا والشمس تغمرها ببط ء، تتوهج أمامي أعظم لوحة من الفسيفساء يمكن أن تراها عين بشر، أهبط الدرج حتى أقف تماما وسط الأروقة السامقة، يبدأ بائعو السجاد والفخار والمخطوطات في فرد بضائعهم، أتأمل بساتين الدنيا وقد تم تصويرها مرصعة بآلاف من قطع الفسيفساء الدقيقة، تقف

سيدة عجوز أمامي، تكشف عن سنتها الذهبية وهي تقدم لـــي مفرشا مطرزا باليد، تقلبه لتظهر مدى ما عانته وهي تحيــك كل غرزة منها، تكتب السعر على ورقــة، وكلمــا هــززت رأسي معتذرا خفضته أكثر، أتخلص منه بصعوبة، وأبدأ في تفقد المكان، مجمع لا نظير لـــه مــن المســاجد والأروقــة والمحاريب والمنابر، أعمدة مزهوة، ومآذن مكسوة بــألوان القيشاني، إيوانان متقابلان، كأنهما قطاي العالم، نقوش وآيات قرآنية مرسومة في أعلى الجدران وتلتف كالتعويذة والرقــى حول رؤوس الأعمدة والمآذن، زهو وألق وجلال آفل، تغور كل النجوم ليعلو نجم أوحد، يصعد "تيمورلنك" إلــى عــرش التتار ويحكم ثلث الأرض من هذا المكان، وتنفتح "ســمرقند" على ستة طرق تسير فيها القوافل وتصل لاهثة إلى ســاحة "الريجستان" حتى تظفر بالأمان والطعام، ثم تعلــو أصــوات الأبواق تعلن عن نصر ما، أو إعدام خائن ما، تختلط الأدعية بصيحات الألم، وتترك الدماء على أحجار الساحة أثــارا لا تمحى، ترتفع الشمس إلى منتصف السماء وما زلت أواصــل التجول، سرقني المكان وبدل زمني، أعبر الحاضــر كظــل باهت، دون نقش أو ذكرى.

حان الوقت لأن أسعى إلى الهدف الذي جئت من اجلـــه على هذه المدينة، أخرج من حافظتي الورقـــة التـــي تحمـــل العنوان القديم، والصورة ذات الأبـــيض والأســـود، أشـــياء حافظت عليها على مدى سنوات طويلة بـــدافع مـــن مـــودة وصداقة عابرة، لم أتصور إنني سوف أسعى وراءها يومـــا ما، استدار الزمن وحدث المستحيل ولم يعد قـــدومي لهـــذه المدينة نوعا من الهذيان أو الجنون، هل يمكن أن أعثر هنـــا على "السامري الطيب " الذي افتقدنه طويلا؟، أســـير إلـــى حافة الساحة، بضع من سيارات الأجرة واقفة في الانتظـــار، يتطلع السائق الأول إلى الورقة دون أن يكون قادرا على حل طلاسمها، كان شابا نحيف الوجه وعلى رأسه طاقية ملونـــة، كلهم فعلوا مثله، تطلعوا إلى الورقة طويلا ثم هزوا رؤوسهم في أسف، هل تغيرت المدينة لهذه الدرجـــة، كيـــف تبـــدلت معالمها في هذا الزمن الوجيز؟، ربما كان علي منذ البداية أن أتبع نصيحة فتاة الفندق وابحث عن سائق عجـــوز، وقفـــت بعيدا عن الساحة، أتأمل وجوه السائقين قبل أن أحاول إيقاف أي سيارة، يتوقف سائق عجوز أمامي مباشرة كأنـــه كـــان

يعرف أنني أبحث عنه، يقرأ الورقة باهتمام، ولدهشتي الشديدة يهز رأسه في تفهم، يقول في إنجليزية متكسرة:

ــ سآخذك إليه.

أجلس بجانبه وتبدأ السيارة في عدوها على طرقات المدينة، تتوالى الساحات الواسعة، وتظهر بقايا التماثيل التي كانت تحث على النضال، تظلل الشوارع أشجار ضخمة بالغة القدم تظلل الشوارع وتتشابك أغصانها حتى تخفي واجهات البيوت، نخرج من الشوارع الرئيسية إلى أحياء المدينة الأكثر هدوءا، بيوت عتيقة تنتمي لعهود القياصرة، أحاول أن أسأل السائق عن تفاصيل المكان الذي نسعى إليه فيكرر جملته الأولى:" سآخذك إليه "، أغمض عيني وأتركه يأخذني إلى حيث يريد، أحاول أن أتخيل شكل لقائي مع الجنرال العجوز بعد كل هذه السنوات، وهل يمكن أن أحصل على إجابة لكل الأسئلة التي تؤرقني، أم أننا جميعا أسرى زمن مبهم من المتعذر أن نجد فيه أي إجابة صادقة؟، لا تزال السيارة تواصل السير، كم أصبحت بعيدا عن الفندق، وكم نأيت عن عالمي، يتوقف السائق فجأة فأفتح عيني، أجد نفسي وسط أحد أحياء المدينة الفقيرة، ملامح البؤس تبدو واضحة

على كل البيوت التي تحيط بنا، تتصاعد رائحة المجاري من مكان ما، أشعر أننا قد أخطأنا المكان، أتردد في النزول ولكن السائق يهتف في إلحاح: هنا، أضطر للهبوط، أتوقف أمام البيت الذي أشار إليه، أرقام كثيرة مكتوبة على الباب، ولكنها لا تشبه الأرقام الموجودة على الورقة التي أحملها، ينصرف السائق وأتقدم بخطى بطيئة، لا أجد جرسا، أدق على الباب المتسخ بقبضتي، يتجمع بعض من الصبية المتسخين وهم يتطلعون نحوي، يتعالى من الداخل صوت جلبة وعويل ثم يفتح الباب، تظهر امرأة ذات شعر أشعث وبشرة داكنة، وهي تحمل على ذراعيها طفلا باكيا،تهتف متسائلة بكلمات حادة غير مفهومة، يبدأ حشد من الأطفال في التوافد من داخل البيت، يحدقون في بعيون خائفة وهم يلتصقون بها، أتوقف جامدا، لا ادري إن كانت هذه هي الخادمة أم ربة المنزل، كنت أتوقع سيدة روسية وقورة، رأيت صورتها بشكل عابر منذ سنوات، ولكن تأثير وجهها وما بدا من شخصيتها ظل باقيا في ذاكرتي، ولكن التي تقف أمامي لا تعدو أن تكون امرأة بائسة كثيرة النسل، يصرخ طفلها فتصرخ في وجهي، أحاول أن أريها الورقة التي فيها العنوان، أو الصورة القديمة

ولكنها تواصل الصراخ، يتجمع المزيد من الأطفال ويتوقف بعض من المارة فأتراجع، هل هذا هو الحي، هل هذا هو المنزل، لا أحد يجيبني، ينظرون إلى أوراقي القديمة ويهزون رؤوسهم، مرة أخرى يخدعني سائق سيارة الأجرة، وكأنني لم أستفد من تجربتي مع نور الله، تغلق المرأة بابها، أسير فيسير خلفي بعض الأطفال المتسكعين، أقف حائرا في منتصف الشارع، أخاف من أن اركب سيارة أخرى فاخدع من جديد، لا أتصور أن معالم المدينة قد تغيرت إلى هذه الدرجة، هل أعود إلى الفندق ومنه إلى طشقند، رحلة أفضل ما فيها هو الإياب.

يتقدم غلام صغير مني، لابد وأنه كان يترقب حيرتي منذ البداية، يمد لي يده الصغيرة، لم يكن يريد العنوان ولا الصورة، يريدني فقط أن آخذ يده، كانت على وجهه ابتسامة واثقة كأنه وجد الحل لمشكلتي، أنساق سائرا خلفه، ننحدر مع الشارع وندخل آخر أكثر ضيقا، نهبط درجا حجريا متآكلا، ومنه إلى حارة أشبه بالسرداب، أحاول أن أنزع يدي وأتراجع ولكن الابتسامة الواثقة لا نفارق وجه الغلام، يشير إلى مبنى صغير معلق عليها لافتة مكتوب عليها بالعربية

وبخط ركيك،" جمعية الإحسان لتشغيل النساء" نهبط إلى قبو واسع، وينهض رجل عجوز، يضع يده على قلبه وهو يهتف:"الله حافظ"، يشير إلى باب غرفة ضيقة، ورغم العتمة ألمح رجلا جالسا خلف مكتب صغير، يرتدي جلبابا أبيض وعمامة، ولحية كثيفة توشك أن تغطي صدره،لم يكن ظاهرا من وجهه إلا عينين لامعتين يتطلع بهما في دهشة وهو يحدق في:

ــ أهلا يا أخا العرب، أي ريح طيبة ألقت بك إلينا؟.

للمرة الأولى منذ أن جئت إلى المدينة أشعر بسعادة غامرة، أنظر في امتنان إلى الصبي الصغير، يحتضنني الرجل ويقبلني ثلاث قبلات في الهواء قبل أن يدعوني للجلوس، يختفي من داخلي الإحساس بالضياع، أعطي للصبي صغيرة ورقة مالية، يخرج وهو يعدو فرحا، يعرفني الرجل على نفسه، اسمه "فلاح "، من إحدى دول الخليج، ودع حياة الثراء هناك وجاء هنا واهبا نفسه للعمل الخيري، يحمل الحارس إلينا أكوابا من الشاي الساخن المحلى بالسكر، كأنه يصر على إعادتي لجو الحفاوة الذي افتقدته، أسمع طنين ماكينات من الغرفة المجاورة، يقول فلاح موضحا:

ــ إنه مشغل لحياكة الملابس، تعمل فيه النسـوة من فقراء المسلمين، معظمهن أرامل ومطلقات، أن تعطيهن مهنة خير من أن تتصدق عليه.

يتحدث بهدوء الواثق من نفسـه، يتحـدث عـن بقيـة المشاريع الخيرية التي ينوي تنفيذها بأموال المحسـنين مـن العرب، ويشبه نفسه أحيانا بقتيبة بن مسلم وقـد بعـث مـن جديد، عندما اندفع عابرا الأنهر ليفتح هـذه الـبلاد، يؤكـد كلماته:

ــ أهل البلاد هنا كالصفحة البيضاء، خرجوا من سجن الشيوعية الطويل، لا يعرفون شيئا عن الإسلام، إن علينا أن نعلمهم مبادئ الدين الجديد كأنك تعلم الأطفال.

كان يجب أن أتحدث عن نفسي وأن أخرج الورقة ذات العنوان الغامض والصورة القديمة، جنرال باهت يوشـك ان تختفي ملامحه من الصورة، وأن تختفي ذكراه من ذاكرتي، يتأملها الشيخ فلاح حائرا، يهمهم كأنه يخاطب نفسه:

ــ لا بد وأنه شيوعي قديم، ماذا تريد منه؟

لا أدري كيف أجيبه، يصبح الأمر أشبه بنزوة مجنونة، كيف اصف له مدى حاجتي إليه، دون أن أستطيع أن أعطي

سببا محددا، لم يلح الشيخ فلاح، بدا أن تجربته قـد جعلتـه عمليا، أعطى الصورة للرجل الواقف على الباب وقال لـي موضحا ما ينوي القيام به:

ــ عندي هنا أكثر من عشرين امرأة من مختلف أحياء المدينة، ربما تعرفت عليه إحداهن.

محاولة أخيرة لن تضر أحـدا، يواصـل حديثـه عـن المشاريع التي يقوم بها، والصعوبات التي تواجهه، كان لديه إحساس بأنه يقوم بإنقاذ الإسلام في تلك الأرض التي غـرب عنها الإسلام طويلا، يتحدث في حماس كأنه قد تقمص روح الدعاة الأوائل وهم يواجهون القبائل المشركة، يدخل رجـل "أوزبيكي " داكن الوجه، تتقافز لحيته الكثة على صدره هـو أيضا، بدا كأنه قد فوجئ بأن الشيخ "فلاح" ليس وحده، يقف مترددا للحظات، ثم يتوجه إليه، يميـل علـى أذن "فـلاح" ويهمس له بكلمات سريعة، يحمـر وجهـه وتظهـر عليـه علامات الغضب المفاجئ، يهتف به:

ــ ادخلها فورا.

يشير الرجل نحوي متحرجا، ولكن "فلاح " يهتف وقـد نفد صبره:

ـــ دعه يرى بنفسه ماذا نواجه في هذه المدينة اللعينة.

يفقد صوته كل ما فيه من مودة، يصبح ثائرا وساخطا، يتراجع "الأوزبيكي " يوشك على الاصطدام بالجدار، تتـــردد أنفاس ''فلاح'' في غضب وهو عاجز عن تمالكها، لا ينظر إلي ولا يحاول التوضيح، ينفتح باب الغرفـــة وتنـــدفع منـــه امرأة، يبدو واضحا أن "الأوزبيكي" هو الذي دفعها، توشـــك أن تسقط على الأرض ولكنها تتماسك، تنصب قامتها وتزيح شعرها المتهدل إلى الوراء، تلف ذراعيها حـــول صـــدرها، تظهر ملامحها الخالية من الزينـــة، طـــرف انفهـــا شـــديد الاحمرار، وحول عينيها هالتان من السواد، ولكن ذلـــك لـــم يخف جمالها البائس وملامحها الدقيقة، تحدق فينـــا بعينـــين باهتتين خائفتين، يتأملها "فلاح" قليلا ثم يقول من بين أسنانه:

ـــ هل تنصرتي يا امرأة؟ هل دخلت في دين الصليب؟

ترتجف المرأة ثم تندفع في الكلام بالأوزبكيـــة، لاأدري كيف فهمت السؤال، ربما لأنه السؤال الوحيد الـــذي كانـــت تتوقعه، تتحدث بانفعال وتشير بيديها مؤكدة كلماتهـــا، كـــان ''فلاح'' مسلطا عينيه عليها، لا أدري إن كان يتابع كلماتهـــا

أم انفعالات جسدها، توقفت وهي تكاد تشهق بالبكاء، يقــول الرجل الآخر:

ــ إنها تنكر ذلك طبعا، رغم أن هناك شهودا قــد رأوا كل شيء.

يقول "فلاح": ترجم لي كل ما قالته بدقة.

ــ إنها تقول أن ابنها كان مريضا جدا، ولم يكن معهــا نقودا فذهبت به إلى إرسالية النصارى لأنهــا ســمعت مــن جيرانها أن لديهم أطباء مهرة، تقول إنهم قد عــالجوا الولــد وأعطوها أيضا بعض الأدوية.

قال فلاح: وطبعا صبوا في آذانها كل كلام الكفــر، لا أدري ماذا نفعل، لولا العمل الذي نوفره لها لماتت جوعــا، وتجرؤ بعد ذلك على الذهاب للنصارى؟ قل لها ذلك.

قبل أن يتم الرجل ترجمة الكلمات تنخرط المــرأة فــي البكاء، تندفع ناحية "فلاح" ولكنه يبتعد عنها متحرجا ومتجنبا أي ملامسة معها، تتحدث بسرعة وهي تشهق بين كل جملــة وأخرى، يقول الرجل:

ــ تقول أن الأجر ليس كافيا وسط هذا الغلاء، إنها أم وحيدة، ولم تذهب للنصارى إلا مرغمة، إنها تؤكــد أنهــا لا

تنوي الذهاب إليهم مرة أخرى، ولكنها تخشى أن يمرض ابنها مرة أخرى، فماذا تفعل؟

يدير "فلاح " رأسه نحوي ويخاطبني برنة من السخرية مشيرا إليها:

ــ أرأيت، إنها تضمر الكفر في أعماقها، ولا تنوي التوبة، هل رأيت ما نواجهه، هؤلاء المبشرون منتشرون كالجراد في كل المدن، بطول البلاد وعرضها، وأولى الضحايا هم هؤلاء النسوة الفقيرات، إنهم يستغلون سنوات غيبتهم الطويلة ليجعلوهم يرتدون عن دين آبائهم.

أقول في صوت مكتوم: وماذا تنوي أن تفعل بها؟

ــ لم يعد لها رزق عندنا، أموال زكاة المسلمين حرام عليها.

أهمس له: لا تكن قاسيا ياشيخ "فلاح"

ــ ليست القسوة، ولكنه العدل.

ــ بهذه الطريقة سوف تدفعها إلى أحضان المبشرين، لا تجعلهم يأخذونها لقمة سائغة.

يهدأ قليلا، يدير الأمر في رأسه، تنظر إليه المرأة في رجاء بينما يبدو الرجل الآخر متحفزا، يقول فلاح وهو يغالب ترددا كبيرا في داخله:

ـ ألا ترى كم هي مثيرة للفتنة، كلا، لا يجب علي أن أبقيها.

تكف المرأة عن البكاء وتقول كلمات سريعة محددة وهي تشير نحوي، يحدق الرجل مستغربا، وتطلعنا نحوه في استفهام، قال:

ـ تقول إنها تعرف الرجل صاحب الصورة.

أهتف في سرعة: أين هو؟ دعها تخبرنا عن العنوان.

تتحدث المرأة ويترجم الرجل: تريد وعدا بأن نبقيها في عملها.

يقول "فلاح ": إنها تساومنا.

أنظر إليه في رجاء، أحس بإرهاق شديد من مدى بذاءة المشهد الذي يدور أمامي، يقول هو مستسلما:

ـ إن الله غفور رحيم، دعها تقودنا إليه.

نهبط جميعا إلى الزقاق الضيق، تسير هي في المقدمة يرافقها الرجل، بينما أسير أنا وفلاح خلفهما، ألمح عينيه

وهما مسلطتان على ساقيها البيضاوين، نصعد إلـــى شـــارع أوسع قليلا، تزداد الرائحة ثقلا وتصبح البيوت أكثـــر بؤســـا وقربا، تتطلع إلينا النسوة من النوافذ الضيقة، يقمـــن بنشـــر الملابس المبللة وملاءات الأسرة والشراشـــف علـــى حبـــال بعرض الشارع، يتناوبن جذب الحبال فيما بينهن وهن يتبادلن الأحاديث، يهمي علينا رذاذ نـــاعم لـــه رائحـــة الصـــابون الرخيص، يتوقف بعض الرجال لتحية الشيخ "فلاح"، بينمـــا تتبادل المرأة مع نساء النوافذ كلمات سريعة، يتحـــدثن بـــلا ريب عن بحثي الخائب، ندخل أكثر من شارع جانبي وتختفي السماء من فوقنا تماما يحل بدلا منها حبـــال متتابعـــة مـــن الغسيل المبلل، نتوقف أمام بيت صغير تحيط به حديقة وسور واطئ، تشير إليه قائلة:

ـــ هنا يقيم الجنرال رشيدوف.

أنظر حائرا، لم أتصور أن يكون مصيره في هذا البيت البائس، أتذكره في ثيابه الكاكية، وصدره الشامخ الذي تزينه الأوسمة، ورأسه المرتفع وهو يـــدلي بالتعليمـــات باللهجـــة المصرية المتكسرة، من الصعب أن أتصـــوره داخـــل هـــذا المنزل البالغ التواضع، من المؤكد أن هناك خطأ آخر، تماما

مثلما فعل بي سائق التاكسي، أنظر إليها فتهز رأسها مؤكـــدة في صمت، يقول "فلاح" وقد أحس بمدى حيرتي:

ــ سوف نبقى هنا حتى نتأكــد أن هــذا هــو البيــت الصحيح.

يتراجعون قليلا إلى الوراء، أتقدم عبــر حديقــة غيــر مشذبة، تتسلق نباتاتها البرية فوق آجر المنزل العاري، كـــأن سكانه عاجزون عن ردها، اصعد ثلاث درجات خشبية، أدق الباب في تردد، أسمع صوت شهقة في الداخل ثم يفتح الباب في سرعة غير متوقعة، كأنهم كانوا ينتظرون هذه الطرقات، تظهر سيدة عجوز شعرها ناصع البياض، تنظر إلي لوهلة ثم تبدو عليها خيبة الأمل، كأنها كانت تتوقع شيئا آخــر غيــر وجهي، أتعرف عليها على الفور، رغم ان الصورة التي كنت قد رأيتها فيها كانت بالغة القدم، ولكنها تظل تتأمل ملامحي، تتخلى عن خيبة أملها وتهتف بي:

ــ أنت من مصر، أليس كذلك؟

أقول في لهفة:

ــ صديق للجنرال "رشيدوف".

تقبل المرأة علي فجأة تأخذني في أحضانها، أشم رائحة عرقها وعطرها الواهن، تبدأ فجأة في البكاء بحرقـة، لـيس بكاء الوحشة والتذكر،ولكنه حـزن غـامر يجعـل جسـدها العجوز يهتز بين ذراعي في تشنجات متواصلة، أقول لها:

ـ هدئي نفسك ياسيدتي، تمالكي أرجوك.

تبعد نفسها فأرى وجهها المحمر مكسوا بالدموع، تتطلع باحثة في عن كائن آخر، يحمل خلاصا لم يجئ بعد، نظـل عاجزين عن الكلام، كأننا نبحث عن لغة يمكن أن نتفاهم بها، تقودني إلى داخل المنزل وتغلق الباب فتسود العتمة ويعبـق الجو برائحة الغبار، يبدو البيت وكأن نوافذه لم تفـتح ولـم تجرؤ الشمس على دخوله منذ أمد بعيد، أثاث قـديم حائـل اللون، وزهور جافة وبقايا شموع في كل ركن، صلوات لـم يستجب لها، إطارات صور قديمة ألمح فـي واحـدة منهـا الجنرال وهو يقف مزهوا تحت ظل الأهرامات، زمن ضائع وذكرى باهتة، عنكبوت ينسج خيوطه في أحد الأركان، حزن مقيم معتق، أخاف أن أتوجه بالسؤال عن الجنـرال، يبـدو المنزل خارجا من تجربة قاسية، هل رحل الرجـل وتركهـا لوحدته، سمع صوتا قادما من الداخل، يظهر الجنـرال، لـم

يركض نحوي ولم يأخذني في أحضانه، يظل يحدق في بوجه جامد، أحدق فيه مذهولا، كنت قد تعودت على قامته المنتصبة وصدره المنفوخ بالأوسمة، أتناول يده، أحس بأصابعه الباردة ترتعد في كفي، هل أخطأت عندما ظهرت أمامه فجأة هكذا، شبح قادم من ماض بعيد لا يريد أحد أن يستعيده، يجلس على أحد المقاعد ويشير لي أخيرا أن أجلس على مقعد يجاوره، وتجلس هي أيضا بجانبي، نلتصق ثلاثتنا في حيز ضيق وسط خلاء البيت، إحساسي بالغربة وإحساسهم بالبؤس يلتصقان معا، ونبدأ في البحث عن بعض الكلمات الحميمة التي يمكن أن تخفف عنا، ليال القاهرة ورفاق السلاح ووجه أبي، الغارات المفاجئة والقبور الضائعة وسط الرمال، أتحدث عن تاريخنا الصغير، عن أبي بوجه خاص أشياء حميمة وبالغة الخصوصية لا أستطيع ان أتحدث عنها إلا مع هذا الجنرال العجوز، عن تلك اللحظات التي تجمعت فيها مصائر الغرباء وأحلامهم الغريبة، وجه الجنرال رشيدوف يحدق في بجمود، يتأملني مخفيا كل ما يدور في داخله من انفعالات، هل كان يتذكر أبي من خلال وجهي، أم أن هذه الملامح قد تداخلت في ذاكرته عندما صدرت الأوامر

برحيله عن القاهرة، كانت خصلات شعره الفضـــي مســـدلة على جانب من وجهه، لم يبال بقصها منذ زمن، وعيناه فقدتا لونهما، أصبحتا باهتتين كأنها لا ترياني، كل ما فعله هو أنه ظل ممسكا بيدي، يضغط عليها كل مـــدة كأنــــه يحـــاول أن يستعيد وجودي المادي، يتذكر الشاب الصغير الحائر الـــذي كان يلجأ إلى بيته المنعزل كلما ضاقت به الســبل، أتحـــدث كثيرا دون استجابة منهما، جسدان بلاروح، جف منهما مـــاء الحياة، يستمعان إلي في شرود، ويومئان في آلية الموتى، كل ما أقوله من كلمات وما أحمله من ذكريات لم تعد لها قيمـــة، ولا تثير أي انفعال، كل الأسئلة التي أحملها لا جواب لهـــا، كأن الرمل الساخن قد محا من ذاكرته كل الأســـرار التـــي يحفظها عن أبي، أضيق بهذا الذهول الذي يحيط بنا، أفكـــر في إنهاء الزيارة والانصراف، ربما إلى وقت آخـــر، لعـــل هناك إجابة ما، ولكن حق الصداقة القديمة تحـــتم علـــي ألا أتركهما وأنا أشعر بنذر الفاجعة، من العبث أيضا أن أنتـــزع نفسي من هذا الالتصاق الحميم، هو يمسك بكفي وهي تلتصق بكتفي، أقول:

ـ ماذا حدث؟ أعرف أنكما لا تضيقان بوجودي، كما أنني أيضا في حاجة للتواجد بينكما، ولكن هناك خطب ما، أحس بوجوده في ذلك البيت المعتم، وفي تلك النظرات الساهمة الحزينة التي تتأملانني بها، ماذا حدث؟

تنظر المرأة إليه كأنه تستأذنه في أن تفعل شيئا تخفف به عن أحزانها، يغمض عينيه مستسلما، تنهض وتسير نحو مدفأة قديمة، تتناول من فوقها صورة داخل إطار من الفضة، تناولني إياه، أرى صبية ضاحكة، جدائل شعرها الفاحم معقوصة خلف رأسها كنجوم الثلاثينات، وعيناها ملونتان وواسعتان ومليئتان بالشقاوة والمرح، تضم شفتيها الصغيرتين كأنها تعطي المصور قبلة طفلة عابثة، سعيدة ولا مبالية، تقول:

ـ هذه "ناديا" الصغيرة، ابنتنا التي لم ترها، ولم نعد نحن نراها أيضا.

تعرفت على مولدها بغموض من خلال الرسائل القليلة التي تبادلها معي، لم أتخيل وجود هذا الوجه المليء المشرق كالشمس وسط هذا البيت المعتم، يتخلى الجنرال عن صمته ليقول:

ـ إنها المكافأة الوحيدة التي تلقيتها من السوفيت لقاء خدمتي في الشرق، قام واحد من أكبر أخصائيهم بإجراء جراحة لزوجتي حتى تصبح قادرة على الإنجاب، وجاءت لنا "ناديا" بعد سنوات من الانتظار.

أتساءل في بلاهة: أين ذهبت، هل تزوجت؟

تمتلئ عينا المرأة بالدموع بينما يظل وجه الجنرال جامدا، بدا كأن عينيه الباهتتين قد استنفدتا كل ما فيهما من دموع، يقول:

ـ أخذتها منا "سمرقند"، لم تعد مدينتا الطيبة الهادئة، ولكنها تحولت إلى غابة لا نعرف عنها شيئا، ضاعت ابنتنا في أحراش هذه الغابة.

ـ ضلت طريقها.

قالت الأم: تركت المنزل والمدرسة، وقبل ذلك كله تركتنا.

تحتقن بالدموع فتتوقف عن الكلام، يقول الجنرال مكملا حديثها:

ـ من المخجل أن نقول ذلك، ولكنها بالفعل قد فرت من المنزل لتعيش مع عصبة من الأوغاد يتحكمون في ليل هذه

المدينة، كانت فتاة رقيقة وبسيطة ولكنهم أداروا عقلها وانتزعوها من بيننا.

أقول: هل تعرفان أين هي؟

تتغلب الأم على دموعها وتقول:

ـ رآها البعض بشكل عابر في حي الملاهي بالمدينة الروسية، وقد حاولت الذهاب إلى هناك، ولكنني امرأة عجوز، جعلوني أدور حول نفسي دون أن أقابلها أو حتى أراها ولو على سبيل المصادفة.

ـ هل فعلت ذلك بإرادتها هل اختارت أن تهجر أهلها؟

ـ تعرفت على شاب عاطل، لم نكن راضيين عن هذه العلاقة، لم نكن نعرف عنه أي شيء، رفضنا أن يدخل بيتنا وكانت النتيجة أنه أخذها منا.

بلع الأب ريقه، وبدأ يستجمع شجاعته ثم قال:

ـ إننا نموت كل يوم ونحن نتخيل أنها قد أدمنت المخدرات أو احترفت الدعارة، إننا نرثي لها ونرثي لأنفسنا وكل ما نتمناه أن تعود وأن تدق الباب علينا مرة أخرى.

ـ وماذا عن الشرطة؟

ــ الشرطة متواطئة، مرتباتهم من عالم الليل أضعاف الحكومة، لن يساعدنا أحد منهم.

كان الجنرال عاجزا واهن القوى، و"سمرقند" مثل كل المدن الكبرى لاترحم العجائز، أتأمل صورة الفتاة مرة أخرى، أحاول لأن أتخيل ماذا فعلت حياة الليل بهذا الوجه النضر،أقول لهما دون أن أدري لماذا أفعل ذلك:

ــ هل لديكما صورة أخرى تستطيعان الاستغناء عنها.

يتطلعان إلي في دهشة، يتأملني هو أيضا لعله كان يحاول أن يرى في ملامح أبي، الجندي القديم الذي عمل معه ذات يوم، أبادله أنا أيضا النظرات في دهشة، لم يكن لدي الوقت ولا القدرة على فعل شيئا لهما، ولكن كان من غير الممكن أن أستمع لهذه الكلمات دون أي رد فعل، كان حزنهما أقسى من يمكن تجاهله، يشرق وجه الأم وهي تنهض مسرعة، تخرج من إحدى الأدراج صورة غير ملونه وهي تهتف :

ــ تباركت أيها الغريب العابر.

يطل وجه "ناديا" من الصورة وجدائلها قد أصبحت أكثر طولا وابتسامتها أكثر عذوبة، وجه لا يوحي بالمصير الذي

آل إليه، أضع الصورة في جيبي، ذكرى مريرة لهذا اللقـــاء المليء بالأسى، تقول المرأة وقد أشرق الأمل في قلبها:

ــ هل ستبحث عنها حقــا، هــل تســتطيع أن تقنعهــا بالعودة؟.

يرفع الجنرال إلي وجها مليئا بالأمل الخائــب، تقــول المرأة في توسل:

ــ لقد حدثناها عن مصر كثيرا، من المؤكد أنك ســوف تثير اهتمامها ويمكن أن تستمع إليك، قل لها إننا نغفر لها كل شيء.

كانا قد أخذا مني وعدا لم أكن أدري إن كنت أســتطيع الوفاء به أم لا، قبل أن أخرج من الباب ألقي نظرة على وجه الجنرال العاجز، يحاول مرة أخرى أن يستعيد قناعه الجامد، ولكنني كنت واثقا من أنهما سوف يذرفان الكثير من الدموع بمجرد أن أدير ظهري لهما.

في الخارج كان ضوء النهار مازال موجودا، ولكننـــي أسير مغمض العينين،لا أستطيع أن أرى، لا أريــد أن أرى، اسمع صوت "فلاح" من خلفي وهو يهتف:

ــ ماذا حدث لك، لماذا تبكي هكذا؟

ـ١٠ـ

أتأمل خيط البخار المتصاعد من فنجان الشـاي حتـى يتلاشى، لا ألمس الطعام، كل شيء صـامت وبـارد، أنـا الزبون الوحيد داخل المطعم الموحش، تضع الفتاة إفطارهـا التقليدي ثم تختفي عن عيني، الموائد خالية ولا يبدو أن هناك زبائن سوف يجيئون، المدينة نائمة، وطيورها صامتة، أحدق من خلال الزجاج فأرى الضباب وهو يحيط بكـل معالمهـا ويعزلها، يذكرني أنني غريب عنها، كأن هذا الضباب هـو أنفاسي المرتجفة، رؤى من المخاوف التي لازمتني طـوال ليل الأمس، في هذا الوقت كنت في أمس الحاجة إلى "نـور الله"، كانت سيقتحم بعفويته اليائسة هذا التيه ليجد طريقا، كان بعيدا، وربما لن يعاود الاتصال بي، أنا وحدي الذي عليه أن يقرر أن يقوم بمغامرة حمقاء في مدينة غريبة، أخرج صورة "ناديا" من جيبي، يتداخل الظل والضوء في ملامحها، لم تكن طفلة سعيدة ولاهية كما اعتقدت، كانت هناك مشاعر الوحدة كامنة في كل الظلال التي تحيط بها، طفلة متـأخرة لأبـوين عجوزين، في عينيها حزن لا يتناسب مع أيامها المبكرة، أي تجارب مرت بها حتى تخلف ورائها هذه النظرة المنكسرة؟

ــ تترك الطعام حتى يبرد وتكتفي بتأمل صورة قديمة، هل أنت عاشق؟

يطل وجه "طيف" مثل صباح رائق، ابتسامة صغيرة، وعينان متألقتان كالزمرد، كلمات أليفة كنت في أمس الحاجة إليها، تمد يدها وتتناول الصورة من بين أصابعي، تتأملها قليلا ثم تعيدها إلي، تستند بيديها إلى المنضدة وهي تقول مبتسمة:

ــ إنها اصغر من أن تكون حبيبة، وأكبر من أن تكون ابنه، من هي؟

تجلس على المقعد الذي أمامي كأنها تتوقع حكاية طويلة، تتسرب مودتها المفاجئة إلى أعماقي، تواصل النظر إلى عيني فأستعيد بعضا من الدفء والمؤانسة، أقول:

ــ إنها فتاة ضائعة في هذه المدينة وأريد أن أعرف مكانها؟

تقول: يا إلهي، أنت لا تتغير، مازلت تبحث عن العناوين الغامضة.

ــ هذه العنوان ليس غامضا لهذه الدرجة، إنها في مكان ما وسط المدينة الروسية.

ــ ياله مــن مكــان، مهربــون وقــوادون ومــدمنون ومقامرون وعاهرات وقتلة محترفون، ماذا يتوقــع غريــب مثلك أن يفعل في مثل هذا المكان؟

ــ هذه الفتاة ابنة صديق قديم وهي موجودة في مكان ما وسط هذه المدينة المظلمة وقد وعدته أن أعثر عليها.

تحدق في كأنني كائن غريب حان موعــد انقراضــه، تقول:

ــ هل أنت من فتيان الكشافة أو شيء من هذا القبيــل، هل جئت من مصر لتنقذ فتاة من الحي الروســي، أنــت لا تعرف ماذا ينتظرك هناك؟

لا تغضبني سخريتها، كانت تشاركني همومي، لم أعــد مجرد زبون عابر، ولكن كائن يستحق الخوف عليه والقلــق من أجله، أنظر إليها، بدا كأن هذا الحوار قد اختصر أيامــا طويلة من التباعد، أقول لها:

ــ بدلا من السخرية مني، والخوف على غريب مثلــي، لماذا لا تأتين معي؟

تهتف في استنكار: ماذا؟

أخرج حافظة نقودي، أخرج ورقة من فئة المائة دولار، تلك الورقة السحرية اللعينة، توشك على النهــوض ولكنـــي امسك يدها حتى أبقيها جالسة، أقول:

ــ يمكنك أن تعتبريني فتى كشافة أحمــق فـــي مهمـــة إنسانية، ولكنه في أمس الحاجة لمن يرشده ويترجم له وينقذه إذا لزم الأمر.

رغم نبرة الرجاء التي حاولت أن ألون بها صـــوتي إلا أنها تنهض واقفة وهي تقول:

ــ أنا لا أذهب إلى هذه الأماكن ياسيدي.

تبتعد عني ويعود الصمت وتعود البرودة إلى المكـــان، أسحب نقودي وأنهض تاركا طعامي دون أن يمـــس، تبـــدأ أنفاس الضباب في الذوبان، يتضح وجه المدينة تحت أشـــعة الشمس البازغة، تستعيد ألوانها من خلف مسحة الرماد، أسير دون هدف، تختلط في ذهني شذرات من الأفكار، فكـــرت أن اذهب للاستعانة بالشيخ "فلاح"، ولكن هل كان يمكن أن يكون رفيقا لي في مثل هذا المكان، لم أكن أريد أن أتسبب في أي فضيحة للجنرال بين جدران مدينته، أتوقـــف فـــي ســـاحة" الريجستان "، أتأمل جمال الأبنية، عتقها المتـــرب، شـــجنها

الصامت، جلالها الآفل، أقرأ الآيات وأبيات الشعر المنقوشة على الجدران وعلى أقواس الأروقة، لعل إيقاعها الخفي يعيد بعضا من الهدوء إلى نفسي، عجوز تقوم بكنس الأرض من تحت قدمي، تنظر نحوي بحنان كأنني ابن ضائع، أتأمل سيارات الأجرة الواقفة في أطراف الساحة، هل آخذ واحدة منها وأعود إلى مقام الإمام البخاري، ربما أنضم إلى جموع المتوافدين إلى نور الله وأسأله المشورة، يتلكأ شاب أمامي، يحدق في بعيون شرهة ويسألني في إنجليزية ركيكة إن كنت أريد أن أغير الدولارات، يلوح لي برزمة ضخمة من أوراق العملة المحلية،أهز رأسي رافضا، لا ينصرف، يجلس بالقرب مني وهو يواصل التحديق في بغيظ مكتوم، اكتشف أنني قد أصبحت خائفا من مبارحة مكاني، خائفا من مواجهة "سمرقند"، قطعت وعدا لم أعد قادرا على الوفاء به، يتوقف رجل عجوز أمامي، يحمل صندوقا مكسوا بقماش من المخمل، أحمر ومترب، كان مليئا بالأوسمة والنياشين القديمة، صلبان وأوراق غار ونجوم وسيوف متداخلة، فضة عتيقة داكنة ذهب مصفر زائف، ونحاس ضارب للخضرة، زمن القياصرة والسوفييت معا في صندوق واحد، بطولة بلا

جلال، ومفاخر علمية آفلة، بقايا مجد عتيق، حائل الألوان،مطموس المعالم، يقول الرجل العجوز متوسلا:

ـ بحق الله إنها حقيقية، أخذت كلها من القصور والمتاحف، ومن فوق صدور الموتى في ميادين القتال، إنها إمبراطورية منهارة حقا، ولكن تاريخها هنا مختزل وجامد، الخلود لا يفقد أهميته أبدا ياسيدي، كل لون كناية عن معركة، وكل خط هو رسم انتصار، انظر إلى هذا الوسام، أنه يخصني شخصيا، ظفرت به في أعقاب معركة ستالنجراد، كنت هناك، دفنت الذين ماتوا، وأنهكني الجوع مع الذين حوصروا،ولكن لم يكن هناك وقت للبكاء، ففي النهاية حتى الانتصار كان قبضا من الهشيم ياسيدي.

أتأمل وجهه العجوز، هل يمكن أن يكون مخادعا، تذكرت عشرات الموتى الذين لم يظفروا بأي وسام، الذين طمرت الرمال قبورهم، بينما يبقي الأوغاد الذين يحملون كل الرايات، يرفع وجهه وقد بدت فيهما لمعة من الشجن:

ـ دعك من كل هذه الأوسمة اشتر هذا الذي يخصني، خلصني منها لعل كوابيس هذه الحرب التي تغادرني، لعلك تنقذني من ذاكرتي.

يتركه لي دامع العينين، يطوي النقود دون أن يعـدها، كان عليه أن يكون بارد القلب كدأب الباعة، لا يبكي لمجرد الذكرى، ولا يتأسى على ما ضاع، أعود إلى الفندق، أغلق باب حجرتي على نفسي، تطالعني من النافذة قبة "بيبي خاتون"، أجلس ساهما، عاجزا عن النوم والحركة، تلك النصيحة الزائفة ملأتني بالتردد، ولكن كان علي أن أستجمع قواي وأقوم بالعمل، عندما يحل الظلام سوف أذهب وحدي إلى هذا الحي الروسي وليكن ما يكون، سأتبع النصيحة التقليدية التي تقال دوما عند الذهاب إلى مثل هذه الأماكن، لا تأخذ معك الكثير من المال حتى لا تنهب، وخذ معك القليل منه حتى لا تقتل، كان الجنرال رشيدوف يمتلك علي حق القيام من أجله بهذه المخاطرة.

لا أعرف كم مر من الوقت، ولكن الظلام قد بدا يحل أخيرا،اسمع طرقا على الباب، لعله "نورالله" قد جاء في وقته المناسب، حصلت أخيرا علي شريك، هذا عالمه ولكن من المؤكد أنه سيجيد التصرف خير مني، أنهض بسرعة وأفتح الباب، أجدها واقفة أمامي، يبرز وجهها مثل طيف حقيقي من

خلال العتمة، أنظر إليها مشدوها، أتراجع عن البـــاب بينمـــا تدخل هي خافضة الرأس، خجولة ومترددة، تقول:

ــ حسبت أنك تريد من يرافقك إلى الحي الروسي؟

أظل واقفا مشدوها، لم ترفضني إذن، كانت فقــط فـــي حاجة إلى بعض الوقت حتى تحسم أمرها، ابتلـــع دهشـــتي وأقول في سرعة:

ـــ بالتأكيد، لن أجد رفيقا أفضل منك.

أسرع إلى الحمام حتى أغير ملابسي، أرى وجهي فـــي المرآه، لم تغادره آثار المباغتة بعد، الجميع هنا يفاجئونك بما لا تتوقع، أحلق ذقني بسرعة وأنثر عليها بضع قطرات مـــن العطر، أعود إليها فتقف مستعدة للانصـــراف، لا تريـــد أن تطيل البقاء معي بمفردها، لا أصدق أنني امتلكت هذه اللحظة ــ لحظة الاقتراب منها إلى هذا الحد ــ وأنها تفلت مني بهذه السرعة، أقول لها:

ــ ألا تلتقطين أنفاسك قليلا، ألا تشربين شيئا؟

تقول في قلق: المرأة الروسية، مراقبة الطوابـــق، إنهـــا تجلس متحفزة في الخارج ولا أريدها أن تتصور أشـــياء لا وجود لها، إنها سيئة النية بما يكفي.

نخرج معا من الغرفة، نسير معا عبر الطرقة المعتمة، معظم المصابيح مطفأة توفيرا للوقود، تقف المرأة الروسية خلف المنضدة وقد وضعت يدها في وسطها، متهيئة للشجار، نسرع بالدخول للمصعد، أنظر محرجا لطيف التي ترمقني من تحت أهدابها وهي تقول:

ـ يبدو من شكلها أنها قد عرضت نفسها عليك، هل تهورت وقبلت العرض، إنه محترفة ولا تدع أحد من النزلاء، يسمونها السيدة "عرق " لأن رائحة عرقها فوق كل ملاءات الأسرة.

في صوتها ضغينة خفية، ولكن هل هناك لمحة من الغيرة؟ أتأمل وجهها ونحن نعبر باحة الفندق، وجهها لايحمل أي زينة، يشع منه ألق من مكان ما داخل روحها، شعرها مرفوع فوق رأسها، يترك الفرصة لبروز جبهتها العريضة وعينيها الواسعتين، نفرتيتي بلا سمرة، قادمة من سهوب التركمان، تسير بجانبي وقد اكتسب جسدها الثقة وبرز صدرها للأمام، نخرج إلى ليل "سمرقند"، ترفع إصبعها في إشارة آمرة فتتوقف إحدى سيارات الأجرة، تقول ونحن نجلس متجاورين في المقعد الخلفي:

ـــ لا تستجب لأول عرض، ولا تصدق أي وعد، هـــذه هي القاعدة في "سمرقند".

أشم رائحة عطرها، خفيف كهبة نسيم، كأنها لم تتعمـــد أن تتعطر، ،إن هذه هي رائحة جسدها على طبيعته، تخترق السيارة شوارع المدينة، أقول:

ـــ لماذا غيرت رأيك بشأن مرافقتي؟

ـــ فلنقل إنني أشفقت عليك من الذهاب وحيدا إلى مثـــل هذه الأماكن، كما أن وجود فتاة بجانبك أقل إثـــارة للشـــبهة، أليس كذلك؟

كانت مختلفة عن الصباح، خلعت لغتها المحايـــدة مـــع "مريول " المطعم واقتربت بعض الشـــيء مـــن طبيعتهـــا، استيقظت في داخلها تلك الأنثى التي تسعى إلى مغامرة ليلية، امرأة كاملة وليست مجرد نادلة في مطعم، تحمل غواية الليل بدلا من أطباق الطعام، تظهر أمامنا الأماكن القديمة وما بها من معالم بصورة ساطعة تحت الضوء، صورة متناقضة مع الشوارع المظلمة التي تحيط بها، ابتعد عنهـــا قلـــيلا حتـــى أستطيع أن أتأمل وجهها، هل تشفق علي حقا، أم أن حاجتها للمال جعلتها تتحمل المخاطرة، تقول في اهتمام مفاجئ:

ــ هل كنت تعرف تلك الفتاة التي تبحث عنها؟

ــ لم أرها إلا من خلال الصورة فقط

ــ إنها صورة باهتة الملامح، في مثل هذه السن تتشابه الفتيات خاصة تحت الزينة الثقيلة وأضواء الليل المعتمة.

ــ ربما يحالفني الحظ وتتطابق الصورة مع الاسم.

تضع يدها على يدي، أحس بها دافئة وأليفة، تقول:

ــ أنت تبحث عن إبرة وسط كومة من القش فلا تحزن إذا لم تتوصل لشيء

بدت رحلتنا الليلية عبر متاهات المدينة مختلفة، مليئة بالمخاطر والوعود، تتراجع المدينة القديمة بسرعة، تبدأ البيوت والأضواء في التغير عندما تدخل السيارة في شارع "ابراموف "، تزدحم الأرصفة بالناس والمحلات المضيئة والبضائع المعروضة، ارتفعت أصوات الموسيقى مختلطة بأبواق السيارات،نهبط من سيارة الأجرة إلى رصيف مزدحم، نمرق عبر تجمعات من الشباب، فتيان في ملابس غريبة وفتيات في ملابس غاية في القصر، بطون مكشوفة وسيقان عارية، بعضهن يغنين أمام أجهزة التلفزيون، تظهر كلمات الأغنية على الشاشة وهن يتابعنها في دقة، الجميع

يصيحون في صخب، الملابس الغريبة والزينة الثقيلة تجعلهم أكبر سنا، أحدق في وجوه الفتيات فيبادلنني التحديق في استغراب، تقول لي "طيف" محذرة:

ــ هذا التحديق المبالغ فيه سوف يوقعك في المتاعب، لا تنس أنك بصحبة فتاة.

ــ كيف أبحث عنها إذن؟

ــ لن يفيدك إلا مجرد مصادفة من القدر، هذا إذا كنت تؤمن به.

ندخل الحانات والمحلات المزدحمة التي تتناثر على طول الشارع، نجوس فيها بشكل عشوائي، كلها مزدحمة ومعتمة ومعبقة بالروائح الخانقة، تتبعني "طيف" في تردد، يحيط بنا ضباب ووجوه زائفة، لا تظهر ملامحها الحقيقية، تطوف بين الجميع ساقيات روسيات ضخام الحجم، تقبل علينا واحدة منهن، منفوشة الشعر ومفتوحة الصدر، ترفع صينية المشروبات إلى أعلى، أعطيها الصورة فتقترب من الضوء حتى تتأملها، تمط شفتيها وتقول بضعه كلمات بالروسية تترجمها لي "طيف"، وجوه الفتيات الصغار دائما متشابهات، نفس الجواب المألوف، تلتفت الساقية نحوي

وتقول في إنجليزية ركيكة:"لماذا تدخل إلى مطعم مثل هــذا ومعك سندوتش صغير" تشير إلى "طيف" وهي تضحك فــي فحش، فتكشف عن أسنانها المتباعــدة، وتغضـــي "طيــف" ببصرها محرجة، نخرج من الحانة، لا أصدق إننـــي أعــود لهواء الليل البارد، تقترب منا فتاة وهي تحمل طاولة خشبية صغيرة عليها العديد من أكياس العوازل الجنسية، نقترب من حانة أخرى، حانة للشواذ، نبتعد مسرعين، تثور مشاجرة في منتصف الطريق، تصرخ الفتيات في فزع، يتــدخل رجــل يرتدي ثيابا سوداء ليفض المشاجرة، قــس شــاب، يجــذبهم جميعا، يقودهم إلى جانب من الطريق، تقول "طيف" :

ــ سوف نذهب إلى "ديسكو الشعلة"، أنه أكبر ديســكو في المنطقة، والجميع يأتون إليه في نهاية السهرة.

لا أتمالك نفسي فأقول لها: يبدو أنك تعرفين المكان جيدا

لا تنزعج من ملاحظتي، تقول في صوت خافت:

ــ يمكنك أن تقول ذلك،كان يمكن أن أكون واحدة مــن هؤلاء الفتيات، ولكني أنقذت روحي في اللحظة الأخيرة.

ننحدر على درج ضيق إلى قبو واســع، لفحــه مــن الرطوبة تختلط فيها روائح التبغ والكحول، صالة تشع مــن

جوانبها الأضواء الملونة الخاطفة، جمــع مــن الراقصــين يتمايلون في منتصف المكان، وفتاة نصف عارية تقف فــوق مكان مرتفع وهي تتمايل، تقود حركة الراقصين، نجلس إلى إحدى المناضد، تقترب منا نادلــة صــغيرة وتوقــد شــمعة موجودة فوقها، انعم بالنظر إلى وجه طيف وضــوء الشــمع تنعكس عليه، أيقونة صغيرة، أتذكر "فايزة التهامي" تلك الفتاة التعيسة التي عرفتها ذات مرة، كانت تعشق رسم الوجوه إلا وجهها،كانت تشعر بالخجل من ملامحها وتتمنى ان تحطــم كل المرايا، الضوء يأتي من الداخل دائما، هكذا كانت تقــول لي دوما، الضوء الخارجي مجرد حليــه، الآن أدرك حقيقــة هذا القول، تقول لي "طيف " فجأة:

ــ من أنت، ولماذا جئت إلى هذه المدينــة، هــل أنــت هارب من شيء؟

أقول لها مازحا:

ــ آلا يأتي إلى هذا المكان إلا الهاربون؟، جئت لرؤيــة صديق، وللبحث عن إجابة لبعض الأسئلة الغامضة.

ــ صدق ظني إذن، أنت هارب من شيء،من نفســك، وربما من زوجتك.

ـــ لست متزوجا، فلنقل أن لدي ما يكفي من التجـــارب السيئة.

تحضر لنا الفتاة أكوابا من البيرة الباردة، تذوب الشمعة أكثر وتبدو عيني "طيف" أكثر تألقا، تتحدث وتزيح خصـــلة من الشعر لا تني تهبط على وجهها، خيط ذهبـــي، تتناولـــه أحيانا وتلفه حول إصبعها، أقول لها:

ـــ وأنت، ألست عاشقة؟ متزوجة؟ لك صديق؟

ـــ القليل من الأصدقاء والكثير من الوحدة، ليـــت أحـــد يشعرني ببعض من هذا الاهتمام الذي تبحث به عـــن هـــذه الفتاة.

ـــ كما قلت لك قبلا، إنه صديق قديم، إنني أحـــاول أن أعيد البهجة إلى بيته.

ـــ الطائر الذي يفر لا يعود، وحتى إذا عاد سوف يكون مهيض الجناح وربما لا يكون نفس الطائر.

كنت أعلم ذلك، كان رهاني الوحيد أن هذا الفضاء الذي هربت إليه بلا أفق، ملوث وخادع، كانت عودتها إلـــى هـــذا البيت كفيلة بدفع الموت قليلا عن أعتاب هذين الشيخين، يبدأ المكان من حولنا في الامتلاء بالبنات والأولاد، كأن كل علب

الليل تصب في هذا القبو، يتناثرون على الموائد المحيطة بنا، تتعالى الضحكات والصيحات، لا نعـود نسـمع بعضـنا إلا بصعوبة، تنتقل "طيف " وتجلس بجانبي، يلامس كتفها كتفي، تملأ رائحة عطرها أنفي، تقول:

ــ تأمل الجميع، أبرياء وقوادون ومحترفات، اللعبة تبدأ هنا من بعد منتصف الليل وحتى الصباح.

أقول في خوف: هل تعتقدين أن تلك الفتاة "ناديـا" قـد أصبحت محترفة؟.

ــ هذا يتوقف على من أقنعها بمغادرة منزل أبويها.

يزدحم المكان أكثر، تتقافز عيني مع كل فتـاة جديـدة تدخل المكان، يخيل إلي أن كل ما في "سمرقند" من فتيات قد أصبحن في هذا المكان، جميلات رغم زينتهن الثقيلة وثيابهن الغريبة، أترقب الفتاة التي أنتظرها،مع كـل وجـه يشـبهها أوشك أن أقفز من مكاني، ولكنها لا تظهر، تهدأ الموسـيقى ولا يبق على الساحة إلا القليل من الراقصين، تقول "طيف " :

ــ هيا، فلنرقص معا، ستظهر هذه الفتاة عندما تظهـر، فلنحاول الاستمتاع بهذه اللحظة.

أقول لها: لا أجيد الرقص.

تقول ضاحكة: ومن الذي يجيده، كل واحـد يريـد أن يكون مع الآخر وسط الموسيقى، هيا لا تكن جادا إلى هـذا الحد المحزن.

تريح يدها على كتفي، واضع يـدي علـى خصـرها ونتحرك ببطء، تقترب مني قليلا فأحس بدفء جسدها، تهـدأ الموسيقى كأنها تتيح الفرصة لجسدينا حتى يتعارفـا، ربمـا كانت تعرف أنني سوف أعود من بحثي خائبـا وأرادت أن تخفف عني، كل اللحظات آخذة في الـذوبان، ولـو أننـي أعطيتها نقودا في آخر ليلة كهذه سوف يصيح كـل شـيء مبتذلا، عدنا للمنضدة ونحن نضحك دون سبب،كان مجـرد الحركة والتلامس قد أضفى علينـا مشـاعر مـن الحبـور والسعادة، جولة أخرى من الشراب، وتأمل عـابر للوجـوه الصغيرة، لم أعد أضيق بجو المكان المعبـق بالأدخنـة ولا الموسيقى الصاخبة، تحدثني "طيف " عن نفسها بكلمات قليلة ومبهمة، عن أبيها المسئول الحزبي السابق، الذي كان نافـذا ومسيطرا ولدرجة كانت تشعر أن العالم كله تحت قدميها،، ثم قابلت الفتي الذي أرادت أن تتزوجه بكل ما في قلبهـا مـن

شغف، تواصل الحديث وعيناها متوهجتان بالـــدموع:" هـــل تعرف ما هو الخوف، أنه يقتل أفضل ما في نفسك، تعـــيش طوال عمرك آمنا، ثم تكتشف أنه أمان زائف، وان الخـــوف كامن مثل أشباح لا تهدأ في الظلام أو في الضوء"، لم تطـــق البقاء في نفس المدينة، تقول:

ــ كان هذا يوما فاصلا في حياتي، مازلت أعيشه حتى هذه اللحظة، موعدي مع خطيبي "أغلونوف "، كنا قد قطعنا شوطا طويلا في إجراءات الزواج، لا أعتقد أن أحـــدا فـــي المدينة لم يكن يعرف تاريخ هذا اليوم، أصر "أغلو" على أن أقابله في الخارج بدلا من أن يمر علي ويأخذني من المنزل، ادعى انه مشغول، ذهبت إلى ذلك المكان بجوار النهر الـــذي يشق المدينة، مكاننا المفضل، نهر صناعي تكسوه الأشـــجار وتتدفق النافورات من على ضفتيه كل نصف ساعة، عنـــدما تأخر كثيرا بدأت اشعر بالخوف، وظل الندل يتطلعون نحوي في تساؤل، وتعبت الطيور من طول الحومان فهبطت إلـــى سطح النهر، وبقيت أنا تعبه ووحيدة، وأخيرا جـــاء، جلـــس أمامي وهو مكفهر الوجه، غاص قلبي لدرجة أنني لم أنطـــق حرفا، لم استطع أن ألومه على تأخره، أو أعاتبه على إهماله

لي، قال في صوت باتر: لا نستطيع إتمام هذا الزواج، حدقت فيه ذاهلة، لماذا؟ قال في حدة: أتسألينني؟، أبوك يعرف ذلك خيار مني، الزواج بك يعني الزواج من الموت، كان قاسيا لدرجة أنني لم أشعر بألم كلماته إلا فيما بعد، بعد أن تلاشت الصدمة وبقي نزيف الجرح، كان أبي غائبا، غيابا طويلا دون أن الحظ ذلك، لم يكن موجودا كعادته لينقذني، وتبرعت أمي بإعطائي الجواب، الجميع خائفون من أبي بعد أن كانوا يسعون للتقرب إليه، غضبت عليه الدولة، أصبح مثل طاعون متحرك يمكن أن ينقل عدواه لأي أحد، كنت حمقاء، فقد أبي مناصبه الحزبية ومازلت أعتقد أن الحياة يمكن أن تسير كما هي، تألمت كثيرا يا صديقي، كان يجب أن أغادر المدينة، وأن أترك بيت أبي، بكل ما في من مخاوف، كنت أعتقد أن الحياة قد توقفت، ولكن ها هي تبدأ من جديد.....

يصبح المكان أكثر ازدحاما، ترتفع درجة الحرارة وتعلو ضجة الموسيقى، لم نعد نميز الوجوه عن بعضها البعض، كنا نجلس متلاصقين تقريبا، وكان الكلام حميما، ولكنها قالت:

ــ أريد أن أبقى، ولكن ورائي عمل في الصباح المبكر.

سرنا متلاصقين، أمسكت يدها ونحن نصعد السلم إلى ظهر الأرض، لا أتركها ولا تسحبها هي مني، ليل بارد النسمات، والشارع اصبح أقل ازدحاما، نسير على الرصيف في مهل، ولم أدر إن كانت ستأتي معي إلى غرفتي أم أن هذا هو نهاية الأمر بالنسبة إليها،أسمع فجأة صوت رجل غاضب وهو يصرخ:"ناديا..." أتوقف مرعوبا، لوهلة يخيل لي أن الصوت ينبعث من داخلي، يذكرني بالوعد الذي نسيته، وبالغرض الذي من أجله أتواجد في هذا المكان، كانت هناك فتاة بالفعل تحاول أن تعبر الطريق، تتوقف في منتصف الطريق حين تسمع اسمها، تلتفت ناحية الصوت الذي ينادي عليها، أرى وجهها بوضوح تحت أضواء الليل، لم أكن في حاجة لأخرج الصورة من جيبي لأتأكد أنها هي، هتفت طيف في رهبة دون أن تتمالك نفسها:

ــ يارب السماوات، إنها هي.

نتوقف مذهولين، أحس بيدها في كفي وقد أصبحت باردة، يهبط إلى منتصف الشارع شاب ضخم، يلبس معطفا جلديا يكشف عن ذراعيه، كأنه يريد أن يظهر عضلاته المفتولة، ويترك شعره متهدلا على كتفيه، يتوقف أمامها،

يتحدثان في حدة وكل واحد منهما يلوح في وجـــه الآخـــر، تلتقط "طيف " أنفاسها في صعوبة، أسمعها وهي تتمتم:

ــ إنها تعرف أسوأ ما في هذه المدينة من أشخاص؟

أقول مدهوشا: هل تعرفين هذا الشاب؟

تجذب يدي لتبتعد بي، تقول في همس:

ــ ومن الذي لا يعرفه، أنه "أنـــدريا" الطعـــان، أســـوأ أعضاء المافيا الروسية، لا بد انه هو الذي أغواهـــا، وهـــو الذي يفرض حمايته عليها.

ينهي "الطعان " النقاش ويضع ذراعه حول كتف الفتاة، يرغمها على السير بجانبه،تحاول أن تقاومـــه دون جـــدوى، أقول لطيف:

ــ فلنسر خلفهما، أريد أن أعرف إلى أين يذهبان.

تهمس في خوف حقيقي: الأمر أصبح أخطر ممـــا كنـــا نتصور، من الأفضل أن نتركهما.

ــ أريد فقط أن أعرف أين تقـــيم، أعـــدك أننـــي لـــن أعرضك لأي خطر، سوف نراقبهما من بعيد.

تتبعني "طيف" وهي ترتجف، نعبر الشـــارع خلفهمـــا، والفتاة تحت ذراع "الطعان"، تحت سيطرته تمامـــا، طويلـــة

ونحيفة، مازال جسمها وطريقة سيرها طفولية رغم كل ما ترتديه، ثوبها القصير يكشف عن ساقيين نحيفتين، شعرها طويل، منسدل على ظهرها، فوق جاكت من الجلد الذي ترتديه، واصلا السير في شارع مظلم ممتد، ظلت المناقشة محتدة بينهما، تحاول أن تفلت من تحت ذراعه، يتوقفان أحيانا، ويلوحان لبعضها البعض ثم يواصلان السير، تحاول "طيف " أن تلاحق خطواتي،يدخلان إلى مبني ضخم قديم، مكون من أدوار متعددة مليئة بالنوافذ الصغيرة، أشبه بمباني السجون ولكن بلا أسوار، تهتف "طيف " في توسل:

ــ توقف أرجوك، نحن لا ندري ماذا يوجد في الداخل؟

ــ ربما كان مكانا عاما.

ــ إنه مجمع سكني من أيام السوفييت، ربما كانا يقيمان هنا، وربما كانا فقط يستأجران غرفة لفترة من الوقت.

رغم خوفها نقترب قليلا، المدخل مضيء، امرأة روسية ضخمة تجلس خلف حاجز من القضبان المعدنية، تهتف "طيف ":

ــ ألا تعتقد أن مافعلناه يكفي لليلة واحدة.

اقف حائرا لا أدري ماذا أفعل، هل أدخل، هل أذهب الآن إلى الجنرال العجوز لأخبره بكل ما عرفت، وأن عليه أن يتكفل بالباقي، هل يمكن أن تساعدني الشرطة؟ ولكن كيف أتصرف معهم؟ تواصل "طيف " القول:

ـ صدقني، هذا الشاب خطر جدا، إنه يشارك في كل العمليات القذرة التي تدور في هذه المدينة، المخدرات التي تهرب من أفغانستان، والسلاح الذي يعبر إلى قرقيزيا، وفتيات الدعارة اللواتي يسافرن إلى دبي.

ـ كيف عرفتي كل هذه الأشياء؟

ـ من الفندق الذي أعمل به، أين تعتقد أنه يتم عقد العديد من الصفقات؟

نركب إحدى سيارات الأجرة، نجلس صامتين، لا أدري كيف أتصرف من شدة التوتر الذي أشعر به، أخرج حافظة نقودي وأقدم لها الورقة المالية الخضراء، تقول في همس:

ـ لم آت معك من أجل النقود، أردت فقط أن أساعدك.

أقول في حزم وأنا افتح حقيبة يدها وأدس فيها النقود، تبدو الورقة المالية مقابلا زهيدا لكل ما حدث:

ـــ الاتفاق هو الاتفاق، أنت تستحقين هذه النقــود، كمــا أنني استمتعت بصحبتك كثيرا.

تنظر إلي بعينين لامعتين، كأنه ترجوني ألا افسد هــذه الليلة، لم أكن أنوي ذلك، أقول لها:

ـــ أتمنى أن نخرج معا مرة أخرى

ـــ من أجل أن نكون معا، وليس من أجل البحث عــن فتاة غريبة.

أمسك يدها واضغطها بين أصابعي، تتوقف السيارة أمام باب الفندق، أبتلع ريقي وأنا أقول:

ـــ هل تودين الصعود معي؟

تخفض رأسها، تقول في صوت خافت:

ـــ لم يحن الوقت بعد.

تبتعد السيارة وهي تحملها، في الصالة تجلــس المــرأة الروسية وأمامها زجاجة نصف فارغة، تحدق فــي بعيــون زائغة، تطلق نحوي طوفانا من الشتائم دون أن تتحرك مــن مكانها، أجلس ذاهلا على حافة فراشي، عاجزا عــن النــوم وعن استجماع أفكاري، أتذكر مشهد الفتاة الصــغيرة وهــي تسير داخل مصيدة الليل، على حافــة الســقوط والخطــر،

وكلمات "طيف "الخائفة، ربما كان الجنـرال "رشـيدوف " يعرف كل هذا، وربما كان هو أيضا خائفا وعـاجزا، كـان الأمر أكثر من طاقة أصدقائه القدامى في الجيش، جمـيعهم فقدوا أسنانهم أمام قوى أخرى صاعدة وأكثر شراسة، ولكـن هل يعني هذا أن نتركها جميعا لمصـيرها، وكيـف يمكـن لغريب مثلي أن يواجه قوى هذه المدينة الغريبة؟

يغلبني النوم، استيقظ فـي الصـباح والقبـة الزرقـاء تواجهني في صمت، تشع لونا رماديا كابيا، لا اثر للحمـائم التي كانت تطوف حولها كل صـباح، أهـبط سـريعا إلـى المطعم،أتطلع إلى وجه "طيف " وهي تصب أمـامي كـوب الشاي الساخن، تبدو متحفظة، عندما اكتشف أنـه لـم يبـق غيرنا في المطعم أحاول التحدث إليها،ولكنها تهتف في حزم:

ــ سأذهب معك إلى أي مكان تريده، إلا هذه الأماكن.

تنسحب مبتعدة قبل أن أناقشها، هل أبتعد أنـا أيضـا، أتذكر ضياع "ناديا" و"الطعان " يطويهـا تحـت ذراعـه ويرغمها على السير معه، ربما كانت مرغمة في كل شيء، على الهرب من بيت أبيها، وعلى حياة الليل، وعلى الإقامـة في هذا المبنى الشبيه بالسجن.

ريح باردة تعصف بالمدينة، وسحب تحجب الشمس، كنا في منتصف النهار وكان يجب أن أغادر الفندق، تتابعني عيون "طيف " من خلف زجاج الواجهة في فزع، استوقف إحدى سيارات الأجرة وأطلب من السائق أن يأخذني إلى الحي الروسي، بدت خضرة المدينة داكنة،والحركة واهنة، توقفت بي السيارة أمام ملهى الشعلة مباشرة، كان مغلق الأبواب، معظم الحوانيت كانت مغلقة والأرصفة خالية إلا من بعض العجائز المتسكعين، لا أثر للشباب الغربي الهيئة ولا الموسيقى الصاخبة، كشفه ضوء النهار فبدا شارعا قديما وكالحا، أحاول استعادة مشاهد الأمس، المكان وقفت فيه الفتاة، أسير حتى التقاطع، أدخل الشارع الطويل، استعرض صفوف المباني القيصرية القديمة بلونه الأصفر المترب، أسير بجانب صف جذوع الأشجار العتيقة التي تتشابك أغصانها وتظلل الشارع، أقف أخيرا أمام المبنى الضخم الشبيه بالسجن.

كان اكثر قبحا وضخامة تحت ضوء النهار، مجمع ضخم كأنه عدة بنايات قد تشابكت معا قسرا، نوافذه أشبه بكوات سوداء، معظمها متكسر الزجاج وقد وضع بدلا منها

ألواح من الخشب، تصل بينها أفــاريز مــن الجــص، فــي الأركان تماثيل لرؤوس حيوانات أسطورية فاغرة أفواههــا، تنمو عليها الطحالب، وتنام على الواجهة الرئيسية أغصــان مغبرة من النبات المتسلقة، أدوار عديدة، ومئات النوافذ التي لا توجد بينها واحدة مفتوحة على ضوء النهار، أدور حــول المبنى، لا يوجد له إلا مدخل واحد، المرأة العجوز لا زالــت جالسة خلف الحاجز المعدني، لا أتيقن إن كانت متيقظــة أم نائمة، من العبث أن أدخل المبنى لأبحث عن مكان "تاديــا"، ربما لم تكن تسكن هنا أصلا وأنها غادرت المكان في الليل، كان الأمر عبثيا من البداية، أجلس على مقهى صغير عنــد الناصية المقابلة للمبنى، اشرب أكواب الشاي الصــغيرة دون سكر، أتحمل النظرات الفضولية من الزبائن والجرســونات، واستمع للأغاني العالية، خليط من التركية والعربيــة، بينهــا أغنية لعبد الحليم حافظ كان أبي يعشقها كثيــرا، لا اعــرف كيف جاءت إلى هذا المكان، ربما تعلو أنغامهــا فــي هــذه اللحظة فقط حتى أتذكر أبي، وأتذكر ما أحمله حولــه مــن أسئلة حائرة، تختفي الشمس ويحل ظلام باهــت، لا يظهــر ضوء في أي نافذة، المدخل فقط هو الذي أضــيء، وبــدأت

الحركة تدب فيه، يدخل أناس ويخرج آخـــرون، ولا تظهـــر الفتاة الصغيرة، كان يجب أن أنهض وأنصرف، كـــان مـــن الخطر أن أبقى هنا خاصة بعد أن حل الظلام، ولكني بقيـــت جالسا. منتظرا.

ألمح جسدها النحيل ــ أخيرا ــ وهو ينسل خارجا مـــن المبنى، لا أصدق عيني، إنها تقيم هنا إذن، ولكن هـــل هـــي وحدها أم برفقة هذا "الطعان "؟، تمضي وحيدة، ملتفـــة فـــي الجاكت الجلدي نفسه، تاركة خصلات شعرها الطويل تتطاير مع الهواء، أضع بعض النقود على المنضدة وأسرع بعبـــور الشارع، أسير خلفها وعلى مبعـــدة منهـــا، خطواتهـــا غيـــر منتظمة، قلقة ودائمة التلفت في كل اتجاه، تتوقع أن يباغتهـــا شيء ما، أسرع حتى أصبح خلفها بخطوات قليلة، كيف يمكن أن أبدأ حوارا معها دون أن أزيد من درجة فزعها، تلتفـــت فجأة ويتقابل وجهانا، تدرك أنني ألاحقهـــا، كانـــت عيناهـــا واسعتين، تحتلان معظم وجهها، تختلف عن صورة الطفلـــة التي أحملها معي، كانت هذه امرأة فزعة، تخطت رغما عنها أعتاب الطفولة، ودخلت إلى سراديب النضج المفزعة، تسرع بخطاها مبتعدة ولكنني أهتف رغما عني وبصوت عال:

ـــ "ناديا"...يا "ناديا".

ترتد في فزع تستند إلى أحد الحوائط، تحدق في وأنا أواصل اقترابي منها،تلتقط أنفاسها في صعوبة، تقول من بين أنفاسها اللاهثة كلمات سريعة بالروسية، لا افهم كلماتها، ولا افهم سبب هذا الخوف المبالغ فيه، أقول لها بالإنجليزية:

ـــ أرجو أن تهدئي، لا أريد أن أفزعك، أريد أن أتكلم معك قليلا، هل تفهمين ما أقول؟

حدقت بي، لا أعرف إن كانت قد فهمتني أم لا، لم يهدأ رعبها، تقول في إنجليزية متقطعة:

ـــ من أنت.. وجه غريب...ماذا تريد مني...؟

أحاول أن أوحي لها بالهدوء من خلال طريقتي في الكلام:

ـــ أنا صديق قديم لوالديك، من بلد بعيد، من مصر، هما اللذان طلبا مني البحث عنك والحديث معك.

من الواضح أنها لم تفهم معظم كلماتي، ظلت تحدق في بنفس الدرجة من الرعب والشك، قالت في حذر:

ـــ أنت لست منهم...

لم أعرف عما تتكلم، كانت تحس أنها مطاردة، مستهدفة من قبل أشخاص ما، قلت:

ــ بالتأكيد أنا لست منهم، إنني أعرف والديك حتى من قبل ولادتك، لقد أعطياني صورتك وأنت طفلة.

أضع يدي في جيب معطفي، ولكنها ترتد في فزع، تخرج من فمها صرخة خافتة، أخرج يدي بسرعة، هل حسبت أنني سوف أخرج سلاحا، أقول في ارتباك:

ــ من الواضح أنني قد نسيتها في غرفتي بالفندق.

كنت أتوقع أن تهز كتفها وتمضي مبتعدة، ولكنه تظل واقفة، كأنما قد أدهشتها ربكتي ووجهي الغريب ويدي العزلاء، لم أكن في شراسة المهاجمين الذين كانت تتوقعهم، تقول في حيرة:

ــ هل قلت لي...من أين أنت؟

ــ أقسم أنني غريب عن هنا، أنا من مصر.

تتطلع حولها في حيرة، من الواضح أنها الآن لم تفهم المغزى الحقيقي لهذا الحديث،تقول أخيرا:

ــ هنا خطر، تعال معي.

نسير مرة أخرى عائدين في اتجاه المبنى، أسير خلفهـــا بخطوات قليلة، وتظل هي تواصل الالتفات حولها، نتجه إلي الباب الذي راقبته طويلا، نرتقي الدرج الحجـــري المتآكـــل، نتوقف أمام المرأة الجالسة خلف الحاجز المعدني، أســـتطيع الآن أن أرى ملامحها بوضوح، منتفخة مثل رغيف الخبـــز، وتنبعث منها رائحة العرق والفودكا، تحـــدق فينـــا بعينـــين جاحظتين، تهتف "ناديا" بي:

ـــ إعطها شيئا.

أضع أمامها بضعة أوراق مالية، اكثر قليلا مما ينبغي، ولكني كنت ممتنا أنني استطعت أخيرا دخول هـــذا المبنـــي، تتناول المرأة النقود في صمت وتدسها في صـــدرها، أســـير وراء "ناديا" في ممر طويل معتم لا يضيئه ســـوى مصـــباح وحيد خافت، تتكاثف روائح الطعام والعطور النفاذة والعطن، أوشك على التعثر وأنا اصعد على الدرج المتآكـــل، أتشـــبث بالسياج المعدني البارد، كان مليئـــا بـــالنتوءات الجارحـــة، نواصل صعود الأدوار المتعاقبة، ألتقط أنفاسي في صـــعوبة وهي تواصل الصعود، أكتشف أن المبنى كله يلتـــف حـــول ساحة واسعة مربعة تحيط بها كل الغرف، ندخل إلـــى أحـــد

الممرات، نجوس داخل متاهــة حقيقيــة، أبــواب متلاحقــة ومتشابهة، قريبة من بعضها، كأنها تفتح على غرف كعلــب السردين، تملأ الممر رائحة ثقيلة، هواء متــراكم لا يتغيــر، يزيد من وطأته غرفة دورة المياه المشــتركة التــي كانــت مفتوحة الأبواب في آخر الممر، تفتح "ناديا" أخيرا باب أحد الغرف، تشعل الضوء، أجدني معها داخل غرفــة مزدحمــة وبالغة الضيق، كل ما فيها من أثاث بالغ الصغر، يكفي بالكاد لفرد واحد، سرير ضيق ملتصق بالحــائط، يقابلــه صــوان بضلفة واحدة تغطيها مرآة مكسورة، مشجب في أحد الأركان معلق عليه ثياب لامعة، ونافذة وحيــدة مغطــاة بعــوارض خشبية، لا تترك إلا فتحة صغيرة تطل على الشارع، مصدر وحيد لتيار واهن من الهواء البارد، تكسو الجدران عشــرات من الصور المقطوعة من المجلات الملونة، صور بلا معنى، ربما وضعت لإخفاء عيوب الجدران، تقــف "ناديــا" فــي مواجهتي، تهتف في حدة ولكن بدرجة اقل من الرعب:

ــ والآن، ماذا تريد.. ياغريب؟

ــ أحمل لك رسالة من والديك، إنهما يريدان عودتــك بأية صورة، على أي وضع، ليسا غاضبين منــك، ولكنهمــا

خائفان عليك، يموتان كل ليلة من شدة الرعب والقلق وأنت بعيدة عنهما، عودي فقط للمنزل، دون حساب، ولا معاتبة.

تظل تحدق في وجهي، لم تفهم شيئا من كلماتي، تطلب مني أن أعاود الكلام ببطء، أحس بالعجز أمام تلك اللغة الغريبة التي نتحدث بها سويا، تتحرك في الغرفة كأنها تبحث عن مخرج، ولكن الغرفة ووقفتي ملتصقا بالباب تحد من حركتها، تجلس على طرف السرير الصغير وتنظر إلي بعينين جامدتين:

ـ وماذا عن الديون..الديون الكثيرة..والبيت..البيت الذي سيباع.

استمع إليها مدهوشا، أحاول أن أكون فهما مترابطا من خلال كلماتها المتقطعة، هل الجنرال مفلس إلى هذه الدرجة؟ كان يجب أن أفطن إلى هذا، البيت الخالي، العجز عن القيام بأي فعل، تواصل القول وهي تدير وجهها للناحية الأخرى:

ـ ماذا ستغير عودتي..أنا أمارس الجنس..المخدرات.. ماذا سيتغير لو عدت..

اشعر أن كل ما أقوله من كلمات غير ذي معنى، يبدو أن كلامي حول أبويها لا يثير داخلها أي اهتمام، أو على الأقل الاهتمام الذي توقعته، أقول:

ــ لن تظلي تبيعين جسدك للأبد.

ــ لن يفيد..جسدي سيترهل..يوما سأصبح عجوزا.. عمري كله لن يكفي لسداد الديون..

ــ ماذا ستفعلين إذن، أليست العودة إليهما أفضل؟

تعطيني ظهرها، تنشغل بالتطلع من خلال الفتحة الصغيرة الموجودة في النافذة، لا اعرف إن كانت تراقب شيئا في الشارع، أم أنها فقط تهرب من نظراتي، أسمعها وهي تقول:

ــ لقد حان موعد الصفقة..انتظرت طويلا.

أتذكر "الطعان "، أتذكر كلمات "طيف" بالأمس، أهتف في فزع:

ــ مخدرات..

تقول دون أن تستدير: أنا وسيطة..فقط وسيطة...لا خطر..سأحل مشاكلي دون أن أخطر..

أقول متوسلا:

ـ إذا قلت لك أن أبويك لا يريدان شيئا منك، يريـــدان فقط عودتك.

تستدير، لا يبدو عليها أنها قد فهمــت تحــذيري، أو أن الوقت قد فات، تقول لي بصوت حازم:

ـ لم يبق إلا خطوة واحدة...صــح..خطــأ...مجــرد خطوة..

ـ خطوة واحدة تكفي للتورط، لا أحد يستطيع العــودة من ذلك الطريق.

ـ صفقة.. مجرد صفقة.. قمت بالخدمة المطلوبة..الليلة سآخذ الثمن...بعد ذلك سأعود للبيت.. للمدرسة..سأنسى كل ذلك.

تعاود النظر من النافذة مرة أخرى، أتلو عليها بعضـــا من النصائح الزائفة ولكنها لا تصغي إلي، مشدودة بكليتها لما يحدث في الخارج، في الأسفل، تقول:

ـ لقد جاءوا.. إنهم في الانتظار..لا أريدهم أن يرونـــي مع أي غريب..ابق في المنزل...انصرف بعــد أن أبتعــد.. سأعود..أيام قليلة وأعود..

تتركني وحدي في الغرفة الضيقة الخانقة، هل أعدو خلفها وأمنعها رغما عنها، أم أصدق ما قالته وأتركها لعبتها الخطرة، رائحة الغرفة ثقيلة، مفعمة برائحة زينتها وطعامها، لا تدخلها الشمس، منضدة صغيرة عليها العديد من مساحيق التجميل، بعضها بلا غطاء، كلها من أرخص الأنواع، أمسك الثوب الأحمر اللامع المعلق فوق المشجب، قصير وعاري الكتفيين، تخيلت جسدها الطويل النحيف وهو يدخل فيه، وهو يكشفه ويعرضه تحت أنظار الجميع، محترفة وبريئة لدرجة تثير الأسى، تلفت أبحث عن صور لها، ذكرى قديمة تربط بين هذه الفتاة التي تحدثت إليها، وبين الابنة الضائعة للجنرال، كأنهما كائنان غريبان عن بعضهما،لم أقابل الكائن الأول،ولكن من المؤكد أنه شديد الاختلاف عما رأيته منذ لحظات.

أطل من خلال الفتحة الموجودة في النافذة، الشارع بأضوائه الصفراء، عامل المقهى يكوم المقاعد ويستعد للإغلاق، "ناديا" تعبر الطريق خارجة من المبني، متجهة ــ على ما يبدو ــ إلى سيارة سوداء رابضة عند زاوية الشارع، هل كان هؤلاء الناس الذين مسرعة هبطت من

أجلهم، تقف فجأة متجمدة في منتصف الشارع، تماما كما رأيتها أول مرة، تتحرك السيارة مندفعة نحوها، لا تبدو أنها قادمة فقط للقائها، تفطن هي إلى ذلك، تحاول القفز على الرصيف، ولكن السيارة تتحرف، لا تترك لها فرصة للإفلات، تنقض على جسدها الطويل النحيف، ترفعها الصدمة إلى أعلى، يتطاير شعرها وهي تهوي مرتطمة بالأرض، أصرخ في فزع، أراقب المشهد عاجزا تستدير السيارة وتمرق مسرعة، لا أحد يقدر أو يحاول إيقافها، أحدق مذهولا في الفتاة الملقاة على الأرض، هل كانت نفس الفتاة التي كانت تتحدث معي، التي كنت أبحث عنها؟، كانت ممدة على أرض الشارع،بلا حراك، لا أحد يجرؤ على الاقتراب منها ليرى إن كان فيها بقية من حياة أم لا، أخرج من الغرفة، أعدو عبر الطرقة وآخذ في التقافز فوق الدرج، كم كنت تافها وضعيفا لأنني لم أقدر على منعها، لم أقدر على تقييدها وحملها إلى بيت أبيها.

تلتف دائرة من الناس حول جسدها المسجى، أقترب منها وأنا ألهث، كانت هي "ناديا" على الإسفلت،ساقاها مفتوحتان، وذراعاها مفرودان، وتحت رأسها بقعة من الدم

القاني، عيناها جاحظتان، تحدق في مكان ما بالأعلى، لعلها تحدق في النافذة التي كنت أطل منها عاجزا، أشهق مفجوعا، وتضيع شهقتي وسط تفجع الجميع، تبدأ فتاة صغيرة في البكاء وهي تداري وجهها في ثوب أمها، يتقدم أحد رجال الشرطة، يدور حول الجسد في حلقة مفرغة، ينظر إلينا جميعا فلا يتكلم أحد، حتى أنا، يحضر واحد من الموجودين بضع أوراق من الجرائد، يفردها فوق جثتها، يخفيها عن أبصارنا، لعل درجة الإحساس بالذنب تخف قليلا، اكتشف إنني ما أزال أحمل في يدي ثوبها الأحمر اللامع، يأتي المزيد من رجال الشرطة، يحدقون فينا جميعا في شك، ينظرون إلى وجهي الغريب والمبلل بالدموع، أتراجع مبتعدا.

أهرع إلى ظلمة الشوارع، لا أريد أن أرى وجوها ولا أريد لأحد أن يرى وجهي، أتخبط في الطرقات الضيقة دون أن أعرف إلى أين أتجه،أضع ثوبها على أنفي، أشم رائحة عطرها وبراءتها الضائعة، ياالله، كم تبدو "سمرقند" مدينة قاسية القلب، حتى الظلمة الحالكة لا تستطيع أن تخفي ما فيها من خطايا، على مبعدة تبدو القباب القديمة والمآذن المعتمة والجدران التي تقاوم السقوط، حلم غائم، أدخل كابوس المدينة

قبل أن أرى يقظتها، أتوقف حائرا، أستند إلى جــدار قــديم زاخر بالنقوش وآخذ في البكاء.

تحملني إحدى سيارات الأجرة من إلى الفندق، أجلــس في غرفتي صامتا وكسير الروح، لا أســتطيع أن أهــدأ أو ألمس الفراش، يبدأ ضوء الفجر في التســلل إلــى الســماء المظلمة، وتظهر معالم القبة الزرقاء والحمائم التــي تغفــو عليها، أغمض عيني أخيرا، ولكنني أستيقظ مفزوعــا حــين اسمع طرقا على الباب، لعلها خادمة تنظيف الغرف، أتمنــى أن تكف عن الطرق وتنصرف، ولكن الطرق يتواصل، أفتح الباب، أجد "طيف " واقفة أمامي، ترتدي ثياب عملهــا فــي المطعم، تحدق في بوجه شاحب، تدخل مسرعة وتلقي بنفسها على صدري، تهتف في حرقة:

ــ حمدا لله أنك مازلت حيا.

أحتضنها، أتشبث بدفء الحياة الذي ينبعث من جسدها، كنا نرتعد سويا، تقول:

ــ لقد أدركت أنك ذهبت بالأمس وحيدا إلى هذا المكان، وعندما تأخرت عن الإفطار قلقت عليك، خشيت أن تكون قد أوقعت نفسك في المتاعب.

تفاجئني عاطفتها، اندفاعها نحوي وقلقها علي، منذ مدة طويلة لم أعرف هذا النوع من المشاعر، تبعد جسدها عني قليلا، تتأمل وجهي، وتتحسس بأصابعها شعيرات ذقني النابتة، تقول في إشفاق:

ــ ماذا حدث لك، تبدو بائسا إلى حد مروع؟

أتماسك حتى لا تنفجر كل ما في عيني من دموع، أقول لها:

ــ لقد شاهدت موتها، دهست بالسيارة أمام عيني وأنا عاجز عن فعل أي شيء.

تهتف في فزع: هل تعني تلك الفتاة "ناديا"، تلك الصغيرة المسكينة كانت تعيش على حافة الموت وهي لا تدري.

تحتضنني مرة أخرى، تقبل جفوني المبللة بالدموع، حنونة مثل أم، أم لم أرها أبدا، أقول:

ــ لا أدري ماذا أفعل مع الأب والأم اللذين يجلسان الآن في انتظاري؟

تقول في حزم: يجب أن تذهب إليهما وتخبرهما بكل ما حدث.

أقول مفزوعا: وأحمل لهما هذا الخبر المـــروع؟ كـــلا، سوف يعرفان به بالتأكيد، ولكن عن غير طريقي.

ــ ولكنك ستكون بجانبهما، أنت صديق قديم، ووجودك سوف يعني لهما الكثير.

كان الأمر شديد الوطأة على النفس، ولكنني لم أكن أريد أن أبدو أمامه بالذي يهرب من واجباته، تقول:

ــ سأذهب معك إن كان هذا يخفف عليك الأمر قلـــيلا، لقد أنهيت عملي الصباحي، بدل ملابسك وسوف أنتظرك في الأسفل.

يهبط الماء على جسدي باردا، أترك نفسي تحته طويلا لعل برودته تمنحني بعضا من الخدر، وشيئا مـــن الســـكينة، أتأمل وجهي في المرآة وأنا أحلق ذقني، أشبه بوجوه الموتى، أهبط الدرج، "طيف " تنتظرني في مكان غيـــر بعيـــد عـــن الفندق، بدلت ملابس المطعم وارتدت ثوبا بســـيطا، جميلـــة وعذبة كالعهد بها دائما، رفيقة لم احلم بأن يكون لي مثلهـــا، تحملنا السيارة عبر شوارع المدينة المضيئة،كل شيء هادئ وبريء، لا وجود للخطايا تحت ضوء الشمس، الشوارع التي تظللها الأشجار، والأبهاء والقباب والمباني المتشابهة وتلـــك

الزرقة المتناهية حتى حافة الأفق، تمسك "طيف" بيدي وتربت عليها، تدخل السيارة في شوارع المدينة الضيقة، ألمح الشارع المؤدي إلى مشغل الشيخ فلاح، نمرق من تحت حبال الغسيل المنشور، نشم رائحة حساء الكرنب والبطاطس والمجاري الطافحة، نتوقف أخيرا أمام البيت الخشبي المنعزل، موحشا وحزينا وفي حالة من الانتظار، لا أثر للشرطة، أو لتجمع الجيران، تتركنا السيارة وترحل مبتعدة، وتطول وقفتي، تمسك "طيف" بيدي وتجرني إلى عتبة الباب، تطرق عليه ثم نتوقف صامتين.

تظهر السيدة العجوز، تطل علينا بوجه محمر مبللا بالدموع، لقد عرفت، كم كنت ساذجا حين اعتقدت أن خبرا مثل هذا يمكن أن يبقى خافيا حتى أحمله إليها، تجذبني من يدي إلى الداخل، تتحدث بالروسية في سرعة واندفاع، وتدخل "طيف" خلفنا، الجنرال "رشيدوف" يقف أمامي، يمد يده نحوي فأمسك بها، يقول في صوت متهدج:

ـــ آه يا صديقي القديم، كان قدومك فألا حسنا.

أحدق فيه مذهولا، كانت الكلمات بالعربية، مفهومة وواضحة، ولكنها بلا معنى، تسرع السيدة العجوز، تحضر

علبة وتفتحها، كانت مليئة بقطع الحلوى التي يبدو واضحا أنها لم تمس منذ مدة، تتناول "طيف" واحدة، أتطلع إليها تبدو مصدومة مثلي، تعرض العجوز الحلوى علي في إلحاح، تتحدث في كلمات بين الفرح والبكاء، اهتف مذهولا:

ـ لست أفهم شيئا، لماذا هذا الترحيب، وهذه الحلوى؟.

يقول الجنرال: لقد عادت يا صديقي، "ناديا" عادت إلينا.

هل كانا يهذيان، هل تلقيا الخبر وأحدث فيهما هذا الأثر العكسي، أخذت "طيف" على جنب، قلت لها هامسا:

ـ هذا مستحيل، لقد رأيت جثتها بالأمس.

يتطلع الاثنان نحونا ليعرفا سبب تهامسنا، تبلع "طيف" ريقها، تحاول هي أيضا أن تمتص أثر الصدمة، تقول:

ـ هل نستطيع أن نراها.

تضم الأم يديها في فرح، وتنصرف مسرعة إلى غرفة جانبية، يقول الجنرال:

ـ إنها متعبة قليلا، ولكنك صديق قديم، لقد عادت بالأمس، بعد منتصف الليل، لم نصدق أنفسنا ونحن نراها أمامنا، الصغيرة المسكينة كانت خائفة، تشعر بالذنب، ولكنها كانت حية، وكان في هذا الكفاية بالنسبة لنا.

أقول في صوت محتقن: هل أنت متأكد من ذلك.

ينظر إلي في استغراب، كان يأمل أن يراني فرحا أكثر من ذلك، أن أشاركه سعادته، لم يتوقع كل هذا الذهول والوجوم، يقول متوترا:

ـ لست أفهم ماذا تعني، إنها ابنتي، وسوف تراها بنفسك.

تعود الأم ومعها فتاة صغيرة، ترتدي "بيجاما" طويلة الأكمام، شاحبة ومجهدة، وجهها الممسوح لم يتخلص بعد من بقايا مساحيق الزينة، وخصلات شعرها الطويل متناثرة، كانت هي بعينها فتاة الصورة، كبيرة في السن بعض الشيء، ولكنها هي، تحدق فينا بعيون واسعة ومندهشة، تستغرب دخول غرباء مثلنا في حياتها.

تنظر "طيف " نحوي، كنا قد تتبعنا مصير الفتاة الخطأ، فتاة أخرى ابنة أناس آخرين، هاربة من حياة تعيسة إلى مصير أشد تعاسة، خدعني التشابه في الأسماء ولهفتي في العثور عليها، تواصل الفتاة تحديقها فينا باستغراب، هل كان يمكن أن تواجه مصير نفس "ناديا" الأخرى المجهولة؟ وهل عرف الأبوان الآخران أن أبنتهما قد قتلت على قارعة

الطريق، تتحدث "طيف " إليها بالروسية، تهز الفتاة كتفها وتجيبها ببعض الكلمات، تلتفت "طيف " نحوي وهي تقول:

ــ لقد عادت لأنها خائفة، صديقة لها دهستها سيارة بالأمس، لقد عادت إلى هنا بحثا عن الأمان.

تحدق فينا الفتاة قليلا ثم تهز كتفيها وتعود إلى غرفتها، يدعوني الجنرال للجلوس ولكني لا أقدر، لا معنى لأن أحدثهم عن رحلة بحثي الخائبة، لم يكن مصير "ناديا" الأخرى يهمهم، أتبادل معهم بضع كلمات المجاملة قبل أن أخرج، أسير أنا و"طيف" وسط الطرقات وأنا مازلت مذهولا، تقول "طيف " في استغراب:

ــ عليك أن تكون سعيدا، إنها ليست نفس الفتاة.

ــ ولكنه مصير فتاة أخرى، كانت هي أيضا هاربة، ولابد أن لديها أبوين في انتظارها.

ــ أوه، أنت لست مسئولا عن بنات "سمرقند"، هيا بنا، عليك أن تفيق من هذا الكابوس، هذه ليست مدينتك، إنها مجرد مدينة عابرة في حياتك، سوف آخذك إلى "سمرقند" التي اعشقها، تحت الضوء وفي وسط النهار.

تجذبني من يدي فأسير خلفها.

ـ١١ـ

بالتأكيد كانت هناك "سمرقند" مختلفة، مراوغة وخادعة الجمال، خلف هذا البهاء توجد أسباب البهجة مثلما يوجد نسيج الموت، كم يوم مر علي أنا و"طيف " نجوس خلالها، نسيني "نور الله"،أو لعله رحل بدوني، ولكن الكثير من الأمور لم تعد مهمة، أنا الآن أخوض مغامرتي الخاصة، و"طيف " بجانبي، والمدينة كلها ملك أيدينا نخرج من تلافيف الشوارع الضيقة إلى شارع "طشقند نميسكا"، لم نعد في حاجة لركوب سيارة، نمضي ببطء تحت أغصان أشجار الحور، حتى ندخل إلى شوارع السوق القديم المرصوفة بالأحجار الضخمة، ترتفع أصوات الباعة، تنادي على كل أنواع البضائع، نرتاح قليلا فوق مقاعد خشبية في ركن من السوق، تقدم لنا إحدى البائعات طبقا من الكرز الأحمر، كان طعمه مسكرا، كنت في حاجة لمن ينزع المرارة من فمي، تقول طيف باسمة:

ـ هنا يأتي الرجال لأكل الكرز وتأمل النساء، نساء "سمرقند" أجمل ما في العالم، اكتشف ذلك بنفسك.اغمض

عينيك ودع تاريخ المدينة المعتق ينساب في عروقك، سترى أنه أشبه بالخمر الجيدة.

أغمض عيني وأواصل أكل الكرز، تهب ريح دافئة محملة بعبق البهار، ترتفع أصوات القوافل وهي تحط رحالها، بعد رحيل شاق على درب الحرير الطويل، بعد مخاوف الضياع والنهب على أيدي قطاع الطرق تجد القوافل لحظة من الأمان، تنوخ الجمال وتتحلل من أحمالها، ويعلو صوت المنادي يعلن عن وصول الحرائر من الهند والدببة الحية من التبت والبارود من الصين، تنهض جارية سوداء، ترقص على إيقاعات الدفوف، تدعوني لشم نفجة العنبر الموجودة في سرتها،يأخذني "أوغلو" باشا إلى أعلى قلعة المدينة ويعطيني منظاره، على حافة نهر "زراكشان" حيث تنحدر الكثبان الرملية، يقبل الفرسان نحو بوابات المدينة الست، أوزبيك وطاجيك وبوشناق وقازاق، يسألهم الخيام التمهل قليلا ليشرب كأسا مترعا ويبكي يوما ضائعا، هاهي مدينة الندم الحقيقية، ومدينة السلوى والنسيان أيضا، يتجول فرسان "تيمورلنك " في أسواقها ــ نفس الأسواق التي نتجول فيها الآن ــ تفوح من أجسادهم رائحة عرق الخيل والدم

الجاف، وحوش حقيقيون لا يكفون عن نهب وإحــراق كــل المدن التي يوقعها الحظ العاثر في طريقهم، ولكــنهم مــا إن يصلوا إلى"سمرقند" حتى يصــبحون كالأطفــال الــودعين، يرقصون على قدم واحدة في الأسواق، ويتــذللون للبغايــا، ويمنحون غنائمهم للشحاذين عند "شاه زندا".

نتوقف وسط زحام دائرة من الناس، تصــفق "طيــف " بيدها في حماس وهي تشاهد الحاوي الهندي في المنتصــف، جسده النحيف العاري لا يوجد عليه إلا خرقة صــغيرة مــن القماش تغطي عورته، لم يكن يقوم بحركــات بهلوانيــة، أو يعزف على المزمار، ولكنه كان يخوض بجسده معركة مــع الثعابين التي تتلوى فوقه، عضلات أجسادها الزلقة ــ مثــل موج بحرــ لا تكف عن الحركة، وهو يغوص بينها، تمتزج حركاتها وفق موسيقى خفية، يلتف حولهــا وتلتــف حولــه، تحمله وتلقي به على الأرض، ويلويها تحته ليتكــئ عليهــا ويعاود النهوض، جسد الرجل الداكن وحــرافيش الثعــابين اللامعة تتداخل في بعضها حتى يصبح من الصعب التمييــز بينهما،يدور الصراع في وحشية ومودة، كأن كلا منهما يهب

ما عنده للآخر، يهب هو للثعابين روح المجازفة، وتهبه هي قوة انسيابية لا تهدأ، تقول "طيف " ضاحكة:

ــ هيا.. لا تكن مثل طفل مبهور، لن تقضي اليوم كلــه أمام هذه الثعابين؟

أواصل السير معها، المرة الأولي التي أتذوق فيها طعم هذه المدينة، أطرد من ذهني كوابيس الحياة الليلة وأجرب أن أحبها تحت ضوء النهار، لا أتعب من السير مــع "طيــف"، تشير إلى مكان خفي تحت مجموعة من الأشــجار، تحــيط ببركة من المياه، تسبح زهور من الزئبــق علــى ســطحها، وأمامنا من الناحية الأخرى للبحيرة ينتصــب أحــد الأبهــاء القديمة، مكسوة بالفسيفساء الأزرق، ومليئة بالنقوش والآيات القرآنية المتداخلة، أمامه تمثال لرجل هزلــي يركــب فــوق حماره، لحيته طويلة ورفيعة، تشبه العمامة التي فوق رأسه، تشير إليه ضاحكة:

ــ ألم تتعرف عليه، هذا نصر الدين الأحمق.

ــ عندنا نسميه جحا، وننسب له كل الأفعال المضحكة.

ــ الرجال كلهم مضحكون، لذلك سوف نجلس بجــواره ليكون شاهدا عليك.

المقاعد المتناثرة حول البركة أشبه بأسرة صغيرة، يجلس الجميع عليها القرفصاء بينما توضع أمامهم طولات الطعام،يأكلون ويتسامرون في تمهل دون مبالاة بحركة الزمن، تجلس "طيف" في مواجهتي وقد تقاطع ساقيها،تماما تحت أنظار "نصر الدين "الساخرة، تهبط واحدة من الحمائم وتحط على رأسه، تتبدل ألوان عيني "طيف"، تصبح خليطا من زرقة الماء وذهب الشمس، تتبدل ألوان شعرها مع انحدار الضوء، لا أعرف ماذا تقول للنادل الذي يقف أمامنا، عندما ينصرف أتطلع إليها في تساؤل، تقول في مرح:

ــ لا يوجد إلا صنف واحد في هذا المكان، أينما يوجد أوزبيكي، يوجد الضأن والمرق.

أين سمعت هذا المثل من قبل؟ آكل بشهية لا تصدق، كنت جائعا إلى كل شيء، وكنت نهما في استعادة كل ما يربطني بهذه المدينة، وكانت هي تأكل قليلا وتتأملني كثيرا وعلى وجهها ابتسامة لا تغيب، كانت تكور قطع الخبز وتلقيها على سطح البحيرة فتهبط الحمائم البيضاء برشاقة بالغة وتلتقطها، استرخي إلى الوراء وأنا أتجرع أكواب الشاي الخالي من السكر، اشعر إنني أعيش لحظة نادرة،

أقول لها: تقولين أن "سمرقند" ليست مدينتك كيف جئت إلـــى هنا، تقول: "سمرقند" كانت دوما مدينة الغرباء، ألــم تشــعر بذلك، إنها يمكن أن تسعك لما بقي من عمرك؟ أتأمل وجهها العذب، كأنها تعرض علي عرضا لا يمكن رفضه، رغم قدم هذه المدينة فهي تبدو فتية، لم يطلق عليها بعــد رصاصــة الرحمة مثل المدن التي جئت منها، هل يمكن أن استقر فــي هذا المكان، أترك حزمة ذكرياتي، والأسئلة التي لــم أعثــر على إجابة لها حتى الآن وأعيش هنا، في ظل هذه المدينـــة، مع هذه الفتاة، في لحظة لا ماضي لها، هل يمكن للحــب ألا ينفذ، ألا تقلب المدينة لي ظهر المجن.

نعاود السير في الشوارع، كأننا في نزهة لا تنتهي أبدا، نتوقف أمام الواجهة الزجاجية لأحد المحلات، تشــير إلـــى الثياب المعلقة، تقول:

ــ هذا هو ثمن الحرية، كل ما جنيناه حتى الآن هو ذلك الارتفاع الجنوني للأسعار.

ولكنها تتوقف عن الكلام حين تلمــح أحــد الفســاتين، عيناها تتبعان تفاصيله فوق التمثال الخشبي، لعلهــا تتخيلــه على جسدها هي، تقترب أكثر كأنها تتشرب كــل مــا فــي

خيوطه من ألوان، تقول هامسة ولكنني اسمعها: "ما أجملـــه، لعله فرنسي "، أقول لها:

ــ دعينا ندخل ونجربه.

تقول معترضة: كلا، لا أريد أن استغلك، لن أفعل ذلك

ــ في الجامعة، كنت أحب فتاة رقيقة مثلك كان اســمها "سلمى جوهر"، لا أريد أن أتذكرها كثيرا لأن هذا يــؤلمني، كنت أريد أن أهديها كل فساتين العالم، ولكنها كانت أبية، لم تقبل مني فستانا واحدا، ربما لأنها كانت تدرك أن هذا سوف يستقطع من مصروفي، ولكني كنت أتمنى لو أنهــا قبلــت، كانت ستتذكرني ولو من خلال ثوب قديم.

تنظر إلي ساهمة، تدهش لأنني فجأة قررت أن أتحــدث عن نفسي ولو كان حديثا تافها، تقول:

ــ لماذا لم تتزوجا؟

ــ كنا صغارا، ومات الحب فجأة، في مصـــر تمــوت كثير من الأشياء دون سبب، تزوجت أنا بعدها زواجا قصيرا وفاشلا، انقطعت أخبارها عني، كانت تسكن عند خالتها فـــي حي شعبي قديم، وعندما ذهبت للبحث عنها كانت العمة قــد ماتت، والبيت قد انهار.

أتوقف، أحس أنني قد تدفقت في الكلام أكثر مما ينبغي، آخذها من مرفقها وأدفعها إلى داخل المتجر، تصعد البائعة إلى الواجهة وتعري التمثال، تغيب "طيف " قليلا ثم تعود وهي ترتديه، أحدق فيها مذهولا، كان الفستان الملون قد اكتسب حياة جديدة، كأن طرازه وألوانه قد تبدلا، كانت هي أيضا قد أصبحت سلطانة مملوكية لا مكان لها إلا في أعلى القلعة، أقول لها:

ــ أنت "بيبي خاتون "، لو أنها بعثت فلن تكون أجمل من ذلك.

تذوب خجلا، تحتضن الكيس في يد، وتتأبط بيدها الأخرى ذراعي، ذات يوم في زمن بعيد، تأبطت ذراع فتاة مثلها، وسرنا عبر شارع "قصر العيني " المزدحم بالبشر والسيارات،رغم ذلك فقد كانت المدينة خالية، أعطتنا قطعة صافية من قلبها، بلا أكاذيب صغيرة أو وعود ميتة، ولكن المساء يهبط في نهاية كل يوم مهما كان مفعما بلحظات الحب، تشير "طيف " إلى الأمام وهي تقول:

ــ هاهو الفندق، لا أريد للمديرة الروسية أن تراني وأنا معك، خاصة وأنا أرتدي هذا الثوب.

أقول في أسف حقيقي:

ـــ يا إلهي، لم أكن أريد لهذا اليوم أن ينتهي.

تقول في غموض: ومن قال أن اليوم انتهـــى، مـــازال الليل بأكمله، فكر ماذا ستفعل فيما تبقى.. وداعا.

تتركني فجأة، أحاول أن استبقيها ولكنهـــا تلـــوح لـــي بأطراف أصابعها وتمضي.

أدخل إلى الفندق وأنا خائب الأمل، كان يوما طويلا حقا ولكني لم أتوقع أن ينتهي بغتة هكذا، الغرفة خالية وكئيبـــة، أشعل كل ما فيها من أضواء، وارفع صوت جهاز التلفزيون، لا فائدة، أجدني فجأة وقد أصبحت وحيدا، اقف تحت المـــاء المتدفق في الحمام، من حسن الحظ أن غلاية المدينة تعمـــل وان هناك ماء ساخنا، تصاعد البخار من حولي، يحيط بـــي كالضباب، مثل قبضة حميمة، ألف نفسي في إحدى المناشف واجلس أمام التلفزيون، فيلم عربي قديم مليء بالدموع، وفي أسفله شريط يحمل الترجمة الروسية، كنت أضحك، كانـــت العواطف التي تمرق أمامي، مفعمة وغير صادقة، لم نكـــن نعرف أيضا كيف نحب.

أسمع طرق على الباب، أحاول أن أضع أي شيء فوق جسدي العاري، كنت خائفا من أن تكون المرأة الروسية قد بدأت طقوس الشراب، افتح الباب مترددا ولكني لأجد طيف واقفة أمامي، كانت ترتدي الفستان الجديد، أحدق فيها مبهورا وهي تخطو إلى داخل الغرفة، وهي تجلس على حافة الفراش وتتطلع إلي وعلى وجهها ابتسامة صغيرة، أجلس بجانبه وآخذها بين ذراعي، لم نكن في حاجة إلى أي كلمات، يتم كل شيء في بساطة آسرة، أقبل وجنتيها وخصلات شعرها وعينيها المغمضتين ثم أرتاح على شفتيها، أزيح الفستان من على كتفيها، تهمس: افعل ذلك برقه، إنه ثوب عزيز علي "، كان جسدها ناصع البياض، بالغ النقاء والبراءة، دافئا ومرتعدا وتواقا، وكان نهداها صغيرين، مثل حمامتين ترقدان في استكانة على أضلاع صدرها،حمامتان راقدتان فوق قبة "بيبي خاتون"، أحيط جسدها، وأدخل في سماء عينيها، أقبل سرتها الغائرة، وأريح رأسي فوق عشبها الأشهب، أقول : "منذ أن رأيتك عند قبر "بيبي خاتون "،وقد تمنيت أن تكوني بين أحضاني هكذا، تقول لاهثة:"لقد تمنيت أمنيتك عند قبر امرأة عاشقة، فماذا كنت تتوقع؟"، تتحسس كل أعضائي في

وله، كأنها تكتشف عالما غريبا عنها، تعـرف مـاذا تفعـل بجسدي، ولكنها تمارس كل ما لديها من خبرة ببراءة آسرة، أتذكر أننا في مدينة العشق القديمة، حيث تسري في شوارعها وحواريها كل تأوهات العشاق، وكل نزق الشهوات التي لـم يروضها الزمن، كانت "طيف" تفعل ذلـك، تكـون رقيقـة لبرهة، ثم تتوفز خلاياها بكل رغبات المدينـة المحبوسـة، تصرخ بصوت عال، وتتأوه دون خجل، وتصل إلـى ذروة نشوتها في فرحة طاغية.

يدوي طرق غاضب على الباب، تتكمش "طيف " فـي أحضاني خائفة، نسمع صوت المرأة الروسية وهي تصـرخ غاضبة:

ــ عليكما اللعنة، كل هذه الضـجة، آلا تخجـلان مـن أنفسكما.

كان صوتها سكيرا وحانقا، نظل منكمشين قليلا حتـى نسمع صوت خطواتها وهي تبتعد، تنظر "طيف " إلـي ثـم نغرق في الضحك سويا، نفعل ذلك في صوت خافت حتى لا تقتحم علينا باب الغرفة، كنا في حاجة لفترة مـن السـكينة، يتلامس لحمنا العاري ونعاود التقاط أنفاسنا، كان أمامنا ليـل

طويل، للتمهل ولمعاودة ممارسة الحب ولتبادل الأحاديــث، تحدق "طيف" في القبة البعيدة وهي تضوي في وهن، تقول:

ــ منذ أن جئت إلى هذه المدينة وليس لي صــديقة إلا هذه المرأة الراقدة تحت القبة،منذ أن عرفت حكايــة "بيبــي خاتون" وهي تسكنني، أحيانا أذهب إليها دون إن أدري أنني هناك، ولعلك رأيتني في إحدى هذه اللحظات، لعلنا تشــاركنا معا في نفس لحظات التعاسة رغم بعد الشقة بيننا، لقد كانت في داخلها مثلي، فتاة تعاني من الغربة، رغم أنها تجلس على عــرش الــدنيا، عنــدما تزوجهــا "تيمورلنــك" كانــت صغيرة،جاءت من قبيلة ضعيفة لم تصدق أن الغازي الأعظم قد اسبغ عليهم شرف اختيار واحدة من بناتهم، دفعوها إليــه دون أن يبالي أحد بسؤالها إن كانت تريد هذا المصير أم لا، وهل كان هناك من يجرؤ على السؤال؟ كانت أشــبه بدميــة حية، فراشة سماوية، كان أبوها زعيم القبيلة قد رباها علــى أن تتغذى من خلاصة كل شيء، غذاء ملكات النحل، قلــوب الطواويس، حبوب اللقاح، رحيق الزهر، ولم تكن تستحم إلا بماء الندى، كان جلدها من الرقة بحيث تظهــر تحتــه كــل عروقها وهي تنبض بالحياة، يمكــن لأي لمســة خشــنة أن

تخدشها، عليك أن تتصور أن مخلوقة مثل هذه تــزف إلــى الغازي الأعظم، كان قد قادها من وسط قبيلتهــا مــن علــى ضفاف نهر" أمودريا" إلى قصره هنا في "سمرقند"، قال لها: هنا سوف تكونين سلطانة قلبي، كان رقيقا وخشــنا، عاشــقا على طريقته، فتنته فيها تلك المسحة من الرقة والهشاشة التي تلازمها، وذلك الجلد اللاإنساني الشديد الشــحوب والبيــاض، ولكن "بيبي خاتون " كانت تشم في جسده كل روائح المعارك التي خاضها، دم وعرق وبقايا من روث الخيل، مهما نظــف جسده أو وضع من عطور، كانت الرائحة تسكن في مسامه، كان في قصره أحجار نارية من أذربيجان وصابون فاخر من نابلس وعطور من سفوح التبت، وزيوت القرنفل من أفريقيا، وحرائر صينية، وكان يمكث في حمامه الخــاص ســاعات طويلة قبل أن يتمكن من الدخول إليها، ولم تكن تقول شــيئا، كانت تضمه بذراعيها وتفتح له ســاقيها، وتستســلم لقبلاتــه العنيفة وتتحمل كل ما يتركه على جسدها من كدمات وجروح صغيرة، ولكن سلطان العالم ــ رغم كل ذلك ــ كان يشــعر أن خلايا جسدها ترفضه، هذا الاستسلام الشــبيه بــالموت، وتلك الذروة التي لاتجئ أبدا، أشياء كانت تدفعه إلــى حافــة

الجنون، صرخ فيها، ضربها بالسياط، ضاجع الجواري أمامها، جعل كل الغلمان السود في القصر يمرون عرايا أمامها، أرغمها على القيام معه بكل الأوضاع الشاذة، دون جدوى، ظلت هادئة، تتلقى كل عقاب كأنها تستحقه، وتنام تحته كأنها ترغبه، وتراقب ما يقوم به مع جواريه كأنها تهتم ولكنه كان يلمح من وراء ذلك عيونها الغائمة، ثم توصل الغازي إلى أمرين، أولهما انه غير قادر على قتلها أو هجرها، وثانيهما أنها مختلفة عن كل العالم الذي أخضعه لإرادته، وأن عليه أن يبحث عن طرق أخرى لإخضاعها".

يستعيد جسدانا دفئهما من جديد، كانت "بيبي خاتون" تعطيني جسدها من خلال "طيف"، تخترق الزمن ليبعث بين أحضاني فتيا ومفعما بالرغبة، تتأوه في وله معلنة انتصاري على الغازي الأعظم، تمتزج مع جسدي في انسيابية تستقطر مابقي من لذة على مهل، ثم تنفض خلاياها كما لم تنتفض من قبل، يواصل "تيمورلنك" خوض معركته الخاسرة، يجعل من "سمرقند" هبة للعشق والعشاق، لم تعد مدينة القادة والغزاة، امتلأت بالشعراء والعازفين والرسامين والغجر والحواة ومروضي الحيوانات والممثلين والمغنين وجوابي الآفاق،

تحول ليل المدينة المظلم إلى نهار، واصبح صـــمتها أنغامـــا صداحة بالغناء، وكانت "بيبي خاتون" تسهر وتستمع، نغنـــي أحيانا، وترقص أحيانا، ولكن خلاياها ظلت ترفضه:

ــ لم يجد بدا من العودة إلى الحرب، اكتشف أن قهـــر المدن اسهل بكثير من امتلاك قلب امـــرأة، كـــان غزوتـــه العجيبة إلى الهند التي جمع فيها من الغنائم مالا عـــين رأت ولا نفس وعت ولا روح هفت، وقرر أن يحول "ســـمرقند" إلى أعجوبة مثل المدن التي رآها في الهند، والأهم من ذلـــك أن يبني أثرا يخلد اسم محبوبته العاصية "بيبي خـــاتون"،وأن يهب في سبيل ذلك كل ما غنمه في غزوتـــه للهنـــد، جمـــع المعماريين والبناءين والصناع وأمرهم أن يشيدوا صرحا لم يشيد مثله، مسجدا ومدرسة وتكية، مجمعـــا كامـــل الأبهـــاء والأروقة والزوايا، وان يكون في مقدمة هذا بوابة عالية تعلو بقوسها السامق المكسو بالفسيفساء فوق كل بوابات المدينـــة، تنهض خلفها تماما قبة ضخمة، مكورة مثل قلـــب نـــابض، علامة حب متقد لا يخمد لا في الليل ولا النهـــار ولا يتـــأثر بالمسافة، لا في الهند ولا"سمرقند".

أسفل التـــل تجمـــع جـــيش مـــن العمـــال والصـــناع والمعماريين، جاءوا من كل البلاد المحترقة ليحققـــوا حلـــم الغازي الذي أحرق مدنهم، أحاطوا المكان بالمشاعل الموقدة بالغاز الذي لا ينطفئ طوال الليل، وبدءوا يعملـــون جميعـــا كأنهم مصابون بحمى لا تدع لهم ســـبيلا للرقـــاد، خططـــوا الأرض ثم حفروها، نزحوا ما فيها من مياه جوفية، وجرفوا ما في باطنها من حصى وجذور أشجار قديمة وعظام نخرة، وعملت المناشير فوق التلال المجاورة وأخذت أسنانها الحادة دون كلل تشق الأحجار، وفي كل ليلة كان الغازي يصطحب "بيبي خاتون" إلى موقع البناء، يجعلها تطوف ســـاهمة بـــين الأشباح المظلمة التي لا تتوقف عن العمل، كانوا جميعا بـــلا ملامح، يشبهون الصخور التي يقدونها، وكان هو يقف لهـــم فوق التل حتى يروه جميعا، ويعرفوا المصير الذي ينتظرهم إذا خذلوه، وكان هي ترتجف عندما تـــدرك مـــدي رهبتـــه وسيطرته على كل هذه الأنفس، كان البناء يخصه رغم أنـــه موهوب لاسمها، يحمل طابع رهبته وسلطته، ماعـــدا شـــيئا واحدا يشبهها، ينتمي إليها بصورة مبهمة، هو تلـــك البوابـــة العالية التي تتقدم كل البناء، كانت الأعمدة ترتفع مثـــل أذرع

متوسلة، والقوس الرهيف يمتد برقة من أعلى العمـود ثـم ينحني آخذا في الانحدار لـيلامس العمـود الآخـر، ولكـن المشكلة أن استدارة القوس كانت أكثر ارتفاعا من تقـدير أي مهندس، وأكثر انحناء من براعة أي بناء، لـذا فقـد كـانوا يبنونه طوال الليل على أمل أن تجففه الشمس فـي النهـار، ولكنه كان يباغتهم بالانهيار حتى قبل أن تشرق أي شـمس، كانت البوابة عاصية كخلايـا جسدها،رافضـة أن تتماسـك كعناقها، زفر الغازي في غضب، وتقدم منه كبيـر البنـائين وهو يرتعد، كان بقية العمال يرتعدون أيضا،قال:

ــ أيها الخان العظـيم الأرض غاضـبة، إنهـا تلفـظ الأحجار ولن ترضى إلا بالدم.

أمر "تيمورلنك" فذبحت الخيول، كانت خيولا قد دهست سهوب العالم، ووطأت بسنابكها هامات النجوم، ولـم تكـن هناك أرض قادرة على رفض هدية بهذا القدر من السـخاء، امتلأت حفر الأساس بالدم وخلط بهـا المـلاط، تصـاعدت رائحة الدم الدافئ مختلطا بالجير الحي، أعيد وضع الأحجار، ولكنها انهارت مرة أخرى، وخفية عن الأعين أخذت "بيبـي خاتون" تبكي، لا تدري كيف ربطت نفسها لاشعوريا بهـذه

البوابة، وأصبح انهيارها المتكرر نذير ســوء لحيــاة مليئــة بالتعاسة، وبدلا من أن يساهم هذا العمل في إنعاش روحهـــا، دفع بها إلى حافة الاكتئاب، اصبح جسدها أكثر رفضا له، لم تعد تطيق لا رائحته ولا رائحة صنانة الخيل، غضب الغازي فطرد المهندسين، وجلد كبير البنائين والعمال، وأمر بقطـــع حجارة جديدة من الجبال المحيطة بوادي فرغانة، تكون أكبر حجما وأكثر صلادة، وظل كل ذلك بلا جدوى.

في ذات يوم جاء "عبد الله"، كانت "سمرقند" كلها راقدة تحت ضباب رمادي، ولكنه أخترق هذا الغلاف الهش ووقف أمام الغازي العظيم، معماري مغمور من بخارى، لم يبن إلا عدة صوامع ومخازن للغلال، لم يكن في تاريخه بناء بارز، ولكن والي بخارى بعث به لأنه في سنوات القحط التي مرت على المدينة، لم تتلف حبة قمح واحدة في المخازن التي بنها، ولأنه ــ كما قال للغازي العظيم ــ كانت له موهبة التعـــرف على كنه الأحجار بواسطة اللمس، يختار ببراعة لكل حجـــر وليفه، ويضع لكل مبنى الأساس الذي يناســـبه، نظـــر إليـــه الغازي في استهانة، ولم تبال "بيبي خاتون" بـــالنظر إليـــه،

ووقف هو نحيفا وهشا كعمود خال من النقوش، قال "تيمورلنك" من بين أسنانه:

ــ لقد سئمت من أعمال الهواة، سوف تراهن على هذه المهمة بحياتك، لو فشلت فسوف تقتل.

كان "عبد الله" يرتجف، ولكنه قبل الرهان، نظرت إليه "بيبي خاتون" للمرة الأولى في استغراب، لم يكن بالفعل ــ بهذا الوجه النحيف المستطيل، وتلك الوجنتين الغائرتين، والعينين اللامعتين كنجمتين ــ يصلح لشيء إلا للموت.

بدأ "عبد الله" العمل على الفور، أعد الملاط المشرب بحمرة الجبل، وأمر المساحين فنعموا وجه الأحجار حتى أصبحت ملساء تماما، جمع الصمغ من فوق لحاء الأشجار، والغراء من حوافر الحيوانات في وعاء ضخم، وأوقد تحته نارا، وشدد على كل القائمين عليها ألا تنطفئ أبدا، وظل يحفر حتى وصل لأغوار المياه في بطن الأرض وأخذ يشفطها بواسطة أعواد الغاب العملاقة، والغازي يراقبه متذمرا لأيام متوالية، ثم مل من كثرة جلوسه على المقاعد والحشايا، كان السرج السابح هو مكانه المفضل، لذا فقد رحل لتأديب بعض القبائل التترية المتمردة، واستطاعت

"بيبي خاتون" أن تصبح وحيدة أخيرا وأن تقضي الليـل دون أن يوجد من يدهس جسدها دون رغبة.

كانت خائفة من الخروج من القصر، من رؤية البوابـة وهي تهوي مرة أخرى، وترى جزءا مـن عمرهـا، ومـن أحلامها، وهو ينهار معها، وكان الخوف مثل ريـح بـاردة مطعمة بندف الثلج تلف "سمرقند" إذا أقبل الشـتاء، وكـان القمر مصفرا كأنه يعاني من ذبول دائم، نظرت مـن نافـذة قصرها فرأت أشباحهم وهي تعمل تحت وهـج المشـاعل، ورأت النار الدائمة التوهج تحت وعاء الغراء، هبطت مـن القصر وسارت إليها كأنها نائمة، هبت عليها موجة من دفء النار المشتعلة تحت الغراء فأيقظت خلايا جسدها، كان شـبح البوابة منتصبا، لم يكتمل قوسـها الحجـري بعـد، ولكـن الدعامات الخشبية كانت تحيط بها وتثبتهـا وسـط الفـراغ، تتشرب طل الليل، وتنتظر وهج الشمس، لمسـت الأعمـدة الضخمة، ناعمة وباردة ولكنها تبدو راسخة، سمعت صـوتا يقول لها من خلال الظلام:

ـ ربما كان هذا هو بالضبط ما كانت تحتاج إليه هـذه الأعمدة، لمسة من امرأة تبدو كأنها طيف.

كان هو المعماري النحيف المرتجــف، عـــاد يضـــيف ضاحكا:

ــ حمدا لله أن الغازي لم يقم بلمسها أولا وإلا لانهارت من شدة رهبتها منه.

رفعت "بيبي خاتون" الخمار الذي كان يغطي وجههـــا، رأى ملامحها على ضوء المشاعل، ارتد في خـــوف، كـــان يتوقع أن يرى امرأة عابرة، وليس سلطانة العالم، ابتسمت له في شرود، سارت وسط صفوف العمال، قالت:

ــ هل أنت واثق أن البوابة لن تعـــاود الســـقوط مـــرة أخرى.

قال متشجعا بخفوت صوتها ونبراتها المرتعشة:

ــ لقد راهنت على ذلك بحياتي، قد لا تساوي هذه الحياة شيئا عند السلطان ولكنها بالنسبة لي كل ما أملك.

جلست فوق أحد قطع الأحجار، وقف "عبد الله" أمامهـــا دون أن يكون مرعوبا أو خائفا، للمرة الأولى يمتلك بعضـــا من الجراءة ليتأمل أطرافها الدقيقة، كانت رائحـــة القطـــران واحتراق المشاعل مازالا يعبقان الجو بالدفء، ليست رائحة الدم ولا العرق ولا صنانة الخيل، ولكن عبير الملاط وأنفاس

الحجر الكلسي، أحست "بيبي خاتون" بدبيب حياة جديدة في جسدها، ابتعدت أنفاس "سمرقند" الباردة عنها قليلا، طلبت منه أن يحدثها قليلا عن نفسه، حياة عادية رتيبة، ابن أسرة فلاحيه لا تعرف إلا الغرس والحصد، حياة بلا أمجاد ولا معارك، رعي أغنام، وصبوات مع تبدل الفصول، وبهجات وخطايا صغيرة، ثم بدأت السلطانة تضحك من كلماته العفوية ومن الأخطاء الذي يقع فيها دائما، توقف العمال عن العمل والضحكة تنساب إلى ليل "سمرقند" القاتم، لم يكن يقول كلاما مضحكا، كان فقد يتحدث بعفوية واندفاع، وكانت تنظر إلى وجهه فتراه عرقانا، عليه ندف من بقايا الملاط وخليط من ضوء المشاعل والقمر والنجوم البعيدة.

تتوقف "طيف" عن الكلام، تنهض وتتجول بجسدها العاري في الغرفة، تتناول زجاجة من الماء وتأخذ منها رشفات صغيرة، تجلس بالقرب من النافذة وهي تطل على القبة الداكنة، تقول لي: " أجبني هذه المرة، لماذا جئت حقا إلى هذه المدينة"، أقول لها: لأنني أحسست ذات لحظة أنه لا جدوى من حياتي، وأنني سوف أظل جالسا عاجزا ما لم أصل إلى جواب لكل أسئلتي الحائرة"، تحدق في وهي

تقول:" أي أسئلة تلك التي تعذبك إلى هـــذا الحـــد؟" للمـــرة الأولى أقول الكلمات التي لم أجرؤ على قولها لنفسي: إنهـــا أشياء عن أبي، علاقتنا معا، ومزيج الحب والكراهية التـــي عشناه معا، يلاحقني بأسئلة كثيرة ولوم أكثر، وأريد أن أرتاح من كل الأسئلة والملامات"، لا أرى وجهها بوضوح ومـــن المؤكد أنها لم نفهم كلماتي، ولكني أحسست بـــالعطف فـــي نبراتها، كنت مثقلا بذكريات اكثر قسوة مما تصـــورت،أقول لها: لماذا لا نعود لقصة "بيبي خاتون"؟

في الليلة التالية هبطت من قصرها ذاهبة إليه، أقنعـــت نفسها أنها تريد أن ترى الأعمدة وهي ترتفع والأقواس وهي تنحني، بدأت تقضي معه لحظات طويلة من الليل في حضور القمر، وفي انتصافه وغيابه، ثم سارا معا عبـــور الأروقـــة المليئة ببقايا الأحجار وروائح الملاط والقطـــران، تلامســـت أيديهما بفعل المصادفة، ثم أمسك بها ليساعدها عبـــور مـــا يعترضهما من أحجار، ثم حمل جسدها كله ليرفعهـــا فـــوق الدرج الذي لم يكتمل، وكان الغازي مشغولا، طالت مقاومـــة القبائل المتمردة أكثر مما كان يتوقع، وارتفع ضجيج قتالهـــا لدرجة أنه لم يسمع بأمر هذه اللقاءات المتكررة، آن للغـــازي

أن يعرف أن جسد السلطانة قد أخذ في التغير، وأن خلاياهـــا العاصية قد بدأت تستجيب للملامسة وتنتفض من النشوة، آن له أن يتصور جسد السلطانة يلين تحـــت جســـد المعمـــاري الشاب وتعطي فمه ثديها متوهجا، وتجعلـــه يتوســـد بطنهـــا وتلتف حول خاصرتيه بساقيها.

تعود "طيف" إلى أحضاني، نرتجف معا، اسمع صوتها من خلال خلايا جسدي وهي تحاول أن تهدئ من روعـــي، تقول لي: يكفي ما مارسنا من جنس، فلنلعـــب معـــا ألعـــاب المودة، تدخلني في لفيف رغبتها التي لا تهدأ، هل كانت هي أيضا تحمل ذنب أب ما؟ في هذه اللحظة تفتح "بيبي خاتون" جسدها للمعماري المرتجف، هذه المرة كان يرتجـــف مـــن وطأة الرغبة، كانا في مكان غريب، داخل التكيـــة المتصـــلة برواق المدرسة، فوق فراش من القش وأكياس الجوت، لـــم تبال بالخدوش والجروح الصغيرة التي كانت ترســـم علـــى ظهرها حروفا غامضة، في ذروة من النشوة ارتفع القـــوس واكتست الأحجار برغبة عارمة فظلـــت صـــامدة متحديـــة الفراغ، ثبتت البوابة وتشـــربت الصـــهد والطـــل والنـــدى،

وصعدت عليها أضلاع قبة من الفسيفساء الأزرق الممتد بلا نهاية كمدى الرغبة.

كان لابد للغازي العظيم أن يعود، لم يستطع أن يحقق نصرا كاملا فعاد نصف منهزم، وكان دوي الرغبة أعلى من طبول الجيش فلم يسمع العاشقان شيئا، تمهل الغازي قليلا ليسمع كل تقارير الوشاة،أخبروه بعدد الكلمات التي تبادلاها، والأنفاس التي ذرفاها، والتأوهات التي تصاعدت منهما، لم يهبط الغازي من فوق جواده، سار برائحة الدم وصنان الخيل التي تفوح منه وخلفه أخلص قواده وجنوده، أمر الجنود فحاصروا كل شبر في المجمع المترامي، أدرك المكان الذي يجتمعان فيه دون أن يخبره أحد بذلك، أشار للجنود أن يحيطوا بجوانبه الأربعة، أحضروا المنجانيق وجذوع الأشجار التي تغطي قمتها ألواح الحديد، كل العتاد الذي كان يستخدمه في اقتحام القلاع، قال من بين أسنانه:" اهدموه في وقت واحد"، هجموا من كل جانب ودكوا الجدران، كان الملاط طريا، واستواء الأحجار مازال بكرا، لم يكتسب الصلابة والشدة التي تستلزم مرور الوقت، سرعان ما انهار تحت وطأة الضربات المباغتة، لم يصدر من تحت الركام أي

صيحة استغاثة، انهارت الجدران وانهار معها جزء هائل من القبة، ولم تتصاعد سوى أعمدة الغبار، وظل "تيمورلنك" واقفا محدقا في الركام الحجري كأن الزمن قد تجمد بالنسبة له، تقدم كبير البنائين وهو يقول:

ـ أيها الخان العظيم، لقد حصلت الأرض على القرابين التي تريدها، الآن يمكننا أن نكمل البناء.

قال "تيمورلنك" في همس حانق:

ـ بعد الآن، لن يكتمل أي شيء، سوف يبقى كل شيء ناقصا، حتى حياتك أنت ياكبير البنائين، سوف تنتهي ناقصة.

عاد "تيمورلنك" على قصره، وعلقت جثة كبير البنائين فوق صارية خشبية لمدة ثلاثة أيام وظل البناء المهيب ناقصا وغامضا

استيقظ مفزوعا على صوت طرقات عالية، أتلفت حولي وأنا عاجز عن تحديد مكاني، جسدي ما زال دافئا، والقبة الزرقاء تتشرب ضوء الشمس، ولكن "طيف" ليست بجانبي، تتواصل الطرقات، أنهض متكاسلا من الفراش، متى غادرتني، كيف لم أشعر بها؟، يفتح الباب فجأة وتبدو خلفه المرأة الروسية، أسرع وألف جسدي بإحدى الملاءات، تحمل

المناشف وأدوات التنظيف، تقتحم الغرفة دون أن تأبه بوجودي، أقول معترضا:

ــ ليس الآن.

ولكنها لا تأبه باعتراضي، تصيح في حدة:

ــ لن ننتظر طوال اليوم لننظف غرفة حضرتك.

غاضبة، منتفخة الوجه، من الواضح أنها قد قضت ليلة تعيسة، كمما أن منظري، أنا جالس مسترخيا في الفراش، وسط فوضى الغرفة مثير اكثر لتعاستها، تدخل الحمام، اسمعها وهي تنظف الأشياء بعصبية، تعود فجأة، تقف أمامي وهي تصيح:

ــ أيها القذر الشاذ، أنت لا تفضل النوم إلا مع الصغيرات، ولعلك فعلتها من الخلف مثل بقية الشاذين أمثالك من العرب.

درجة غضبها أكثر مما ينبغي، أتشبث بملاءة السرير، اخفي عريي تحتها، تلقي بالمناشف المتسخة في وجهي، أسمع صوتها وهي تصفق الباب في عنف، وخطوات أقدامها وهي تبتعد.

ـ ١٢ ـ

أراه جالسا أمام الباب الخارجي في المنزل، جزءا من جسده في الشمس، ولكن رأسه في الظل، وجهه فقد حمرته وأصبح شاحبا وساهما، يحدق بنظرات غائرة في الصحيفة التي يمسكها في يده، كنت أعرف أنه يجلس في انتظاري، لم يكن بيننا موعد محدد، ولكنه كان يعرف أنني سوف أعود وأطرح عليه كل الأسئلة التي تحيرني، رحلة طويلة قطعتها حتى آتي إليه، كأنها هروب بلا عودة، أعطي لسائق السيارة أجرته، وأتقدم نحوه في بطء، يبتسم في وهن حين يراني، اجلس بجانبه فيمد يده ويمسك يدي، هذا الجنرال العجوز قد احتل جزءا من حياة سابقة يخيل لي أحيانا أنني لم أعشها، لم يكن صديقي بقدر ما هو صديق أبي، ولكنني ذات لحظة اعتقدت أنه يمت إلي أكثر من الآخرين، الآن أجلس على حافة بيته الخشبي في "سمرقند"، وسط حديقته الموحشة، ومرات عديدة جلست في شرفة بيته الحجري في الفيوم، بجانب البحيرة الميتة كما كان يطلق عليها.

يفتح باب المنزل وتخرج ناديا، جسدها بالغ الطول والنحافة ووجهها خال من المساحيق، ترتدي ثوبا بسيطا

منسدلا على جسمها وفضفاض بعض الشيء تحاول أن تخفي داخله كل معالم النضج التي تعاني منها، تضع أمامنا صينية عليها بعض الأطعمة والأطباق، تعلو وجه الجنرال "رشيدوف" ابتسامة حقيقية ولكنها غير مكتملة، تنسحب في صمت دون أن تنظر نحوي، اسمع صوته وهو يقول لي:

ـ هذا نوع نادر من المربي، مربى البندق، لا تعرفونه في مصر، لقد صنعتها زوجتي خصيصا لك.

لم أكن مهتما بالمربى حقا، كنت أتابع ناديا وهو تستكين مرة أخرى إلى المنزل الصامت، أقول له:

ـ كيف حالها؟

يتنهد وهو يقول:

ـ ساهمة طوال الوقت، من الصعب أن نعيدها مرة أخرى إلى شرنقة الطفولة التي تمزقت، أنا وأمها نعاني من الخوف من أن تعاود الرحيل، لا نستطيع أن نمنعها من الخروج، وعندما تعود لا نصدق أنها قد عادت إلينا.

أتذكر صخب المدينة الروسية، جنس ومخدرات وموسيقى وأضواء خاطفة وانفلات للجسد، كيف يمكن لبيت

خشبي ساكن وأبوين عجوزين أن يكونا بدلا عن كـــل هـــذا، يقول:

ــ لم تأت بالتأكيد لتتذوق مربى البندق، لقد أحضـــرت لك شيئا آخر.

يمد يده إلى المنضدة التي تجاوره، يتناول علبة معدنيـــة صغيرة، يخرج منها رزمة من الرسائل والصور مربوطـــة معا بشريط أحمر، يمسكها في يده وهو يمرر عليها أصابعه كأنه يريد استعادة محتوياتها عن طريق اللمس، يقول:

ــ هذه صور قديمة تجمعني مع أبيك وبعض الأصدقاء، وعدة رسائل، في الآونة الأخيـــرة كانـــت رســـائله نـــادرة وغامضة، مليئة بإشارات فهمت بعضها ولم أفهـــم الـــبعض الآخر، لم أكن أريد التخلي عنها أو أقطـــع صـــلتي بهـــذا الماضي، ولكنني أشعر الآن، وبعد أن قطعـــت كـــل هـــذه المسافة أنك أحق بها مني.

يعيدها إلى العلبة ويناولني إياها، أشعر بالرجفـــة وأنـــا أرى جانبا من وجه أبي بالأبيض والأسود، كان يرتدي حلته العسكرية، وكان مبتسما، أقول له:

ــ هل أستطيع أن أجد فيها الأشياء التي أبحث عنها.

لا بد وأنه قد استمع إلى تلك الرعدة في صوتي، يقول:

ـ افحصها فيما بعد، حين تكون وحدك، هذا كل ما تبقى لي من أبيك بجانب ذكرياتي معه، ولكن علينا أن نقوم أولا بجولة معا، ربما تجعلك تفكر بطريقة أفضل، سأريك بعضا من "سمرقند" التي تخصني، إن كل واحد له مدينته الخاصة به

أقول متشككا: ولكن هل تستطيع السير حقا؟

ـ ليس لمسافات طويلة، ولكنها جولة يجب أن أقوم بها، سمها جولة الوداع إذا شئت.

ينهض متوكئا على عصاه، أحاول أن أساعده ولكنه يرفض، ينتصب جسده العسكري بصعوبة، خلف نافذة المنزل أرى وجهي ناديا وأمها وهما تنظران نحوه في خوف وإشفاق، هل كانا يعرفان بأمر هذه الجولة؟ لم تخرج واحدة منهما للاعتراض، ظلتا ساكنتين ونحن نعبر الحديقة الموحشة إلى الخارج، نعبر الشوارع الضيقة، نسير تحت حبال الغسيل المنشور، كان متعبا، ينقل خطواته بصعوبة، ولكنه لم يكن يريد التوقف، الشوارع شبه خالية ، قليل من النساء والأطفال يسيرون على الأرصفة، كان الإسفلت ينحدر بنا كلما واصلنا

السير، وبعد برهة بدأت الشوارع تضيق والبيوت تقترب من بعضها، نسمع صوت ضجة قادمة من نهاية الشارع، رجال في ثياب سوداء ولحى وشعور مجدولة، نساء وأطفال يجلسون على الأرصفة، أكثر من شاحنة واقفة، حركة محمومة لنقل الأثاث من داخل المنزل، يتوقف الجنرال "رشيدوف" عن السير، يقول بصوت خافت وهو يشير نحوهم بعصاه، قول:

ــ يبدو أن هناك أعداء جددا في الطريق إليكم.

أقول مدهوشا: من هؤلاء، وإلى أين هم ذاهبون؟

ــ ألم تستنتج ذلك من ملابسهم وهيئتهم، إنهم من يهود "سمرقند" يستعدون للهجرة، هذه السيارات سوف تسير بهم عبر تركيا حتى حافة البحر، وهناك تنقلهم العبارات إلى إسرائيل، إنه مشهد مكرر، تعودنا عليه في الآونة الأخيرة.

اتأمل حماسهم وهم يقومون بنقل أثاثهم، أي حلم مخيف هذا؟ أقول له وأنا أرتجف:

ــ فلنمض من هنا سريعا يقول وهو يلتقط أنفاسه:

ــ أصبح النهر قريبا، إنه المكان الذي نقصده.

نهبط ببطء على حافة نهر "زركشان "، يمد الجنرال "رشيدوف" يده أخيرا ويستند إلي، ننحدر على ممر ترابي وسط دغل من الشجيرات والعوسج والتوت البري، يبدو النهر ساجيا ورزينا، يقول لي:

ـ أريدك أن تقابل واحدا من أقدم أصدقائي، إنه رفيق الأنهار.

بدا ماء النهر غائضا، لا يملك الاندفاع الموحش لنهر"أموداريا"، ولكنه حافل بالروابي، جزر زاهية الخضرة تبرز على صفحته، على الحافة تنتصب عشة صغيرة من الغاب والبوص، تبدو كأنها غير ثابتة في مكانها، تتقدم وتتأخر مع حركات المد والجزر، يشير لي الجنرال دون أن يصدر صوتا، في منتصف النهر يقف رجلا عاريا إلا من غطاء الرأس، عجوز، محني القامة، ولكنه يعمل في دأب، يمسك بيديه مصفاة ضخمة صدئة، يغرف بها من الطمي الموجود في قاع النهر، يرفعها إلى أعلى وهو يهزها ببطء، تتساقط قطرات الماء عائدة إلى النهر، يتفحص بقايا الطمي والحصى في قاع المصفاة، يقلبها بأصابع دربة، ثم تبدو ملامح خيبة الأمل على وجهه، يقذف الحصى ويتحرك

خطوة داخل الماء ليأخذ موقعا جديد ثم يعود العمـــل، يفعـــل ذلك في صمت ودأب، كل شيء كان مترقب لما يفعل، حتى طيور الماء كانت هي أيضا تراقبه، أقول هامسا: ماذا يفعل؟

يقول الجنرال : كما كان يفعل دوما.

يلتفت العجوز نحونا، يشرق وجهه في ســعادة عنـــدما يلمح الجنرال، يخوض الماء متجها إلينا، لم يكن يستر جسده الأسفل إلا خرقة صغيرة، يأخذ بيد "رشيدوف" ويوشـــك أن يلثمها ولكن الأخير يسحبها، يتحدث العجوز في سرعة، كأنه اختزن من أجله كل الكلمات، ربما يحدثه عن طول تجوالـــه عبر الأنهر، وعن خيبة أمله المتكـــررة، والجنـــرال يـــومئ برأسه مؤكدا على كلماته، يواصل الحديث وهو يشـــير إلـــى النهر والحصى وطيور الماء، بعد فترة ليست بالقليلة يتوقف عن الحديث، يلحظ وجودي، يبتسم الجنرال "رشيدوف" وقـــد حان دوره في الكلام، يضحك الجنرال بطلاقة وهـــو يقـــص عليه شيئا ما، تنتقل عدوى الضحك إلي أنـــا أيضـــا دون أن أفهم شيئا، يتحدث العجوز إلي، لا يبالي إن كنت أفهم كلماته أم لا، أنظر في حيرة إلى الجنرال فيرد علي بابتسامة ماكرة، يظل صامتا حتى تتراكم كلمات العجوز يقول أخيرا:

ـ إنه يعرفك بنفسه فحسب، اسمه "آذار" ولكنهم يطلقون عليه "غجري النهر"، فهولا يفارقه صيفا ولا شتاء.

يواصل العجوز الحديث، ويترجم الجنرال كلماته، يختلط صوتاهما ويرددان نفس الكلمات، تختلط معها وشيش مياه النهر المثقلة بالطمي والطحالب غجري بلا ملاذ، يتبع الأنهر من منابعها حتى مصباتها الأخيرة، حياة وموت وبعث في دورة لا تتوقف، وحتى بعد أن انقسمت الدول وأقيمت الحدود، لم يستطع أحد أن يوقفه، كان يرحل أينما تسري الموجات المرتعدة، مثلما ترحل الأسماك وطيور الماء والفراشات والجنادب، لا يملك من حطام الدنيا إلا هذه المصفاة الصدئة، ولايحتاج إلا إلى بعض من أعوادا لغاب والبوص ليقيم كوخا، عندما يتجمد النهر يرحل جنوبا، وعندما تذوب الثلوج يعود شمالا، يسعى خلف حلم أقرب إلى الوهم، أسطورة من عمر الزمن، ولكنها تعيش في داخله كأنه ترياق لحياته، بدأت مع قدوم الإسكندر واجتياحه لمدن آسيا القديمة مثل إعصار، هكذا تبدأ معظم الحكايات في تلك الأرض المتداخلة الأنهار، توقف الاسكندر في مدينة بعيدة من اقدم مدن البشر، "تركستان" التي جمعت وسط دروبها

كل سحر العالم، والتي تسعى إليها دوما كل القوافل التي تسير على طريق الحرير، مدينة تجمع بين غرابة الهند وبراعة الصين وخشونة الكازاخ وشظف القبائل الرحل، ولكن الذي ملك أنفاس قادة الإسكندر بحق كان ذلك التمثال الذهبي الموجود في إحدى معابدها، امرأة ذهبية لم ير أحدا في مثل جمالها، وقفوا أمامها مذهولين، بدت كأنها أنثى حقيقية في لحظة انتشاء لا تنقضي، من أجل ذلك أحسوا برغبتهم فيها في نفس اللحظة، أرادوها كاملة بكل ما فيها من إشعاع وتوهج، تجاذبوها فيما بينهم، علت صيحات رفاق السلاح، وتحول السباب إلى تهديدات ثم تدافعوا جميعا، شرعوا سيوفهم وبدأوا في التقاتل، تقاتلوا بعنف وشراسة، ولم يتراجعوا إلا بعد أن امتلأت أجسادهم بالجروح، لم يخرج أحد منهم ظافرا، لذلك كان هناك موعد آخر للقتال.

لم يكن "آذار" يتوقف تقريبا عن الكلام، تتلاحق أنفاسه تقريبا مع كل حرف، والجنرال يحاول ملاحقته بالترجمة، وحتى طيور الماء هبطت إلى حافة ربوة قريبة وأخذت تحدق فينا ساكنة، كنا نرحل جميعا مع الموج إلى زمن التكون، عاد الإسكندر فجأة ليفاجأ بالمأساة التي أصابت جيشه، لم يصدق

أن هؤلاء القادة الذين حصدوا كل غنائم الدنيا قد تقاتلوا لحافة الموت من أجل تمثال ذهبي لامــرأة مجهولــة، أمــرهم أن يلزموا جميعا خيامهم ولا يغادروها، وطلبوا من بعض أتباعه أن يتسللوا إلى المعبد وأن يحضروا له تلك المــرأة المثيــرة للفتنة، عاد الأتباع وهم يحملونها إليه داخل ســجادة ملفوفــة والقوها تحت قدميه.

شهق الإسكندر في انبهار، تأمل المرأة الذهبية، يا آلهة الأولمب، من أين تتأتى تلك الرغبة التي تشع منها، أحس أنه هو أيضا يريدها كما لم يرد امرأة من قبل، تذكر أنه قد جاب الأرض دون أن يظفر بنصيبه من الراحة، دون أن يأبه بتلك الرغبات الحارقة التي تجعل الدم يتدفق في عروقه، لــو أن ارسطو بجانبه لأعطاه الرأي السديد، ولكنــه تــذكر القــادة الجرحى الراقدين في خيامهم، أدرك إلى أي مدى يمكــن أن تأخذهم هذه الرغبة، وأن عليه ألا يضعف، لن يغفر له أحــد نقطة ضعف واحدة، صاح بحملة الفؤوس والمعاول:

ــ حطموها وانثروها في مياه النهر، هذه المرأة التــي فتنت الجميع لايجب أن تكون لأحد.

وسط قلوب واجفة، وعيون تلتمع أسى، ورغبة مستحيلة، هوت المعاول على الجسد الذهبي، لم تكن مهمة سهلة، فالمعاول ترتد، ولايتناثر منها إلا شذرات واهنة، ظلوا يواصلون الضرب حتى حطموا أطرافها ثم توقفوا، كأنما كانوا يتوقعون أن تتدفق الدماء من داخل عروقها، التقطوا أنفاسهم ثم ضربوا الساقين والبطن والحوض الثديين، لم يجرؤ أحد على أن يهوي بالفأس على وجهها، تلك النظرة الساهمة والابتسامة الغامضة والشعر الاجعد، سر كامن أو تعويذة غامضة، منعتهم من أن يحطموا تلك الرأس الذهبية، حتى الإسكندر نفسه لم يجرؤ على تشديد أوامره، دام اغتيال المرأة يومين كاملين، حطمت الفئوس بقية الجسد إلى قطع بالغة الصغر، ألقوا بها في النهر، سارت شذرات الجسد إلى التيارات المواتية والمعاكسة وحملها مياه النهر إلى كل مكان، الآن يستوي هذا الجسد الممزق في القيعان بين الحصى والطين، وهاهو "آذار" يخترق أغوار الزمن ويفني كل عمره من أجل جمع هذا الجسد، أصابته لفحة من فتنتها التي لم تمت.

أتأمل جسده النحيل المبلل، إلى المصفاة الصدئة التي يحاول أن يتصيد بها جسدا أسطوريا ضائعا، أقول مدهوشا:

ــ هل كان مشغولا بهذه المرأة إلى هذا الحد؟ لم يتزوج..لم ينجب أطفالا؟

يقول الجنرال "رشيدوف":

ــ لم يترك له النهر له فرصة، هذه المرأة الذهبية لم تترك له الفرصة ليفكر في امرأة من لحم ودم.

يتطلع الرجل إلى وجهي، يريد أن يعرف إن كنت أصدقه أم لا، من المدهش أن الكثيرين قد صدقوه رغم أنهم لم يظهروا ذلك، حتى تحت قبضة السوفييت الثقيلة، لم يجرؤ أحد على إيقافه، ربما اعتبروه مجنونا، روح هائمة من أرواح النهر، أقول للجنرال:

ــ يبدو أن حكايات الأنهر واحدة في كل مكان، أنت تعرف أنه في نيل مصر تناثر جسد أوزوريس الإله، وقضت زوجته إيزيس عمرها وهي تلملم أشتاته من طول النهر وعرضه، ولعلها مازالت تبحث عنه حتى الآن كما يفعل "آذار".

حدق هو في الجنرال متسائلا، يريد أن يعرف ماذا أقول ولماذا اذكر أسمه، يعاود الحديث بصوت محتد، يشير إلى العشة الصغيرة التي أوشك النهر أن يلتهمها، يريد أن نتتبعه إليها، نسير خلفه، تسعنا العشة بالكاد، ليس فيها إلا غطاء صوفي حائل اللون وصرة صغيرة، وسماور صدئ وبقايا طعام جاف من الأسماك، يجلس العجوز على ركبتيه، يفتح صرة الثياب بأصابع مرتعدة، يخرج من قاعها كيسا قديما، يفرغه في راحة يده، قطع صغيرة ودقيقة من الذهب، تتألق في وميض غريب وسط عتمة العشة، أجلس على ركبتي وأتناول واحدة منها، قطع حقيقية من الذهب، صلبة وباردة، شذرات من حطام ما، كأنه جسد امرأة في حطمتها الفؤوس في زمن بعيد، أتطلع إلى الجنرال، كان هو أيضا مذهولا، ربما كانت هذه هي المرة الأولى التي يرى هو فيها أيضا فيها هذه القطع الدقيقة من الذهب، المرة الأولى التي يكشف بها العجوز عن السر الذي احتفظ به طوال عمره، يتحدث الرجل بصوت متهدج، يقول الجنرال:

ــ يسألك..هل تصدقه الآن؟

ــ أنا مذهول، لا أستطيع أن أصدق أن قصته صحيحة إلى هذا الحد، هل يمكن أن تكون حقيقية؟.

يطوى راحته، ويعيد وضع حفنة الذهب في الكيس، والكيس في قاعة صرة ثيابه، ينظر إلينا بعينيه الزرقاوين كمياه النهر، أتأمل جسده الناحل، وكوخه المتداعي، وحافة النهر التي تفتقد لأي نوع من الأمان، أقول للجنرال:

ــ ألا يخاف من أن يعرف أحد أن معه هذه الثروة؟

ــ الجميع مثلي ومثلك يعتقدونه مجنونا.

نخرج من العشة ونعاود الجلوس أمام النهر، تبرد الريح وتدور الطيور فوق رؤوسنا، يتحدث الرجل في صوت خافت وهادئ، لا ينظر إلى أي منا، يتحدث للموج وللطيور، يهمس الجنرال :

ــ يقول أنه يوما سوف يجد رأس المرأة الذهبية، ستكون أمواج النهر حنونة عليه وتقوده إليها.

ينهض ويتناول المصفاة الصدئة، يعود للخوض في مياه النهر مرة أخرى، كأنه لا يستطيع فراق الماء لمدة طويلة، يدهشني أن يستطيع أن ينام الليل بعيدا عن الماء، يغرف الماء ويغربل الحصى، يندمج في عمله مرة أخرى ولا يعود

يشعر بوجودنا، أنهض وأمد يدي لأساعد الجنرال على النهوض، يقول لي:

ــ خذني إلى البيت

نصعد إلى ضفة النهر في وهن، يتوقف الجنرال قليلا ليلتقط انفاسه، ثم نسير في الشوارع الخالية وقد بدأ الظلام يهبط علينا، احس بالوحشة الشديدة، وأنني غير قادر على التحكم في جسدي المرتعد، أقول له فجأة:

ــ لماذا جئت بي إلى هذا المكان؟

يقول لي في خفوت:

ــ اردتك أن تعرف أن اباك أراد حياته كما كانت، أفنى نفسه فيها كما فعل العجوز "آذار"، والأهم من ذلك أنه عاشها كاملة لم ينقص منها شيئا، ربما كنت الذي لم يعش حياته بعد.

كنا نقف امام بيته، ولم يكن فيه غير نافذة واحدة مضاءة، خلفها تبدو ظلال رأسي السيدتين وهما جالستان في إنتظاره، يسير إليهما ببطء، عابرا حديقته الموحشة.

أسير في شوارع المدينة، تقودني دروبها إلى شوارعها، لا أتوقف للبحث عن سيارة للاجرة،أشعر إنني غير قادر

على الاستقرار في مكان واحد، كنت في حاجة إلى هذا السير الطويل حتى أهدأ قليلا، والعلبة المعدنية في يدي، بكل ما تحمل من رسائل وصور وذكريات، الظلمة تخفي وجوه العابرين فلا ارى أحدا، لا أتوقف إلا في ساحة "الريجنسان" عندما تفاجئني بضوئها الساطع، كأنها شموس تشرق عليها من زمن قديم، تتألق أسماء الجلالة على الجدران بحروف بارزة، ألتقط أنفاسي وأتوقف قليلا، أشعر بحاجتي الماسة إلى"طيف" وبالحزن لأنني سوف أقضي الليلة وحيدا بدونها.

قبل أن اخطو إلى داخل الفندق اسمع اسمي وهو يتردد، أسمع صوتها، التفت فاراها، تهتف بي:

ــ اين كنت، لقد انتظرتك طويلا.

أقفز إليها في فرح، آخذها بين أحضاني وأغمر وجهها بالقبلات، تجذبني هي من يدي حتى نتمكن من دخول الفندق من بابه الخلفي، نضحك في خلسة كالأطفال ونتبادل القبلات الخاطفة تحت ظلال الأروقة الممتدة.

في الدور الأولى تجلس "اولجا" في العتمة، نمر بها دون أن تأبه بنا أو تتحرك من مكانها، لا نوقد الضوء، نرى القبة تضوي في وهن، شاهدنا الدائم، أخلع عن "طيف" ثيابها،

يتضوع جسدها بعبق النهر ونعومة الرغبة وحنين التلامس، رائحة النساء العاشقات، يبحث كل منا عما يفتقده في جسد الآخر، نكف عن الارتجاف ويسري إيقاع الدفء، كأن أعضاءنا تكتسب حياة جديدة، يتمطى جسدها ويمنحني في انتفاضته من الطاقة أكثر مما يأخذ مني، أقبل كل جزء منها فتتحول كل قطعة فيه إلى شفاه مستجيبة، تناديني باسمي، وبكل كلمات الشوق التي لا أفهمها ولكنها تتسرب من خلال مسامي، تحدثني بالأوزبكية عن كل أمنياتها التي لم تتحقق، أحكي لها أيضا عن كل مخاوفي بالعربية، أشياء لا يمكن البوح بها إلا في لغتها الأصلية، كأن عري جسدينا قد كشف عما فيهما من جذور مطمورة، كنا معا بحاجة للبوح، ولبعض من التفهم.

لم نكن غافيين، ولكن الطرقات الحادة على الباب أثارت فزعنا، جعلتنا ننتفض من تحت الغطاء. هتفت "طيف" في فزع:" إنها أولجا"، من يمكن أن يكون غيرها، ولكن ما الذي أثارها لهذه الدرجة، كنا قد هجعنا دون صوت والليل قد قارب على الانتصاف، يتواصل الطرق في إلحاح، لا أسمع صوتها وهو يرتفع صوتها بالسباب كما هي العادة، أنهض

واقفا، تظل "طيف" في الفراش، تجذب الغطاء وهي ترتجف، كان يجب أن أوقفها عند حدها ولو أضطر الأمر إلى أن أغادر هذا الفندق، أنهض من الفراش وألف نفسي في إحدى الملاءات، أفتح الباب نصف فتحة وأنا أحضر كل كلمات السباب، أفاجأ "بنور الله" واقفا أمامي بلحيته الشهباء وسنته اللامعة وهو يهتف في وجهي في جذل:

ـ ماشاء الله، أنت غارق في النوم لهذه الدرجة.

أقف مذهولا، مسمرا عند فتحة الباب، عاجزا عن الرد على كلمته، كان قد غاب عني لدرجة أنني نسيت وجوده، نسيت اللحظات التي ربطت مصائرنا معا، يتحدث بطلاقة وحماس وينظر باستغراب إلى صمتي ووقفتي المتخشبة، يود الصياح كأنه يوشك على إيقاظ كل من الفندق:

ـ ماذا بك؟ ألا تصدق إنني مازلت على قيد الحياة.

أتذكر فجأة أنه قد أفلت من مأزق كان يمكن أن يعرضه لسجن أبدي، هذه الحشود التي توافدت عليه كان يمكن أن تؤلب عليه كل السلطات، ولكن هاهو يفلت منها ويقف أمامي صائحا:

ـ أنت مازلت نائما، أليس كذلك؟

يزيحني ببساطة من أمامه ويخطو إلى داخل الغرفة، أصيح به متأخرا:

ـ "نور الله"..اعذرني..

ولكنه كان قد رآها بالفعل، يحدق فيها مذهولا، ترفع رأسها هي أيضا وتشهق، نتجمد جميعا، هو في منتصف الغرفة، وأنا ممسك بحافة الباب، وهي في الفراش، الحركة الوحيدة التي قامت بها أنها مدت يدا شبه ميتة لتجذب بها الغطاء وتخفي عري صدرها، أظل واقفا أحرك عيني بينهما عاجزا عن فهم أو فعل أي شيء، يتحرك "نور الله" أخيرا، تراجع حتى التصق بالجدار وهو يقول:

ـ رحمات يارب.. رحمات..كيف حدث هذا؟

تتحرك "طيف" أيضا، تلف الأغطية حول جسدها العاري، تنهض من الفراش وتهرع مسرعة إلى الحمام وتغلق الباب من دوننا، نبقى وحدنا، متواجهين ومصدومين، أقول في بلاهة:

ـ هل تعرفها؟

يتحرك نحوي ولكنه بدلا من يتحدث يرفع قبضته ويهوي بها على وجهي، تدور الجدران من حولي، لاشعر

بنفسي وأنا أهوى على الأرض، ضربة هائلة ومؤلمة، أحاول النهوض، ولكن تفاجئني ضربة أخرى، ألم نافذ يرجعني للأرض مرة أخرى، ترتطم مقدمة حذائه بأضلاعي، أسمعه وهو يصرخ في صوت مسعور:

ــ كيف غررت بها؟ كيف قدتها إلى هذا الفراش الدنس؟

استند على يدي وأحاول النهوض، لم أكن أريدها أن تراني وأنا على هذه الصورة، يجذبني من ثيابي حتى يوشك أن يخنقني، أرى وجهه المربد، والزبد في زوايا فمه، يصرخ في جنون:

ــ ماذا ستدفع لها، أي مبلغ يوازي ما فعلته؟

لم أكن قادرا على مقاومته أو رد عنفه عني، كان مجنونا فاقدا لكل نوع من السيطرة، ألمح قدمي "طيف" وهي تخرج من باب الحمام وقد ارتدت ملابسها، تستند إلى الباب وهي تراقب صراعنا دون أن تتدخل، كان "نور الله" قد فرض سيطرته على المكان، ولم يبق إلا أن نطيع أوامره، يفلتني من قبضته فأزحف على بطني نحو محفظة نقودي،

أخرج منها أوراقا مالية لا أعرف عددها، أناوله إياها لعله يهدأ قليلا، ينتزعها مني ويلقيها لها:

ــ خذيها، مادمت قد بعت نفسك فلابد من أن تقبضي الثمن.

تمد يدا مرتعدة وتتناول النقود، أهوي على الأرض، أرى ساقيها وهما تسرعان بالهرب خارج الغرفة، يهوي على ظهري بحذائه مرة أخرى، يخرج خلفها، اسمع صوت قدميه وهو يبتعد عبر الممر، يسود الصمت ويبقى الألم وإحساسي الطاغي بالمهانة.

لا ادري كم مر علي وأنا ملقى هكذا، عاريا وعاجزا عن الحركة، ضاعت بقايا الدفء ولم تبق إلا الرضوض، أسمع صوت خطوات، تدخل امرأة الغرفة، أسمع صوت "أولجا" وهي تقول:

ــ أنت بالفعل تستحق ذلك.

تتناول ذراعي لتساعدني على النهوض، أحس بالخجل وهي تشاهد عريي، لم يبد عليها أنها تبال بذلك، كانت قوية، تمددني على الفراش، وتسحب علي الغطاء، كان وجهها محتقنا وعينيها مليئتان بالخوف، تقول:

ـــ هل تريد طبيبا؟

أهز رأسي بالنفي رغم أن الألم كان يمزق ضـــلوعي، ولكن ماذا يفيد الطبيب؟، تعاود "أولجا " القول فـــي إشـــفاق وببعض من الشماتة:

ـــ هذا يعلمك ألا تلعب مع الأطفال مرة أخـــرى، ألـــم أحذرك؟ على أي حال أنت تثير حزني.

تغلق الباب خلفها وتتركني وحدي، أظل مستلقيا عاجزا عن الحركة، أحدق في الســـقف المتســـاقط الطـــلاء، كـــان المصباح يتأرجح في حركة غير عادية، كأن هناك زلـــزالا يهز المدينة في صمت، ماذا حدث؟ هل يمكن أن أفهم وحدي ما حدث؟ هل هي ابنته؟ أخته الصغرى؟ إحدى قريباته؟ كيف يمكن أن توقعنا المصادفة في شراكها إلى هذا الحـــد؟ مـــن المؤكد أنها لم تكن مصادفة خالصة، كان هو الذي اختار هذا الفندق، وكانت هي تعمل فيه، كان من الطبيعي أن تتقاطع بنا السبل، هل كان يتوقع ذلك أم أنه حسب الأمر ســـوف يبقـــى خارج الفراش؟

أفيق وضوء النهار يغمر الغرفة، تخف حدة الألم رغـــم أنه مازال كامنا في أضلاعي، أتمكن من النهوض والـــذهاب

للحمام، أرى وجهي في المرآة، شاحبا ومليئا بالكدمات، أترك الماء ينساب فوق جسدي، أرتدي ثيابي وأعود للفراش، تفتح "أولجا" الباب وتتحسس جبهتي، تتأكد أنني مازلت على قيد الحياة، تسألني مبتسمة:

ــ هل أنت أفضل؟

ــ قليلا

ــ قليلا أفضل من لا شيء.

تحضر لي بقايا طعام جاف، آخر مابقي بعد أن أغلق مطبخ الفندق أبوابه، لم يكن من الممكن ان أبقى حبيس الفراش طوال اليوم، أرتدي ملابسي وأخرج إلى شوارع المدينة.

في الهواء الطلق وتحت ظل الأشجار أشعر ببعض من التحسن، ولكنني كنت خائفا، سيكون هذا هو يومي الأخير في هذا المكان، علي أن أودع الجنرال رشيدوف والقي عليه آخر أسئلتي ثم أرحل، علي أن أعود إلى طشقند، ثم أنهي رحلتي بأكملها وأعود للقاهرة، ولكني أعرف انه مازال لدي بعض الوقت، سوف أرحل في آخر الباصات التي تغادر المدينة، أتجول تحت أشجار الحور، لعل آخر ما تتركه في داخلي من

ذكرى بصرية تخفف من ذكريات الألم فـــي هـــذه المدينـــة، أخطو إلى داخل مدرسة "أوغلو"، أتوقف بجانـــب المنصـــة الحجرية التي كان يعتليها وهو يراقب النجوم، كان أوغلو هو أغرب أبناء "تيمورلنك"، حول بصره عـــن الأرض المليئـــة بالجثث والمدن المحترقة ونظر إلى أعلى، حيث النجوم التي تمده بمدد لا ينفد من الضوء، انتابتـــه لحظـــة غريبـــة مـــن التسامي التتري لعل السبب فيها هي هذه المدينة، لقد شذبته، نزعت من داخله وحشة الســـهوب وأعطتـــه القـــدرة علـــى التحليق، يستيقظ شعور الانبهار في داخلي وتخف حدة الألم، أعود إلى شارع "طشقند نميسكا"، الممتد، ماذا حدث "لطيف"، ألن يقدر لي أن أراها مرة أخرى، أن أسير معها فـــي هـــذا الشارع تحت أشجار الحور، أراقب ابتسامتها، وأحس بكفهـــا في راحتي، كم أفتقدها، كيف يمكن أن ينتهي كل شـــيءبهذه النهاية المباغتة، أحاول التخلص من شعور المرارة، أتوقـــف أمام منضدة تضم قطعا من الفخار الملون، نقـــوش بديعـــة، أزهار ونباتات متسلقة وأمواج غامضـــة، قطعـــة صـــغيرة ولامعة من الفردوس، تحني المرأة العجوز التي تقف خلـــف الطاولة هامتها وهي تبتسم لي، تقول ثمنا لا افهمه، تتنـــاول

ورقة وتكتب لي عليها، اكتب لها على نفس الورقة نصف السعر، تهز رأسها وهي لا تزال تبتسم، تكتب رقما آخر فأرد عليها برقم أعلى قليلا، تستمر عملية المساومة في صمت وإصرار، لا تفقد ابتسامتها ولا أفقد صبري، نتوصل أخيرا إلى رقم مشترك، تلف لي "الفازة" في عناية، أحتضنها مثل أنثى، سوف تكون هدية وداع مناسبة للجنرال "رشيدوف".

ارفع يدي حتى أستوقف إحدى سيارات الأجرة، أتوقف مدهوشا، ألمح امرأة تقلب في الثياب المعروضة أمام أحد المحلات، أين رأيت هذا الوجه قبل الآن؟، ذلك الجمال المنكسر الحزين، وجهها منطبع في ذاكرتي ولكني لا أدري أين رأيتها، يقترب رجل منها، يضع يده على كتفها في مودة وهو يشاركها في تقليب اقمشة الأطلس الملونة، أهتف مدهوشا:

ــ شيخ فلاح.

يدير وجهه نحوي، ينظر إلي وهو مازال يضع يده على كتف المرأة، تنظر هي أيضا نحوي مبتسمة، على وجهها علامات السعادة والرضا، لم يعد هناك أثر لخوف أو لفزع،

كانت امرأة مختلفة عن التي رأيتها في مشغل الخياطة، ملامحها أكثر رقة، وحركاتها أكثر انسيابية، تعلو وجه الشيخ فلاح ابتسامة خجولة، طفل تم ضبطه متلبسا، يقول:

ــ مرحبا بك يا أخي.

أقول مدهوشا وأنا أشير إليها:

ــ ماذا تفعل معها، حسبتك قد فصلتها من العمل؟

ينظر إليها، يتنهد في حرقة ويقول متمهلا:

ــ لقد تزوجنا.

أتماسك حتى لا أشهق مدهوشا، تخطو المرأة لتلتصق به تماما، كأنها تؤكد ما يقوله، بدا أنها تفهم جيدا ما نتحدث عنه، تريد أن تؤكد لي أنها قد استردت كرامتها كاملة، أقول بصوت أجوف:

ــ مبروك، ولكن كيف حدث هذا؟

ــ وماذا أفعل يا أخي، رأيت أن هذه هي الوسيلة الوحيدة لصيانة أعراض المسلمين، الزواج سترة على أي حال.

يغمض عينيه في تبتل من يؤثرون التضحية، يتصاعد الغيظ من أعماقي، أهتف:

ــ ألست متزوجا يا شيخ فلاح؟

ـ الحمد لله الذي أباح لنا من الأزواج مثنـــى وثـــلاث ورباع

لابد أن الحوار قد اقلق المرأة، تميل علـــى أذن الشـــيخ وتهمس له ببعض الكلمات، يلتفت إلي ضاحكا وهو يقول:

ـ إنها تدعوك للعشاء عندنا.

امرأة ذكية بلاشك، استطاعت أن تمتص غضبي بلمحة واحدة، أقول شاكرا:

ـ كنت أتمنى ذلك ولكنني استعد لمغادرة المدينة.

قال الشيخ فلاح محاول أن يكون مجاملا:

ـ لعلك لم تر "سمرقند" جيدا، ما رأيك لو صحبتك إلى "شاه زندا"، هذا مكان مقدس لا يجب أن يفوته أي مسلم.

ـ أعرف أنك مشغول، أنت عريس جديد على أي حال، يكفي أن تشير إلى الاتجاه الصحيح وسأذهب إليه.

نتبادل كلمات الوداع الأخيرة، تحنـــي المـــرأة رأســـها وتبتسم، كانت تدرك أنها تعيش لحظات من السعادة، قصيرة ومسروقة، فكرت في "شاه زندا" وكل ما سمعته عنـــه مـــن أحاديث، لا بأس من زيارة قصيرة لهذا المكان قبل أن أذهب إلى الجنرال، الطريق إليه ضيق وآخذ في الانحـــدار، تبـــدو

البوابات الضخمة المكسوة بالفسيفساء، ادخل فـــي متاهـــات مدينة الموتى المترامية الأطـــراف، درج رخـــامي متآكـــل، وممرات معتمة وأبهاء تظللها قباب مثيرة للرهبة، وسط هذه المتاهة المتداخلة يجوس جميـــع الـــذين يـــدورون المكـــان، معظمهم من النساء، يرتدين ثياب الأطلس الفاخرة، يتوســـلن للإمام الغائب ليحل عقدتهن المستحكمة، زواج قد تـــأخر، أو عقم قد طال، خلف كل هذه التلال والأوابد، يوجد الأمام حيا، بطريقة أو بأخرى، يستمع إلى كل هذه التوسلات، ابن عـــم الرسول قتم بن عباس، وقف في هذا المكان وحولـــه نفـــــر قليل من الجند، كان محاصرا بأعداد كبيـــرة مـــن القبائـــل الوثنية، قتلوا أصحابه واحدا بعض الآخر، لم يبق إلا هو في النهاية وليس معه إلا سيف وحيد، والسهام تنهال عليه، ظـــل يتراجع حتى اصبح التل في ظهره، واقتـــرب المحاصـــرون أكثر، لم يبق له مكان للهرب، ولكنه لم يعد موجودا، بحثـــوا خلف كل صخرة وفي كل شق، كانوا موقنين أنه موجود وأنه مازال حيا، انه سيعود، سيجمع جنوده ويثأر لنفســـه ولكـــل الذين ماتوا وهم يدافعون عنـــه، يســـمعون صـــوت لهاثـــه، وصيحاته، وحتى تكبيراته، ولكن جسده لم يكـــن موجـــودا،

وحتى هذا القبر الموجود وسط تلافيف هذه المتاهة لم يقدر على ضم بدنه، كان فقط تعبيرا عن روحه الطليقة والقلقة التي لم تجد لها مستقرا ولم تظفر بثأر.

أقف في الممر المظلم الذي يؤدي إلى الضريح، نساء وفتيات لا يكففن عن وضع الشموع في الكوات المحيطة به، تتحرك ألسنة اللهب الصغيرة، تحاول أن تطرد ظلمة الموت، أقترب من غرفة الضريح، تزداد كثافة الشموع التي تحيط به وتتصاعد أدخنة البخور، أقترب مبهور الأنفاس، رخام الضريح بما عليه من نقوش يضوي في وهن، كأن الأمام داخل مكمنه الحجري يلتقط أنفاسه بين لحظة وأخرى.

قبل أن أخطو إلى داخل الغرفة أسمع صوتا باكيا، كأنني أطفو وسط غابة من الدوائر المتداخلة، أعرف صوت الرجل الذي يبكي قبل أن أتوقف وأنظر من خلف الباب في حذر، "نور الله" جالس على ركبتيه أمام الضريح الرخامي، يتحدث بلهجته المحلية في صوت أجش متقطع، كأنه يقص عليه نفس القصة التي تثقل صدره، كان يردد بعضا من كلمات ذات إيقاع منتظم، أشعار أم مراثي، يضرب صدره بيده، يعبر عن ندمه الفاجع، يمسح الدمع الذي ينحدر من عينيه إلى لحيته،

ثم يعلو صوته فياضا بالتضرع، ربما كانت حكاية أخرى أكثر ندما، تستنزف كل ما لديه من ودموع.

يتوقف قليلا، بدا أن الكلمات لا تطاوعه، يتصلب جسده ثم يأخذ في البكاء، بكاء قاس منتحب، يمسك بحافة القبر الرخامي ويعلو صوت نشيجه، طفل ضخم على حافة الانهيار، لا يأمل تعاطفا ولا غفرانا، حله الوحيد أن ينهض الإمام الراقد تحت الرخام ويأخذ بيده لعل روحه تهدأ قليلا، أرتجف أنا أيضا، أحزانه تثير كل مكامن الضياع في داخلي، ترى أين ذهبت "طيف"، لماذا غادرتنا معا، ترى هل قتلها في نوبة جنونه، وهو يكفر الآن عن ذلك، أتقدم خطوة واحدة، اقف في مواجهته وأنا أحتضن إناء الخزف، يشعر بوجودي، يلتفت إلي ببطء، أرى وجهه مخضبا بالدمع والدهشة، أقول له هامسا وأنا أرتجف:

ـ هل قتلتها؟

صمت قليلا ثم صاح في غضب:

ـ أيها الأحمق، هل تعتقد أننا في صعيد مصر، انصرف ودعني وحدي مع الإمام.

لم يكن هناك مفر من التراجــع أمامــه، كــان وجهــه الغاضب يشبه أبي، أسرع عبر الممرات المظلمة، مهما كانت درجة جنونه فلم أستطع أن أتصوره قاتلا، كمــا كــان مــن المفزع أن أتصورها جثة هامدة، هذا الشيخ الشهواني المحب للحياة الذي جرب لذات الخطايا هل يمكن أن يكــون قاســيا لهذه الدرجة؟

أوقف إحدى سيارات الأجرة وأنــا أرتجــف، أعطيــه عنوان الجنرال "رشيدوف"، تمرق بي السيارة تحت حبــال الغسيل المنشور، أجد نفسي عاجزا عن فعل أي شيء، لم تعد هناك حاجة للأسئلة، أو أن كل الأسئلة لم تكــن ذات أهميــة أصلا، أتوقف أمام البيت، أشير للسائق أن ينتظرني، أضــع وعاء الخزف وأنسحب عائدا إلى السيارة، لم أعد قادرا على أي نوع من المواجهة ولا على المزيد من الخسائر، لم يبــق أمامي إلا الرحيل عن هذه المدينة.

في الصباح المبكر احمل حقيبتي وأغادر الغرفة وحيدا، كانت "أولجا" نائمة مفتوحة الفم، أود أن أوقظها حتى أودعها، ولكن مظهر نومها كان مثيرا للرثاء، أشبه بمــوت صــغير، أسير وسط ضباب الصباح الهش الذي يغلف الشوارع، وداع

معتم، أقف في محطة الباصات، وسط مجموعة من الكـــازاخ والكوريين الذين يبدأون في تنظيف المكان، أجلس فوق مقعد خال ومتباعد، بعد قليل سوف تنتهـــي رحلتـــي، ولـــن أرى "طيف" مرة أخرى، هل كان الأمر يحتاج إلى فرصة أخرى، محاولة أخرى، لو أنها أرادتني لجاءت إلي، كنـــا لحظتهـــا نستطيع الهرب إلى أي مكان، ولكن هل كنت مستعدا للقيـــام بذلك؟

تأتي الحافلة مثيرة للغبار، أسرع بالصعود وآخذ مكاني بجوار النافذة، ينقشع الضباب قليلا فـــأرى أشـــجار الحـــور وخلفها بقايا القباب الزرقاء والســـماء الباهتـــة، لا تتحـــرك الحافلة ولا يكف الركاب عن التوافد، يملئون كل حيـــز مـــن الفراغ، عمائم ولحى وصراخ أطفال وسلال مليئة بـــالطيور الحية، ترتفع درجة الحرارة، يتبدد الضباب ويتصاعد الغبار، لا يظهر السائق والمحصل، ويعلو صوت غطـــيط الرجـــل الجالس بجانبي، اشعر أنني محاصر، ولا توجد وسيلة أغادر بها هذا المكان.

يأتي المحصل أخيرا وهو يلوك بقايا طعامـــه، يتبـــادل الكلمات والصياح والتهديدات مع الجميع، يتظاهر بأنه يوشك

أن يغادر الحافلة ويتركهم، يقف السائق بجانب المحصل مساندا، أشعر برغبة في الضحك وأنا أراهم يتشاجرون في جدية بالغة، ثم يهدأ كل شيء فجأة كأنما افرغ الجميع كل ما في داخلهم من شحنات الغضب، يبدأ المحصل في بيع التذاكر، ويجلس السائق في مكانه، باذلا العديد من المحاولات حتى يتمكن من تشغيل الماكينة وتتحرك الحافلة.

ندور في دورة واسعة حول النافورة المعطلة، تظهر ساحة الريجستان، تمنحني نظرة الوداع الأخيرة، ثم تظهر قبة "بيبي خاتون"، زرقاء كرغبة حزينة لم تكتمل، المنازل والتكايا وأشجار الحور، زهو حزين، ربما كان السائق يدرك بطريقة خفية أن هناك راكبا وحيدا يلقي نظرته الأخيرة على المدينة، يترك فيها قطعة من ذات نفسه ولا يأخذ منها إلا مزيدا من الأسى، تعبر "سمرقند" عيني، مثلما تعبر روحي وقلبي، متاهة من التواريخ والأحزان وقبض الريح، أدرك فجأة أنني كنت في داخلي أبحث عن ملجأ ومستقر، وأنني حسبت ذات لحظة إنني قد ظفرت به، ربما لم يوجد هذا الملجأ الآمن قط، أغمض عيني، حتى لحظات الوداع لا يجب أن تطول كثيرا.

نواصل السير قليلا قبل أن أشعر بالحافلة وهي تهتز بشدة، بدا كأن السائق عاجز عن التحكم فيها، أفتح عيني مفزوعا، يصيح الركاب فزعين، يصرخ السائق بالشتائم وهو يطل من نافذته الجانبية، أطل أنا أيضا من النافذة فأرى سيارته الصغيرة وهي بجانب الحافلة، تضيق عليها الخناق حتى ترغمها على التوقف، وكان "نور الله" في داخلها، يتبادل الشتائم والصراخ مع سائق الحافلة، رأسه معصوبة بضمادات بيضاء، كأنه خارج من مشاجرة، أو انه قد ضرب رأسه في القبر الرخامي، ظل يواصل السير بموازاة الحافلة، حتى يستطاع ان يسبقها، يستدير في حركة مجنونة ليسد الطريق أمامها، يضغط السائق الكوابح بعنف، تئز الحافلة وهي تزحف على الأرض، يتعالى صراخ الركاب وهم يحاولون التمسك بأي شيء، تتوقف الحافلة بمعجزة على بعد عدة أقدام من سيارة "نور الله".

يهبط وهو محتقن الوجه، ما زال غاضبا ومجنونا، حيوان بري باعث على الرهبة، يخيم الصمت على الجميع، ربما أدهشهم منظره، أو لم يصدقوا أنهم قد نجوا من حادث مروع، يدور "نور الله" حول الحافلة ثم يصعد إليها، لا يجرؤ

السائق هو أيضا على الاعتراض، ربما كان يعرفه من قبل، أو خائفا منه، يسير "نور الله" حتى يتوقف أمامي، يأخذ كل منا أنفاسه في صعوبة، يخيم الصمت لا يبقى مسموعا غير طنين ما كينة الحافلة، يهتف:

ــ انزل.

أقول:لا أريد، لقد افترقنا نهائيا.

ــ بيننا حساب لم ينته بعد، جئت بك، وسأعود بك.

يتابع كل من في الحافلة حوارنا، لا أدري إن كانوا يفهمون الكلمات العربية أم لا، ولكنني متأكد من أنهم قد أصبحوا موقنين أنني السبب في الكارثة التي كانت ستحل بهم، يحاصرونني بنظراتهم المستريبة، أتحول فجأة بينهم إلى كائن غريب، يتحدث السائق يقول شيئا ما، يرد عليه "نور الله" بكلمات سريعة وهو يشير إلي، يهز السائق رأسه في اقتناع، يلوح لي بيده حتى أغادر الحافلة، يتقدم المحصل، هو أيضا، ويحمل حقيبتي، يضعها في حزم خارج الباب المفتوح، يتراجع الراكب الذي بجانبي نفسه ليفسح لي طريقا للخروج، ويستعد آخر ليجلس مكاني، لا أجد مفرا من النهوض،أسير بينهم، أشم رائحة عرقهم، وأرى أسنانهم

الذهبية وشفاههم التي تفتر عن ابتسامات متواطئة، اللعنة، ماذا قال لهم؟ كيف استطاع أن يؤلبهم ضدي، أنا الغريب الوحيد؟ أهبط درج الحافلة و "نور الله" خلفي، أسمع صوت اغلاق الباب يمنعني من العودة إلى الحافلة، قبل أن أحمل حقيبتي يحملها "نور الله"، يسير إلى سيارته ويضعها خلف السيارة، يستدير ويجلس خلف عجلة القيادة متأهبا، أتردد في الركوب ولكني اشعر أن نظرات كل من في الحافلة تخترق ظهري، افتح الباب وأجلس بجانبه، يحرك السيارة بسرعة ليفسح مكانا لمرور الحافلة، وفجأة تتعالى أصوات الركاب، يصيحون ويلوحون بقبضاتهم من خلال النافذة، شتائم واحتجاجات، لا يسكت "نور الله"، يبادلهم الشتائم واللعنات بنفس القوة حتى يختفون عن الأبصار.

نسير عبر الشوارع الضيقة ثم نخرج فجأة إلى حافة نهر "زراكشان"، تعاود السيارة حشرجاتها القديمة، تبتعد "سمرقند" عني وأنا عاجز عن ذرف دمعة وداع من أجلها، نجلس سويا بيننا صمت وعداء، يمتد الإسفلت المتكسر أمامنا حاملا آثار كل الذين عبروا، هل تركت المدينة فيهم كل ما تتركه في الآن، كنت أدرك أن شيئا ما سوف يحدث، لايمكن

أن تتواصل الرحلة ونحن بهذا الشكل، أحس أنه قد انتزعني من "سمرقند" بشكل مفاجئ، مثلما انتزع "طيف" من فراشي، وأخفاها، تقفز السيارة على الإسفلت اللامع ويبدأ حلم "سمرقند" في الاختفاء، الرحلة التي رتبت بها طويلا تنتهي بغتة، في الحافلة كان هناك مجال للتردد، لتغيير الرأي، أما الآن فهذا الرجل يقبض على مصيري، يخضعني مرة أخري لسيطرته، أتأمل الطريق، لا أرى أي إشارة تنبئني إلى أين نذهب، لا أستطيع أن أخفي نبرة الفزع في صوتي وأنا أهتف به:

ــ إلى أين تذهب بي؟

لا ينظر نحوي، يبدو أنه سعيد بنبرة الفزع، يستكمل بها انتقامه، يقول:

ــ أنت كثير الهواجس، ماذا يمكن أن افعل بك؟

ــ لماذا أصررت على أخذي من الحافلة، وما هي تلك الحسابات التي تصر على تصفيتها؟

ــ كلها تعبيرات مجازية، اللعنة على اللغة العربية، إنها فضفاضة أكثر مما ينبغي.

يستعيد لهجته العدمية الساخرة، هــل انقشــعت موجــة الغضب والجنون،يطمئن قلبي قليلا حين ألمح لافتة مكتــوب عليها "طشقند"، كنا نسير إلى المدينة الصحيحة، ولكنا مــاذا ينتظرنا على هذا الطريق الطويل، كيف يمكن أن تتم الرحلة ونحن نخفي ما نشعر به مــن عــداء تحــت هــذا الهــدوء الظاهري، رغم ذلك فقد كان بيننا حديث، كان مليئا بالسخرية المريرة، ولكنه حديث على أي حال، أشير للضماد الذي يلف رأسه،أقول محاولا أن تكون لهجتي حيادية:

ــ ماذا حدث لرأسك، هل اصطدمت برخام الضريح؟

ــ أنت تعرف أنني أعقل من ذلــك، إنهــم أصــدقاؤنا الغجر، طاردوني من أجل بضاعتهم المهربة، قلت لهم إننــي خفت من الشرطة وألقيت بها في النهر فلم يصدقوني، حاولوا قتلي، لحسن الحظ كان لي معارف بالشرطة المحلية للمدينة، وقد تكفلوا بإبعادهم عني، كان من الممكن أن يقتلــوني هــم أيضا..

نواصل الحديث، لكننا ندور معا حول دائرة من الشوك، لمسة منها يمكن أن تدمي، أفكر في الســبب الحقيقــي وراء إصراره على اصطحابي عنوة في طريق العودة، كنا نبتعــد

عن "سمرقند" سريعا، كل شيء على وشك الانتهاء بالفعل، التقط نفسا طويلا قبل أن أقول له في جدية:

ــ حسنا، مادمنا معا لهذه الساعات الطويلة فلننته من هذا الأمر.

ــ أي أمر؟

ــ لم أكن أعرف أنها تمت إليك بصلة قرابة، هي لم تذكر اسمك لي ولو لمرة واحدة، لم أعرف عنها شيئا؟

لا يرد، يظل متمسكا بثباته وهو يواصل القيادة، لا يتوقف، لا يبدي انفعالا، يشجعني صمته على مواصلة الكلام:

ــ من هي،...إحدى قريباتك؟...أعني أهي قريبة منك إلى حد ما؟

يلتفت إلي بوجه محتقن، كان الغضب قد عاوده، ولكنه أيضا لم يتخل عن عجلة القيادة، لم يتوقف، يصرخ في:

ــ ومن أنت على أي حال، تدخل حياتنا وتعرف كل شيء عنا دون أن تبوح بكلمة واحدة عن نفسك، ماذا عن سبب إصرارك على القدوم "لسمرقند"، أي صديق غامض

هذا الذي تقطع كل هذه المسافة لتقابله، من أنت على أي حال؟

كانت الشمس قد تعامدت في منتصف السماء، ولم تبق ظل لشيء، كنت أنا أيضا أمضي دون ظل، لا أستطيع الإجابة على سؤال بسيط مثل هذا، لماذا جئت إلى هنا؟، تتداخل الطرق وأشجار الصفصاف والأنهر التي نعبرها، وتبدو حقول القطن متوهجة مثل صحراء بيضاء، تغادر المدن ذاكرتي فلا يبقى لي مكان أحن إليك، أمر مؤلم آلا تكون لك قطعة من الأرض تحن إليها و تحمل في ترابها ذكرياتك، من أنا، وماذا أريد و وإلى أين أتجه، هل هناك وجهة أصلا؟

حـــكـــايـــتي أنا

ـ١٣ـ

ـ "ربما أستطيع أن أخطو خارج ذاتي ولو للحظات من الزمن، احتاج إلى زمن ميت لا ترهقني توالي لحظاته وساعته وأيامه، برهة من السكينة أبتعد فيها عن أديم جسدي والقضبان التي تكونها عظامي وتأسر روحي، أراني كما لم يرني أحد، أستحضر صورة أبي، رغم أنها لم تغب عني، حية ومتعبة، مريرة ومتدفقة، لعل ذلك يساعدني على اكتشاف خلايا الضعف والوهن التي لاحقت خطاه ثم لاحقت خطاي، سلسلة طويلة من تصفية الحسابات، نقطة الضعف التي قادته للسقوط كما يتحدثون عنها في المآسي الإغريقية القديمة، كان ابي بطلا شديد القوة والوهن، لم يكن بطلا إغريقيا ولكنه تحمل قدره بكل ما فيه من تبعات، بينما وقفت أنا في صفوف الجوقة الخلفية أردد المراثي مع المنشدين، لم يكن نشيد أبي حزينا فقط، ولكنه كان غامضا، ولم استطع حتى هذه اللحظة أن أقاوم حزنه، أو أفك ما يكتنفه من غموض، لا أدري إن كنت أتحدث عن نفسي أو عن أبي،

ولكن الحكاية متشابكة مثل تشابك الأيام وتضارب العواطف".

في لحظات مثل هذه لم يكن "علي" يعرف إن كان يحب أباه أو يكرهه، كان فقط قد اكتشف لتوه أن هناك من يتبع خطاه، وأنه لا يستطيع أن يقوم بأي تصرف سواء كان مقصودا أو عفويا دون يكون معروفا، ظلال خفية تلاحقه في كل مكان، تتوارى بين طبقات العتمة والضوء ولكنها تظل موجودة، يتغيرون بعد مرور كل فترة من الوقت، ولكن لا يوجد فرق بين وجه قديم وآخر جديد، لا توجد ملامح محددة للضلال، لا تتغير إلا مع انحراف زاوية الشمس، تقول له أمه: ولا نراهم لكنهم يشاركوننا نفس الهواء، قالت ذلك في وقت مبكر قبل أن تتركه أسير حنين لا ينتهي، رحلت دون أن توضح له ماذا كانت تعني، لم يدر علي كيف اختفت رغم وجود كل هذا العدد من مقتفي الأثر، لكنها تركت لهم كل الهواء، وتركت له فراغا من الصمت وشتاء بلا نهاية، حتى بعد أن رحلت لم ينقطع صوت الخطوات، وسواء كان أبوه في المنزل أو خارجه لم تكن الخطوات ولا أصوات التمام تتوقف، في تلك اللحظات كان الأب كثير الغياب، يختفي

لأيام وليال متعاقبة، ولكنه على الأقل كان يعود، وكان ينظر إليه في بعيون متعبة ولكنها متألقة، كان هناك حزن ما، ومهما حاول الاثنان أن يتجاهلاه كان هذا الحزن ما يحتل مساحات الصمت فيما بينهما.

كان الأب منذ فترة طويلة قد كف عن ارتداء الزي العسكري، لم يكن يرتديه إلا في الصور القديمة بالأبيض والأسود، بعضها كانت تصوره وهو داخل الثكنات والمواقع والبعض الآخر تجمعه مع الأم التي غابت، ثم بدأت الصور التي توجد فيها الأم تتابع الاختفاء، كأنه تذوب خلف طيات الأيام ولحظات الزمن المتراكم، ومع اختفاء الصورة الأخيرة أصبح عالمه جافا، خاليا من أي لمحة نسائية، حتى الزيارات العائلية تباعدت، وبقي أبوه وحده:

ــ "هل تريد أن تعرف ماذا يشبه أبي؟ هل قمت بزيارة إحدى المعابد المصرية القديمة ورأيت الصور الجانبية المرسومة على الجدران، أبي كان واحدا من هؤلاء، لم استطع أن أرى منه إلا ذلك الجانب الجامد من الوجه، رغم أنه لم يكن ملكا ولا فرعونا".

لم يكن الأب يتحدث كثيرا عن مهنته، لم يكن يتحـــدث كثيرا عن أي شيء آخر، تعلم أن يسير حياته وحياة الآخرين بأقل عدد من الكلمات، نظرة واحدة من عينية كانت كفيلة في معظم الأحيان بحسم الأمور لصالح ما يراه، كان هو وعلـــي قد تجنبا معا أي نوع من المواجهات، ومن الأسئلة المثيـــرة للشجن، المواجهة الأولى لم تحدث إلا بعد أن حصـــل علـــي على الثانوية العامة، يومها تأمله الأب قليلا كأنه قد اكتشـــف أن الكائن الهامشي الذي يعيش في بيته قد أصبح له مصـــير يجب أن يتم تقريره، قال له:

ــ مر واحدا من الحرس حتى يأخذ نسخة من أوراقـــك ويذهب لتقديمها في الكلية الفنية العسكرية.

كأن هذا كان هو الشيء المنطقـــي الوحيـــد، أن يســـير "علي" على نفس الدرب الذي سار عليـــه، ويرتـــدي نفـــس ملابسه، ويلمع أزرارا معدنية شبيهة بأزراره، وربما يتصور أيضا مثله بالأبيض والأسود، تمنى "على" لو ان أمه كانـــت موجودة في هذه اللحظة بجانبه، تقول كلمة ما في مواجهـــة هذا الصمت، تشد من أزره حتى يذهب إلى أي مكان يحبـــه

بل أنها كانت ستساعده على معرفة كيفية ما هو الحب، قـــال علي بصوت مكتوم:

ــ لا أريد الذهاب إلى كلية عسكرية.

قال الأب في حسم:

ــ كلام فارغ، مجموعك كبير ولن تجد كليـــة أفضـــل منها، هناك شهر اختبار تقيمه داخل الكلية قبل بدء الدراسة، أذهب واكتشف ما يدور هناك وسوف تقتنع.

ونهض منهيا المناقشة، كانت هذه أطول جملة حـــديث تبادلها معه، وظل علي واقفا مذهولا، كان الخـــادم العجـــوز "عزوز " هو الوحيد غير العسكري من بين الذين يتجولـــون في المنزل هو الذي حضر له حقيبته في يـــوم ذهابـــه إلـــى الكلية، وكان السائق ينتظره عند الباب، وحارس آخر يجلس بجواره، ولم يكن الأب موجودا ولكن كل شيءسار كما رتب تماما، عدت السيارة بأسرع ما يمكنها وسط الشوارع الخالية والتي لم تكن أبدا كذلك، كأنهم جميعا يريدون اقتناص مابقي من لحظات حريته، كان سور الكلية أصفر اللون، تمتد على حافته لفائف من الأسلاك الشائكة لا يجرؤ علـــى الوقـــوف عليها سوى الغربان، وتوجد في كل زاوية من زواياه أحـــد

أبراج الحراسة يقف عليها جندي شاكي السلاح، في الداخل، وسط الفناء المترب كانت هناك صفوف من الطلبة حليقي الرؤوس، ينظرون حولهم في فزع، وجندي هزيل يصرخ فيهم، وضباط ذوو رتب أعلى ينظرون إليهم في احتقار، وقف "علي" مع بقية الطلبة في طابور غير منتظم، تأمل الحقائب القديمة التي جاءوا يحملونها من الأرياف والمدن الصغيرة وهي توشك على التمزق وتخرج كل محتوياتها، كانت حقيبته تبدو لامعة وغريبة، في غير موضعها، هبط ضابط رفيع المقام من فوق الدرج وأخذ يتأمل الطابور الممتد، عدد كبير ومهوش من الطلبة الجدد، لن يتم قبول إلا أعداد قليلة منهم، سوف يتم فرزهم، وترشيحهم كقطرات الماء، كل الشوائب يجب أن تبقي خارج أسوار الكلية، هذا الشهر هو اختبار التصفية، قاله أبوه وهو يحاول إقناعه بأهمية الكلية:" إنهم صفوة الجيش المصري، لا يجب أن يكون بينهم مجال للخطأ"، تأمل "على" مباني الكلية، والهناجر المتفرقة، والنوافذ المطلية باللون الأزرق، حاول أن يقنع نفسه، بأن هذا هو مكانه، وأنه هنا لن يرضي أباه فقط، ولكنه سوف يرضي نفسه أيضا.

صرخ الجندي فيهم فاستدار الصف المهوش، توجهوا جميعا إلى عنبر النوم حتى يعرف كل واحد منهم مكانه، قاعة واسعة عالية النوافذ، مليئة بالأسرة المعدنية المكونة من طابقين، تفوح من المكان رائحة ثقيلة، بقايا أنفاس دفعات الطلبة التي توالت على المكان، مختلطة بروائح المطهرات النفاذة، أصبحوا جميعا في مكان واحد، وتركهم الجندي كل واحد يختار سريره ورفيقه، تخلوا عن فزعهم وبدأوا في الكلام والتعارف، لم يكن هناك هواء صالح للتنفس وسط هذا الزحام، كان رفيقه تلميذا نحيفا قادما من "طنطا" أسمه إبراهيم، كل ما لديه من خبرات هي ليال السهر وساعات المذاكرة الطويلة والصراع من أجل الحصول على أكبر عدد من الدرجات، الكلية هي أمله الوحيد، المكان الذي يوفر له الإقامة والدراسة المجانية دون أن يكون عبئا على أهله، "لو لم يقبلوني هنا، فسأذهب للعمل في ورشة إصلاح السيارات، أهلي لا يملكون قرشا فائضا ينفقونه على تعليمي"، هكذا قال له منذ اللحظات الأولى، كان الطريق ضيقا والأفق محددا، ترك "على" يختار الفراش الذي يناسبه، اختار الفراش العلوي

لعله يحس بأنه أكثر حرية، ووضـــع ملابســـه فـــي خزانـــة مكسورة الأقفال.

عاد الجندي يقف على باب العنبر وهو يصرخ مـــرددا الأوامر والتعليمات التي تحكم نظام الكلية، لم يفهم "على" من لهجته الصاخبة إلا أن هناك طوابير والمزيد من الطـــوابير، وان عليهم الآن أن يتوجهوا إلى عنبر الطعام فـــي صـــفوف منتظمة، لم يكن الطعام جيدا، ولم يكن له طعم محدد، ورغم ذلك أكل الجميع في لهفة، وعندما لاحظ "إبراهيم" أن على لم يكمل طعامه سارع بأخذ الصينية المعدنية من أمامه والـــتهم كل ما فيها من بقايا، وقف الجندي مرة أخرى علـــى بـــاب المطعم وتفحصهم قليلا قبل أن يصيح بصوت عـــال مناديـــا الاسم الكامل "لعلي"، نهض واقفا، أحس أن كل الأنظار تتجه إليه، ولم يكتف الجندي بذلك، ولكنه قال في لهجـــة حازمـــة سمعها الجميع: " سيادة اللواء مدير الكلية يريد أن يراك فـــي مكتبه حالا":

ـــ"لا أدري لم فعل بي الجندي هذا؟، لم جعل الجميـــع يعرفون اسمي، ويحفظون وجهي منذ اليوم الأول، ويدركون منذ اللحظات الأولي أنني طالب له امتيـــاز خـــاص، كانـــت

الجندي مشدودا، تبدو عليه الرهبة وهــو يكلمنـــي، تغيــرت لهجته وفقد سطوته، وتركني أسير أمامه وسار خلفي وكنــت أدرك أنهم يراقبون كل هذه التفاصيل"

الطريق إلى مكتب المدير طويا، مفروش ببساط داكــن الخضرة، بينما يلتصق بالجدران عدد من الجنود فــي وقفــة منتصبة، دخل علي إلى مكتب واسع جيــد التهويــة مليئــا بنباتات الظل، وعلى الجدران معلق صور الدفعات الســابقة وعدة دروع معدنية، في ركن المكتب ينتصب دولاب ضخم مليء بالكؤوس والأوسمة، ولكن لعل أهم في المكتب كانــت تلك الصورة الضخمة لرئيس الدولة وهو يمسك عصا ويزين صدره المنفوخ بعشرات الأوسمة التي أنعم بها على نفسه في أعقاب حرب أكتوبر، تحتها مباشرة كان يقف مــدير الكليــة برتبه النحاسية اللامعة، كان ضخما، أشيب الشــعر، تأمــل "على" قليلا كأنه يتحقق من دقة الشبه، لم يبد أنه سوف يسمح له بالجلوس فظل واقفا منتصبا، قال المدير بصوت عميق:

ــ لقد أراد أبوك ــ وهو محق في ذلك ــ أن نعاملــك مثل بقية الطلبة، لم يرد أن تقيم في غرفة منفردة، إنها فرصة لك حتى تتفاعل مع الجميع، فهل أنت مرتاح؟

قال علي : أجل..

دون أن يدري بالضبط ماذا يريد أبوه منـــه، ولا لمـــاذا يصر على ملاحقته في كل مكان حتى خلف هـــذه الأســـوار الباهتة، قال المدير:

ــ أردتك فقط أن تعرف إنني موجود عند حـــدوث أي مشاكل، وفي العادة لا توجد أي مشـــاكل، نحـــن لا نســـمح بحدوثها، كل ما أستطيع أن أقوله لك أنك أول المقبولين فـــي هذه الكلية ولكن لا تشع هذا الخبر لأن بقيـــة زملائـــك لـــن يعرفوا ذلك إلا بعد مرور شهر كامل.

هذا هو كل ما استطاع أن يعده به، وعدا كـــان "علـــى" مرغما على قبوله، سار الجندي خلفه مرة أخرى حتى عنبر النوم، أضيء النور في العنبر حتى يدخل، فتحوا أعينهم في فزع رفعوا رءوسهم وأطلوا من فوق أسرتهم، وظلوا يتابعون حركتهما، وظل الجندي واقفا بجانب زر الضوء حتى وصل "على" إلى مكانه ثم أطفأ الضوء، كان مشهدا لن ينسوه، وظل هو عاجزا عن النوم لمدة طويلة، ظل يستمع إلـــى الغطـــيط المتتابع من أصواتهم، كل ما استطاع أن يفكر فيه هو أن أبيه قد هيأ له أسوأ بداية يمكن أن يبدأ بها.

في الصباح واجهته نظرات الحقد في عيـونهم، حتـى إبراهيم الذي ينام أسفل فراشه، رمقه بنظرة متسائلة، هل أنت حقا أول المقبولين؟ من أنت بالضبط، ولماذا يحرص مـدير الكلية بجلالة قدره على الالتقاء بك منذ اليوم الأول، كـانوا يحاصرونه بنظراتهم كأنه أخذ فرصتهم الوحيدة، يحومـون حوله مثل الذباب وهم يحملون أسـئلتهم الصـامتة، وهكـذا مضت أحداث اليوم الطويل، طوابير بـلا نهايـة، زيـارات لورش ومعامل الكلية، طعام نصف محتـرق، ومشـاحنات جانبية بين الطلبة الجدد وبعض من الطلبة القـدامى الـذين جاءوا ليمارسوا بعضا من السلطات التي تتيحها لهم الأقدمية، ولكنهم ظلوا يلاحقونه رغم ذلك بأسئلتهم الصامتة.

ـ "لا أذكر اللحظة التي دخل فيها "طلال الأنصـاري" حياتي داخل الكلية، كيف برز لي فجأة من وسط مجموعـة الطلبة القدامى، خيل لي ذات لحظة إنني لم أدخل هذا المكان إلا لأقابله، لأقع تحت تأثير عينيه النافذتين وهمـا ترصـدان خطواتي وتقرران مصيري حتى قبل أن أشعر بوجوده".

كانت هناك مباراة لكرة القدم بين الطلبـة المسـتجدين والقدامى، مناسبة للتعارف وتخفيفا لوطأة الأسوار التي تحيط

بهم كقبضة محكمة، لم يكن "علي" يريد أن يلعب، كان كما هو دائما،ابن أوحد لأسرة خائفة من ملامسة الآخرين، لم يكن قد استطاع أن يرفع الحاجز بينه وبينهم، ولكنه وجد نفسه في وسط الملعب، تم اختياره رغما عنه، ارتدى فانلة حمراء باهتة، تفوح منها رائحة الصابون الرخيص، كان الفريق المنافس أكبر حجما وأكثر قسوة، يلعبون كأنهم ينتقمون من هؤلاء الأولاد الجدد الذين تجرؤا وتطلعوا لمزاحمتهم في كليتهم، كان علي يلعب في الجناح الأيمن، وكان المدافع الذي يقابله يلعب في صمت وفي خشونة بالغة، لم يكن يلمس الكرة إلا فيما ندر، كان مشغولا فقط بتوجيه كل أنواع الضربات إلى جسد "على" الذي حاول عبثا الابتعاد عنه، كان لون وجهه داكنا، وشفتاه غليظتين بعض الشيء، وتحت أنفه شارب خفيف، وأنف يجعله شبيها بالصقر، في نهاية "الشوط" الأول هتف فيه في صوت مبحوح:

ـ خير لك أن تبحث عن مركز آخر، والأفضل أن تغادر الملعب.

كانت الاهداف تتوالى عليهم، والإصابات تزداد، وخيل "لعلى" أن العشب قد تحول إلى شواظ من الزجاج، ولكنه لم

يكن يريد أن يغادر الملعب أو حتى يغير مركزه، ظل يحاول عبثا مقاومة ذلك الخصم الداكن اللون، لم يكن يريد أن ينهار أو يعترف بالهزيمة، لم يتوقف إلا مع الصفارة الأخيرة للحكم الذي كان يرى كل شيء في الملعب ماعدا هذه الضربات التي يتعرض لها، تناثر الجميع في أنحاء الملعب، ولم يكن هناك من يستطيع على أن يشكو له، جلس وحيدا يحاول ألا يتطلع إلى أي شيء، ولكن كان هناك من يقترب منه، يقف أمامه تماما، ينتظر في صبر حتى يرفع رأسه وينظر إليه، كان هو الطالب ذا الوجه القاتم والشارب الخفيف والأنف الشبيه بالصقر، كان يمسك منشفة يجفف عرقه في بطء وقد سلط عليه عينيه النافذتين، وهو يقول له:

ــ ماذا بك؟ هل أنت من الرقة بحيث لا تحتمل بعض الركلات؟

قال علي في صوت محتقن: حسبتها مباراة في كرة القدم وليس في المصارعة الحرة.

أسعده أن يرى عليا مغتاظا، ضحك في صوت جاف، وضع المنشفة على رقبته وهو يجلس أمامه:

ــ هذا هو قانون اللعب هنا، لا تنس أننا في الجيش، كل شيء يتحول إلى معركة بصورة تلقائية، كما أنه كان علي أن أجعلك تعرف أن في الملعب لا توجد أي امتيــازات، مثلــك مثل أي مستجد.

نظر إليه علي مذهولا : لم أعتقد إننــي مختلــف عــن الآخرين، ماذا تقصد؟

نهض واقفا وهو يقول في سخرية:

ــ أعني أن منصب أبيك مهما كانت أهميته لن يعطيــك أي أفضلية، من هو أبوك بالمناسبة؟

أحس علي بالغيظ الشديد منه، لم يتصور أن الخبر قــد تسرب لبقية الدفعات الأخرى، ألم يكن كافيا حنق المستجدين الذين يزاملونه؟ وقف متحفزا، مستعدا للتشاجر، ولكن الطالب الآخر قرأ حركات جسده جيــدا، تراجــع خطــوة للــوراء ومازالت علامات السخرية مرسومة على وجهه:

ــ أيا إن كان منصبه، فلن يفيدك في الشجار مع طالب أقدم منك، بدلا من التشاجر معك سوف أقدم لــك نصــيحة، سيحيطونك هنا بالعناية الزائفــة، وســيعاملونك كفرعــون

صغير، لن تكتشف نفسك، ولن تعرف ماذا لديك، هذا إذا كان لديك شيء.

كان وقحا، وساخرا، ومحقا، فكر علي، لا جدوى من المشاجرة، كان هذا الطالب المجهول قد نجح في إيقاعه في حبائل من المشاعر المتضاربة التي حاول أن يتظاهر أنها ليست موجودة، استدار الطالب وهو يوشك على الانصراف حاملا سخريته ووقاحته، قال علي محاولا أن تكون له الكلمة الأخيرة:

ــ من أنت على أي حال؟

قال الطالب دون أن يلتفت: طلال الانصاري، سوف تسمع عني كثيرا

رغما عنه ظل علي يفكر في الكلمات التي سمعها، كان قد تلقى نصيحة، جافة وساخرة وجارحة، ولكنها نصيحة على اي حال، في الحمام وقف تحت سيل من الماء البارد، بدأ يشعر بآلام الرضوض التي عانى منها طوال المباراة، استلقى على سريره متعبا، يحدق في سقف العنبر والمصابيح الصغيرة المتناثرة، بدا كل شيء باهتا، تحيط به هالة من ضباب مصفر، غير صاف، تتصاعد من خلاله أصوات بقية

المستجدين، البعض يثرثر، والـبعض يلعـب الـورق فـي منافسات حامية، والبعض يقرأ القرآن بصـوت عـال لعلـه يتغلب بصوته على الضجة التي يثيرها الجميع، نهض وهتف مناديا إبراهيم الذي كان يقرأ القرآن فـي الســرير السـفلي بصوت ضاغما حروفه في همهمات متصلة،قال له:

ــ هل قدمت أوراقك إلى مكتب التنسيق؟

نظر اليه ابراهيم في استغراب وهو يقول:

ــ ألم تفعل أنت ذلك؟

وقبل أن يجيب علي عن هذا السؤال الاستنكاري هتـف إبراهيم:

ــ بالطبع أنت لست في حاجة إلى ذلك، لقـد نسـيت، سوف يقبلونك هنا بالتأكيد.

قالها دون حقد، فقط كأنه يقرر حقيقة واقعة، لم يتصور أحد ــ لا أبيه ولا الذين يحيطون به ــ أنه في حاجـة إلـى فرصة ثانية مثل الجميع، أن يكون هو نفسه ولو لمرة واحدة، قال علي:

ــ الجميع هنا قد قدموا أوراقهم إلى كليات أخرى.

قال إبراهيم: هذا هو الشيء الطبيعي، حتى أنـــا نفســـي رغم معرفتي بعدم قدرتي على المواصلة في كليـــة أخـــرى، ذهبت وقدمت أوراقي.

للمرة الأولى ينظر إليه في إشفاق وهو يـــرى مظـــاهر الذهول على وجهه:

ــ لم يغلق مكتب التنسيق أبوابه بعد، مازالـــت هنـــاك بضعة أيام.

فكر "على" في بقية الذين ينامون معه في العنبر نفســـه، لم يكونوا ظلال في عالم لا يملكونه، كانت هناك مساحة من الحرية متاحة لهم ماعداه، عجز وإرادة معدومة وأب لا يترك له الفرصة حتى يتنفس.

في اليوم التالي ذهب للضابط النوبتجي، قال له إنه فـــي حاجة إلى يوم يخرج فيه لأمر هام، سوف يخرج في الصباح ويعود في المساء، نظر إليه الضابط محرجا، كان المفروض أن يتم الأسبوع كاملا دون مغادرة أحد، مـــن يصـــر علـــى المغادرة عليه أن يغادر نهائيا ودون عودة، اجرى الضـــابط عدة مكالمات، أخذ منه تعهدا بالعودة في نهاية اليـــوم، وقـــع "علي" الورقة طائعا ولم يصدق علي نفســـه وهـــو خـــارج

الأسوار الصفراء، وكانت الغربـــان مازالـــت نائمـــة فـــوق الأسوار.

أخذته سيارة الأجرة إلى البيت، بدت أشـــكال البيـــوت طازجة، والهواء أكثر انتعاشا، وحتى تشكيلات السحب فـــي السماء، كانت مختلفة عنها خارج الأسوار، كان يعـــرف أن أباه ليس في المنزل في هذه اللحظة، وأن كل الأوراق التـــي يحتاج إليها في غرفته، طلب من سائق السيارة أن يبقى فـــي انتظاره، ونظر اليه الحرس في دهشة وهو يـــدخل المنـــزل ويعود لاهثا، عرض عليه عم "عزوز" بعضا مـــن الراحـــة والطعام، ولكنه لم يتوقف، انطلقت السيارة مرة أخرى وهـــو يضم أوراقه إلى صدره، كان يرتعد، يقوم بعمل لـــم يجـــرؤ على القيام به قبل الآن، يجازف باغضاب أبيه، ولكـــن هـــذا الأمر بدا الآن قضية مؤجلة، المهم أن السيارة تسير وســـط الشوارع المفتوحة متجهة إلى وسط البلد، تمرق مـــن وســـط الزحام، وتجتاز الإشـــارات المحظـــورة، لا أحـــد يســـتطيع إيقافها،لا تتوقف إلا أمام المبنى القديم فـــي شـــارع "قصـــر العيني".

كان هناك زحام من الأولاد والبنــات، أنــاس اللحظــة الاخيرة، ربما كانوا يعانون مثله من تسلط ما، ومن ضــياع رغبات، يمسكون الأوراق ويحدقون فيما حولهم في فــزع، خائفين من تدخل قوة قدرية ما وإفساد ما بقي من لحظــات، إشترى استمارات الالتحاق بالجامعة، نظر إلى ألوان أوراقها المختلفة، كيف يمكن أن يفوته هــذا الطقــس مــن التمنــي والتوقع؟، كتب البيانات التقليدية بســرعة، الاســم والســن والعنوان والدرجات، ثم توقف أمام الخانات المعدة لرغبــات الالتحاق بالكليات المختلفة، اكتشف أنه لم يكن راغبا بشــدة في أي شيء محدد، لم تكن هناك أولوية يضعها أمام عينيه، كل مايريده هو ألا يدع أباه يفرض رغبته عليه، كان أبوه قد سد عليه كل آفاق الرغبات، ورغم ذلك أحس في تلك اللحظة أنه في حاجة لمعونته، لكلمة منه تنتزعه من هذه الحيرة، ظل جالسا صامتا، القلم في يده، والورق على ركبتيــه، وزحــام الطلبة أمامه ينزع من ذهنه أي نوع من التركيز، سمع صوتا بجانبه يقول في رنة من المرح:

ــ سوف تبقى جالسا محتارا هكذا حتى يغلــق مكتــب التنسيق أبوابه.

التفت إليها، كانت جالسة على نفس المقعد الخشبي الذي يجلس عليه، فتاة طويلة ونحيفـــة، لهـــا عينـــين واســـعتين ومتأملتان، وشعر فاحم منسدل، وجه أبيض، مرهف الملامح وخال من الزينة، كأنها قادمة من فيلم قـــديم، غيـــر ملـــون، ارتبك علي وظل يحدق فيها محـــاولا أن يســـتجمع أشـــتات حيرته، ظل يحدق فيها كأنه يريد أن يحفظ ملامحها، ابتسمت محرجة وقد أحست أنها قد تسرعت بالحديث إليه، قالت:

ــ لابد وأن لديك رغبة محددة، أليس كذلك؟

قال علي أخيرا: لن تصدقيني ولكني لا أعرف حقا ماذا أختار؟

ابتسمت في إشفاق، اقتربت منه قليلا وتناولت الأوراق، نظرت قليلا في كشف الدرجات، ومطت شفتيها وهي تقول:

ــ مجموع درجاتك يقارب مجموعي، اسمع، لم يبق إلا القليل من الوقت، ولامجال للتردد، لمـــاذا لا تكتـــب نفـــس رغباتي.

وضعت ورقتها تحت أنفه، لم يفعل سوى أنه قرأ السطر الأول حيث يوجد اسمها "سلمى جوهر"، ثم لـــم يســـتطع أن يقرأ شيئا آخر، حيرها ارتباكه، شعرت بوطأة الوقت الـــذي

يمر، أمسكت بالقلم ووضعت الأوراق على فخذها وأخذت تكتب، تملأ كل صفوف الرغبات، نهضت واقفة وهي تقول:

ــ انتهى الأمر، هيا نقف في الصف قبل أن يغلقوا الشباك.

لم تكن تسير، كانت تثب فوق الأرض، كأنها غيمه هشة، لا تقدر جاذبية الأرض على الإمساك بها، وقف خلفها في الصف الطويل، لم تبال بالذهاب إلى الطابور المخصص للبنات، كانت مشغولة بالحديث إليه، لم يكن "علي" يستمع إليها بقدر ما كان يتأمل ملامحها الدقيقة، يتأمل رقبتها النحيلة وما فيها من عروق زرقاء باهتة ووردية، تنتفض كلما تكلمت، كأنها مشحونة بالحروف، بدأ الصف يقترب من الرجل ذي النظارات الجالس يقلب في أوراق الجميع، كان يدرك أن هذه هي لحظاتهم الأخيرة، وكان يتفنن في تضييعها، يعاقبهم على تهاونهم وتأخرهم إلى هذا الحد، تركته سلمى يتقدمها، كانت واثقة أنه في حالة إلى جرعة إضافية من الدعم:

ــ "لم أقابل مثل سلمى جوهر، كانت صنفا من الناس يحب دائما أن يهب شيئا للآخرين، كأن الأقدار قد ساقتها فقط

في هذا اليوم حتى تدعمني في تلك اللحظات الوجيزة، ولكن دعني أحاول أولا أن أصف لك ماذا يمكن أن تكون "سلمى جوهر"؟ لم تكن إلا فتاة عادية، كان يمكن أن تمر بها في الطريق دون أن تنتبه إليها، ولكن ما أن تقع في محيط عينيها وفي مسمع صوتها حتى تصبح أسيرا لها، لم تكن أول فتاة في حياتي، ولكنها المرة الأولى التي أرى فتاة تحول تفاصيل الحياة العادية وتحيطها بكل هذا القدر من البهاء".

خط الرجل ذي النظارات عدة خطوط موهوشة على استمارة التقديم، ثم قطع جزءا من حافة الورقة الأخيرة قطعة غير منتظمة وأعطاها له، هكذا أخذ "علي" دوره وسط تنسيق الطلبة، حصل على فرصة قد تكون بلا أهمية ولكنه حصل عليها والسلام، انتهت سلمى من تقديم أوراقها، سارا سويا خارج المبنى القديم وقد أحسا أن حملا ثقيلا قد انزاح من على كاهلهما، الشارع مزدحم وصاخب، واصلت سلمى التحدث في صوت أعلى، قالت:

ـ رغبتك الأولى كانت كلية الطب مثلي تماما، لا يبدو أنك لاحظت ذلك.

أوشك أن يقول لها إنها كانت رغبتك أنت، ولكنه اكتفى بالقول: لا يهم.

نظرت إليه وعلى وجهها ابتسامة حائرة قالت:

ــ ألست غريبا بعض الشيء؟ تتعامل مع مستقبلك بمثل هذه اللامبلاه.

ــ ربما لأنني كنت أريد فقط أن أقف في هذا الطابور، وأن أتسلم هذا الإيصال.

ولكنها لم تكن تريد لأي لمسة من الحزن أن تفسد إحساسها الطاغي بهذه السعادة، قالت:

ــ حتى الآن، ورغم أن إيصال التقديم في حقيبتي، فإنني غير مصدقة أنني قد استطعت تقديم أوراقي، أمي كانت ترفض هذا الأمر، أو بالأحرى زوجها هو الذي كان يرفض، لم يتصور أن بنتا "مفعوصة" مثلي تسعى للحصول على شهادة لم يحلم بالتفكير فيها، كان يصيح..النقود.. المصاريف..كنت أبكي وأتوسل دون جدوى، وأخيرا في لحظة يأس ابتلعت كل ما في البيت من أقراص.

هتف علي في فزع:

ــ انتحرت؟

ــ خذلني الموت، لم يأت سريعا كما توقعت، مزقت الآلام الرهيبة بطني ثم فقدت الوعي، عندما استيقظت كانت خالتي بجانبي وهي تحاول عبثا أن تجفف دموعها،أخيرا كان هناك شخص ما يبكي علي ويهتم لبقائي حية، بل ويرغب في تحقيق ما أريد.

ــ وكيف جئت إلى هنا إذن؟

ــ كان الأمر بسيطا وبديهيا، سوف أقيم عندها، ليس لها أولاد، وأنا لا أملك أما، على الأقل أما تخصني، أما بخصوص المصاريف فسوف تكون دينا، دينا أدفعه عندما أتخرج، الحب أيضا يمكن أن يصنع صفقة جيدة لكل الأطراف.

دون أن يدريا بمرور الوقت زحف الغروب على المدينة، عتمة آسرة امتدت من صفحة النهر ثم أخذت أطرافه تلف البيوت والشوارع، استدارت الطيور التي كانت تملأ سماء النيل وبدأت رحلة العودة، استيقظت الأضواء، وبدأت تغمر المدينة حالة آسرة من النشوة، اضيئت الأعلانات الملونة الموجودة في أعلى البيوت،وبدت عقارب ساعة الزهور زاهية الألوان، وانبعث صوت كمان من مكان ما،

وتوقفت أمامهما فتاة صغيرة تبيع عقودا من الفل، كانا قد تحدثا كثيرا ويشعران بالعطش، وخفت أنفاس القاهرة الساخنة، حاولت أن تدفع نصيبها من ثمن المشروبات ولكنه رفض، قالت مدهوشة:

ـ لماذا؟ نحن حتى لا نعرف بعضنا، وأنت طالب مفلس، مثلي تماما.

ماذا كان يمكن أن يقول لها عن نفسه، خضعت لإصراره، وتناولت قليلا من قطعة المكرونة بالبشامل ولكن الصلصة كانت حارة أكثر من طاقتها، وضعت يدها على فمها وهي تضحك، شربت عدة جرعات من المياه الغازية، وأخذت تحرك لسانها الصغير على شفتيها مثل قطة، صاحت:

ـ لا أصدق إنني أحس بكل هذا القدر من الحرية.

دارت حول نفسها في دورة سريعة حتى امتلأ فستانها بالهواء، كأن هذه المدينة الكبيرة قد أصبحت ملكها فورا، كانت قادمة من مدينة صغيرة، كل خطوة فيها محسوبة، وكان هو قد جاء من بيت شبه محاصر، وكانت لحظاتهما هذه مسروقة، بدا كل شيءعزاهيا رغم العتمة، قالت:

ـ يجب أن أرحل الآن، لا أريد أن أثير المتاعب مـــع خالتي منذ أيامي الأولى.

كانت كل الأتوبيسات التي تذهب إلى "الســـيدة زينـــب" مزدحمة، وانتظرا طويلا حتى يجد لها مكانا بجانب النافـــذة، قالت وهي تلوح له:

ـ ربما نلتقي في نفس الكلية.

بدا وجهها شاحبا وهي تطل عليه، قال لنفسه: إنها تعلم أنهما لن يريا بعضهما مرة أخرى، أن كل شيء عـــابر، وأن هذه اللحظة لم توجد أبدا، من حسن الحظ أنها لم تره وهـــو يركب سيارة الأجرة، وبدلا من أن يقـــول عنـــوان الكليـــة العسكرية للسائق، ذكر له عنوان البيت مباشرة، لم يكن يريد العودة للطوابير والمشاحنات، ونوبات اليقظة والنوم، لم يكن يريد النوم على السرير المكون من طابقين وسط عنبر خانق بأنفاس الجميع وأحقـــادهم الصـــغيرة، ولا صـــورا بالحلـــة العسكرية مثل أبيه أو مثل طلال الأنصاري.

دخل المنزل فوجد أبيه في انتظاره، جالســـا متشـــاغلا بتقليب بعض الأوراق، وكان هناك جندي واقفـــا منتصـــب القامة بجوار مقعده، كان يعرف أن أبيه يجلـــس هكـــذا فـــي

انتظاره، هل كان عليه أن يأتي إلى هنا ساعيا إلى مواجهته؟ أم كان عليه الذهاب والاختباء خلف أسوار الكلية؟ لم يتــرك له الأب فرصة لإلقاء التحية، رفع رأسه وحدق فيــه بتلــك النظرة النافذة فدبت الرعدة في أوصال "علــى"، قــال فــي صوت خافت:

ــ لقد قلبت القاهرة كلها بحثا عنك، أين كنت؟

ماذا لو أن أمه كانت موجودة في تلك اللحظة، لو أنهــا وقفت حاجزا في تلك المنطقة العارية بينه وبين أبيه، تــذكر الطابور، والإيصال، ولسان سلمى الصغير وهي تمسح بــه شفتيها كالقطة، ولحظات الانتشاء القصيرة، قال أخيرا:

ــ لا أريد أن أعود الى الكلية العسكرية، لقــد قــدمت أوراقي إلى مكتب التنسيق بالفعل، سأذهب إلى كلية الطــب، مجموع درجاتي يؤهلني لذلك.

لفظ "علي" كل ما عنده دفعة واحدة، ربما لأن هذه كانت فرصته الوحيدة لقول كل شيء، أشار أبوه للجندي المنتصب حتى ينصرف، نهض واقفا في مقابل "على" تماما وهو يقول من تحت أسنانه:

ــ ماذا تحسب نفسك؟ هل تعتقد أنـــك كبـــرت لدرجـــة تستطيع فيها أن تخالف أوامري؟ هل تعتقد أنك تستطيع القيام بأي شيءمن خلف ظهري؟ من الذي علمك أن تتحداني؟

للحظة تخيل علي أنه سوف يصفعه، شـــاهد أصـــابعه المتوترة تتلاعب في الهواء دون أن تجد مستقرا، ولكنه لـــم يفعل، ولكن "على" ــ لدهشته الشديدة ــ وجد نفســه قـــادرا على الرد عليه:

ــ لا أحب الحياة العسكرية، لا أريد أن أدخلها.

ــ ليس لك أن تحب أو تكـــره، ولا أســـمح لأحـــد أن يتحداني، كما لن اسمح لك أن تتصرف بطريقة خاطئة بعـــد الآن، غدا ستعود للكلية، ولن يسمح لك بمغادرتها تحـــت أي حال من الأحوال، حتى لو اقتضى الأمر أن أضعك في غرفة مفردة بها.

ازداد صوته ارتفاعا وحدة، مـــلأ كـــل ذرات الهـــواء الموجودة في المنزل، كان غاضبا بصورة لا تجدي معها أي محاولة للمعارضة أو الإقناع، انسحب علي إلى غرفته، كانت باردة ومهجورة، تذكر سلمى، كانت قد حصلت على فرصتها وفق معجزة ما يبدو أنها لن تتحقق له، كان أمامه حل واحـــد

ان يجمع ثيابه وأن يهرب خارجا من هذا المنزل بعيدا عــن تلك السطوة، ولكن إلى أين يذهب؟

ظل "على" جالسا في الظلام، لا يسمع ســوى صــوت خطوات الحرس، ذلك الصمت والهدوء اللذين يسيطران على المنزل كلما حل الظلام، ولابد أنه غفا في جلسته لأن سلمى تجلت له، مست جبينه ثم ضحكت في خفة ومضت، وعندما استيقظ سمع صوت أبيه، كان قادما مــن الباحــة الســفلية للمنزل، عاليا ومحتدا بعض الشيء، ربما كان يتحــدث فــي الهاتف لأنني لأنه يسمع صوتا يرد عليه، ولكنه سمع اســمه يتردد أكثر من مره، كان أبوه يشكوه لشخص ما، ربما كانت أمه، نهض علي بهدوء وغادر الغرفة، لم يفعلها قبــل ذلــك ولكنه فعلها هذه المرة، لم يكن أباه يتحدث في التليفون، كان هناك شخص معه، كان الأب واقفا قليلا، والجنرال رشيدوف جالسا على الأريكة، لا يرتدي ثوبه العسكري، كان "علــى" يعرفه جيدا، منذ أن دخل بيتهم للمرة الأولى وهــو متــرع بالنياشين، وكان كلما ابتسم تظهر سنته الذهبية، كأنما شمس صغيرة تومض داخل فمه، عندما قال له علــي فــي المــرة الأولى هتف به ضاحكا: بل أنني آكل الشمس كل يــوم يــا

ألوشا، كان علي صغيرا، وكان هذا اسم تدليله، وبــدا هــذا الرجل قادما من بلاد أسطورية ترقد وراء نهر مجهول، كان هو أقدم صديق لأبيه، تعرف عليه عندما كان يدرس هنــاك، وتجددت الصداقة حين جاء إلى مصر ضمن وفود الخبــراء السوفييت، وعندما رجع الجميع بقي هو لســبب لــم يعلمــه "على" إلى الآن، كل مافي الأمر أنه خلع الحلــة العســكرية وأخفى ما لديه من نياشين.

استند "على" للجدار وهو يلتقط أنفاسه في صعوبة، وكان أبوه مازال يواصل الكلام وقد ازدادت درجة توتره:

ــ لقد اختفى لساعات طويلة لم أدر فيها إن كان حيا أو ميتا، هل تتصور هذا؟ لقد عوقب الضابط النــوبتجي الــذي سمح بخروجه، وسينقل من الكلية نهائيا، وقد أنهكنــا تمامــا البحث عنه في شوارع القاهرة، كان أمرا مروعا أن تتقطــع كل خطوط الاتصال به إلى هذه الدرجة.

ازداد علي التصاقا بالجدار وقد ازداد رعبه، لم يتصور أن حياته مهددة لهذه الدرجة، وأن الفخاخ منصوبة في كــل مكان، هل لهذا السبب كان أبوه غاضبا هكذا، وأخيرا تحدث رشيدوف، كان يحلو له أن يتحدث بعربية متكسرة:

ــ لن تستطيع أن تضعه في قوقعة طوال عمره، أنــت تبالغ في الخوف عليه، لقد اصبح شابا ناضجا.

قال الأب في حزم:

ــ إننا نخوض صراعا ضاريا يا رشيدوف، لا توجــد محرمات ولا موانع، كل شيء مباح مادام موجعا.

لم يفهم "على" ماذا تعني هذه الكلمات الحادة، كان أبــوه طوال عمره عسكريا منضبطا، كتوما لحد الموت، وما يحدث في الأسفل الآن هو احدى لحظات ضعفه القليلــة، تراجــع "علي"، عاد إلى غرفته بأقدام ثقيلة، حدق في النجوم المرتعدة التي تسكن السماء البعيدة، لم يكن هناك قمر وكانت الظلمــة قاسية، جلس في فراشه وهو يرتعد، شاعرا بالوحدة كما لــم يشعر من قبل، كان أبيه قد ازداد غموضا وتباعدا، أغمــض عينيه وتمنى لو أن الصباح يجئ بأي ثمن.

في الصباح المبكر تناولا إفطارهمــا فــي صــمت، أو الأحرى تظاهرا أنهما يتناولانه، سارا إلى السيارة، أشار أبيه للسائق أن يذهب للسيارة الأخرى التي سوف تتبعهما، جلس هو خلف مقود القيادة، كان الطريــق خاليــا، لــم يــزدحم بالسيارات بعد، سارا في صمت وأدهشه أن أبيه كان يأخــذ

أنفاسه في صعوبة، كأن هناك شيئا يحتدم في داخلـــه وهـــو يجاهد من أجل كبته، أحس "على" أنه يقاد إلى مصيره، إلـــى سجن خانق، وأنه مهما كانت الأخطار التي تحيق بـــه، فلـــن يقايض به هذا الفضاء الرحب الذي تكسوه أنفاس الصـــباح، انحرف الأب عن مسار الطريـــق فجـــأة، وتوقـــف بجانـــب الرصيف، سمع علي صوت السيارة التي كانت تتبعهما وهي تصر على مكابحها في صعوبة، ظل الصمت سائدا لـــبعض الوقت، ثم قال أبيه في صوت هادئ وبطيء كأنه يتحدث إلى نفسه:

ــ لا أستطيع أن أتحدث معك كثيرا في هـــذا الأمـــر، ولكن بعد كل ما مر لم أعد أملك غيرك، ويجب أن أحـــافظ عليك، لا أريدك أن تدفع ثمن المنصب الحساس الذي أشغله، أدرك إنني لا أستطيع أن أبقيك تحت الحراسة طوال عمرك، ولكني على الأقل أستطيع أن أرسلك إلى مكان آمـــن، هـــذه الكلية هي ذلك المكان، لا أستطيع المجازفة في كلية مفتوحة، كف إذن عن إثارة المتاعب لي ولك.

لم يستطع "علي" أن يرد، لم يجرؤ أيضا على أن يقول له إنه قد سمع بالأمس نفس هذه الكلمات، رفع الأب يده قليلا

في الهواء دون أن يدري ماذا يفعل بها، ثم وضـــعها علـــى رأس "على"، أدخل أصابعه في شعره القصيرة، حركة ودودة وصارمة كانت مفاجأة لعلي وعاد الأب يقول:

ــ ستعرف يوما كم كنت محقا في خوفي عليك.

أنزل يده ووضعها على عجلة القيادة مرة أخرى، وقال "على" لنفسه هذا أفضل، لم تكن الكلمات لتغيـــر شـــيئا مـــن المرارة التي يحسها في داخله، بدت أسوار الكلية الصـــفراء، وأبراج الحراسة ولفات الأسلاك والغربان التي تقف عليهـــا، هرع جندي الحراسة يفتح الأبواب، وبدا مدير الكليـــة واقفـــا بنفسه في استقبالهم، صافح أباه وألقى على "على" نظرة غير محددة، قال الأب مختصرا كل المقدمات:

ــ هل يستطيع الانضمام لزملائه؟

قال المدير: لم يحدث شيء يحول دون ذلك.

ــ لن يخرج إلا بإذن خاص.

ــ مفهوم سيادتك، دعنا نتناول القهوة في مكتبي ونرتب كل شيء.

سارا معا تاركين عليا وســط الفنـــاء، كانـــت العنـــابر والورش والنوافذ المطلية بـــاللون الأزرق فـــي مكانهـــا، لا

مهرب للجميع، كان قد رأى كالحلم لمحة من عـــالم آخـــر، اغمض علي عينيه فرأى "سلمى جوهر"وهي تبتسم له تدعوه أن يطي معها عبر كل هذه الأسوار، فتح عينيه فوجد الفنـــاء وقد امتلأ بالمجندين والمستجدين والطلبة القدامى، صفر أحد الجنود في صوت عال فانتظمت كل الطوابير:

ــ "كانت الأحلام مجهدة ومثيرة للحزن، ولم يكن هناك افضل من الاستسلام لصوت البوق في نوبات اليقظة والنوم، بدأ العام رغم عن أنفي، ولم يقع الاختيار إلا على كم ضئيل من كتلة المستجدين المهوشة، تمت تصفيتهم بدقة أشبه بفصد الدم، حملوا حقائبهم القديمة التي جاءوا بها من بلادهم البعيدة وودعوا أبنية الكلية بفيض من الدموع، ولم يتصور أحد منهم إنني كنت أراقبهم من خلف النافذة وأنا احسدهم على الحرية وعلى الفرصة الثانية التي ظفروا بها".

ارتدى "علي" الزي العسكري، ولابد أن سلمى جـــوهر في هذا الوقت بالذات كانت ترتدي البالطو الأبيض، لابد أنها نسيت لحظتهما العابرة تماما، ولابد أنها تحكي حكايتها مـــع أمها وزوج أمها وخالتها لشخص آخر لايشبهه ويتمتع بقـــدر أكبر من الحرية، كانت حياته داخل الكلية بسيطة، خالية من

التعقيدات، يستيقظ بالأمر، ويدرس بالأمر، ويتناول الوجبات الثلاثة بكميات محددة وبالأمر،ويذاكر بالأمر، وينام دون أن أي أحلام مبالغ فيها بالأمر أيضا.

تقابل مع "طلال الأنصاري" للمرة الثانية خلال مباراة أخرى لكرة القدم، لم يستسلم هذه المرة، كان حانقا ومتمرسا، وهذا المكان الخانق قد حدد الساحة التي ستجمعهما معا، ولم يعد التلاقي بينهما أمرا عابرا، أكثر من مرة فوجئ به وهو ينظر إليه في حنق ودهشة، اصطدما وافترقا دون أن يتبادلا كلمة واحدة، ولكن بعد انتهاء المباراة، وقف أمامه وهو يقول له ساخرا:

ــ لم تستطع الابتعاد أيها الرجل المهم، ربما صدرت لك أوامر بالإقامة الجبرية داخل الكلية؟

تطلع "على" إلى وجهه القاتم، وإلى شاربه الذي لم يكن لينمو على الإطلاق، قلت له:

ــ لماذا أردت إبعادي عن الكلية أصلا؟.

نظر إلى "على" قليلا، ربما كان مدهوشا لأنه جرؤ على أن يوجه له السؤال بهذه الدرجة من المباشرة، تخلى عن نبرة السخرية، بدا جادا وكئيبا، قال:

ــ ربما حاولت أن أصحح خطأ وقعت أنا فيه، لـــم أرد أن تقوم بخدمة السلطة الفاسدة التي يقوم أبوك بخدمتها.

قال علي محتدا: لا شأن لك بأبي.

قال طلال في هدوء كأنه قد أعد هذه الكلمات منذ زمن:

ــ لا شأن لي به، ولا بالمنصب الذي يشغله، ولا أهابه أيضا، ولكن عليك أن تعرف، وأن تتيقن، أن كل هؤلاء الذي يحكموننا لايستحقون ذلك، لا سند لهم، ولا حق عندهم، وإيا كان أبوك فهو لا يملك سندا ولا حقا.

استدار لينصرف، كان "على" مازالا مذهولا من كلماته، كل ما أدركه أنها تعبر عن غضب وتمرد لا يسمح لهما بـــه في هذا المكان الذي يتواجدان فيه، وكعادته قبل أن ينصرف التفت إليه وهو يقول:

ــ إذا كنت تصلي دعنا نراك في المسجد، ربما يخفـــف هذا من حدة التوتر والتناقض الذين بيننا.

لم يذهب علي إلى المسجد، لـــم يكـــن حريصـــا علـــى الاقتراب من هذا الطلال أكثر مما ينبغي، وكان أبـــوه هـــو الذي اصطحبه بنفسه في الإجازة الشهرية للكلية، قاد السيارة وقال له :

ـــ لقد أحضرت لك من المنزل حقيبة ثيابـــك، ســـوف نقضي عطلة نهاية الأسبوع في منـــزل "رشـــيدوف " عنـــد بحيرة قارون.

كان الطريق إلى الفيوم طويلا ومزدحما، وظلت سيارة أخرى تتبعهما كظلهما، بقي "على" صامتا رغم محاولة الأب معرفة كل تفاصيل ما حدث في الكلية، لم يكن يريد أن يبدو باردا أو حانقا، ولكنه لايدري لماذا أخفى عنه ما حدث بينـــه وبين طلال الأنصاري أم لا؟

انفتح الافق أمامهما، وسرى مجـــرى "نهـــر يوســـف" كسراب غامض وسط الحقول، ورفعت أشجار الجازورينـــا هاماتها العالية على طول الطريق، لم تبـــدأ بالانحســـار إلا عندما ظهرت بطائح بحيرة قارون وما يحيط بها من حواف سبخة، امتدت قبضة العشب البري بشكل عشوائي، وظهـــر فوقها سماء باهتة اللون، كأنها مقتطعة من السماء الأصـــلية، بلا غيوم، فقط متاهة شاسعة تدور فيها طيور كثيرة بحثا عن طعام ومأوى، وعلى الجانب الآخر ترقد صفوف من الأكواخ الطينية، سقوفها قش، وجدرانها مضروبة من الطمـــي، مـــن المدهش أنها عاشت بهيكلها الضعيف هذا آلاف من الســـنين،

ووهبت المأوى لعشرات مـن ذوي البشـرة الطينيـة هـم وحيواناتهم.

دارت السيارة بهما حتى وصلا إلـى منـزل حجـري صغير يطل مباشرة على البحيرة، وتهب عليه ريح محملـة بروائح العطن والملوحة، كان "رشيدوف" واقفا في انتظارهم وقد احتقنت بشرته، كان قد كف عن ارتداء الزي العسـكري بكل ما فيه من نياشين ثقيلة، يرتدى الآن جلبابا فلاحيا مليئـا بالخطوط الزرقاء، قال لنا أن خياط بلدي في وسط المدينة قد صنعه على مقاسه تماما، كانت أكمام الجلباب أقصـر ممـا ينبغي واكتافه متهدلة، ولكنه لم يفطن إلى ذلـك، لـم تكـن زوجته تقيم معه، كانت قد قررت الرحيل بعـد أن أنهكتهـا الرطوبة التي تشع من مياه البحيرة في أيام الحر الطويلـة، كان البيت مليئا بالكتب والمخطوطات العربيـة القديمـة، لا يدري أحد كيف جمعها هذا الجنرال المتقاعد، قال "على":

ــ ماذا تفعل بكل هذه الكتب؟

قال ضاحكا:

ــ كان جمعها والعناية بها حجة مناسبة حتـى لا يـتم ترحيلي مع بقية الخبراء السوفييت، ولكن الفضل يعـود أولا

لأبيك الذي تمكن من إقناعهم إنني عاشق للتـــراث العربـــي أكثر من عشقي للحياة العسكرية.

قال "علي" : وهل أنت كذلك فعلا.

قال أبي وهو يضحك:

ــ لقد جازت عليهم هذه الخدعة، ولكـــن لا يجـــب أن تجوز هذه الحيلة عليك أنت أيضا.

نظر رشيدوف إلى سطح البحيرة الممتـــد علـــى مـــدى البصر وقال بجدية:

ــ أنا فعلا أحب المخطوطات الأصيلة، أنها شيء نادر في "سمرقند"، بل في كل بلاد ما بين النهرين، ولست أدري كيف تتوفر هنا بهذه السهولة، ولكني أحب أكثر مـــن ذلـــك شعور الحرية التي تثيره في داخلي هذه البحيرة.

قال علي مدهوشا: معنى هذا أنك سوف تبقى في مصر إلى الأبد.

ــ إذا نسيوني

ــمن؟

ــ السوفييت والمصريون.

في الصباح المبكر تبدو البحيرة مغطاة بضباب شفيف، يسير الفلاحون على حافتها مع بهائمهم، يشقون الضباب مثل مخلوقات قادمة من عالم أسطوري، يهب الهواء مليئا بطنين الهوام والطيور التي ترتعد وسط الغاب، ركب الثلاثة قاربا صغيرا وبدؤا ابحارا متمهلا، كانت ابخرة الماء قد تثاقلت، وبدت البحيرة تأخذ الشكل الموحش للمستنقعات، فقدت ألفة البحيرات، لم يبق إلا أن تخرج من جوفها حيوانات أسطورية كبيرة بحجم كل المخاوف، كان الأب يمسك بندقية صيد، أما رشيدوف فقد أعلن أنه قد نذر على نفسه اعتزال كل أنواع الأسلحة والاكتفاء بالمخطوطات، ورد عليه الأب أنه كان من أفضل الرماة في الجيش المصري ولن يضحي بهذا المركز بسهولة، تأمل "على" الغاب المهوش حوله، خشنا وجارحا، لا تجرؤ زهرة ملونة على أن تنبت في وسطه، انقشع الضباب، وعبر السماء سرب من الطيور المفزوعة، كأنها أدركت بنوع من الحدس أن هناك قناصا رابضا، رفع الأب زر أمان البندقية وأصبح متأهبا، لن يمر السرب الثاني منها سالما، همهم الأب بالكلمات وهو يأخذ وضع التنشين، كانت طلقة الخرطوش كبيرة لدرجة لا تقاس بأجساد الطيور الصغيرة،

بدت البحيرة ساكنة بشكل غير طبيعي، كأن علـــى ســـطحها طبقة من القصدير المذاب، وتمنى "على" أن يكون الأب قـــد فقد مهارته، وأن تضل رصاصاته طريقها، ولكن الرصاصة التي أطلقها أصابت أول طائر دفعه الفزع إلى ترك موقعـــه وسط الغاب، ولابد أن الطلقة قد جاءت في قلبـــه مباشـــرة، تجمد في الهواء ثم هوى مثل حجر، غاص في الماء تاركـــا فقط بضع من زغب الريش على السطح، أعاد الأب مـــزلاج البندقية متأهبا للطلقة التالية، ولكن "على" قال مختنقا: يكفـــي ياأبي، نظر الأب إليه مدهوشا، كان "على" يرتعد بالفعل، هل كان أبوه يتصور أنه قادر على إعادة رسم صـــورته كبطـــل بقتل كل طيور البحيرة؟ أخفض البندقيـــة، وبـــدأ رشـــيدوف يجدف عائدا،وانقشع الضباب تماما، وبدا كل شـــيء عاريـــا ومجردا وخاليا من الألوان.

وفي المساء عادا صامتين، ود "على" أن يطلب من أبيه أن يعيده إلى الكلية ليقضي الليلة في العنبر الخـــالي، ولكنـــه أحس أن ذلك سوف يكون مؤلما لكليهما أكثر مما ينبغي، كما أن الأمر لم يفرق معه كثيرا فقد قضى الليل وحيدا في غرفته الصامتة داخل المنزل الصامت:

ــ "من السخرية إنني كنت أحسب إنني المصاب بــذلك المرض، مرض كراهية الأب، ولكن الكراهية هنا تبدو كلمة بالغة المرارة، لم أكن أكرهه حقا ولكني لم أكن أعرف مــاذا افعل حياله، لم أعرف أن هناك من يشاركني في تلك الحالــة الفريدة والمؤلمة حتى قابلت "فايزة التهامي".

ــ ١٤ ــ

كان البيت كله محاطا بالأضواء الملونة، زينة مبالغ فيها بالنسبة لحفلة عادية من حفلات أعياد الميلاد، "علــي" يقــف بجانب أبيه وهو يحمل في يده لفافة مغلفة بــورق فضــي لا يدري نوع الهدية التي فيها، فقد كلف أبوه أحد التــابعين لــه بشرائها دون ان يعنى بتفحصها، كانا هاربين مــن وحشــة البيت، اجتازا الحديقة بما حولها من أشــجار معلــق عليهــا أضواء، كانت هناك عدة مقاعد متناثرة، ولكن الجزء الأكبر من المدعوين كانوا داخل المنزل، كانت هناك ريــح جافــة وباردة، وخرج العقيد التهــامي بجســده الضــخم مــتمهلا لاستقبالهم عند الباب، واحد من أقدم أصــدقاء الأب، رأســه متوهجة بالبياض مرفوع الهامة كأنه مستعد لخوض المعركة في أي لحظة، صافحهما مرحبا وقادهما للبهو الــذي كــان

مزدحما بالمدعوين، لحسن الحظ لم يكن أحد منهم يرتدي الزي العسكري، حتى مدير الكلية الذي كان واقفا في أحد الأركان وفي يده كوبا من عصير الطماطم، في الحقيقة كان معظم المدعوين يشربون أكوابا من نفس النوع، كأن هناك أمر رسمي بذلك، أو ربما لأنه اقرب الأشياء إلى لون الدم القاني الذي يساب في الحروب التي يخوضونها، قال العقيد ضاحكا لعلي:

ــ لا مكان لك وسط العجائز من أمثالنا، سوف أترك فايزة لتعتني بك، في هذا الحفل الشباب لهم نظام خاص بهم.

ولابد أن فايزة قد سمعت اسمها، فقد ظهرت فجأة من مكان ما، كانت أكبر منه سنا، رآها قبل ذلك في أكثر من مناسبة اجتماعية، كانت طويلة، يحيط بوجهها القلق هالة من الشعر المهوش يجعل حجم رأسها مضاعفا، ولكن ما أدهش "على" أكثر هو تلك الكمية من المساحيق التي تضعها على وجهها، كأنها قناع تخفي خلفه ملامحها الحقيقية، كانت عيناها غائرتين، تحيط بهما هالتان من السواد لم تنجح المساحيق في إخفائها، لم تنظر إلى أبيه ولا إلى أبيها، حدقت في علي مباشرة كأنها تعيد اكتشافه، مدت يدها، لم تصافحه

ولكنها قبضت على يده وجذبته إلى جانبها، وقالت لهما في حزم:

ــ انتهى دوركما، اتركاه لي.

جرته خلفها عبر الصالة والمدعوين والرتب الغارقة في شرب عصير الطماطم، لم تترك يده حتى أصبحا في الجزء الخلفي من الفيلا حيث لا أثر للعواجيز ولا الرتب، كان هناك مجموعة من الشباب تعرف "علي" على الكثيرين منهم، لم يكن له بينهم أصدقاء مقربون، كانوا يحتلون معظم الكليات العسكرية المعروفة، ربما لم يتصوروا أنه توجد كليات أخرى، أو ربما كانوا مثله، ليست لديهم فرصة ثانية، تندس بينهم أيضا مجموعة من الفتيات الصغيرات، عاريات الأكتاف والصدور، تفوح منهن روائح عطرية جميلة، يتحركن مثل فراشات وجدت أخيرا متنفسها، كان الجو كله مشبعا بنبضات حسية، أحس "علي" بأنه كان وحيدا أكثر مما ينبغي، وأنه في حاجة لملامسة واحدة من هذه الأجساد التي تتوثب حوله، لم تترك فايزة يده، ظلت تواصل جذبه خلفها، تصدم به ثم تتبعد عنه في حركات عفوية متتابعة، هتفت به:

ــ ماذا تريد، حشيش أو كحول..أم تفضــل مشــروبنا السري؟

أسرعت فتاة عارية الصدر، كان نهداها يهتزان، يريدان الفرار من تحت الثوب، أحضرت له كوبــا يبــدو كعصــير البرتقال، ولكن طعمه كان لاذعا، أحس به في جوفــه مثــل لهب من نار، كانت فايزة تراقبه بعــين فاحصــة، ضــحك الجميع في صخب عندما رأوا احتقان وجهه وانحباس أنفاسه، هتف:

ــ ما هذا؟

قالت في رنة من التهكم:

ــ مشروبنا السري طبعا، خليط مــن الفاكهــة وكــل المشروبات المحرمة، هؤلاء العجائز يعتقدون أننــا مازلنــا أطفالا، وأنهم يمكنهم خداعنا بمشــروبهم الأحمــر الملــيء بمشروب "الدراي جن"، إننا نبادلهم الخداع.

نظر علي نحوهم، كان أبوه هو أيضا يمسك بكأس مــن عصير الطماطم، عاد يرفع الكوب إلى فمه متشــجعا، بــدأ الدفء يغمر جسد "علي"، ازدادت حمرة الشفاه، وأصــبحت الأجساد والصدور النافرة أكثر اقترابا منــه، كلمــا حــاول

التحرك اصطدم بواحدة منهن، وبدا أبوه منشغلا بالحديث مع امرأة ما، واقفين في ركن على مبعدة من الجميع، منتبها إليها حتى أنه لم يبال بالالتفات نحوه ليرى ما يفعل، خيل إليه أنه يرى نظرات متواطئة من الجميع، اتفاق خفي أن يتركوهما معا، بينهما وبينهم مسافة لا يتخطاها أحد، هل هي عشيقته؟ هل يمكن أن يعيش رجل مثل أبيه وحيدا ومتبتلا هكذا دون امرأة، هل يمكن أن يمتلك رجل مثل أبيه كل تلك السلطة التي تخيف الآخرين ولا يمارسها على أكثر من امرأة، صاحت فايزة وهي تراقب انشغاله:

ـ فلنترك لهم المكان إنهم يستهلكون كل مافي الجو من أوكسوجين.

توقف علي مدهوشا، كان يترنح قليلا، ولكنه قال في جدية وهو يشير إلى معظم الرتب التي تقف وفي أيديها الكؤوس الحمراء:

ـ هل تكرهينهم؟

هتفت في حدة: ماذا تعتقد، ماذا يمكن أن تشعر أمام هؤلاء الحفنة من محترفي الهزائم؟

خرجا جميعا من الباب الخلفي إلى جــزء معــتم مــن الحديقة، بجانب الأسوار العالية تحيط بالمكان، تظلله أغصان الشجر والنباتات المتسلقة وعناقيد العنب الجافــة، ولابــد أن هناك أقدام حراس تجوس في المكان من الخارج، كانت هناك موسيقى صاخبة تنبعث من مكان ما،التصقت به فتاة وأخذت ترقص معه، كان جسدها ساخنا، واقدامها تتداخل بين أقدامه في حركات مضطربة، تلتصق به لدرجة لم يتمكن من رؤية وجهها، ملأت رائحة العطر المنبعث من شعرها أنفه وفمــه، وكان خدها ملتهبا كالنار وهو ملتصق بخده، ولكنــه ســمع فايزة وهي تقول في صوت مبحوح:" ابتعدي عنه ياعفــاف، كفاك سطوا على الأولاد"، وانفصل عنه دفء الفتاة، بدلا من ذلك التصقت به فايزة وهي تنتفض، كانت راغبة وخائفة من شيء ما، أحاطته بشعرها المهوش وأخذت تقلب شفتيها على خده وهي تهتف: لا تكذب، قل لي ما هو عمرك بالضــبط؟ كان يجب عليه أن يكذب، وكان يدرك أنها في حاجة إلى هذه الكذبة، أضاف إلى عمره خمس سنوات كاملة فهتفــت بــه: ياكذاب، وظلت متعلقة برقبته، جرته إلى أحد الأركان، كانت هناك وسائد وحشايا موضوعة فوق العشب، مجموعــة مــن

الأولاد والفتيات يجلسون في استرخاء، تحيط بهـم هـالات كثيفة من الدخان، قال علي في وهن:" أنا لا أدخن"، قالـت فايزة وهي تنفث في وجهه زفرة كثيفة:" لا تكن طفلا، يجب أن تجرب كل شيء"، دست السيجارة في فمه فأخذ يجـذب بكل ما لديه من قوة، لكن صدره كان يضيق، المكان كله كان يضيق به، لم يبق إلا جسد فايزه، يستند إليه ويتمسك به حتى لا ينهار، قالت له:"تعال معي، سأريك بعضا مـن عـالمي الخاص".

هبطا على درج ضيق رطب، دخلا معا في غرفة في بدروم معتم، أشعلت الضوء فبدت حجرة صغيرة مزدحمـة، كانت هناك عشرات من اللوحات المليئة بلطخات الألـوان، كانت معلقة فـوق الحـوائط، ومرصوصـة علـى الأرض موضوعة فوق الحوامل وفوق السرير الصغير الموجود في الأركان، تطلع علي مدهوشا إلى الخطوط والألوان القاتمـة، طارت من ذهنه كل أثار الاشربة والأدخنة، أي كوابيس هذه، ومن أي عقل خرجت، نظر إلى فايزة، كانت تقـف أمامـه وهي تلتقط أنفاسها، كان مصدوما، كانت قد أدخلتـه بشـكل قسري إلى عالمها، قال مفزوعا:

ــ من أين خرجت كل هذه الأشياء، هل كل هــذا فــي داخلك؟

لم تجب عن سؤاله، كانت تنظر إليه بعيون زائغة قالت:

ــ لم آت بك إلى هنا من أجل هذا، أردت أن أريك شيئا أكثر حياة..

رفعت يدها وأنزلت حمالات فســتانها فظهــر نهــداها عاريين، صغيرين ومشرئبين، صدرها يعلو ويهبط، ينتــزع أنفاسه بصعوبة، توقفا صامتين ومبهورين، لم يكن هناك إلا صوت أنفاسهما، رفع علي يده ومدها في الهواء، قالت فــي همس: لا تفعل، فظلا واقفين، ثم رفعت الحمالة فــي هــدوء وثبتتها على كتفيها، غادرت وسار وراءها.

لم تقترب منه فايزة بعد ذلك، ولم يدر كيــف مضــت الحفلة، رقص مع أكثر من واحدة دون أن ير وجهها، كــان نهدا فايزة يطلان من كل عين يقابلها، ظل خيالهما يلاحقــه وهو يركب السيارة بجوار أبيه،كانت ليلة لا تنســي، مليئــة بالجوع والرغبة.

ــ سوف تمضي أيام طويلة قبل أن يختفي صدر "فايزة" من أمامي، لم أفكر أبدا لماذا فعلت ذلك، كل ما فكرت فيــه

إنها عاملتني كطفل، أرتني قطعتين من الحلوى ثم خبأتهما مني قبل أن أتمكن من لمسهما.

في الشتاء البارد كان يجلس في قاعة المذاكرة، وكان المطر ينهمر على الزجاج المطلي بلون أزرق، جاء طلال الأنصاري وجلس أمامه في صمت، لم يكن يذاكر أو حتى يتظاهر بذلك، كان فقط يحدق في علي بعينيه النافذتين لدرجة أن عليا أحس بنوع من الخوف والرهبة، لماذا كل هذه الملاحقات، هل هو شاذ جنسيا، أرعبته الفكرة، كان أبوه قد حذره من عنابر النوم الجماعية، ولكنه لم يتصور وجود هذه الحالات وسط جو الصرامة العسكرية الذي يسود هذا المكان، ولم يتصور أيضا أن يكون "طلال الأنصاري" وهو بهذه السطوة وذلك التكوين الجسماني من هذا النوع، قال له:

ــ لم نرك؟

هتف مدهوشا: أين؟

قال طلال في جفاء: قلت لك من قبل، كنا في انتظارك في المسجد، كان من الممكن أن تسمع ما يفيدك، و يهدي قلبك؟

قال علي: لسنا في الأزهر، أليس كذلك؟

ــ ليس للأزهر علاقة بــالأمر، ولا تحــاول أن تأخــذ كلامي على محمل السخرية.

ــ حتى الآن لا أعرف لماذا تلاحقني، تدور في رأسي العديد من الأسباب ومعظمها سيء

ــ تعال إلى المسجد وسوف تختفي من رأسك كل هــذه الأسباب.

ــ سأعرض عليك اقتراحا آخر، لماذا لا ينســى كــل واحد منا الآخر، إننا لا نتشارك في نفس الســنة الدراســية، ووجودنا معا في نفس المكان مجرد مصادفة لا تعني شيئا.

كان المكان يمتلئ بنبضات متوترة، وبدأ صوت علــي يعلو رغما عنه، وطلال يحدق فيه وهو يعلق نفس الابتسامة الباردة على شفتيه، كأن جزءا من متعته الشخصية أن يــرى عليا وهو يخرج عن طوره، لم ينقذ الموقف إلا قــدوم أحــد الجنود، ليخبر عليا أن هناك مكالمة له، زفر في ارتياح وهو ينهض مبتعدا عنه، ولكنه ما أن أصبح وحيدا فــي الطرقــة الخالية خلف الجندي حتى بدأ يشعر بالقلق، هل أبــوه هــو المتصل، هل حدث شيء مفاجئ؟ كان الهاتف راقدا أمامــه مثل قطة سوداء متربصة، من الطرف الآخر تنــاهى إليــه

الصوت خافتا ومبحوحا وجائعا، تلفت حوله، خيل إليه أنهم جميعا يستمعون إليها، يرون نهديها العاريين، كانت تقول:

ـــ كنت أحسب أنك سوف تتصل بي كل يوم وكل ليلة.

قال علي: كيف أفعل ذلك وأنا محبوس ومخنوق خلف أسوار هذه الكلية اللعينة.

ـــ هذا أدعى لأن تكون أكثر شوقا وجوعا.

ـــ لم أفعل شيئا سوى النظر

ـــ وما الذي منعك، لا تأبه باعتراض إمرأة، ولا تصدق دموعها، عليك فقط أن تكتشف رعشة الرغبة في جسدها.

كان علي هو الذي يرتعش، كانت المشاعر المتضاربة، ماحدث من لحظات في غرفة المكتبة، وما يحدث الآن خلال الهاتف، قد اضعف كل صمامات الثبات داخله، قال:

ـــ ماذا تريدين مني؟

ـــ سوف إنتظرك في اجازتك القادمة، لا تبال بأبيك تعال إلي فورا.

ـــ وماذا أقول له؟

فور أن تفوه بهذه الكلمات شعر بالندم، شعر أنه طفل صغير، مازال في حاجة لأخذ الإذن من أبيه، توقع أن تسخر

منه، أو تغلق الهاتف وتتركه معلقا، ولكنه سمع صوتها جادا وهادئا:

ــ سوف أتدبر الأمر.

رغم أنه سمع صوت إغلاق الهاتف في الناحية الأخرى فقد ظل واقفا معلقا السماعة على أذنه، هل دار هذا الحوار بالفعل؟ كانت "فايزة" لا تني تفاجئه، رغبتها الحارة والمتدفقة تصيبه بالارتباك، لا يدري لماذا خطرت في ذهنه صورة أبيها وهو بزيه العسكري وشعره الأشيب وكل الأوسمة التي تزين صدره، متى حدثت كل هذه المعارك التي انتصر فيها، وكيف حصل على كل هذه الأوسمة، ماذا سيقول عندما يعرف بهذه العلاقة التي بدأت تنمو، وماذا سيقول أبوه؟ كانت هناك رعشة غامضة تهز كل خلاياه، طاقة غريبة لم يدر من قبل أنها موجودة، ظل واقفا مستندا على جدار الطرقة، كانت طويلة وخانقة، لا توجد فيها نسمة هواء صالحة للتنفس، سمع الصوت وهو يأتيه ساخرا:

ــ الأخ عاشق أيضا، يبدو أنك محظوظ، أم أنها إحدى المحترفات؟

انتفض علي، وجد نفسه وهو يمسك في خنـــاق طـــلال الأنصاري، ويدفعه إلى الخلف حتى يصطدم بالحائط، وهـــو يصرخ فيه بصوت أجش:

ــ ماذا تريد مني، لماذا لا تبتعد عني، هل أنـــت شـــاذ جنسيا، أبحث إذن عن واحد غيري يشبع رغباتك.

دفعه طلال بعيدا، كان أضخم حجما، وكان قد تخلى عن ابتسامته وأصبحت ملامحه شرسة، اشـــتبكا ســـويا، تبـــادلا اللكمات والشتائم، لم يكن "على" يرى ما أمامـــه بوضـــوح، ولكنه ظل يحاول الرد بكل ما لديه من قوة، لم يتدخل أحـــد، ظلت الطرقة خالية وهما يواصلان الضرب المنهك، امـــتلأ جسده بالألم، كأن هناك نارا قد اشتعلت في وجهه، ولكنه لـــم يكن قادرا على التراجع، وفي النهاية أصابهما الإنهاك فـــي لحظة واحدة، جلسا متقابلين، كل واحد مستند إلـــى الجـــدار، ممزق الثياب، مليئين بالكدمات والجروح الصغيرة، لم تعـــد هناك لدى أي واحد منهما القدرة على معاودة الاشتباك مـــن جديد، تماسك علي، استند إلى الجدار وبدأ يستعد للعودة إلى عنبر النوم المظلم حتى لايراه أحد، سار بضع خطوات قبـــل أن يسمع صوت طلال المنهك وهو يقول له:

ــ سوف تذهب بالطبع للشكوى إلى أصدقاء أبيك، كبار الضباط الأوغاد، لا يهمني ذلك.

لم يتوقف علي ولم يرد عليه، لم يكن ينوي ذلك، وكان يريد أن يقف بالأمر عند هذا الحد، إنها معركته هو، وقد خاضها بنفسه، واصل السير حتى ارتمى على سريره العلوي في ظلمة العنبر، ولدهشته لم يفكر فيما حدث للتو، في الآلام التي مازالت تغمر جسده، كان يفكر في "فايزة"، كيف يستطيع الذهاب إليها دون أن يثير شكوك أبيه؟

ــ "كنت مصرا على إخراج "طلال الأنصاري" من رأسي، وأن يكون هذا الشجار سببا في تمزيق كل ما يمكن أن يربط بيننا من روابط وهمية، كل ماكنت أوده أن يصبح غريبا عن لامنتقما مني، ولكن من الواضح إنني كنت أفكر في هذا الأمر بطريقة بلهاء، كما فعلت في الكثير من الأمور".

جاء موعد الإجازة، لم يجرؤ علي على الاتصال بها في ليلة الخميس، ليلة خروجه من الكلية، رآى أباه في لمحة خاطفة حين عاد إلى البيت، كان يبدو منشغلا،متوفزا، لم يسأله عن تفاصيل حياته في الكلية كما تعود، اكتفى بأن أغلق

عليه باب مكتبه وظل الضوء مشتعلا لوقت متأخر، ولم يأت النوم لعلي بسهولة، تقلب وهو يحلم بصوتها الهامس الجائع.

في الصباح ــ كما هي العادة ــ كان الأب مستيقظا منذ وقت مبكر، منهمكا في تقليب جرائد الصباح، جلس "علــي" وحاول هو أيضا أن يتناول إفطاره، رغم تحية الصباح، ظل الصمت بينهما باردا مثل قطعة الزبد، كان الأب شاحبا، هل عانى هو أيضا من أرق الليلة الماضية، تكلــم الأب أخيــرا دون أن يرفع رأسه عن صفحات الجريدة، كان لدهشة علــى يتحدث بصورة عارضة تماما:

ــ سمعت أنك ذاهب اليوم إلى منزل العقيد التهامي.

أوشكت اللقمة أن تقف في حلق "على"، هتف متشككا:

ــ كيف عرفت؟

ــ من سيكون غيرها، لقد اتصلت بي "فايزة" بالأمس، كانت تسأل عنك، أخبرتني أنها اتفقت معك علــى أن تقــوم برسمك.

كان يتحدث عن الأمر ببساطة، وكــان علــي مــأخوذا بالجراءة التي تتصرف بها "فايزة"، واصل تقليب الصــحيفة ومط شفتيه وهو يضيف:

ـ تقول أنها اكتشفت في وجهك شيئا يصلح لأن يكـون موضوعا للوحتها، في الحقيقة لم أفهم أبدا شيئا من رسم هذه الفتاة ولا من تصرفاتها أيضا.

نهض "علي" واقفا وهو يمسح فمه بأطراف المنشـفة، قال الأب ملاحظا:

ـ أنت تعرف طبعا أنها أكبر منك سنا، وهي أرملـة، فتاة سيئة الحظ.

كان صوته خاليا من الشفقة، لم يبد أيضا اعتراضا على الذهاب إليها، تركه يواجه خياراته، يخوض تجربته ويحـدد موقفة من "فايزة"، ومن بقية بنات قادة الأسلحة الآخرين.

كان البيت في النهار اقل جمالا عنه في ليلـة الحفـل، خاليا من الزينة، تحيط به أشجار باهتة الخضـرة، وحتـى الأزهار التي كانت موجودة بدا كأنها اقتلعت من جـذورها، ولكن "فايزة التهامي" كانت في انتظاره، مختلفة في الصباح، دون قناع المساحيق الثقيل، وجهها دقيق الملامح ولكنه خال من النضارة، يدها باردة وملوثة ببقايا الألوان، ترتدي ثوبـا منزليا بسيطا عاري الصدر، وقد ربطت شعرها الذي كـان مهوشا خلف رأسها، بدت ملامحها واضـحة ومحـددة،حتى

العينان لم تبدوان غائرتين إلى هذه الدرجة، كانت تخفيهما خلف نظارة خفيفة، بدت مختلفة تماما عن فتاة المساء الفائت، قالت:

ـ أنا اعمل منذ الصباح، عندما أكون متوترة لا أستطيع التوقف عن العمل.

هبط خلفها إلى قبوها الخاص، اشتم خليطا من رائحة القهوة الساخنة والعطر والألوان الزيتية، اكتشف مدى ضيق المكان وازدحامه كأنها تقيم فيه كامل أيامها، وربما كان هذا ما سلبها نضارة وجهها، سجن أرضي مفتوح الأبواب، جلس علي فوق مقعد صغير، تتحرك أمامه وتملأ المكان بحفيف جسدها، قال مدهوشا:

ـ كيف اتصلت بأبي، كيف استطعت إقناعه؟.

نظرت إليه من خلف نظارتها في لوم، ضبطته مرة أخرى في حالة الطفل الذي يخشى سطوة أبيه:

ـ المواجهة هي الأسلوب الأمثل، المباغتة، أنا أعرف هؤلاء العسكريين جيدا، لقد تربيت بينهم، ما أن تواجههم حتى ينهزمون.

قال مبهورا من كلمتها، من ثقتها بنفسها:

ــ وهل تريدين رسمي حقا؟

تشاغلت بصب القهوة المغلية، ثم التفتت إليه فجأة وهي تقول:

ــ ما رأيك أنت، ما رأيك أن أرسمك عاريا تماما؟

كانت القهوة مرة، دون قطعة واحدة من السكر، لم يستسغ طعمها، ولكنه خشي أن يجاهر بذلك، أراد أن يبدو ناضجا، متحملا لمرارة القهوة وكل المرارات، جلست أمامه وقد مالت للأمام، رأى نهديها وهما يبرزان قليلا كأنهما على وشك الانطلاق، حدقت في عينيه كأنما تريد أن تستقصي مدى رغبته، ثم قالت:

ــ هل حذرك أبوك مني؟

ــ لم يفعل، لو كان يخشى شيئا لمنعني من المجيء إليك، قال لي فقط إنك أرملة.

ــ وأكبر منك سنا، لو أنه منعك، هل كنت ستخضع له؟

ــ لم أعد راغبا في ذلك.

ــ أتعرف، ربما من أجل هذا رغبت في أن نكون معا، إننا نتشابه، أنت ابن وحيد، وأنا ابنة وحيدة، لقد خضعت طويلا لهم حتى دمروا حياتي.

ــ هل أنت على خلاف دائم مع أبيك؟

ــ ألم أقل لك، هؤلاء العسكر، يبحثون دوما عن عــدو ينتصرون عليه، ولأنهم عاجزون عن الانتصار على العــدو الرابض عبر الصحراء، فهم ينتصرون علينا، نحــن هــدف سهل بالنسبة إليهم.

تذكر علي لحظة الحرية الضئيلة وهو يقف في طــابور مكتب التنسيق، عاجزا عن تذكر رغبة خالصة يتمناها، تذكر "سلمى جوهر" مثل لحظة من الشجن العابر، والأم الغائبــة كسؤال لا جواب له، والطيور التي تهوي دون أن يرف لهــا جناح وتغوص في بحيرة قارون، نهضت "فايزة"، سارت إلى ركن الغرفة، أزاحت غطاء من القماش المتسخ، كشفت عــن كومة من اللوحات المتراصة، امتلأ الهواء بذرات من التراب كانت هاجعة فوقها، كشفت لوحات بلا أطر تحدها أو زجاج يغطيها، متسخة من طول ركنتها، جرداء، عارية وصريحة، مزق من الألوان والأشكال غير المفهومة، عدلتها فايزة أمامه حتى يحسن رؤيتها، وسط الخطوط المهوشة، بدأ يتبين بعضا من التفاصيل، أجساد عارية ولكنها مبتورة، أعضاءها عاجزة عن الإلتئام، ينقصها رأس أو ساق أو ذراع، ولكنها أجســاد،

نحيلة وملتفة على نفسها، هشة تكاد عظمها أن تبرز من الغلالة الجلد الرقيقة التي تكسوها، ضائعة بلا حماية، وسط فراغ رمادي لا نهاية له، يختلط اللون الأزرق بالأسود فيبلغ بها الحزن مداه، طيور فزعة مكسورة الأجنحة، وصرخات صامتة، وجوه مضغوطة محتشدة، تلتمس العزاء في مواجهة خوف عظيم، بل إن الحزن يبدو فعلا عبثيا ولا جدوى منه، ارتعد "علي"، تذكر الليالي الطويلة التي قضاها وحيدا في غرفته، تحاصره هذه الأجساد نفسها، الأسئلة التي لا جواب لها، كأن فايزة التهامي قد اطلت من خلال عين خفيه ورأت أدق لحظات حزنه ووحدته، نظرت إليه "فايزة" في إشفاق:

ــ هذه بعض من كوابيسي، رسمت الكثير منها في منتصف الليل، هل تذكرك بشيء من كوابيسك.

قال بصوت خافت: إنها هي، نفس الشيء.

تخيلها "علي" وهي تنهض مفزوعة، تسير حافية القدمين، متهدلة الشعر، زائغة العينين، في حالة من اليقظة والنوم، على حافة الحلم والواقع، تمسك الريشة لتضع على سطح اللوحة كل صرخاتها الصامتة، تنسال الرسوم عارية وباردة ومليئة باللوعة، تماما كما ولدت خلال لحظات

الكابوس، ارتجف "علي"، قال بصوت يوشك أن يتفجر بالبكاء:

ــ لم أر أمي منذ سنوات بعيدة، لا أعرف أين ذهبت، ولا لماذا تركتني، سألت عشرات الأسئلة دون أن أتلقى إجابة واحدة، بل أن صورها اختفت من أمامي حتى أن ملامحها بدأت تبهت في ذاكرتي.

كابوس دائم لا يقظة منه،أمسكت رأسه وضمتها لصدرها، اشتم رائحة عطرها، كانا مثقلين بالحزن معا، طعم المالح على شفتيها، وزفراتها الحارة على وجهه، في خوف وخشية بدءا يكتشفان ملمس بعضهما البعض، لم يكن هناك جدوى من فتح كل هذه الجروح الداخلية، كان عليهما أن يتركا الفرصة لحالة الجوع والرغبة التي بداخلهما حتى تهزما حالة الحزن الممض، لم يتعمد أن يعريها، ولكنه وجدها بالفعل عارية بين ذراعيه، ساعدته حركاتها الانسيابية، رأى نهديها للمرة الثانية، ولكنه كان الآن قادرا على أن يمرغ وجهه فيهما، شعر بهما وهما تشرئبان، تستيقظان، يستعيد جسدها كله نفحة من الحياة التي غاضت منه، كانت هناك أريكة ملاصقة للجدار، كأنها قد أعدت

خصيصا من أجل هذه اللحظة، لم يكن علي يعرف حتى الآن ماذا يفعل، كان قد اندفع معها ناسيا إنها تجربته الأولى، لم يعرف كيف يتعامل مع جسد "فايزة " المرتعد بين يديه؟ يمتلكه في عنف، أم يتحسس تضاريسه في رقة، يجثم عليه أم يترك لها المجال حتى تتقافز فوقه، يبادرها أم يتركها تقوده، كانت تهمس في أذنه في جوع وإشفاق: "إنها المرة الأولى، أليس كذلك؟" هتف في انفعال:" كلا"، ولكنها كانت تعرف أنه يكذب،"أصبح البدروم أكثر دفئا، وتسللت بضعة من أشعة الشمس في إصرار من خلف الستائر المسدلة، واختلطت رائحة جسدها بندى العشب وجذور النباتات، وصدحت كل الطيور التي كانت نائمة على أشجار الحديقة، تأوهت وهي تستعد للطيران، ووجد نفسه ينفذ إلى "فايزة" بسهولة ويسر كأنه ألف هذا الجسد عشرات المرات، وعندما بدأت تتأوه وتنشب أظافرها في صدره شعر بالزهو، بدا الأمر سهلا وعميقا وآسرا، بل ويمكن أن يستمر طويلا، كانت تقوده إلى عتمة شهوتها الداخلية، تحيطه بشعرها المتهدل، وتنفذ إليه بملامحها المرتعدة من فرط النشوة.

نهضت واقفة وهي تنفض شعرها، تنتزع نفسها من سحر اللحظة، وضعت يدها على صدرها كأنها تحاول أن توقفه عن اللهاث، أمسكت بالفرشاة وهي تهتف:

ـ ابق هكذا، سأرسمك عاريا، إنها لحظة حب نادرا ما توجد، سوف أقبض عليها وأضعها على اللوحة.

قال محتجا: ولكن هذه لن تكون مرتنا الأخيرة معا؟

قالت وهي تضرب سطح اللوحة بفرشاة محمومة، وبلطخات من اللون:

ـ ربما نلتقي عشرات المرات، ولكن هذه المرة الأولى لن تتكرر أبدا.

جلس أمامها وقد عقد ذراعيه فوق صدره، واصلت هي خلط الألوان، كانت تبحث عن تركيبة لونية لم توجد في لوحاتها قبل، ربما تتغير ألوان الكوابيس القاتمة، بدأ شكل غامض في التشكل على اللوحة، ولم يدر علي إن كانت ترسمه هو أم تصور رغبتها الداخلية، قالت:

ـ يا إلهي، إن جسدك جميل، غض وجميل.

هذا المساء ظل علي جالسا في فراشه وهو مسحور، أغلق باب غرفته في إحكام، لم يكن يريد لأبيه أن يشم رائحة

جسد "فايزة" الذي مازال عالقا به، ظل نائما مفتوح العينين، جسده مسترخيا ومفكك، في الصباح أدخله بصعوبة داخل حلته العسكرية، كانت أشبه بقالب حجري يدفن رغبته التي استيقظت للتو، على مائدة الإفطار تطلع إليه الأب متسائلا، ولكن علي لاذ بالصمت، شعر أنه أخيرا يستطيع الانتقام لكل الأسئلة التي لم يتلق جوابا عنها، خرج مسرعا ليلحق بطابور الصباح في الكلية، وبدأ جسده المسجون يؤدي كل الطقوس المرغم عليها في انتظار نهاية الأسبوع.

ــ " كنت مشغولا فلم ار النذر التي تحيق بي، وساذجا إلى حد أنني صدقت أبي، وحسبت إن تلك الاسوار التي لا تمل الغربان من الوقوف عليها يمكن أن توفر لي الآمان، أنت لا تعرف مصر جيدا ياصديقي، ويبدو أننا أيضا لا نعرفها، الهدوء فيها خادع، والاستكانة ما هي إلاوسيلة للتعمية، هناك جذوة مشتعلة دوما تحت تراب الزمن، وقد وطئتها باقدامي دون أن أدري".

في تلك الليلة كان البرد قارسا، وشعر علي برجفة غريبة وهو جالس في قاعة المذاكرة، معظم الطلاب خالفوا التعليمات وأووا إلى الفراش مبكرين، والريح التي تزوم

خارج النوافذ أشبه بعواء ذئاب جائعة، لا يدري علي كيــف فكر أنها لحظة مناسبة حتى يظهر فيها طــلال الأنصـــاري، تخيل ابتسامته الساخرة وكلماته الجارحة وهذه الرياح علـــى خلفيتها، كان قد حرص طوال المدة السابقة على آلا يلتقي به حتى بفعل المصادفة، تجنب الأماكن التي يمكــن أن يحــدث فيها أي تجمع للطلبة القدامى، ورصد مواعيد دفعته بحيث لا يراه لا في المعامل ولا المكتبة، لم يكن هناك ما يشجعه على مواصلة المذاكرة، لذا فقد نهض واستلقى على فراشـــه فـــي العنبر المظلم، تخيل جسد فايزة وهو يتشكل أمامه من ذرات الظلمة، تدب فيها حياة متوهجة، كأنها قادمة كي تدفئ له هذا الفراش البارد، لم يخبر أحد بما حدث له معها، لم يكن هناك واحد قريب منه إلى درجة تجعله يفعل ذلك، كـــان ماحـــدث أشبه بصدمة جعلته يدرك مدى وحدته ومدى ما ينقصه مـــن تجربة، لو أنها بجانبه الآن تشاركه فراشه الخشـــن، ســـمع أصوات التمام وهي تتباعد، ودوى البـــوق الأخيـــر يتـــردد مختنقا، وبدأ خدر النوم يتسلل إلى جسده.

لا يدري كم مر عليه من وقت منذ أن اســـتغرق فـــي النوم، ولكنه استيقظ مفزوعا، شعر كأنه يطير فـــي الفـــراغ،

وجسده يسقط مرتطما بالأرض، فتح عينــه فوجــد أشــباحا مظلمة تحيط به، أيادي تمتد إليه لتجذبه وتغلق فمه، حاول أن يتخلص منها، أن يصرخ عاليا، ولكن كان هناك من يضــع كمامة على فمه، ومن يقيد يديه خلف ظهره، ومن يركله في جنبه بعنف، صرخ بصوت محتقن، حاول أن يتعرف علــى الوجوه المظلمة التي تتكاثر حوله، ولكنه فوجئ بمن يضــع عصابة على رأسه، اكتملت عملية الأسر بسرعة وبأقل قــدر من المقاومة، كأنهم تدربوا على تلك العملية عشرات المرات، صاح صوت ما: "خذوه"، حــاول أن يثبــت أقدامــه علــى الأرض ولكنهم دفعوه في خشونة إلــى هــواء الليــل،أحس بالبلاط البارد وهو يرتطم بباطن قدميه، لابد أنهــا الطرقــة المكشوفة خارج عنابر النوم، سار عليهــا حافيــا، مقهــورا ومقيدا، عاد الصوت يقول لهم آمرا:"أغلقوا باب العنبر جيدا، لا نريد أن يخرج أحد من الطلبة"، كانوا يريدونه هو فقــط، واصلوا دفعه، في كل مرة يوشك أن ينكفئ أكثر من مــرة، ولكنهم كانوا ينهضونه في عنف ويرغمونه على السير، فجأة وضع قدميه فلم يشعر بالأرض، هوى جسده فجأة من فضاء حالق، ارتطم بدرجات معدنية متتابعة، لم يكن قــادرا علــى

التحكم في جسده ولا في الآلام التي تغمره، أحس بماء بـــارد لزج وعطن يغمر رأسه، لابد أنه قـــد وصـــل إلـــي الفنـــاء الموحل، صاح صوت ساخر: "لاتعاملوه هكذا، إنـــه صـــيد ثمين"، كان هذا صوت طلال الأنصاري، لماذا لـــم يدهشـــه ذلك، كان من المحتم أن يكون وراء ذلك، ولكن أي نوع من الانتقام هذا؟، ومن هؤلاء الذين يشاركونه، ولماذا يكرونه هم أيضا لهذه الدرجة، أنهضوه مبللا وعاجزا ومرتجفا، ســـاروا به حافيا عبر الفناء، كان الرمل قد تحول إلى وحل، وبـــرك من الماء البارد، خاض فيها مرغما، هل ســـيقتلونه؟، أيـــن ذهب الحراس وكيف تحدث كل هذه الجلبة دون أن ينتبه إليها أحد، أسندوه إلى أحد الجدران، وقف منحنيـــا عـــاجزا عـــن تمالك نفسه، هل سيطلقون عليه النار؟ ظـــل مرهـــف الأذن، متوقعا أن يسمع تكة الزناد، من أقصى الفناء جـــاء صـــوت ناضج وعميق، قال بصوت آمر:"هل تأكـــدتم مـــن أبـــراج المراقبة؟"، رد طلال في احترام:" أصبحت تحت ســـيطرتنا تماما"، من هذا الرجل؟ هل هو أحد القادة؟ وماذا يحدث، هل يريد أحد أن يستولي على الكلية؟ هل هو انقلاب مـــا؟ هـــل جميع الطلبة أسرى مثله؟ ساد الصمت لبرهة سمع صـــوت

الأقدام تقترب، وأحس بأصابع لزجة تمسك وجهه في خشونة وصوت يتمتم في دهشة: من هذا بحق الله؟ ساد صمت، وسمع علي أنفاس الرجل وهي تتردد في صوت متحشرج، كانت لكنته غريبة، كأنه قادم من بلد عربي ما، وأخيرا قال طلال في صوت خفيض: "أنها ورقة رابحة، رأيت أن نحتفظ به تحت سيطرتنا حتى ننتهي من العملية"، قال الرجل ذو الصوت الأجش في لهجة يشوبها الغضب:" مهمتنا كانت في مخازن السلاح، وليس في عنابر النوم، كان يجب أن تراجعني أولا"، رد طلال على الفور في صوت حازم:" أنا قائد الأعضاء داخل الكلية وأعرفها بشكل أفضل، هذا الولد ابن شخصية مهمة، لا يمكن لأحد أن يرتكب مجازفة ويعرضه للخطر وهو في أيدينا"، صمت الصوت الآخر، إنه ليس قائدا، وهو أيضا من خارج الكلية، يعني هذا أنهم قد استولوا على البوابات الخارجية واصبح في مقدورهم إدخال من يشاءون، ولكن من هم؟ هل هي فرق من أسلحة أخرى؟ أم أنهم متعاونون مع جهات أجنبية؟ هل اقتحمت إسرائيل القاهرة؟ وأخيرا قال الرجل بصوته العميق:" لا تدعوه إذن واقفا في العراء هكذا، خذوه إلى مكتب المدير".

دفعوه مرة أخرى عبر الفناء الموحل، اختفـــي الهـــواء البارد، وسادت رائحة الخشب المدهون بـــالورنيش وعطـــن السجاد، أصبحت الأرض أخيرا ناعمة تحت قدميـــه، كانـــت هناك أصوات أقدام كثيرة تعدو في عكس الاتجاه الذي يسير فيه، وصيحات محتقنة، دفعوه حتى سقط، قلل السجاد الكثيف من ألم السقوط، سمع صوت إغلاق الباب، ساد صمت ثقيل، ظل ملقى على الأرض، كلما حرك جسده شعر بألم شـــديد، شعر بالقيد وهو يحز في يده، لابد انه ينزف الآن دما، كـــم عليه أن يبقى هنا؟، وإلى أي شيء يسعى هذا الطلال، كـــان مايدور من عملية كبيرة ورغم ذلك فقد أقحمه فيها لأســـباب شخصية محضة، هل سيقتلونه؟، سيفعلون ذلك بالتأكيد، لـــن يترك الأنصاري خلفه شاهدا مثله، مازال الصمت يسود، هل نجحوا فيما يسعون إليه؟، وهل كان من السهل أن تسقط هذه الكلية بكل مافيها من حرس وما حولها من أسوار وأبـــراج؟، وهل سيشعر أباه بأي نوع من الذنب عندما يتبين أنـــه قـــد أدخله بإصرار إلى فخ الموت بقدميه، تـــذكر فجـــأة ســـلمى جوهر، ألم يكن الأجدر به أن يشاركها حلمها، بكل ما فيه من شظف، ربما كان ذلك لينقذ حياته.

كم مر من الوقت، هل أغشي عليه أم ظـل مسـتيقظا، مازال الألم المختلطة بالمهانة متواصلا، سمع صوت المكتب وهو يفتح، وأقدام تقتحم المكان، تسير حوله وتصطدم بجسده، دون أن يبدو أنها تراه أو تأبه بوجوده، صاح الصوت الأجش ذي اللكنة:"هذا تأخير مميت في الخطة، حتى الآن لـم تـتم السيطرة على مخازن السلاح". قال صوت ما: هناك بعـض المشكلات ولكننا نحكم سيطرتنا على المكان، سمع "علـي" أصوات أقدام وهي تعدو مسرعة وهي تعدو فـي الطرقـة الخارجية، كان الرجل ذو اللكنة الغريبة يلتقط أنفاسـه فـي مشقة، خائف أو مريض، أخذ جرس التليفـون يـرن فـي تواصل، بدأت كل التليفونات التي كانت فوق المكتب ترن في أجراس متتابعة، هتف الصوت المتحشرج وسط الرنين:"ماذا يحدث، هل أحسوا بنا في الخارج"، رد عليه بصـوت آخـر محاولا أن يداري فزعه: "لا يمكن أن يحدث هـذا بسـرعة هكذا"، توقفت الأجراس بعد أن أصابها اليأس، ولكن السكون لم يستمر طويلا، دوت أصـوات بعـض الطلقـات، بعيـدة ومتفرقة، شهق الجميع في فزع كأن هـذه الأصـوات قـد باغتتهم تماما، قال الصوت الأجش: ماذا يحدث بحق الله، من

أين تطلق هذه الأسلحة؟ سمع علي أصوات أقــدامهم وهــي تعدو خارج الغرفة، ولكن أصــوات الطلقــات لــم تتقطــع، ازدادت اقترابا، تعالت فــي الســاحة الخارجيــة صــيحات مختلطة، تأمر بالتراجع أو بالاستسلام، لم يدر "علــي" مــن يطارد من في وسط هذا الظلام البارد؟.

ازدادت أصوات الطلقات، كأن هناك تراشقا بالأســلحة الخفيفة في فناء الكلية، أدرك "علي" من خلال العصابة التي تغطي عينيه أن كل الأضواء قد اشتعلت، ولم يمــض وقــت حتى عادت الأقدام مسرعة إلى الغرفة، صــاح الرجــل ذي الصوت العميق: "اللعنة، من أين ظهر كل هؤلاء الجنــود؟"، شعر "علي" بالرعدة تغمر جسده وصوت طلال الأنصــاري يرتفع صارخا وحانقا:" لا أدري، إنهم ليســوا مــن حــرس الكلية"، صرخ الرجل في حنق، بدا كأنه يوشــك أن يأخــذ بخناق طلال:" ماذا، تقولها ببساطة، هذا يعني أننا انكشفنا، أو أننا كنا مخترقين أصلا"، أحس علي بألم هائل، كانت هنــاك ضربة حذاء هائلة قد ارتطمت في جنبه، تبعها صوت طلال وهو يهتف من بين أسنانه:"أنه أباه، لا شك أنه وراء ذلــك؟" تلوى "علي" في عجز وحاول الابتعاد عن مرمى قدمه دون

جدوى، سمع صوت تردد أنفاسه في وضوح، كـان شـديد القرب منه، كأنه يتسلى برؤية علامات الألم التي تبدو على، همس بصوته كالفحيح: "فلنقتله"، اعترض الصوت الأجـش: "ليس هذا وقت الانتقام الشخصي، يكفي ما أضعناه من وقت في اعتقاله، ربما كان هذا سبب إفساد خطتنا"، صرخ طلال: "أبوه هو السبب، لابد وأنه دس العملاء بيننا"، مرة أخـرى أحس علي بمقدمة الحذاء وهي ترتطم بجنبه، فقد القدرة على التأوه، اصبح عاجزا عن التقاط الأنفاس التي يحتاج إليهـا، كيف نمت بذور الكراهية إلى هذه الدرجة بينه وبين طـلال، لقد اختلفا وتشاجرا، ولكن كيف وصلت إلى هذا الحد الدامي؟ وما هي علاقة أبيه بتلك المعركة التي تدور خارجا؟، صـاح الرجل ذي اللكنة:" ليس هذا وقت تصفية الحسـابات، دعنـا نتدبر الموقف قبل أن تقـع الكارثـة"، ارتفعـت أصـوات الطلقات، أصبحت أكثر قربا، كأنها تخترق الجدران والنوافذ، صاح صوت مذعور من مكان ما: "لقد فقدنا البوابات"، قـال طلال:" دعهم ينسحبون حتى مستودع السلاح، لا نريدهم أن يخترقوا صفوفنا، فلنتحصن جميعا داخل هذا المبنـى"،بـدا صوته حازما كأنه قد امتلك زمام الموقف، قال الرجل الآخر

وقد بدأ يفقد إتزانه:"ومن الذي يضمن لنا أنهم لن يقتحموا هذا المبنى؟"، ألم مفاجئ وركلة جديدة، قال طلال:" لـــن يجـــرؤ على ذلك، لابد أن نجعلهم يعرفون أن هذا الولد في أيدينا".

كفت طلقات النار عن الدوي أخيرا، ساد صمت متوتر، أحس علي أن هذه اللحظات الموحشة سوف تقرر مصـــيره، لم يعد يسمع سوى صوت أنفاسهم وهي تتردد، لابد وأنهـــم كامنون الآن خلف الأبواب وضلف النوافذ، صاح من الخارج صوت جهوري، يهتف من خلال مكبرات الصوت: المكـــان محاصر، استسلموا وإلا اقتحمنـــا المبنـــى"، صـــاح طـــلال الأنصاري وهو يصرخ باسم "علي"، معلنا أنه سوف يقتله إذا حاولوا اقتحام المبنى، سمع علي اسم أبيه وهو يتردد عاليـــا، أصبح محلا للمساومة، لهذا السبب اختاره "طلال الأنصاري" وتتبعه ثم ألقاه هكذا مثل خرقة بالية، من اسفل صاح الصوت مهددا:"لا يهمنا من معكم، إذا لم تستسلموا في الحال ســـوف نهدم المبنى على رؤوسكم"، ساد الصمت مرة أخرى، قـــال الأنصاري في صـــوت خافـــت يحـــاول إقنـــاعهم:" إنهـــم يخادعوننا، لن يجرؤا على ذلك":

ــ" كنت في ظلمتي الخاصة، لم ادر لحظتها إن كـــان النهار قد لاح أو أننا مازلنا في عتمة الليل، كـــان إحساســـي بالمهانة والعجز كبيرا لدرجة أنني تمنيت لو أنهـــم ينفـــذون تهديدهم ويقتلونني، لم أكن أريد أن أخرج من هذه التجربـــة وعلى جسدي جروحها، وفي ذهني ذكرياتها".

بدأ المبنى كله في الاهتزاز، تعالت أصوات الشـــاحنات الضخمة، كأن هناك قوة هائلة تصدم بجدار المبنـــي، ربمـــا تريد أن تقتحم أبوابه، أو تحدث ثغرة فـــي جـــداره، ســـرت أصداء الاصطدام في قوائم المبنى، سمع "على" صوت بكـــاء قادما من بعيد، لا بد أن واحدا منهم قد انهار، صاح الصوت الأجش آمرا له أن يصمت وأن يتماسك، قـــال أحـــدهم فـــي صوت باك: "كيف اعتقدنا أن هذه الخطة المجنونة يمكن أن تنجح؟ "قال الرجل: كان علينا أن نقتل هذا الحـــاكم الكـــافر، ازداد بكاء الصوت: نحن الذين سوف نقتل؟ انفجر صـــوت طلال الأنصاري صائحا في الجميع:" ســـنكون شـــهداء، لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، أليس هذا كافيا" ولكن الرجـــل الأجش عاد يسيطر عليهم مرة أخرى، كانـــت الإهتـــزازات تزداد، وأحس علي أن جسده الواهن يوشك أن يطير من فوق

الأرض، قال الرجل:"الأوامر لدينا أن نستسلم". صاح طلال في حنق:" الجبن لا يحتـاج إلـى أوامـر، سـنقاتل حتـى نقتل"،هتف الرجل: ليس هذا وقت الحماقات، نحن أصـحاب رسالة، يجب ألا تموت رسالتنا معنا في هذا المكان، يجب أن نتحمل السجن والمحاكمة حتى نعلن عـن هـدفنا"، صـاح الأنصاري:"أنت تتوهم، سوف يشنقوننا قبل أن نتفوه بكلمـة واحدة"، توقفت أصوات الاصطدام، وتعالـت مـن الأسـفل صيحات المقتحمين، آخر ما سمعه علي هو صرخات طلال الأنصاري وهو يصيح في حنق:"أنت وأبوك وقومك الفاسقين هم السبب في بلائنا"، وبدأت مقـدمات عشـرات الأحذيـة تضربه في كل مكان من جسده، لم يكن هنـاك ألـم، كـأن مراكز الإحساس في جسده قد شلت، أو غادرته، وبدأ صوت الطلقات يقترب لدرجة لم يسمع بعدها أي صوت آخر.

ـ ١٥ ـ

ــ "رأيت أمي، كان وجهها طويلا وجبينها منحن وفكها دقيق وقوس انفها بالغ الرهافة، تضع علـى شـفتيها طـلاء برتقالي اللون، وتغطي عينيها الواسعتين رمـوش طويلـة، فيهما بريق آسر، وكانت صورتي منعكسة في مقلتيها، ولابد

أنها احتفظت بهذه الصورة زمنا طويلا، فقد كنت فيهما صغيرا ما أزال، والمدهش إنني كنت أبتسم، وهي أيضا تبتسم، تفتر شفتيها عن أسنان منتظمة غاية في البياض، كانت أيضا ترتدي بلوزة بيضاء، وجيب واسع ملئ بالورود، كانت تدور أمامي في الغرفة، كأنها تريني المدى الذي يمكن أن يبلغه "الجيب" حين تمتلئ بالهواء، والألق الذي يتخلل شعرها عندما يتطاير، ثم توقفت عن الدوران وبدأت تقبل وجهي، تقبل كل جروحي الصغيرة وعظامي المتكسرة، كانت هذه القبلات هي التي أعادت بعضا من الروح التي كانت قد فارقتها".

فتح "علي" عينيه على ضوء باهر ينبعث من الجدران البيضاء التي تحيط به، فأعاد إغماضهما في وهن، يشعر بعطش قاتل، ولكنه حين حرك شفتيه الجافتين، سرى تيار من الألم من وجهه إلى بقية جسده، كان مقيدا، كأن كل عضو فيه محاط بغلاف سميك، خيل إليه في هذه اللمحة الوجيزة أنه رأى زجاجة مليئة بالسوائل معلقة فوق رأسه، ورأى أباه، ليس نائما ولا مستيقظا، يحدق في اتجاهه في جمود، والصمت المميت يسود فوق كل شيء، كأن من

الصعب أن تأخذ الحياة مجراها وسط هذا الحيز الضيق، لـــم يفتح علي عينيه مرة أخرى، لم يرد ذلك، كان الظلام أخــف ألما، كما أن أمه كانت هناك، بينما يجلس أبـــاه فـــي وهـــج الضوء، سمع صوت المقعد والأب ينهض من عليـــه، ســـمع خطواته وهو يقترب من الفراش، هل أحس بيقظته الواهنـــة؟ يتحدث في صوت خافت كأنه يخشى أن يخدش غيبوبته:

ــ هل تسمعني؟ هل استيقظت؟ هل تشعر بالألم، هـــل يمكن أن تجيب علي بأي طريقة، حرك اي شيء في وجهك إذا كنت تستطيع ذلك.

ظل علي جامدا، لم يرد أن يعطيه ما يتوسل من أجلـــه، ربما يجعله ذلك يدرك إلى مدى وضعه على حافة المـــوت، بدا صوت الأب مهتزا، التقط أنفاسه بصعوبة وهو يحاول أن يجد كلماته، هل هذا أبوه حقا؟ كان يواصل الكلام رغم ذلـــك الصمت التي يواجهه، كان هناك ما يثقله، ويود أن يتخفـــف منه ولو بالكلام، كان يرفض صمت علي، وكـــان واثقـــا أن هناك يقظة ما، ربما كانت واهنة ولكنها تســـري فـــي كـــل عروقه، عاد يقول:

ـ كنت أنت في المكان الخاطئ، في الوقت الخطأ، وهذه هي المأساة، لم يكونوا يقصدونك أنت على وجه التحديد، ولكنهم انتهزوا فرصة وجودك في طريقهم، لقد دفعت ثمنا غاليا لشيء أنت لست طرفا فيه.

إلى أي مدى تحدث أبوه، ومتى غاب عن وعيه ومتى استعاده؟ كانت هناك ممرضة تمرر على شفتيه قطعا مبللة من القطن، وطبيب يقيس نبض ذراعه، وضمادات على رأسه تنزع ليحل بدلا منها ضمادات جديدة، يرى من خلال يقظته المتقطعة، لمحات من ضوء النهار وظلمة الليل، وكان أبوه يواصل الكلام:

ـ إنهم مجموعة من المتطرفين، بعضهم من داخل الكلية، والبعض الآخر من خارجها، كانوا يسعون للتحصن بالكلية والاستيلاء على مخازن الأسلحة بها، وهدفهم هو اغتيال رئيس الدولة، كان يعرفون أنه سوف يمر من أمام أسوار الكلية في اليوم التالي وهو ذاهب للمطار، لا أدري إن كنت قد رأيت قائدهم أم لا، أنه متعصب من أصل أردني يدعى "صالح سرية"، لا نعرف بعد كيف تمت الاتصالات بينه وبين داخل الكلية، ولا كيف نظم هؤلاء الطلبة من الكلية

تحت قيادته، ومن المؤكد أن المدعو "طلال الأنصاري" هــذا كان ساعده الأيمن، وهو الذي سهل له دخول الكلية، خطــة بسيطة وساذجة والمدهش أنه اعتقدوا أن في إمكانهم النجاح.

كان الألم يغمر "على"، كأن الركلات تهوي عليــه مــن جديد، أخذ جسده ينتفض في نوبات من التشــنج، لــم يجــد الطبيب بدا من التدخل وإبعاد أبيه عن الفراش، سمعه وهــو يقول بصوت مختنق:

ــ سوف تنجو، سوف نجتاز كل ذلك.

كانا سويا، الأب المتحشرج الصوت، والابن المســجى محطم الجسد، يدخلان معا إلى أرض رمادية، موحشة بــلا مودة، تختلط فيها مشاعر من الإحساس بالذنب والكراهيــة، غريبان في أرض غريبة تختلط فيهــا روائــح المطهــرات والأدوية، أدرك من خلال الأحاديث المتناثرة حوله أنــه قــد نجا من إصابات مباشرة في الرأس، ولكن بعضا من ضلوعه قد أصابها التهشم، لم يكونوا يركلونه وحــده، ولكــن أبــاه، والسلطة التي خرجوا عليها، وكل إحساسهم بــالقهر منهــا، غرق مرة أخرى في نوم قلق مليء بــالكوابيس، ولــم يعــد متأكدا إن كان أباه أو غيره قد جاء ووقف أمام جسده الهامد

أم لا، ورغم ذلك فقد كان طوال الوقت يحس بـــوخز الإبـــر وبسريان المحاليل في عروقه، كان الطبيب يخاطب شخصـــا ما: "لابد أن هناك نزيفا داخليا، لم نعـــرف مصـــدره حتـــى الآن"، خيل إليه أنه يلمح وجه الجنرال رشيدوف المحـــتقن، يرى لمحة خاطفة من سنته الذهبية، يقول له:

ـ ياصغيري المسكين، كم تبدو واهنا وشـــجاعا، لقـــد أخطأنا جميعا في حقـــك، لم نضعك خلف هذه الأسوار فقط، ولكننا أحطناك بكراهية الآخرين، بعد أن تنهض مـــن هـــذا الفراش التعيس، تعال إلي، أقم معي بضعة أيام فـــي الفيـــوم وسوف نفكر في شيء ما لتعديل الأمور.

قال الكثير من الكلمات، جلس بجانب فراشـــه وأمســـك بيده، شعر "علي" ببعض من دفْ المودة وهو يتسرب إليـــه، كان في حاجة إلى هذه اللمسة، وهذه الكلمات التـــي تحمـــل اعتذارا، شعر بشفتين دافئتين تتسللان داخل فمه، حـــاول أن يفتح عينيه مفزوعا، لم يكن رشيدوف هذه المرة ولكنها كانت "فايزة التهامي" والدموع تنسال مالحة من عينيها إلى داخـــل شفتيه، جلست بجانبه وهي تمسك يده بكلتا يديها، تتشبث به، دخل الأطباء الغرفة، تحدثوا معها قليلا، كانوا يطلبون منهـــا

المغادرة ولكنها رفضت وأصرت على البقاء رغم انتهاء مواعيد الزيارة، ودخلت أكثر من ممرضة لقياس الضغط وضبط سريان السوائل ولكن "فايزة" لم تتحرك ولم تترك يده، كانت تتكلم في تدفق، تبكي أحيانا، تضحك في مرارة، ولا تتوقف، تفتح مكنون نفس لم تفتح من قبل، أعماق مظلمة لم يمسسها ضوء:

ــ "إنهم لا يستحقوننا يا "علي"، لا يستحقون لفظ الأبوة التي نناديهم بها، كل ما يستحقونه فقط الهزائم التي مازالوا ينالونها، هذه الغيبوبة نعمة، ربما تمنحك بعضا من السكينة التي لا نجدها في يقظتنا البائسة، هدنة مؤقتة قبل أن تكتشف أن ما بقى من جروح وندوب لن تزول، لا تحاول أن ترثي نفسك، كل ذلك بلا فائدة، السبيل الوحيد هو الهرب بعيدا، الذهاب إلى مكان ما خلف هذا الأفق الخانق، هل تستطيع ذلك؟ على الأقل أنا لم أستطع أن افعل ذلك، حاولت وتقطعت بي السبل، صرخت وبكيت مثل صغيرة سلبت منها طفولتها ولكنها ظلت عاجزة دوما عن النضوج، أسوأ ما يمكن أن يحدث لك هو أن تنتزع منك طفولتك، أن تستيقظ ذات صباح

لتفاجأ أن كل خلايا البراءة في داخلك قد ماتت، دمرت، وهذا ما حدث لي ذات ليلة من ليالي الصيف.....

" كنت في بداية العام الثالث عشر من عمري، بعد أيام قليلة من احتفالي وحيدة بعيد ميلادي، احتفال لم تكن فيه حلوى ولم تضئ فيه شموع، اكتفيت فيه فقط بسماع أغنية عبد الحليم حافظ " يا مقسمين الشموع، قلبي نصيبه فين؟ "، كانت أمي بجانبي حقا ولكن أبي كان بعيدا في مكان ما على الجبهة، كان أشبه بضيف قدري يحل دون موعد، ويغادرنا دون إنذار، ولكن فترات حضوره القصيرة كانت كفيلة بتغيير كل شيء في تفاصيل حياتي اليومية، كأنني كنت أعيش في حالة من انتظار دائم لهذا الحضور، لا أتمنى أكثر من أنام على صدر هذا الكائن العريض المنكبين المزينين دوما بالنجوم البراقة، والحلة الداكنة الخضرة المزينة بالأشرطة الحمراء، ما أن يظهر على عتبة بيتنا حتى أتعلق في رقبته، كانت سمائي معلقة على كتفيه، وأحضانه هي حدود عالمي، ولكن الأمر كان مختلفا مع أمي، كان وصوله إلى البيت هو بداية نزاع طويل ومشاجرات لا تنتهي، وتعودت أن أراها وهي تقضي الجزء الأكبر من أجازته معنا وهي تبكي، هل

كان السبب هو ذلك الغياب الطويل على الجبهة؟ أم أن هناك أسبابا أخرى لم أكن أعرفها؟، لم أدر ولم أهتم، كنت أريد أن يمضي كل شيء هادئا وناعما حتى أستطيع أن أغفو على صدره، ورغم بلوغي سن الثالثة عشر لم ألحظ أن في العالم مخلوقات سواه، لم أر الأولاد في المدرسة ولا الشباب في الحي التي نسكن بها وهم يحومون من حولي، كانت كل البنات محمومات بالحديث عن هذه الفورة الجديدة التي تجتاح أجسادهن إلا أنا، كل ما كنت أتمناه هي أن تكف أمي عن البكاء وأن تتركني لأمارس افتتاني الخاص، وقد تركتني بالفعل.....

" في تلك الليلة الغريبة، غادرت أمي المنزل حانقة وباكية، لم تنتظر حتى يأتي من يحمل حقيبتها، ولكنها فعلت ذلك بنفسها وهي تنوي على ابتعاد طويل، لم يبذل أبي محاولة لمنعها من الخروج، كما قلت يا صديقي الغائب عن الوعي كان هناك قدر غامض يهيئ كل التفاصيل، كان التلفزيون يعرض مسرحية "أنا وهو وهي" بالأبيض والأسود، قررنا أنا وأبي أن نسهر أمامها وأن نضحك،

حضرنا أطعمة خفيفة، وأحضر أبي زجاجة مشروبات كان يحتفظ بها دوما في خزينة مغلقة، وهو يقول ضاحكا:

ـ هذه لي، لن اسمح لك أن تذوقي قطرة واحدة.

وضحك ضحكته المجلجلة، جلسنا على نفس الأريكة التي كنا نجلس إليها صامتين كل ليلة أنا وأمي، غارقين في برودة المسكن، لم يحدث أن ضحكنا مثل ذلك من قبل، كنا بالكاد نلتقط أنفاسنا، ولكن الآن وهذا الخليط من الضحكات ورائحة الكحول ملأ البيت بنبضات حية جعلته أكثر دفئا، بدأنا نتحدث عن العديد من الأشياء العابرة والتافهة، أحاديث عن الفتيات صديقاتي، وعن هوايتي لرسم الشخصيات، ورغبتي في أن أرسم أكبر لوحة في العالم على إسفلت ميدان التحرير، قال لي ضاحكا وهو يتجرع كأسه:

ـ ماذا سترسمين في هذه اللوحة؟

لا أدري، لماذا قلت له ذلك، شقاوة بنات؟ أم أنه تأثير رائحة الكحول؟ أم تعبير فج عن رغبة مدفونة، نشوة آثمة لم أستطع كبتها وسط هذه الليلة الغريبة، قلت:

ـ سوف أرسم كل صديقاتي وهن عاريات، لقد تحدثت معهن بالأمر وهن تقريبا موافقات.

توقفت الكأس في يده، وحدق في ببلاهة، لعله أكتشف في هذه اللحظة إنني لم أعد عروسته الساذجة المدللة، نظر إلي ليرى بذور المرأة التي سوف أكونها، قال:

ـ لماذا؟

قلت وأنا أضحك محاولة أن أداري خجلي ووقاحتي:

ـ ربما يساهم هذا في حل مشكلة المرور، سيجعل السائقون يتمهلون قليلا.

توقفت عندما رأيت هذه اللمعة الغريبة في عينيه، لم نعد نسمع للنكات التي تقال في التلفزيون، كنا نلتقط أنفاسنا في صعوبة، واصبح الجو حولنا مليئا بنبضات متوجسة، لقد أيقظت دون أن أدري الرجل الآخر كان نائما في مكان قصي، كان أبي يتحدث دون أن أسمع جيدا الكلمات التي تصدر من فمه، أحس بأنفاسه قد أصبحت أكثر ثقلا بتأثير الكحول، وذراعه وهي خلف ظهري، جزء منه على الأريكة، وجزء آخر يلامس كتفي، ثم انزلقت الذراع لتصبح كلها فوق كتفي، اشعر بثقلها وبدفئها، كنت أريد أن أنكمش حتى يحتويني كلي بهذه الذراع، لماذا يظل المنزل صامتا هكذا؟ ولماذا تطول الأيام إلى هذا الحد؟ لم يكن أبي يتكلم

رغم أن شفتيه كانتا تتحركان، ترتعدان، تحركت أصابع يده، زحفت على جسدي، أحسست بها تصطدم بجلدي وهي تفــك ازرار ثوبي، هل كان يحاول استكشافي؟ يحــاول التعــرف على تلك الإبنة التي نضجت في غيابه؟، بدا صدري عاريــا أمامه، تلك المساحة البيضاء الناصعة كنت أرى انعكاسها في عينيه، كانتا لامعتين وجــاحظتين ومســتغربتين، واصــلت أصابعه الزحف على بشرتي بخفة لا تحس، ولكن كل خليــة من جسدي كانت ترتجف، متــوفزة مــن الترقــب، أصــبح الصمت مطبقا، لا أدري أين ذهب صوت التلفزيــون، أيــن توارى كل صخب الضحكات، سمعته يقول: " لقد كبرت.."، هل كان يعني هذين البروزين الصغيرين بقمتيهما الورديتين المؤلمتين؟، كانتا حتى هذه اللحظة ينقحان علي ويؤرقــانني لليال طويلة، كأنهما زائدتان لا لزوم لهما، تصاعدت داخــل جسمي سخونة ورعدة وإحساس طاغ بالخجل، كان يجب أن أصرخ، أن أضم قميصي وأهرب إلى غرفتي، ولكنــه كــان أبي، جسدي كله ينتمي إليه، له أن يحمله ويهدهده ويقذفه في الهواء ويتلقفه ويداعبه ويقبله، كان أبي له يتحسس ما يشــاء من جسدي، دون اقشعرار أو خجل، ولكنه الآن يبدو غريبا،

يتصرف كأنه منوم، وأنا أمامه عاجزة عن الحركة وخرساء، لا هو يتوقف ولا أنا قادرة على الاعتراض، يتحسس صدري حتى يوشك أن يدهس قمته الوردية، يهمس:"لا تخافي"، ولكني كنت خائفة، ثقيلا وخمورا يسحقني إلى الأريكة، أشم رائحة عرقه، وأحس بشعر صدره وهو يطغى على بصري، أهتف متوسلة به أخيرا:"يا أبي، يا أبي"، فيهتف بي محتدا: "لا تقوليها"، يمنعني فمه من الكلام، كحول وتبغ ولعاب ولسان ضخم يحاول اقتحام فمي، كلما حاولت الإفلات شد بقبضته علي، يزمجر في صوت غريب فلا أتعرف عليه، ولا أتعود على طريقة إمساكه بي، لا أري في هذا المخلوق الغريب شيئا من الأب الذي تعودت دوما على انتظاره، لماذا رحلت أمي بعيدا وتركت البيت موحشا وقاسيا إلى هذا الحد؟ كأن هناك عشرات الحشرات تزحف إلى جسدي، تنفذ إلى شريان دمي، أغوص في ظلمتي الخاصة، لعلي أفلت من هذا الجسد الملقى عاجزا فوق هذه الأريكة، وافلت من تحت ثقل هذا الرجل اللاهث.....

"إن الأقدار لا تعطينا إلا ما نسعى خلفه يا صديقي الغائب عن الوعي، ما نفعله أو نقوله ليس إلا محض تفاصيل

قد تبطئ من سير دوران عجلتها ولكنها لا توقفها، إنني أبكي نفسي حقا، ولكن هل تراني شاركت في صنع قــدري؟ كنـــا نعيش في كابوس متصل من أزمنة الحرب، واقفــين دومـــا على حافة الفاجعة التي تنتظرنا، لم تكن الأمور تسير أبدا في اتجاهها الصحيح؟.....

" هل كان يمكن أن يأتي الصباح بعد ليلة كهــذه؟ هــل يجرؤ الضوء على التسلل من خلف الستائر المسدلة، ليجدني مازلت نائمة على الأريكة، عارية الصدر، مفتوحة الساقين، شعثاء الشعر، مليئة بالرضوض والجروح الصغيرة، وأبـــي نائم على الأرض بجانب الأريكة، يصـــدر شـــخيرا عاليـــا، ويلتقط أنفاسه بصعوبة، كأن كل ما حدث لم يكـــن كابوســـا مشتركا.

من هذه اللحظة وقد أحسست بـــالبرد القـــارس يســـكن جسدي، كنت هشة ووحيدة وفي حاجة ماسة إلى أمي، لم يكن هناك غيرها من يستطيع أن ينتشل روحي من تلك البـــرودة المميتة ويعيد إليها دفء الحياة، ولكنها لم تكن موجودة، لـــم يكن هناك أحد سواه، ضممت ملابســـي المتقطعـــة الأزرار، ولملمت جسدي المليء بالرضوض، ولم أجرؤ على البكاء،

كنت بالأمس فقط ـ ياصديقي الغائب عن الوعي ـ طفلة صغيرة، ولكنني أصبحت كائنا مختلفا، ليلة واحدة كانت كافية لتتمزق من حولي شرنقة الطفولة الزائفة وأجد نفسي دودة عارية وسط عالم ناضج وقاس، جلست جامدة على مقعد صغير في المطبخ، أتطلع من خلال النافذة، كان العشب في الحديقة ذابلا لم يسق منذ أيام طويلة، والأشجار ـ مثل جسدي ـ عارية، لا يوجد ما يسترها من أوراق، وكانت الشمس غائبة فبدا كل شيء رماديا وواهنا، هل يتأتي لجسدي القدرة على التخلص من الآثار التي يحملها؟ كنت آمل أن يتغير إيقاع الزمن ويرجع القهقرى إلى الوراء، ولا تأتي هذه الليلة، ولكنه لم يرجع، رفعت رأسي فوجدت الرجل الذي كان بالأمس أبي واقفا على باب المطبخ، أشعث الشعر، محمر العينين، مجردا من أي هيبة، يحدق في بدهشة بلهاء، كأنه عاجز عن استيعاب ما حدث، اقترب مني وهو يمد كفيه الضخمين، ارتعد جسدي من وطأة الاشمئزاز وأنا أهتف: "لا تلمسني"، ولكنه حملني رغما عني، كان جسدي لايزال صغيرا، رغم إنهاكي حاولت أن أقاومه، أن أخمش وجهه وأملاؤه بالجروح، سار بي إلى الحمام، وضعني تحت الماء

بما علي من بقايا ثياب، أخذت أشهق وأعطس وهـو يمـرر قطعة الصابون في حركات عشوائية وهستيرية على رأسـي وجسدي، سمعته وهو يردد في كلمات مرتعدة: "كل شـيء سيكون بخير، ستعودين كما كنت، لن تذكري ما حدث، هـذا سرنا، أب وابنته"، صرخت وبكيت وتوسلت حتـى تركنـي أخيرا، عدوت وأنا مبللة عبر البيت الخالي، وصـلت إلـى غرفتي وأوصدت بابها أخيرا، خلعت ثيابي المبللة، وأصبحت وحيدة مع جسدي المتهرئ الذي لم يعد ينتمي إلي.......

"لم تعد أمي إلى البيت إلا بعد يومين طويلين، كان أبي قد ارتدي ثيابه الرسمية واستعد للعودة إلى وحدته، تقابلا عند الباب، وعبر كل منهما الآخر دون أن يتبادلا كلمة واحـدة، كأنما يفصل بينهما جدار غير مرئي يحجب أحـدهما عـن الآخر، راقبته وهو يبتعد، لم يكن كعادته منفوخ الصدر كأنه ذاهب لإشعال معركة، كان قد انتهى من معركتـه بالفعـل، طوال هذه المدة التي بقاها في المنزل ظللـت بعيـدة عـن متناول يديه وعينيه، معتصمة فـي حجرتـي، لا أرد علـى طرقاته، ولا أستجيب لتوسلاته، فقد كانت لديـه الجـرأة أن يحاول إقناعي ــ من خلف الباب المغلق ــ أن ما حـدث لا

يعني شيئا، كان السبب فقط أنه مرهق ومتوتر من كثرة التدريبات، ومن حالة الطوارئ التي لا تنتهي، ومن شجار أمي، ومن معركة قادمة لا يملكون الأسلحة الكافية لمواجهتها، الآن وهو يتجه إلى سيارته، رغم السائق الذي يقف منتصب القامة وهو يفتح له الباب،يبدو مهزوما مقدما وغير صالح لأي شيء.

جاءت أمي إلى حجرتي وألقت أمي علي نظرة عابرة، لم تناقشني، ظننت إنني تعيسة بسبب مغادرتها لي كل هذه المدة، دعتني للخروج والجلوس معها، ولكن البيت كان ضيقا وخانقا، لم أعد أطيق معاودة الجلوس على الأريكة التي تحمل رائحة عرقه وبقايا قطرات باهتة من دمي، ولم تعد مشاهدة التلفزيون أيضا قادرة على إلهائي عن نفسي، وبالطبع لم يعد هناك أي معنى للانتظار، لابد لي من مكان آخر، ربما أستعيد فيه القدرة على النوم مرة أخرى، وربما أستطيع أن ارتاح من هذا الألم الذي يقبض على اسفل بطني ولا يريد أن يهدأ.....

"صرخت في وجه أمي عندما حاولت الحديث معي، تشاجرت مع زميلاتي في الفصل، وقاطعت مدرسة الرسم

التي كنت أعتقد أنها صديقتي، لم أعــد أطيــق الكبــار ولا الصغار، وعندما كنت أعود مرغمة من المدرسة كنت اجلس طوال اليوم على الرصيف المقابل للمنزل، غير قادرة عــن الدخول إليه وعاجزة في الوقت نفسه عن الــذهاب إلــى أي مكان آخر، كان منزلا نجسا ومقززا، كنــت أدرك أن أمــي تراقبني، أحس بنظراتها المسلطة دوما على ظهــري، وفــي نهاية كل يوم، عندما لا يبدو أمامي أي أفق آخــر، أنهــض وألجأ إلى غرفتي وأغلقها على نفسي......

"ثم رأيت نوافذ البدروم، كانت نوافذه تكــاد أن تختفــي وراء النباتات التي تتسلق واجهة المنزل، كنت قد نسيته مــن زمن، لم أصدق أن ما كنت أبحث عنه موجودا طوال الوقت دون أن أدري، هبطت السلم المترب وأنا أرتجف، كان الباب صدئ المفاصل، مغطى بخيوط العنكبوت، وكومة من أوراق الشجر الجاف، لمست التراب، شهقت بكامل أنفاسي فانسابت ذراته إلى رئتي، كان عذبا، عدت مسرعة وأنا أقول لأمي:

ــ أريد هذا البدروم، سوف أقيم فيه.

قالت:أنت مجنونة، إنه مكان مترب وخانق.

لم يكن المنزل بأفضل منه على أي حال، هكــذا بــدأت خطواتي وسط التراب الخانق والأثاث القديم المتراكم ورائحة المجاري والأسمدة والعشب الجاف، كان مكانا مثاليــا، إنــه سجن أرضي، يعزلني عن أناس العالم الأعلى، مأوى ومنفى، كانت أمي تقف بالقرب من الباب عاجزة عن الدخول وعــن التقاط أنفاسها، قلت لها:

ـــ سوف أقضي الليل هنا؟

صاحت: مستحيل، لابد أنه مليء بالفئران والعقارب.

قلت: إنه أكثر أمنا.

لم تفهم ماذا أعني، ولكنها خضعت لإصراري، جمعت كل ما استطاعت أن تقدر عليه من خدم وعمال ثــم تركتنــا جميعا وعادت إلى بيتها الذي أصبح خاليا إلا منها، لم اهــدأ إلا بعد أن أصبح مكاني نظيفا بشكل يتناسب مع نصف آدمية مثلي، قضيت في البدروم ليلتي الأولى، هاجمتني الكــوابيس أثناء نومي، ولكني عرفت بعضا من طعم النوم الذي افتقدته منذ تلك الليلة، نقلت ثيابي وكتبي والواني، ولم يبق أمامي إلا أن أطرد الكوابيس خارجا، ولكن الأيام كانت تمر ياصــديقي

الغائب عن الوعي، وكان يجب أن تمر رغم أيـــام العزلـــة والوحدة والنضج القسري.

عندما ذهبت إلى الجامعة كانت المعارك قد بدأت تشـــتد على الجبهة، وتواصلت أيام غياب أبي عن البيت، وكان هذا حلا طيبا للجميع، كانت الجامعة محتقنة بالغيظ من الهزيمـــة السابقة ومن العجز عن شن حرب قادمة، كانوا يريدون حربا تحررهم لا أن تزيد من خضـــوعهم، شـــاركت فـــي كـــل المظاهرات الغاضبة، ولكني عجزت عـــن المشـــاركة فـــي تجارب الحب التي خاضتها زميلاتي، كلية الفنون ياصـــديقي كانت عالما خاصا، بدرومي الآخر، اشكالنا متفردة وغريبة، خليط من الثياب المتنافرة الألوان والشعور المسدلة واللحـــى غير المشذبة، أخيرا أحسست بالحرية رغم كل ما يحيط بـــي من خوف، قال لي المعيد وأنا في السنة الثانية:

ــ أنت تقتلين موهبتك بإصرارك على اســـتخدام هـــذه الألوان الداكنة، والأشكال المشوهة، هناك شيء جميل في كل ذات إنسانية، إنه موجود مهما كان خفيا.

كان شابا نحيلا له لحية رفيعة وعيون حزينـــة وشـــعر طويل مائل للزرقة، حين طلب مني الخروج في نهاية أحـــد

الأيام لم استطع أن أقاومه، كنت فعلا أريد الخروج بصـــحبة شاب ما، كانت أنفاس الخريـــف تمـــلأ حديقـــة الأورمـــان، والأوراق الجافة التي نطأها تصدر تأوهات خافتة، كان هـــو الذي يتكلم معظم الوقت، يحاول أن يلمس يدي بظهر يده، أو يلمس كتفي بأطراف أصابعه، وأنا أحاول أن أقنع نفســـي أن أتصرف كما يفعل الآخرون، أن أترك نفسي في مهب ريـــح هذه اللحظة، لعل نشوتها تنزع ما في داخلي من فـــزع، وأن أدع كوابيسي سجينة القبو، ضحكت بصوت عال وأنا أســـمع لنكاته، ورفعت عيني إلى أعلى فرأيـــت الأشـــجار زاهيـــة الخضرة والسماء خلفها صافية الزرقة، كان العـــالم مـــازال محتفظا بألوانه الأساسية، وقبلت دعوته للخروج مرة ثانيـــة وثالثة، خيل إلي أن الكثير من الأمور قد تغيرت، ولكن كان يجب بعد أيام من السير تحت الأشجار وعلى شاطئ النيـــل وتحت الشمس والسحب وأمام طيور النهر، أن ينتهـــي كـــل ذلك وأن تحين اللحظة التي لابد منها، كنا قد اســـتنفدنا كـــل الكلمات، وانتهينا من محاولات التلامس بفعـــل المصـــادفة، وتوقفنا أخيرا داخل كهف مظلم في حديقة الأسماك، ظل واقفا متباعدا لا يدري كيف يقوم بالخطوة الأولى، ثم انحنى وقبل

خدي في خفة بالغة، أحس بالكاد بملمس شفتيه، ولكن أنفاسه الساخنة غمرت وجهي، كنت أنتظـــر هـــذه اللحظـــة بهـــذه الصورة، أدرك مغزى صمتي فاقترب أكثر، أحسست بجسده وهو يضغط جسدي كله في رفق، يجعل ظهري أكثر التصاقا بالحائط الصخري، كان يجب أن أحس بدفئه وهو يتسلل إلي، كان يجب أن اترك جسدي يرتاح له طائعا، ولكنه بدلا مـــن ذلك تصلب، حلت فيه كل برودة الكوابيس، غاص قلبي فـــي صدري، أشحت بوجهي ودفعته بعيدا عنه، كان هناك شـــيء ما داخل جسدي يقف حائلا بيني وبين الاستمتاع بأي بهجة، خلايا ميتة، لا توجد فيها من أي نقاط للإحساس، صحت فيه: " لا تلمسني"، دوى الصوت في فـــراغ الكهـــف كاســـتغاثة يائسة، فابتعد عني مذهولا، وأسرعت أعدو إلى الخارج.

كانت هذه محاولتي الأخيرة، ولكنها لـــم تكـــن فشـــلي الأخير، كنت متلهفة على أن أتحدى جسدي وأخرج من هذه الحالة، ولكن تجاربي كانت عشوائية وخاضـــعة للمصـــادفة، كانت مع زملائي في الكلية، أو رسامين المسافرخانة وقصر الغوري، وحتى بعض زبائن الصالات الفنية، ولكن جســـدي ظل مأسورا وعاص وغير طيع، لم أشعر به حرا إلا في تلك

المرة التي سافرت فيها مع زملائي في الكلية إلى الإسكندرية.

استيقظت مبكرة، وسرت على الرمل المبلل مع أول خيوط الضوء، من حافة المنتزه حتى الشاطبي، ربما الموج الذي يغسل قدمي يغسل روحي، وربما الريح الباردة التي تتخلل شعري تتخلل أيضا مسام جسدي وتنقيها، أكلت السمك المشوي في أحد الشوارع الضيقة جنب شريط الترام، ورسمت القوارب الغافية على شاطئ الأنفوشي، ثم ذهبت إلى المتحف الروماني، لم أكن رأيته منذ أن كنت صغيرة، وكنت أحمل في ذهني عنه ذكرى غامضة وجميلة، ذهبت إليه بشوق حقيقي كأنه صديق قديم أحتاج إلى مودته.

كان المتحف منزويا وسط بيوت الإسكندرية القديمة التي فقدت بهجتها وملامحها الأوربية، أعمدته الرومانية منتصبة تترقب مجيئي، والأعشاب والنباتات المتسلقة توشك أن تغطي التماثيل النائمة في الحديقة، نظرت إلي البنات المحجبات اللواتي يجلسن على باب المتحف في دهشة، كأنهن لم يعتدن أن يستقبلن زورا منذ فترة، أخذت أتجول بين الأروقة، كان الهواء مكتوما، والضوء الذي يتسلل من فتحات السقف

شحيحا، ولكن الأشكال الرخامية الساكنة الصامتة كانت تواجهني دون خجل، دون أدنى ذرة من الخجل، عارية في لحظة دائمة من البراءة، تبرز كل تفاصيل أجسادها دون إحساس بالإثم أو العهر، بلا أذرع أحيانا، وبلا رؤوس أحيانا أخرى، ولكن تشع منها حياة رمادية خافتة، لم تكن تتخذ تلك الوضعية المتصلبة التي تأخذها تماثيل الملوك الفراعنة، كانوا صنفا آخر من بشر الرخام، متحررين من كل الأغلال الأرضية، وحتى من قيود الثياب الخانقة، ملكات هلينيات، وآلهة من الأولمب، ورومان محاربون، وآلهة مصرية تحورت لتصبح أكثر رقة وأقل تسلطا، عشاق وعاشقات، شعراء وحالمون، أجساد أرواحها طليقة، لا تتحرك ولكنها مليئة بالرغبة، تملأ سكون الفضاء برجفات نشوتها، تخلى المتحف عن سكونه وبرودته، تحركت التماثيل حتى ضمت جسدي بينها، تحولت برودة الرخام إلى دفء، كانوا يحاولون أن يساعدوني على جمع أشتات روحي الممزقة، يمنحون جسدي بعضا من سحر الرخام لعل خلايا جسدي تظفر بالسكينة، لعلهم يعوضون زمني الضائع، للحظة بدا كأن كل ما انكسر داخلي قد بدأ في الالتئام، تماما مثلما عادت رءوس

التماثيل المقطوعة إلى أجسادها، اكتملت جميعها وبقي الحز عند الرقبة يحمل آثار الذبح السابق.

غادرت المتحف، ودعت الإسكندرية كلها في نفس اليوم، عدت إلى القاهرة لأجد مصطفى في انتظاري، للمرة الأولى لم أشعر بالخوف من نظرته إلي، ولم أشعر بأعراض الرفض في جسدي وأبي يقدمه إلي، كان خجولا ذا عينين حزينتين، ويبدو غريبا داخل بزته العسكرية، كان أبي هو قائده المباشر، لذا فقد كان يجلس منزويا أكثر مما ينبغي، ولم يحاول أن يرد على عيني الجائعة وهما تتفحصانه، كان وجهه مائلا للسمرة، ربما هي شمس الانتظار على خطوط الجبهة هي التي دبغت جلده، قال أبي:

ــ إنها الحرب يا ابنتي، ومصطفى لا يستطيع الانتظار طويلا.

تمنت أن يختفي أبي من أمامي، ألا اسمع صوته أبدا في ليلة كهذه، ذهبت إلى أمي وهتفت فيها أن تطلب من أبي أن يتركنا وحدنا، قالت مدهوشة وهي تعد أكواب العصير: "هذا لا يليق يا ابنتي"، صرخت فيها مهددة بأنني سوف أترك لهما البيت، انسحب أبي كما يليق بقائد عظيم، وجلست وحدي مع

"مصطفى"، بدأت أحكي لهــ دون مقدمات وباستفاضة عن تجربتي مع الأجساد الرخامية، استمع إلي دون أن يفزع من كلماتي اللاهثة أو من مشاعري المتضاربة، ظلت ابتســامته مطوية، وعيناه شديدتي السواد، متوهجتين وحزينتين، تحطان على وجهي في إعجاب تخالطه الشفقة، رغــم أننــي بعــث بالحيرة في نفسه فقد بدا مصرا على الزواج بي في أســرع وقت ممكن، كانت الحرب تفرض علينا ضرورتها الحتميــة وإيقاعها الذي لا رجعة فيه، أمسك بيدي، كانت مــا تــزال تحمل برودة الرخام، أخذ يربت عليها حتى سرى فيها بعض من الدفء، لم يكن جريئا ولكنه كــان حازمــا، تمنيــت أن ارتمي في أحضانه وأن أمطر وجهه بالقبلات، ولكني خفــت أن يخونني جسدي حتى في هذه اللحظة.

في تلك الليلة اتفق معي علــى موعــد الزفــاف، ولــم يعترض أبي دون أن يجرؤ على النظر نحوي، ظلت أمــي تتابع فرحتي ولهفتي على إتمام الزفاف بعينين مندهشــتين، جاء أبوه وأمه وأخته الوحيدة وتفحصوني بنظرات ســريعة، تقريبا لم تكن هناك عيوب جوهرية في ابنــة القائــد، كمــا أخبرتني الأخت الصغرى الشقية فيما بعد، كانت الحرب قــد

اقتربت، وبات الوقت خانقا، أخذني للتفرج على شقته، كانت في أحد التجمعات العسكرية على أطراف المدينة، شقة عالية ومليئة بالضوء ومختلفة عن القبو، وقفت في النافــذة أتأمــل صحراء السويس الممتدة، ووقف خلفي، أحسســت بجســده يلامسني بخفة، كأنه يؤازرني في مواجهة كل هذه الوحشــة والفراغ، هل ستأتي لحظة أستطيع فيها أن أبكي بــين يديــه وأقص عليه كل ما حدث في جسد الفتاة الصغيرة ـــ التــي كنتها يوما ما ــ دون خجل؟ تعلقت برقبته وقبلته، التصــق جسدي به وأنا غير مصدقة أنه لا يوجد ما يدفعني للابتعــاد، كنت مرتاحة ونشوانة، كأن جسدي يجرب هذه الرعشة للمرة الأولى.

تزوجنا في إحدى أمسيات الخريف، وكان الهــواء لــه رائحة الأوراق الجافة والقمر تحيط به هالات مــن الضــوء المقطر، كأنها ثلج ذائب، أصر "مصطفي" أن يحملني قبل أن أخطو على عتبة الشقة، كان ضوء القمــر مفــرودا علــى الهضاب الساكنة، مارسنا الحب في جوع وخوف وتوتر، ثم واصلنا بعد ذلك في بطء ومودة، واســترخى جســدي بــين ذراعيه كالصحراء المقمرة، شبعان وساكنا وخاليا من الآثام،

وظلت ذراع مصطفى تنام على صدري طوال الليل وهو يمسك نهدي بين أصابعه، غفوت آمنة، بلا كوابيس، تباعدت الشقة بيني وبين القبو، وحسبت أنني لن أعود إليه مرة أخرى.

ولكنها الحرب يا صديقي، وصفارة الإنذار تعوي في منتصف الليل كذئب جائع، تأخذ الرجال من دفء أسرتهم وتغيبهم داخل الخنادق وخلف الدشم، تشعل نيرانها من وهج عظامهم، ولا تعطي وقتا للأحلام الناقصة، غاب مصطفى وغاب أبي، غاب الأصدقاء الذين كانوا يملئون شقتنا بالضحكات المجلجلة، غاب المجندون الصغار الذين يقضون لنا حاجياتنا، امتلأت المنازل من حولي بالنساء الوحيدات، كن يقفن مثلي في الشرفات ـ لساعات طويلة ـ ساهمات منتظرات، يحدقن في الهضاب الممتدة، ويستنشقن روائح البارود، كنت خائفة وجائعة إلى مصطفى، تجتاح جسدي نوبات من الرعدة والهوس، لم أكن جائعة لأي رجل، كنت جائعة إليه بالتحديد، كأن نيران الحرب قد اشتعلت في داخلي وليس على حافة القناة، وكنت خائفة منه ـ من جسدي ـ الذي جرب الهزائم طويلا دون أن يعرف معنى النصر.

لم أخضع لإلحاح أمي وأنتقل إلى بيت أبي لنمارس معا طقوس الانتظار، تركتها وحيدة كما يجب أن تكون، ثـم لـم أعد أرد على مكالماتها المتوسلة، تمسكت بشقتي الصـغيرة وبصحراء السويس الغامضة وبقايا ليالي الخريـف، ظللـت حبيسة مثل فأر صغير، أتابع كل نشرات الأخبار والبيانـات العسكرية، وأود لو أستطيع تصديقها، كنت أعرف أبي جيدا، واعرف أن انتصاره الوحيد كان علـى جسـدي، وعنـدما حوصر "مصطفي" على الجانب الأخر من القناة أدركـت أن أبي هو السبب في ذلك، ظللت ساهرة، عاجزة، أترقب كلمة خلاص لروحي المحاصرة.

وذات منتصف ليل، سمعت طرقا على الباب، لم أكـن نائمة، ولكن الطرق أيقظ كل خلية جائعة في جسدي، هتفـت باسم "مصطفي"، لا بد أنه استطاع أن يفك الحصار ويخترق الصحراء ويعود إلي، ولكن أبي كان هو الذي ينتظرني خلف الباب، يقف في مقابلي، أشعث ومغبر، محترق الثياب ومليء بالكدمات، ظل واقفا صامتا فأدركت ماذا يحمل إلي، تراجعت من أمامه وانهرت جالسة على أحد المقاعـد، بحثـت عـن صوتي، عن دموعي، فلم يسعفني أي منها، أطبقـت علـي

صحراء السويس بكل ما فيها من ظلمة، ضـــاع مصـــطفى، ضوئي الأخير، جلس أبي بجانبي مثل طفل مجهد تفوح منه رائحة البارود والدم، حدقت فيه في شك وأنا أقول:

ـ أنت لم تقتله، أليس كذلك؟

قال متأوها: كيف أفعل بك ذلك، وأنت حب حياتي.

واحتضنني، ولفرط إحساسي بالوحشة استسـلمت إلـى حضنه، كنت في حاجة إلى كائن حـي بجـانبي، وبـدا أن الحرب سوف تظل مشتعلة حتى تأكل كل الأحيـاء، ولكـن اصابع أبي تتخلل شعري، لعنة قديمة يـا صـديقي، يعـود المنهزمون فيبحثون عن ميدان آخر الانتصار فيه مضمون، هدف سهل، تمتد على جسدي نفس الأصابع القديمة، لزجـة ومرتعدة، ما جدوى أن أقاوم وأنا لا أملك إلا جسدا ميتا؟ ما جدوى الرفض وكل شيء فقد براءته؟ الأصابع الملوثة ببقايا البارود تدور حول نهدي وتتحسس سرتي وتزحـف علـى فخذي، في الحرب والموت والحزن والقتل والغدر والخديعة والفجيعة كل شيء مباح، الخطيئة ضرورة، أن يبقـى هـذا الجسد العجوز بجانبي، وأن يعبر جسـد "مصـطفي" أفـق حياتي دون أن يترك بذوره في.

في تلك الليلة أكمل أبي ما عليه فعلــه، الشــيء الــذي توقف عنه مرغما كل ما مضى من سنوات، ربما فكر بالأمر عندما شاهد مصطفى صريعا، وربما لم تغادر الفكرة ذهنــه على الإطلاق، من المؤكد إنني قد غبت عن الوعي، ولم أدر إن كان قد توقف لحظتها أم لا، استيقظت فرأيــت جســدي ملوثا بالرمل والدم، وله نفس الرائحــة، وبــدت صــحراء السويس غريبة كأنها تنكرني، استيقظ أبي ووقــف خلفــي، حدق في جسدي العاري فلم أغطيه، كنا عند النقطة صفر منذ أن كنت في الثالثة عشرة من عمري، قال:

ــ هل ستعودين معي إلى المنزل؟

قلت له: ولم لا................"

تتوقف "فايزة التهامي" عن الحديث أخيــرا، لــم تكــن تنتظر ردا أو تعليقا أو حتى كلمة مواساة، جففــت دموعهــا بمنديل صغير، ثم أغلقت حقيبتها، ونهضت، أحــس "علــي" بأنفاسها الساخنة على وجهه، قبلته على وجنتيــه الشــاحبتين وعلى عينيه المغلقتين وعلى شفتيه المالحتين، و تركت على كل شيء بقايا من آثار دمعها، قالت:

ــ لا تستمع إليهم، سيقــتلونك كما قتلوني، غادر هــذه الكلية، واهرب بعيدا، إذا أردت تعال إلي، وسوف أكون في انتظارك، سوف نهبط معا إلى القبو ولن يعثر علينا أحد.

ثم غادرت الغرفة، ظل يسمع صوت خطواتها وهــي تبتعد حتى ساد الصمت.

ــ ١٦ ــ

كان القطار يهتز كأن عرباته على وشك الانخلاع عــن بعضها، لا يكاد يسرع في السير حتى يتوقف في محطــات صغيرة متربة، معظمها لا تحمل أسماء واضحة، والركــاب يواصلون الصعود والهبوط في زحام لا يهدأ، كان هذا هــو آخر القطارات، "وعلي" يجلس منزويا فــوق أحــد مقاعــد الدرجة الثالثة، يجلس أمامه أربعة من الركاب، يضعون على رءوسهم عمائم ضخمة، ولا يكفون عن أكل اليوسفي وشرب أكواب الشاي، يحدقون في بعيون مســتغربة، كــان مــازال يحمل آثار جروحه القديمة، على الأقل كانت رأسه مازالــت ملفوفة برباط الضماد، وكان وجهه شاحبا شحوب الموت:

ــ "كان يجب أن ارحل بعيدا، قبل أن يعود أبي، وقبــل أن يحضر كبار المحققين، وقبل أن يعيدوني خلــف أســوار

الكلية، ولكن حتى عندما ركبت هذا القطار التعس لـــم اكـــن أدري إلى أين أذهب".

كانت مياه النيل ممتدة رمادية وحزينـــة علـــى مـــدى البصر، ثم بدأ الألق المنبعث منها يغيب ببطء خلف البيـــوت الطينية وجذوع النخيل، الكثير من جـــذوع النخـــل قصـــفتها الشيخوخة، ولكنها ظلت واقفة في مكانها، توقف الكمســـاري أمامه، أخرج علي بقايا النقـــود التـــي كانـــت معـــه، قـــال الكمساري:

ـــ إلى أين أنت ذاهب؟

قال علي:إلى أين يذهب هذا القطار؟

ـــ آلاتعرف، لماذا ركبته إذن؟

ـــ لأنه كان أول قطار تحرك من رصيف المحطة.

قال الكمساري في سخرية: إنه قطار الصعيد يذهب إلى كل البلاد التي يقيم فيها الصعايدة، سأقطع لك تذكرة على قدر نقودك.

وعاود القطار سيره، وكان بقية الركاب الذين ســـمعوا الحوار يتأملونه في إشفاق، لم يسأله أحـــد عـــن قصـــته أو وجهته، ولكنهم تبرعوا جميعا بإرشاده إلى كل المدن والقرى

التي يمكن أن يتلكأ عندها القطار، والتقطت أذناه اسم الفيوم، كأنه وعد في انتظاره، هروب مؤقت، كان يدرك أنه لن يمر وقت طويل قبل أن يتصل الجنرال بأبيه، ولكنه كان ما يزال متعبا وجريحا ولا يوجد مكان يذهب إليه.

توقف القطار على الرصيف المحطم أخيرا، وهبط "علي" وسط تدافع الراكبين والمغادرين، كان منهكا يحرك قدميه بصعوبة، ولم يصدق أن سائق حنطور قد وافق على نقله إلى هذا العنوان على أن يأخذ أجره من صاحب المنزل، خاضا وسط الغبار، والطرق الطينية، لم يستطع علي أن يرى تفاصيل المدينة من خلف جفونه المثقلة، سمع ضجة السوق وزحام السيارات، ثم ساد الهدوء ولم يعد يسمع سوى صوت الريح ووقع أقدام الجواد على الأرض المتربة.

رأى الجنرال جالسا في مدخل المنزل، غائصا في مقعد من السعف المجدول، رفع رأسه حين سمع صوت اقتراب الحنطور، وازدادت دهشته حين رأى "علي" وهو يهبط منه، بقايا كائن يخطو على الأرض بصعوبة، ترك المخطوط الذي كان يتصفحه، وأزاح الذباب المتكاسل غير مصدق لما يراه، هتف:

ــ كيف جئت إلى هنا؟ كيف غادرت المستشفى؟

قال علي: أعط السائق أجرته أولا.

كان المنزل على عهده مفروشا بالحصير، ومعظم الأثاث الموجود مصنوعا من الخوص والسعف المجدول، ارتمى على أقرب مقعد، بدت أمامه البحيرة الساكنة من خلال النافذة، هبت روائح الطين والعطن الباهت، مسح العرق البارد من على جبينه، قال رشيدوف في قلق:

ــ هل أنت بخير؟

قال علي: فقط لا تتصل بأبي، سوف أكون بخير كل ما أريده ألا يعرف مكاني.

ــ لن أفعل ذلك، ولكنه سوف يعرف بأسرع مما تتصور، ولكن عليك أولا أن ترتاح قليلا و وتأكل قليلا ولا تحمله ذنب كل شيء.

استلقى "علي" على فراش من الخوص المجدول،و اغمض عينيه وغرق في الظلمة، كان يرتعد، كانت بقايا الحمى وآثار الجروح ترج بدنه مثل رجة القطار، لم يهجع جسده ولم تهدأ أنفاسه إلا بعد مرور فترة من الوقت، لم يفق خلال ساعات رقاده إلا للحظات خاطفة، كان يلمح خلالها

وجه الجنرال المحتقن، ويحس ببرودة الضمادات فوق رأسه، كانت كل الكوابيس القديمة تعاود مهاجمته دون هوادة، وبـــدا كأنه يغوص في ليل بلانهاية.

أفاق أخيرا بعد فترة لا يعرف كم قضاها غائبـــا عـــن وعيه، كان نائما في فراش صغير، رشيدوف نائم فوق فراش مجاور، رفع جسده بصعوبة، أحس بريقه جافا كأنه قد فقـــد كل ما في جسده من سوائل، اشتم الهواء البارد وسمع نداءات الطيور عبر البحيرة، تحرك في الفراش، ولكنها كانت كافيه لينبه رشيدوف ليستيقظ هو أيضا، بدا كأنه قد قضـــى ليلـــة مرهقة لم يذق فيها النوم، حدق فيه قليلا ثم قال مبتسما:

ـــ لقد بعثت من جديد كالفراعنة القدامى، سوف أحضر لك قليلا من الحساء البخاري، الشيء الوحيد الذي ســـيجعل الحياة تدب في جسدك.

نهض "علي" مترنحا من الفراش جلس بجانـــب النافـــذة متأملا البحيرة الساكنة، سمع صوت "رشيدوف" وهو داخـــل المطبخ، يثير ضجة كبيرة وهو يرتب الآنية والمواعين، كان رشيدوف أعزب فاشلا، تركته زوجته حـــين كبـــر حملهـــا وعادت إلى سمرقند، ولم يلحق بها حتـــى الآن، ربمـــا لـــم

يستطع أن يتغلب على هوسه بهذا المكان المترب والآثار الحجرية القريبة منه، من خلال النافذة تأمل على البحيرة الساكنة، كان هناك قارب وحيد وصياد لا يصيد شيئا، يدور فقط في دوائر بطيئة وسط الفراغ، دون أن يحاول حتى أن يجدف، كان أسيرا لصمت هذه اللحظة المبكرة ولا يريد أن يخدشها، عاد رشيدوف، وضع أمامه طبقا من الحساء، قال:

ـ هذا حساء "أوزبيكي" لم تذق مثله من قبل.

كانت الدهون الذائبة سابحة على سطح الإناء، وفوقها أوراق البقدونس، تفوح منه أدخنة معطرة بالأعشاب، كان ثقيل المذاق، ابتلعه بصعوبة، ولكنه شعر بعد قليل بالدفء وقد بدأ يدب في جسده، قال "رشيدوف" مشجعا:

ـ اشربه كله، جسدك الواهن يحتاج إلى الطاقة.

كان حنونا، ترك كل تزمته العسكري فور أن خلع الحلة الزيتية اللون، جلسا معا على الشرفة المطلة على البحيرة، كان الصباح رائقا لولا طنين الذباب، تبادل هو وعلي نظرات صامتة:

ـ " الآن أدرك أنني في تلك اللحظة البعيدة كنت أحمل هذا الجنرال العجوز أكثر مما يطيق، كنت قد أدخلته رغما

عنه بيني وبين أبي، كان يجب أن أدرك أنه رجل هارب من كل المشاكل،وإلا لماذا هرب إلى هذا المكان الثقيل الهواء".

قال "علي" أخيرا: ألا يمكن أن نركب قاربا عبر هذه البحيرة؟

هروب آخر، حتى لحظة الصمت هذه في حاجة للهروب، قال "رشيدوف" في تردد:

ـ جسدك مازال واهنا.

ـ أنت الذي ستقوم بالتجديف، سوف أسترخي أنا واستمتع بالهواء والشمس.

كان "رشيدوف" مازال مترددا، نهض "علي" من مكانه وسار إلى حافة البحيرة كأنه يؤكد له أنه استرد عافيته، أحس بالأرض وهي غير ثابتة تحت أقدامه ولكنه تماسك.

اضطربت مياه البحيرة وهي تتلقى ضربات المجداف، فزعت طيور الماء التي كانت غافية وسط الأعشاب وحلقت مبتعدة، قال الجنرال فجأة:

ـ هل تعرف أن هذه البحيرة تموت، ربما في المرة القادمة لن تضرب هذه المجاديف إلا في أكداس من الملح،

سوف أكون حزينا عندما يحدث ذلـــك، فـــي بـــلادي آلاف البحيرات، ولكني عشقت هذه البحيرة.

قال "علي" في صوت مكتوم:

ــ في مصر، من السهل أن يتعرض كل شيء للموت.

حدق فيه "رشيدوف" قليلا ليستوعب مغزى كلماته، ثـــم قال ببطء وهو يواصل التجديف:

ــ هذا هو قانون الحياة في كل مكان، ما حدث لك هـــو شيء عابر، سوف يتغلب جسدك على ما فيه مـــن جـــروح، وبقي أن يتجاوز عقلك ذلك، لا أريد أن أتدخل بينـــك وبـــين أبيك، لكن ورغم كل ما حدث من أخطـــاء فقـــد حـــاول أن يحميك.

قال علي في سخرية: لم أكن أعرف أن له كل هذا الكم من الأعداء.

قال بنفس الجدية:

ــ لا تحاول أن تجعلني أفشي لك بعضا مـــن أســـراره لمجرد أن أحاول إقناعك، من المهم أن يبقى كل مـــا يحـــيط بأبيك سرا، رغم أنه لا يوجد سر مطلق، ولا أحد يعرف من أين تأتي الضربة، فإنه قد حاول بقدر استطاعته أن يحميك.

ــ والمفروض أن أواصل عيشي وسط كل هذه الألغاز، كأنني أعمى.

ــ بالتأكيد أنت تعرف نصف الحقيقة، والنصف الآخـــر لن يجعلك أكثر سعادة، سوف تعرف كل شـــيءفي الوقــت المناسب، المشكلة أن الأحداث تتسارع أحيانـــا أكثـــر ممـــا ينبغي.

ظل القارب يدور فوق البحيرة في دوائر متواصلة، قال علي:

ــ أنت وأبي من عالمين مختلفين، وربمـــا شخصـــيتين مختلفتين أيضا. كيف أصبحتما صديقين إلى هذه الدرجة؟

ــ هل قال لك إنه أنقذ حياتي؟

ــ كلا.

ــ لم يكن ليقول لأحد، هذا واحد من أسرارنا الكثيـــرة، حدث هذا أثناء حرب الاستنزاف، كنا أنا وأبيك فـــي طلعـــة استطلاعية خلف الخطـــوط التـــي يتحصـــن بهـــا الجنـــود الإسرائيليون، كنا نريد أن نجمع المعلومـــات حـــول بعـــض النقاط الحصينة، ولكن الإسرائيليين فتحوا علينا النار، قتلـــوا جنديين من المجموعة التـــي نقودهـــا، واخترقـــت إحـــدى

الرصاصات ساقي، أمر أبوك بقية الجنود بالانسحاب السريع وظل هو معي،استطاع أن يحفر حفرة برميلية داخل الرمــل واختبأنا فيها نهارا كاملا، الأكثر من ذلك أنـــه اســتطاع أن يربط ساقي جيدا وأن يستخرج منهـــا الرصاصــــة بواســطة سكين، توسلت إليه أن يتركني ويرحل، ولكنه كـــان يعـــرف أنهم لو وجدوني فسوف يقتلونني على الفـــور، لا يريـــدون أسيرا يمكن أن يثير لهم أزمة دبلوماسية، لذلك حملني علـــى ظهره طوال الليل حتى شاطئ القناة، وعبر بي المياه سباحة وهو مازال يحملني على ظهره.

حدق "علي" في وجه رشيدوف مذهولا، هتف:

ــ هل فعل ذلك حقا؟

مد "رشيدوف"يده، وأزاح البنطلون عن ساقه اليســـرى، بدت بيضاء شاحبة، في وسطها آثار جرح غائر، كان الجلـــد متجعدا في ثنيات دقيقة، وبدا أنها قد دخلت إلى مساحة كبيرة في عظام الساق، اصبح عقل "علي" عاجزا عن التفكير، تذكر فجأة كلمات "فايزة التهامي" التي تسربت إلى أعماقه، بالتأكيد لم تكن تتحدث عن أبيه، ولكن كيف يتأتى له أن يعرف ذلك،

كان يرتجف، غابت الشمس وأصبح الجو باردا فجأة، قال رشيدوف:

ـ هل نعود؟

شق القارب طريقه عائدا ببطء، نفذا من حصار الغاب والطحالب وتلاصق النباتات الطافية، ظهر البيت المكسو بالأحجار في نهاية البحيرة، ولكن كان هناك شخص يقف على الشاطئ في انتظارهما، سار القارب حتى وقف أمامه مباشرة، ظل "علي" يحدق ساهما وأبيه يمد له يده ليساعده على الهبوط، لم يكن غاضبا، أو لعله نجح في التظاهر بعكس ذلك، ظلت يده ممدودة ووحيدة، لم يستطع "علي" أن يلامسها، أدار رشيدوف وجهه إلى الناحية الأخرى، لم يكن يريد أن يرى، قفز وحده إلى الشاطئ، وأسقط الأب يده خائبا، جلس ثلاثتهم في الشرفة، تعلل رشيدوف بالقيام لعمل الشاي وتركهما معا صامتين، قال الأب أخيرا:

ـ لم تكن لتختفي طويلا.

قال علي مختنقا: كنت أعرف ذلك.

أخرج الأب من جيبه عدة أوراق مطوية، وضعها على المنضدة الصغيرة بينهما، قال:

ـ لن تعود للكلية الفنية مرة أخرى، من حسن الحظ أن طلبك لكلية الطب مازال ساريا، يمكنك أن تذهب إليها فور أن تسترد عافيتك.

ظل علي يحدق فيه مذهولا وهو عاجز عن الرد، لم يكن هناك مجال للمزيد من الكلمات أو حتى لإبداء العواطف، وعندما عاد "رشيدوف" وهو يحمل أكواب الشاي، وجد "علي" يجلس وحيدا والأوراق أمامه، ولا أثر للأب.

ذهب "علي" إلى كلية الطب متأخرا، كان مبنى الإعدادي منزويا قليلا وسط مجموعة من المباني الكالحة القديمة، تحاصره نباتات غير مشذبة، صعد فوق الدرج، وسار في ممر طويل كل زجاج النوافذ فيه مطلية باللون الأزرق، حدقت فيه مجموعة من الطلبة بلا اهتمام، لم يدروا أنه كان ينتفض، لا يحس بقدميه وهما تخطوان على الأرض، تنفس بعمق الهواء الرطب المختلط بروائح المواد الحافظة، كان حرا، طليقا، دون أسوار، ودون إحساس زائف بالحماية، وقف أمام المكتب المزدحم بالأوراق في قسم شئون الطلبة، انتفض الموظف حين قرأ خطاب التوصية الذي يحمله، أصر على أن يقدم له مقعدا ويطلب له عصير الليمون، أكد له أن

العميد بنفسه قد ابلغه أن يقدم له التسهيلات اللازمة، وسوف يتم الاتفاق مع المعيدين والأساتذة اللازمين لتعويض كل ما فات، ولكن "علي" كان متأخرا، وكل شيء جديد عليه، عرض عليه الموظف ان يسير معه ليريه المدرجات والمعامل، ولكن "علي" قال له إنه يفضل أن يفعل ذلك بنفسه.

عاد يسير في الطرقات بخطى متعثرة، امتلأ المكان بكل أنواع الطلبة، بدوا مثل حيوانات صغيرة أطلق سراحها فأخذت تثغو في مرح، أصبح الجو مشحونا بالكلمات والضحكات بلا صرخات ولا أوامر، كانوا يمارسون كل أفعال البهجة الحقيقية، بنات وصبيان يقفون في دوائر متتابعة، البنات مستندات إلى الجدران، يضحكن في نعومة والأولاد يتحدثون في حماس، يدعمون كلماتهم بحركات بهلوانية،أحس عمر أنه أكبر منهم سنا، جاء متأخرا بعد أن أصابه نضوج مفاجئ وقسري تماما كما حدث لفايزة التهامي.

ثم رآها، واقفة ضمن دائرة منزوية، مجموعة من الأولاد والبنات يضحكون، و"سلمى جوهر" تكتفي بالابتسام،

تضم كتبها إلى صدرها وقد وضعت على ذراعيها معطفها الأبيض، لم تتغير تقريبا، طويلة ونحيفة بعض الشيء، وشعرها منسدل وفاحم السواد، ولا بد أن عينيها مازالتا واسعتين ومتوهجتين، فهل مازال انعكاس شوارع المدينة فيهما بلا حدود؟ وهل مازالت تذكر المشروب البارد وسيرهما المتسكع في شارع القصر العيني، وذلك النصف نهار الذي كان نادرا وبعيدا:

ــ "اكتشفت لحظتها أنني لم أنسها للحظة واحدة، لم تغادر خاطري، كانت حلمي العابر الذي طويته في ضلوعي، حتى حين مارست الجنس مع فايزة التهامي، كنت أهرب في جسدها من مصادفة غير قابلة للتكرار".

قال من أعماق قلبه:"سلمى جوهر"،التفتت نحوه على الفور، رأى عينيها المندهشتين كأوسع ما تكون، تحطان علي في تساؤل ودهشة، خيم الصمت على المجموعة كلها، نظر إليه الأولاد في حنق، وتوجهت إليه الفتيات وعلى شفاههن ابتسامة صغيرة، وحسمت "سلمى" الأمر حين خطت نحوه، أحمر وجهها بشدة، وهي تعيد التعرف على ملامحه، ولابد

أن آثار الندوب قد حيرتها، وحاولت أن تضع ابتسامة على وجهها. قالت في صوت خافت ملئ باللوم:

ــ أين كنت بحق الله، لماذا تأخرت إلى هذا الحد؟

كأن كل شهور الفراق كانت أمرا عارضا، ولحظتهما معا كانت هي الدائمة، ظلت تواصل التحديق في وجهه الصامت قبل أن تعاود القول في قلق:

ــ ماذا حدث لوجهك، هل أنت خارج من معركة ما؟

تركت الجميع وسارت بجانبه، أخذته في جولة بين المدرجات الخشبية، والمعامل، والضفادع المتقافزة، وانابيق الكيمياء الحيوية، بدت أليفة وطيعة كأنها تواصل جولتها السابقة معه، قالت:

ــ هل تعرف أنه طوال هذه الشهور الماضية وأنا أتصفح وجوه الجميع بحثا عنك، كنت متأكدة إنني كتبت اسم هذه الكلية بخط يدي.

قال أخيرا: لقد تحقق الأمر وفق معجزة ما، أصبحنا معا.

لم يتناقش مع أبيه كثيرا، ظل الأب يراقبه في صمت وهو يطير في كل يوم إلى الكلية حتى قبل أن يتناول إفطاره،

ويرى نور غرفته وهو يسهر كل ليلة لوقت متأخر، محـــاولا أن يحل طلاسم الكتب الجديدة، اتصلت "فـــايزة التهـــامي"، كانت تحاول التظاهر بالمرح، قالت:

ــ لقد أتممت لوحتك، هل تحب أن تراها.

وجد نفسه يتمتم بكلمات عـــن ضـــيق الوقـــت وكميـــة المذاكرة التي في انتظاره، انتاب صوتها حزن مفاجئ، بترت المكالمة فجأة ولم تحاول أن تلح، أدركت أن "علي" لم يعـــد بحاجة إليها، لقد تجاوز محنته وتجاوزها أيضا، لم يعد لديـــه وقت للتفكير فيها أو الرثاء لها، كان هناك زحام من المعيدين والأساتذة، يلاحقون الزمن وكل واحد منهم يحاول أن يشرح له الجزء الذي يخصه، كان "علي" يشعر بأصابع أبيه الخفية وهي تحرك كل شيء في دقة الساعة، تنسج كالعادة خيـــوط عالمه الجديد، كان مستسلما لذلك، يكفي إحساســـه المـــبهج بالحرية، ويكفي أن "سلمى" بابتسامتها الخجولة والصابرة في انتظاره دوما كل صباح، كيف يمكن أن يجد مكانـــا لفـــايزة وسط هذه الدائرة المحكمة؟

قالت سلمى ببساطة:

ـــ خالتي تريد أن تراك، سمعت عنك كثيرا وتريـــد ان تعرف إن كنت قد أحسنت الاختيار أم لا

شعر "علي" بالاضطراب، حاول أن يمزح:

ـــ وماذا إذا فشلت في المقابلة؟

ـــ في هذه الحالة سوف أضطر للابتعاد عنك.

كانت الحواري المحيطـــة بجـــامع "الحنفـــي" متداخلـــة وضيقة، كان قديما ومئذنته نصف مهدمة، مهيبا ومتربا، سار "علي" بجوار جدرانه الخارجية فوق الارض الموحلة، كانت سلمى بجانبه، تحمل المعطف الأبيض وتسير في ثبـــات، لا تهتم بأنظار أهالي الحي التي تحدق فيهما، بـــدت كأنهـــا لا تراهم، أو كأنها فخورة وهي تجتازهم برفقة الشـــاب الـــذي اختارته، صعدا السلم المرتفع إلى شقة الخالة، كانت تجلـــس في انتظارهما، على رأسها طرحة بيضاء لم تستطع أن تخفي شعرها الأشيب، قالت بعذوبة:

ـــ سلمى أمانة عندي، كان يجب أن أراك حتى أطمـــئن عليها، من هم أهلك؟

قال لها على أشياء متداخلة، لم يكن هو أيضـــا يحمـــل إجابة واضحة، تمنى لو أن الخالة تعطيه يدها حتى يقبلهـــا،

كانت وديعة وهادئة كما قدر لأمه أن تكون، تردد نكاتا قديمة، وعلي يضحك في طلاقة، وسلمى تنظر إليه وعلى وجهها ابتسامة محرجة غير مصدقة أنه لم يسمع كل هذه النكات القديمة من قبل، أعدت الخالة لهما سندوتشات الجبن والطماطم، وجلس ثلاثتهم في شرفتها يراقبون المشاجرات الصغيرة التي تنشب وتنفض في الحي المزدحم، أكلوا حبات الترمس المائلة للمرارة، وبدت نسمات المساء تهب عليهم، وتردد صوت عبد الحليم حافظ وهم يغني: "يا فاتنا قلبي،هل انتهى أمري، أخاف أن أمضي في غربتي وحدي" وظلت المئذنة الناقصة قائمة أمامهما، شاهدا على كل الخطايا الصغيرة وكل لحظات السحر، تمنى علي لو أن الزمن يتوقف، ولو أن هذه الشرفة تكون كل حدود عالمه، بهذا الصغر وذلك الوضوح، تطل على عالم من الكفاف والعفوية، عندما تركتهما سلمى قليلا هتفت به الخالة في سرعة:

ــ ماذا ستفعل بها، هل تنوي أن تتزوجها؟

قال علي مدهوشا: ماذا، لم نفكر في هذا الأمر، أنت تعرفين، مازلنا في سنوات الدراسة الأولى؟

قالت الخالة في يقين:

ــ تولد المرأة لتتزوج وتنجب أطفالا، الشهادة الدراسية مجرد حلية، انظر إلي، قد تعتقد إنني أملك جسدا حيا، يأكل ويتنفس، ويروي النكات التي لا تضحك أحدا، ولكنه جسد عاطل، ميت تقريبا، لم يقم بما خلق من أجله، لم ينجب، لم يشارك بنصيبه في صنع الحياة، مهما أحبت المرأة، ومهما مارست من جنس، فهو شيء تافه أمام ما يجب على جسدها أن يقوم به.

شعر علي بجفاف في حلقه، كل ما استطاع أن يقوله هو:

ــ لم أفكر في الأمر على هذا النحو.

كانت الكلمات بلا معنى، ولكن حزن الخالة كان أكثر من أن يواجه بالصمت، قالت كأنها تعتذر:

ــ ربما كنت متسرعة في سؤالي، كنت أريد فقط أن اطمئن على هذه البنت الصغيرة، كل ما أقوله لك يابني حاول أن تحبها كثيرا لأنها تستحق ذلك.

وعادت سلمى وعندما رأت صمتهما المفاجئ، قالت في دهشة ومكر:

ــ ماذا فعلت بك خالتي، هل كانت تعطيك محاضرة عن فوائد الزواج المبكر؟

عندما هبط "علي"منصرفا التفت إلى الــوراء، كانــت سلمى وخالتها تطلان عليه من الشرفة، لم تكن لحظة السحر قد تبددت بعد، حتى عندما احتواه الزحام في ميدان الســيدة زينب.

كان المنزل مازال موحشا وصامتا، لم يكن الأب قــد عاد بعد، لذلك ظل "علي" غارقا في تلك الحالة من النشوة، لم يسمع صوت جرس الباب، ولم يفطن لدخول شــخص آخــر عليه الغرفة، كانت "فايزة التهامي" تبدو مثل شبح عائد مــن عالم آخر، وجه دون طلاء، شاحب كالموتى، تحيط بالعينين هالات داكنة، وتحيط بالرأس خصلات من الشعر الأشــعث المتهدل، قالت:

ــ مرحبا أيها الغريب، هل تذكرني؟

تطلع "علي" إليها وهو عاجز عن النطق، جلست هــي على أحد المقاعد، أمامه حدقت فيه بعينين غائرتين، وقالــت بصوت مرتجف:

ــ كنت أعرف أنك لن تعاود الاتصال بي، لذلك جئــت إليك.

اقترب "علي" منها، كانت الطرق قد تباعدت، واللحظات التي كان يهرب فيها إلى جسدها قد ولت، ولكنه لم يتصـــور أن يراها محطمة هكذا، هتف وهو يمسك يدها، كانت باردة، كأن الحياة قد تسربت منها، قال:

ــ إنني آسف حقا يافايزة، أنت دائما على بالي ولكن...

وضعت يدها الأخرى على فمه، كانت هي أيضا باردة، قالت بصوت خافت كأنها عــاجزة عــن تجميــع حــروف الكلمات:

ــ لا تختلق أي أكاذيب، أنت لست مرغما على ذلــك، أنت حتى لم تأت لترى لوحتك، هل تشمئز مني، هل تــرى إنني نجسة لهذه الدرجة؟

صاح في ألم: لا تقولي هذا، لا تفكري حتى هكذا، أنت عزيزة على قلبي وسوف تظلين كذلك.

استندت بظهرها على المقعد، كانت تبدو مجهدة، تلــتقط أنفاسها بصعوبة، وكانت يدها مازالت باردة رغم أن "علــي" ظل يحتويها بكفيه، قالت:

ــ أنت لم تعرف سوى جسدي يا "علي"، لم تر روحي الجميلة المسكينة، من المؤسف إنها حبيسة داخل هذا الجسد النجس، وقد آن الأوان حتى أعتقها.

نظر "علي" إلى وجهها وقد ازدادت صفرته، وتحسس يدها وقد زادت برودتها، قال في رهبة:

ــ ماذا تعنين؟

قالت وهي تضع يدها على بطنها، لم يعرف علي إلى أي حد بلغ بها الألم، قالت:

ــ لا أعرف لماذا تأخر الأمر لهذه الدرجة، حسبت إنني سوف أراك ثم أرحل بعد ذلك مباشرة.

صرخ علي: بالله عليك يا فايزة ماذا تعنين، أي رحيل هذا؟

كان "علي" يوشك على البكاء، يحس أنه تنسحب من أمامه ببطء، أغلقت عينيها فعاد يصرخ:

ــ افتحي عينيك يافايزة أرجوك، أتوسل إليك، قولي لي فقط ماذا فعلت بنفسك، ماذا تناولتي؟

قالت في صوت متقطع:

ــ أقراص، مجرد أقراص...

نهض على مفزوعا، طلب رقم الطوارئ الذي أعطاه له أبوه، ربما كانت هذه المرة الأولى التي يستخدمه في حياتــه، صرخ يطلب الحرس، يطلب منهم جميعا أن يفعلــوا شــيئا، كانت أنفاس فايزة قد أصبحت ثقيلة ولكنها لم تنقطــع بعــد، صاح:

ــ يا إلهي يافايزة، يجب أن تكون روحك قويــة، لقــد أعطيتني جزءا من هذه القوة.

لم تفتح عينيها، ولكنها قالت في صوت بالغ الوهن:

ــ قبلني أرجوك.

كانت شفتاها مالحتين، جافتين، لا تبديان أي اســتجابة، وأنفاسها شديدة الوهن، كأنها تواصل انسحابها البعيد، جــاء عم صالح مفزوعا، وهو يحمل طبقا من الحساء، صاح به:" فلنعطها شيئا ساخنا"، ولكن فمها ظل مطبقا، قاومتهما كانــت ما تزال حية، ولكن إلى متى؟.

كان يجب أن تحدث معجزة من اجلها، كانــت تســتحق ذلك بعد كل ماعانته، دوى صوت سيارة الإسعاف، وفتحــت كل الأبواب، عربة من سيارات الجيش مجهزة بكل ما يلزم، حملوها على المحفة، ودثروها بالأغطية، وبحثوا عن وريــد

صالح ليضخوا فيه المحاليل، ربما غابت عن الوعي، لأنهـا أصبحت طيعة واستسلمت لكل شيء.

ظل بجانبها وسيارة الإسعاف تنطلـق وسـط شـوارع المدينة الخالية، ظلت فايزة مغمضة العينين، لا تـرد عليـه، ربما كانت حسنة الحظ ولم تتناول كمية كافية من الحبـوب، ولكن الرحلة بدت كأنها دهر كامل، والمستشفى كانـت فـي نهاية العالم، وصلوا أخيرا، وضعوا جسدها فـوق المحفـة، بدت كأنها قد ازدادت طولا، كأن أعضـاءها علـى وشـك التفكك من بعضها البعض، هرعوا جميعـا عبـر الـدهليز الطويل، كانت أضواء النيون تنعكس على وجهها، بدت ميتة تماما، أغلقوا أبواب غرفة العناية المركزة دونه، كان طبيبـا صغيرا، أصغر من أن يتواجد معها في تلك اللحظات التي قد تكون الأخيرة.

ظل "علي" واقفا في الانتظار، يترقـب كـل الـداخلين والخارجين من الأطباء والممرضات لعل أحدهم يحمـل لـه خبرا، رأى أباه قادما مسرعا واللواء التهامي بجانبه، منزعجا وقلقا كأنه أب حقيقي، صاح في "علي" كأنه يتهمـه:" مـاذا حدث لصغيرتي المسكينة؟"، أوشك أن يصرخ فيـه:" أنـت

الذي دفعتها إلى الموت"، ولكن أبوه حدق فيه بصرامة، هل كان يعرف هو أيضا؟ هل جاء إلى المستشفى ليمنع وقوع فضيحة، انهار اللواء التهامي جالسا على أحد المقاعد وهو يبكي في حرقة، تأمله "علي" مدهوشا، هل يبكي من فرط إحساسه بالذنب أم لأنه أحس فجأة أنها على وشك أن ترحل عنه، هل يبكي الصياد لأن الفريسة قد أوشكت أن تفلت من حبائله،حتى ولو كان الموت هو الثمن، كان يبكي كذبا، ولكن هل كان "علي" وحده من يعرف ذلك؟ خرج الطبيب من غرفتها أخيرا، حدق فيهم حائرا لمن يتوجه بالكلام، ثم قال:

ــ لقد ارتفع ضغط دمها وانتظم نبضها، لقد ظفرت بالحياة، رغم أنها على ما يبدو كانت لا تريدها.

حدقوا فيه بوجوه ساهمة، كان قد شخص حالتها بالضبط في تلك الكلمات العفوية، قال التهامي:

ــ هل أستطيع أن أراها؟

قال الطبيب: لا جدوى من ذلك، إنها مستغرقة في النوم.

ــ " أقسم إنني كنت سأعترض طريقه إليها، كنت متأكدا من أنها لا تريد أن تراه، لا تريد حتى أن يعرف مكان قبرها".

في الصباح كان "علي" متعبا وحزينا، فكــر أن يبقــى وحيدا وألا يذهب للكلية، ولكنه كان يعرف أن "سلمى" سوف تكون في انتظاره، لم يكن يريد أن يخذلها أيضا، ولكن وجهه كشف كل ما في داخله، ما أن ألقت عليه النظرة الأولى حتى هتفت به:

ــ ماذا بك، يبدو أنك لم تنم لحظة واحدة طوال الليل.

كان يجب أن يقول لها، أن تدعها تــدخل عالمــه ولــو قليلا، قص عليها فقط نصف الحقيقة، كانت الحقيقــة كاملــة اكبر من أن تتحملها، كانت واقعة الانتحار مليئة بما يكفي من حزن، قالت له فجأة:

ــ أريد أن أراها..

قال في تردد: ربما ما تزال تحت المخدر، ثم أن هنــاك المحاضرات و....

قالت في حزم: هيا بنا.

كانت طرقة المستشفى مزدحمة بالأطبــاء المســرعين والممرضات اللواتي يحملن العينات ويدفعن عربات الــدواء، وفايزة مستلقية على الفراش مغمضة العينين، مازالت شاحبة، ولكن علامات قلبها تظهر بانتظام في خطوط خضراء علــى

شاشة صغيرة فوق رأسها، انتظم جسدها إيقاع المتعب أخيرا، بالقرب من سريرها كان اللواء التهامي نائما على أحد المقاعد، رأسه عاري دون غطاء للرأس، خصلات شعره لا تكاد تخفي صلعته، خصلات فاحمة السواد، صبغة رخيصة، يلتقط أنفاسه في صوت عال، وثوبه العسكري المفتوح الأزرار يكشف عن صدر مليء بالشعر الأبيض، حيوان رابض يتظاهر بالنوم، قالت سلمى في خفوت:

ــ كنت أعتقد أنها أكبر من ذلك؟

ود على لو أنه يجذبها من ذراعها وينصرفان، ولكن سلمى بدت مشدودة إلى الجسد النائم، تتأمل ملامحها المستكينة، وحركة صدرها وهي تلتقط أنفاسها في وهن، لم يعرف فيما تفكر "سلمى" بالضبط، وكأنما أحست فايزة بوجودها، فتحت عينيها ونظرت إليهما في حيرة ودهشة، رفعت رأسها قليلا كي تتأمل "سلمى" والكتب التي تحملها، والمعطف الأبيض المطوي على ذراعيها، بدا أخيرا أنها قد فهمت كل شيء، ظل الصمت ثقيلا ــ لا يقطعه إلا شخير الأب ــ وكل واحدة منهما تتأمل الأخرى، وأخيرا أرجعت فايزة رأسها إلى الوراء وتمتمت في استسلام:

ـ كم تبدوان جميلان.

اقترب "علي" منها قليلا ولكنها أدارت وجهها للناحية الأخرى وعادت تقول في صوت خافت:

ـ شكرا للزيارة، معي الآن من يقوم على حراستي.

سار "علي" خارج الغرفة، وترددت "سلمى" قليلا ثم سارت خلفه، عبرا الممر الطويل، شعر علي أنه يختنق، وأنه في حاجة إلى الشمس، ولكن سلمى واجهته وهي تلتقط أنفاسها بصعوبة، قالت محتدة:

ـ هل مارست الجنس معها؟

تلفت "علي" حوله في خوف، كان الصوت يرن في فضاء الطرقة، وبدأ العابرون يلتفتون نحوهم، قال:

ـ أرجوك، لا تتحدثي هكذا، دعينا نخرج أولا.

قالت في تأكيد وهي ترفع إصبعها الصغير في وجهه:

ـ أنا متأكدة أنك قد فعلت ذلك، رأيت ذلك على وجهها وعلى وجهك أيضا، علامات خيبة الأمل التي ارتسمت عليها كانت واضحة تماما.

سحبها "علي" من ذراعها بالقوة، حاولت أن تخلص نفسها، انتفض جسدها غاضبا، قال:

ـــ منذ أن عرفتك انقطع كل ما بيني وبينهـــا، إن كـــان شيء قد حدث فقد كان قبل أن أراك، أنا لا أخفي شيئا، وإلا لما أحضرتك إلى هنا.

صاحت وهي اقرب ما تكون إلى البكاء:

ـــ الماضي لا يموت، ماذا تعتقــد أننـــي أشـــعر الآن، جسدي مازال بريئا لم يمس، ولكن جسدك أنت قد تعلم كـــل شيء، كيف اشعر وأنت تسير بجانبي، وأنت تمســـك يـــدي، وأنت تحتضنني أو حتى تقبلني، كيف اشعر وأنت قد وصلت أبعد من ذلك، تعرف كل ما لا يعرفه جسدي، ما أدراني أنك لا تفكر في جسد امرأة أخرى في كل لحظة تلامـــس فيهـــا يدي؟

ـــ كيف يمكنك محاسبتي هكذا، هذا خال من المنطـــق، إنه مجرد ماض لم تكوني أنت طرفا فيه.

ـــ وماذا عندما تشفى، وتعود إليك مرة أخـــرى لتبكـــي على كتفك كما فعلت ليلة أمس.

ـــ لأن كل شيء قد انتهى، ويمكنك بهذه الغيرة الحمقاء أن تدفعيني للبكاء على كتفها فعلا.

تركها ومضى، رآها واقفة ترتجف ولكنه لـــم يســتطع العودة إليها، كان يرتجف هو أيضا، كان قد كشف لها جزءا ضئيلا عن عالمه السري، كان عليه منذ هــذه اللحظــة أن يعيش معها بنصف جسد ونصف ذاكرة.

ـ ١٧ ـ

لم يكن علي نائما عندما سمع الضجة القادمة من أسفل، خرج من غرفته، في باحة المنزل كان الجنرال "رشــيدوف" يقف يحيط به بعض من حرس المنــزل، متعــب وممتقــع الوجه، بعد برهة استيقظ الأب على نفــس الضــجة، أشــار للحرس فانصرفوا، وقف ثلاثتهم في مواجهة بعضهم البعض، لم يجرؤ واحد منهم علــى الجلــوس، وكــان "رشــيدوف" يرتجف، غير قادر على السيطرة على جسده، قال بصــوت متقطع:

ــ سوف أغادر الآن، لم يبق أمامي إلا بضع ســاعات، الطائرة في انتظاري.

تطلع إليه الأب مذهولا، بدا مصــدوما وحــائرا، كــأن الخيوط التي كان يحكم الإمساك بها قد انفرطت مــن يديــه،

هتف بصوت مكتوم:" لا بد أن هناك خطأ ما؟"، سار مسرعا ناحية الهاتف، ولكن "رشيدوف" أوقفه بإشارة من يده:

ــ أعتقد إنني يجب أن أنفذ هذا الأمر، لقد طال الوقت على أي حال ويجب أن أعود إلى بلادي، مندوب الرئاسة في الخارج وسوف يرافقني حتى المطار.

توقف قليلا ليكبت انفعالاته:

ــ إنه الوداع يا صديقي، دعنا نتذكر أجمل ما كان لنا.

قال الأب بصوت مكتوم:

ــ حتى ولو كان الرئيس هو الذي فعل ذلك بنفسه، كان يجب أن أعرف بهذا الأمر.

سار الأب مسرعا نحو غرفة المكتب، أدرك علي أن أباه لا يدافع عن "رشيدوف" فقط ولكنه يدافع عن سلطة اكتشف فجأة أنها تتسرب من بين أصابعه، كان ما يحدث مؤشرا خطيرا وغامضا، ظل "علي" واقفا و "رشيدوف" أمامه يبتسم في وهن، من المحزن أن يتم الأمر بهذه الصورة، قال "رشيدوف" :

ــ أتعرف، إن الأمر ليس مأسويا لهذه الدرجة، زوجتي في انتظاري في سمرقند، ومعها ابنة جميلة لم أرها بعد، هناك مكافأة في انتظاري بعد كل هذه الأيام من الغياب.

قال علي وهو غير متأكد:

ــ سوف تبقى، سيحضرون هم إليك وستعيشون جميعا عند حافة البحيرة.

أخرج "رشيدوف" بضعة مفاتيح من جيبه وهو يقول:

ــ البيت لك يا "علي"، اعتن به، ربما استطعت فعلا العودة إليه ذات يوم.

عاد الأب من غرفة المكتب، كان شاحب الوجه، تطلع إلى "رشيدوف" وهو عاجز عن النطق، تقدم واحتضنه، حاول أن يمتص إحساس الخجل الطاغي الذي بدا عليه، كور قبضته وأعطى "علي" لكمة صغيرة على وجهه ثم سار مسرعا نحو الباب، أدرك "علي" وهو يقبض على المفاتيح، أنه الجنرال لن يعود، لن يراه مرة أخرى، كانت الريح قد غيرت اتجاهها، وارتفع صوت محرك السيارة وهي تزوم ثم ساد الصمت، ظل الأب جالسا صامتا،عاجز حتى عن القيام والانصراف إلى غرفته، قال "علي" أخيرا:

ــ لقد كان صديقــك، وربما كان الأوحد، كيف تركتهم يفعلون به هذا؟

قال الأب وهو يتنهد:

ــ الأمر فوق طاقتي يا "علي".

ــ ولكنه كان مجرد عسكري متقاعد، يعــيش منعــزلا على حافة بحيرة نائية، ويقرأ بعضا من المخطوطات.

نظر الأب للأمام، كان يحدق في لا شيء، كانت عينــاه منطفئتين، وبدا أن سنوات عمره قد تضاعفت فجأة، قال وهو يتنهد:

ــ لم أعد أدري فيما يفكر هذه الرجل؟

كان "علي" متأكدا أنه يعني حاكم البلاد، كانت هذه المرة الأولى التي يتفوه فيها أمامه بكلمات عن عمله، كانت الهالــة الغامضة التي أحاطت به طويلا قد تبددت فجأة، بدا مثل أي أب عادي يعاني من لحظة ضعف مؤلمة، لم يــرد علــي أن يراه في هذه الصورة، ولم يرد أن يتذكر كل تلك الأحــداث التي بدأت تتوالى عليهما من هذه الليلة.

في الكلية لم يكن الأمر هادئا أيضا، كانت سلمى واقفــة وسط حلقة كبيرة من الطلبة، من مختلف ســنوات الدراســة

ومن كليات أخرى أيضا، حين أقبل عليهم هـدأت الضـجة فجأة، بدءوا ينسحبون واحدا بعد الآخر، بقيت "سلمى" وحيدة أمامه، تتطلع إليه بعينيها الواسعتين، قال "علي" مدهوشا:

ــ ما كل هذا، ماذا يحدث بالضبط؟

ظلت تحدق فيه وهي تبحث عن الكلمات:

ــ سوف تقوم مظاهرة كبيرة احتجاجا على توقيع الرئيس السادات معاهدة الصلح مع إسرائيل، سوف تتشارك فيها كليات كثيرة.

قال علي: لماذا انصرف الجميع إذن، الأمر لا يحتاج لكل هذه السرية.

ترددت قيلا ثم قالت:

ــ إنهم لا يريدونك أن تشترك معهم في هذه المظاهرة، يقولون إنك مراقب، هناك دوما من يراقبك.

حدق "علي" فيها مدهوشا ومصدوما، كانت "سلمى" مشفقة ومتألمة، همست:

ــ ألم تكن تعرف، أنا نفسي شككت في الأمر، كان هناك دوما من يجلس في المقاعد الأخيرة في المدرج، أو

يطل علينا من نافذة المشرحة، وحتى عندما جئت إلينـــا فـــي المنزل، عند خالتي، كان هناك من يقف على ناصية الشارع.

توقفت حتى تلتقط أنفاسها، ولكن علي لم يكن في حاجة لسماع المزيد، استدار وسار عبر الطرقة المليئة بالعيون التي تحدق فيه، لم يجرؤ على التلفت والبحث عن هذا الذي يرصد كل لحظات حياته، كان واثقا أن أباه قد فعلها، لـــم يشـــأ أن يطلق له ذلك الفضاء الرحب، ولا لحظات الحـــب النـــادرة، دون أن يضع كل شيء تحت سيطرته، من أجل ذلك، كانت "سلمى" هي استثناء وحيدا، لم يدم طويلا، لم يستطع أن يعود مباشرة إلى البيت، ظل يسير وسط زحام الناس والسيارات، توقف أمام النيل طويلا، كان يعرف انه ليس وحـــده، حتـــى أحزانه الخاصة لا يستطيع أن يعيشها وحده، لا مهرب، حتى محاولته القديمة الواهنة للذهاب إلى الفيوم، كانـــت ســـاذجة ومكشوفة، كان مستسلما لسلطة هذا الرجل، قدر لا مفر منه يسد عليه كل المنافذ.

ـــ " لم أكن أريد أن أتحدث معه، كان قد أفسد حيـــاتي لدرجة لم يعد يجدي معها الحديث، لم أكن أدري كيف أتجنبه حتى أتخلص من هذه الكلية وأرحل بعيدا، كان هذا مستحيلا،

ولكن كل ما أعرفه إنني لم أكن أريد لهذا الرجل أي مكـــان في حياتي"

عاد علي متأخرا، ولكنه لم يستطع أن يذهب مباشرة إلى غرفته، كان أباه جالسا في الصالة، أشعث الشـــعر، عـــاري الصدر، وأمامه زجاجة خمر لم يبق فيها إلا القليـــل، علـــى زوايا فمه بقايا كربونية كأنه كان يهدر ويزبد دون جـــدوى، توقف علي مذهولا كأنه يشاهد شخصا آخر، قادم من جحـــيم ما، وليس ذلك المسيطر القديم الذي يريد أن يخضع الكـــون لإمرته، تبدد الحنق وهدأت كل انفعالات الغضب التي كـــان يشعر بها علي في داخله، قال "علي":

ــ أبي، ماذا حدث، ماذا بك؟

حدق فيه الأب أيضا في استغراب كأنه عـــاجز عـــن التعرف عليه، هتف في صوت أجش:

ــ لماذا لا تصعد إلى غرفتك وتتركني وحدي.

أوشك "علي" أن ينفجر غاضبا، ولكنه قال:

ــ لا أستطيع أن أتركك وأنت في هذه الحالة.

ــ أنا بخير

ــ لست كذلك، ولن اغفر لك إن حاولت أن تبعدني عنك في لحظة مثل هذه، هذا ليس عدلا.

ــ ماذا تعني؟

ــ أنت تعرف كل شيء عني، تضعني تحت المراقبة ليلا ونهارا، ربما تكون قد دمرت أول علاقة حب لي، آلا يعطيني هذا الحق في أن اعرف ماذا يحدث الآن؟

تفجرت داخل علي عواطف متضاربة وغريبة، كان يصرخ في الأب الذي يحملق فيه بعيون قانية، ظل واقفا كأنه يحاول أن يستوعب دواعي ثورته، ثم انهد جالسا فوق أحد المقاعد، قال:

ــ لن أعود لملاحقتك بعد الآن، لن أعود لمتابعة أي شيء، لقد تلقيت الأوامر بتقديم استقالتي.

ظل على عاجزا عن تصديق أذنيه، جلس ببطء على أحد المقاعد، كان يعتقد أن أبيه أقوى من يفرض عليه أي شيء، هل كانت البداية عندما قاموا بترحيل اقدم أصدقائه دون علمه:

ــ هل كان هناك خطأ؟

ـ كان الخطأ أنني كنت أعرف دقائق عملي اكثر مما ينبغي، لذلك كان يجب أن أكون أنا أول من يدفع الثمن، ثمن هذه المعاهدة اللعينة.

تذكر على مشهد توقيع "معاهدة السلام" على شاشة التلفزيون، السادات بوجهه الأسمر وشاربه الأعوج، وبيجن بقامته الضئيلة ونظارته المقعرة، وكارتر وعلى وجهه ابتسامة متواطئة، قال "علي":

ـ لم أفهم؟

حاول الأب أن يتماسك وأن يتحدث بجدية مريرة، قال:

ـ دعك من تلك البنود اللعينة المعلنة في اتفاقية "كامب ديفيد"، كل هذا مجرد كلام سياسي فارغ، البنود السرية هي الأهم، التي تم إعدادها وطبخها بشكل قاس، كنت أنا والكثيرين غيري من ضحايا هذه الصفقة السرية، كان يجب أن يتم إبعادي عن منصبي، بالأحرى طردي منه، وكذلك طرد كل الذين يعملون معي، وفي مقابل ذلك سوف يقصون الرجل الذي يشغل نفس المنصب في إسرائيل، علينا جميعا أن نغلق الملفات، وأن ندمر كل ما لدينا من أسرار، وان نتخلى عن كل القضايا المفتوحة مهما كانت درجة خطورتها،

كل هذه السنوات من العمل، من مطاردة الجواسيس والعملاء وشبكات التخريب، كل المعلومات والخبرات والأدلة التي تراكمت عبر سنوات الحرب والعداء، كل الخلايا التي رقبناها، والعملاء الذين زرعناهم، والجواسيس الذين نطاردهم، علي أن أترك كل هذا وأتحول إلى شاهد اخرس، يغمض عينيه حتى لا يرى، ويتظاهر أنه لا يسمع، ولا يجرؤ على الكلام، كيف اتركهم يفعلون بنا هذا، كيف أسمح لهم أن يعيدوا هزيمتنا من جديد؟

لم يكن يبكي أمام علي، ولكنه كان واثقا أن هناك دموعا وحسرة، كان الثمن غاليا، عمرا ضائعا، وزوجة غير معروفة المصير، ابن يعيش عمرا قسريا، فماذا يمكن أن يكون الثمن الذي يوازي كل ما دفع من لحم حي، كان "علي" يود لو أنه يبكي هو أيضا نفسه وحياته، قال مهونا الأمر عليه:

ـــ ولكن على الأقل هناك تكافؤا في الشروط، سيفعلون بالمثل، سيقيلون نفس الرجل في نفس المنصب، ويدمرون نفس القدر من الأسرار.

ــ نحن لا نخوض صراعا متكافئا معهم يا "علي"، هذه المعاهدة سوف تجعلهم ينتشرون بيننا كالطاعون، إنهم أصلا هم الذين أحضروا الطاعون إلى مصر في الزمن القديم، إننا لسنا أعداءهم، نحن فقط ندافع عن أنفسنا في مواجهة هذا العداء الذي يقابلوننا به، عداؤنا لهم ليس حقيقيا، سينتهي مع زوال الخطر الذي يمثلونه، وإذا توقف الدمار الذي يحدثونه، ولكن عداءهم لنا أصيل، لقد جاءوا من بلادهم البعيدة مدفوعين ومتأهبين بهذا العداء، لذلك فهم خطر دائم لا يجدي أمامه الضعف، وسوف تزداد حدتهم كلما زادت درجة استكانتنا.

كانت الزجاجة على وشك النفاد، ولم يدر علي إن كان ثمة زجاجة أخرى أم لا، وما إذا كانت الخمر قادرة على وأد كل ما في داخلة من إحساس بالمرارة، هل لو كانت أمه موجودة قادرة على تخفيف كل هذا القدر من التعاسة، قال الأب:

ــ اذهب للنوم يا "على"، لا تشغل بالك بي، من المؤكد إنني سوف أتغلب على كل هذه الأشياء، لقد واجهت ما هو أصعب.

لم تكن هناك فائدة من أن يظل "علي" جالسا محدقا فيه وعاجزا أمامه، كانت تلك اللحظات رآه فيها مهزوما كافيه، أصبحا معا فجأة، على نفس الدرجة من الضعف والتعاسة، لم يعد "علي" قادرا على أن يحمله ذنوبه وأسباب تعاسته، ضاقت الدائرة حولهما ولم يعد لأحدهما غير الآخر.

لم ينم "على" تلك الليلة، ومن المؤكد أن الأب لم ينم أيضا، لعله وقف مثله خلف الأستار المسدلة على النوافذ يراقب انسحاب الحراس، لم يكن "علي" يعرف عددهم، ولا الأماكن التي كانوا يتمركزون فيها، كانوا مثل أشباح مجهولة، يخرجون هنيهة إلى الضوء ثم يختفون في الظلام، كان يعرف البعض منهم، ولم يره البعض الآخر من قبل، ولا استطاع أن يراه هذه الليلة بوضوح، ظل واقفا حتى ذهبوا جميعا، بقي المنزل عاريا، لا خطر عليه، ولا أهمية له، أحس علي براحة عميقة تهبط إلى أعماق قلبه، لن يوجد من يراقبه بعد الآن، سوف يتغلب أباه على أحزانه وتتواصل الحياة، ترى هل يمكن وهو وسلمى أن يستعيدا علاقتهما معا؟

كان الأب موجودا على مائدة الإفطار، هادئا تماما، حليق اللحية، كامل الثياب، يرشف فنجان الشاي في تؤده

وهو يقلب جرائد الصباح، لم يعد باقيا من الخدم إلا عم "عزوز" العجوز، يسير بخطاه البطيئة، ويحمل الأطباق كأنها على وشك السقوط من يده، رد الأب تحية "علي" بصوت خافت، دون أن يرفع رأسه، ربما لم يرد أن تلتقي عيناهما، سأله بشكل عابر عن أخبار الكلية وهو يواصل تقليب الجرائد وعلى وجهه ابتسامة حزينة، لم يحاول علي أن يسأله عما ينوي أن يفعله هذا الصباح، عما ينويه في بقية الأعوام القادمة من عمره، نظر الأب في ساعته، كأن وراءه موعد يخشى أن يفوته، تناول آخر رشفات الشاي في سرعة، وانصرف بعد تحية سريعة، سار خارجا في نفس ميعاد العمل السابق، لم يلحظ حتى أن السيارة الرسمية لم تجيء، اتجه في خطوات ثابتة إلى سيارته الخاصة، كانت سيارة صغيرة لم تتناسب يوما مع مركزه ولكنه لم يشأ أن يغيرها، بعد برهة سمع علي صوت موتورها وهو يزمجر في انتصار.

كانت ساحة الجامعة أشبه بساحة حرب، بقايا أحجار، وزجاجات محطمة، عبوات القنابل المسيلة للدموع الفارغة، لافتات ممزقة وعصي متكسرة، توقف علي مذهولا، لم يكن

هناك أحد، لا طلبة ولا عسكر، أين كانت سلمى من كل هذا العنف؟ هل اختبأت، هربت، أم أنها صمدت حتى النهاية؟ دخل طرقات الكلية، وجد القليل من الطلبة الذين يقفون متفرقين في الأركان، لم تكن هناك محاضرات ولا معامل مفتوحة، حدقوا فيه جميعا بعيون فارغة، كانوا مثله، تغيبوا أو هربوا، كل واحد اختلق لنفسه عذرا مثله تماما، ولكن ماذا حدث لسلمى؟ كان يحمل ذنبها، كان يجب أن يكون في المظاهرة بجانبها رغم أنف الجميع، أن يجابه معها كل ما يمكن أن تتعرض له من أخطار، ولكنه فضل الهرب والجلوس إلى أبيه والتباكي على مصيره، ظل يتجول دون هدف، يسأل ولا يتلقى سوى الإجابات الغامضة.

سار خارجا من بوابة الكلية، لم يكن أمامه إلا مكان واحد يذهب إليه، الحي العتيق، ربما كانت في بيت الخالة، ربما تستمع إليه وتقبل أعذاره الواهنة، عند البوابة الحديدية كانت هناك امرأة ترتدي ثوبا أسود يلامس الأرض، تقف وحيدة وسط الريح التي بدأت تعصف، منتصبة مثل شجرة بلا أغصان، تنظر إليه كأنها تتوقع قدومه، اقترب منها كأنه

مشدود بخيوط خفية، تأمل وجهها، كان مختلفا، حادا وحزينا، أخفض رأسه وقال معتذرا:

ـ كنت قادما إليك؟

قالت في سخرية خافتة: أليس هذا متأخرا، لو كنت خائفا عليها كان يجب أن تبقى بجانبها بدلا من أن تهرب وتتركها فريسة لهم.

قال علي في خوف: ماذا حدث، هل قبضوا عليها؟

قالت وقد تصاعد غضبها: ألم تكن تعلم أيضا، هل هذه وصيتي أن تصونها، تتخلى عنها عند أول أزمة، أي رجل أنت؟

أدارت له ظهرها، ازداد إحساسه بالذنب، قال:

ـ ماذا يمكن أن نفعل؟

قالت في حزم: اسأل أباك، آلا يقولون إنه رجل مهم، دعه يفعل شيئا.

استدارت، تركته وابتعدت وواصلت الريح عصفها، ظل "علي" واقفا مذهولا، هل كان من السخرية أن تكون هذه هي المرة الوحيدة التي يحتاج فيها إلى منصب أبيه بعد أن فقد كل شيء؟

ــ "قال لي أبي إن رجال الداخلية كلهم أوغاد وأنهــم لا يستحقون عناء الاتصال بهم، وواصل الشرب كعادتــه كــل مساء، لم يبد عليه أنه قد استمع إلي، أو فهم مقدار الورطــة التي انا فيها، لم يكن هناك فائدة من التوسل إليه وأنـــا أدرك أنه أسد جريح، فقد مخالبه، كان غارقا في ســكره اليــومي، وكان رشيدوف في سمرقند، وسلمى في السجن، فهل يمكــن أن تقدم لي فايزة التهامي شيئا؟"

لم يذهب علي إلى البيت الأمامي، هبط مباشــرة إلــى البدروم وأخذ يدق عليه، لم يجبه أحد، أين يختفي الأصـــدقاء حين يحتاج إليهم، هل عادت للاقامة في المنزل، هل وجــدوا أن من الخطر تركها وحدها، وهل رضخت لهم أخيرا؟

قادته الخادمة إلى صالة المنزل، ثم جــاءت الأم بعــد قليل، كانت تملك سمرة إبنتها وطولها الفارع ولكنها كانــت امرأة كابية المظهر، كان قد رآها أكثر من مرة في المــرات التي زار فيها فايزة، ولكنها بدت كأنها لا تتذكره، هل كانت تتظاهر بذلك؟ هل كانت خائفة من زوجها أم أنها تواطــأت معه، بدا وجهها كقناع الموتى، أخذت نصيبها مــن الحــزن الذي أصاب الجميع، جلست أمامه وهي تقول في استسلام:

ــ أنت مثلي،تبحث عن فايزة، ولكنها غيــر موجــودة، أليس من المحزن أن نكون جميعا وحيدين هكذا، لقد ذهبــت إلى مستشفى في المقطم، المكان الأفضــل لهــا، هنــاك لا يستطيع أحد أن يؤذيها، ولا تستطيع أن تؤذي نفســها، هــذه الصغيرة المسكينة، حتى هذا المستشفى فوق قمة الجبل يبدو وحيدا وموحشا.

بلع علي ريقه، تخيل وجه "فايزة" جالسة علــى حافــة سرير ضيق، محدقة في فراغ صامت، قال:

ــ هل يمكن أن أزورها؟

ــ إنها تبدو كأنها لا تحس بوجودنا، ولكن ربما أحست بك، ربما أسعدتها هذه الزيارة.

نهض علي واقفا، لم يمد يده لمصافحة الأم، وجد نفســه فجأة يمور بالغضب، كان هذا الوجه الميت مستفزا له، حتى الموت ليس هو الوسيلة المثلى للتظاهر بالتجاهــل، اســتدار وهو يهتف:

ــ هل كانت تريد أن تذهب إلى المستشفى بإرادتهــا أم أنها أرغمت على ذلك؟.

ــ لا تنسى أنها ابنتي.

ـ وهو زوجك

قالت السيدة في وهن: انصرف أرجوك.

وهو منصرف ألقى نظرة أخيرة على القبو المغلق، كان أشبه بمقبرة مغلقة.

في المساء لم يعد الأب، كان "علي" قد تعود على تأخره، على اختفائه لأيام وليال كاملة، ولكن هذا كان في السابق، بدا الانتظار قاتلا، لم يبق في المنزل غير"عزوز" العجوز، جالسين عاجزين وسط صمت المنزل، يتأمل "علي" عقارب الساعة ويعيد العجوز أطباق العشاء التي لم تمس، استعرض "على" في ذهنه أسماء كل معارفنا المقربين، كان أمرا مخجلا أن يتصل بهم لسؤالهم عليه، مخجلا له ولأبيه، أحس في هذه اللحظة أنه قد فقدت الجميع، سلمى في الصباح، وفايزة في منتصف النهار، والأب في المساء، خسارة فادحة ليوم واحد.

أقبل الصباح مغلفا ببرد وريح عاصفة، وعيون "عزوز" تهتف به، افعل شيئا يا بني، ولكن ماذا يمكن أن يفعل، ليس أمامه إلا الهاتف وصفحات من الأرقام، نصفهم لا يعرفون شيئا عن الأب ونصفهم يتهربون، كيف يمكن تتبع أثر رجل

في بلد يتحرك فيه الجميع مبتعدين عن كل من يسقط، كل التوقعات جائزة وكل المخاطر مفتوحة، كان علي يعرف أن أباه لم يكن عاديا، وإنه إذا قرر الاختفاء فمن المستحيل اقتفاء أثره، ولكنه فعل كل ما يقدر عليه ابتلع كل مرارات البحث والسؤال إلى درجة القهر، لم يجد بدا من الهروب حتى من عم "عزوز"، ترك له المنزل وخرج.

كانت مئذنة الحنفي ناقصة ومتربة، والحي غارق في صخب الحياة اليومية، هل هي أيضا حياة زائفة، وكل هؤلاء أناس موتى، وحيدون، يتخفون خلف هذا الصخب، وتلك الانفعالات المبالغ فيها، فتحت الخالة باب الشقة وحدقت فيه بدهشة، كانت وحيدة، ولكنه أحس بأن سلمى في مكان ما هنا، وإنه مهما قال من كلمات فسوف تستمع إليها، جلسا في الشرفة، وظل يتحدث وهي تنصت إليه دون أن تقاطعه، كان يفتقد إلى كل شيء، ولكنه بشكل أساسي يفتقد إلى أمه التي لا يحفظ شكلها ولا يدري شيئا عن مكانها، كانت هذه هي اللحظة التي يجب فيها عليها أن توجد بجانبه، همهمت الخالة:" الأحزان كثيرة يابني".

ظلا جالسين والضجة في الحي تخفت تدريجيا، قالت له:

ـ سأحاول أن أقول لك خبرا مفرحا، رغم إنني لا أدري إن كان هناك ثمة مكان للفرح هذه الأيام، لقد عرفنا مكان سلمى، إنها مع مجموعة من زميلاتها في سجن "باب الخلق"، لم توجه إليهن تهم حتى الآن، غدا سوف يتمكن المحامي من مقابلتهن.

قال علي: هل يمكن أن نراها؟

ـ لا أدري، لم يؤكد لي المحامي شيئا، ولكن سوف أحاول.

ـ سوف أكون معك.

ـ همومك كثيرة يا بني، انتظر حتى يظهر والدك.

ـ سوف أكون معك.

عاد وحيدا وسط الشوارع المظلمة، وكان البيت المظلم في انتظاره، عند الباب كانت هناك سيارة ضخمة، وشبح رجلين يروحان ويغدوان أمام البيت، كان مظهرهما العسكري واضحا تماما، هل عاد الحرس؟ هل عاد أبيه؟، هل اكتشفوا أخيرا مدى فداحة الخطأ الذي وقعوا فيه؟ وقف

الرجلان حين اقترب علي منهما، قال أحدهما في صوت أجش:

ــ جئنا لنأخذك إلى المستشفى العسكري.

قال علي في فزع: هل هو أبي، هل هو بخير؟

قال الرجل الثاني:

ــ مؤكد أنه بخير، ولكننا لا نستطيع التحدث في الشارع، اركب معنا لنوصلك إليه.

انطلقت السيارة بسرعة، جلسا هما في المقعد الأمامي وتركا له المقعد الخلفي، كانت الأرض مبللة من أثر الأمطار، أحس بالسيارة كأنها تنزلق نحو هاوية بلا قرار، حاول أن يسألهما المزيد عن أبيه، ولكنهما ردا عليه في تحفظ دون أن يعطياه أي معلومات إضافية، كانا مؤدبين وباردين، وظلت السيارة توغل في الظلام، اختفت المدينة وبدأت أضواء واهنة تلوح وسط أفق من الظلمة، كان قلب "علي" يدق مرتجفا، يحاول أن يتخيل ما يمكن أن يكون قد حدث لأبيه، كان الظلام وصمت الرجلين شديد الوطأة، لم يكن يريد أن يفكر أبعد من ذلك، أخيرا بعد ساعة كاملة من السير السريع ظهر مبنى المستشفى، كامل الإضاءة، وحيدا

وسط الصحراء المظلمة، أسرع خلف الرجلين عبر طرقة شبه خالية، وصلا إلى الباحة الداخلية، كان هناك العديد من الممرضات واقفات خلف منضدة الاستقبال وهن يرتدين الزي العسكري، تقدم الرجلان تحدثا مع إحداهن وهما يشيران إليه، خرجت فتاة من خلف الحاجز وقالت له في برود : اتبعني من فضلك"، كان المصعد واسعا، يفتح على الجانبين، ظلت هي تحدق في لوحة الأزرار طوال الوقت كأنها تتجنب النظر إليه.

لحسن الحظ لم تقده إلى العناية المركزة، قادته إلى غرفة عادية يقف بالقرب من بابها عدة أشخاص في ثياب مدنية سوداء اللون، كانوا رسميين أكثر مما ينبغي، رمقوه بنظرات فاحصة وهو يتجه إلى باب الغرفة، لم يتكلم أحد معه، كان الأب مسجى على فراش صغير في منتصف الغرفة، وهو غارق في لفات من الأربطة، أربطة حول رأسه، وحول صدره، يلتقط أنفاسه في صعوبة، اقترب "علي" أكثر، شاهد آثار السجحات والجروح الصغيرة، مغمض العينين، نائما أو مخدرا، وفوق رأسه توجد زجاجة محلول معلقة تتسرب قطراتها إلى أحد أوردة الذراع، مشهده غريب

وهو ملقى على الفراش هكذا فاقدا لكل قوته، لا أحد يــدري مدى سمك الخيط الذي يربطه بالحياة، يالله، كيف تدهور هذا الرجل الذي كان في أوج قوته منذ أيام قليلة إلى هذه الدرجة من الوهن، يهتف علي في خوف: يا أبي، يا أبي، ولكنــه لا يجيب، وجهه شاحب، غير قادر فقط إلا على التقاط الأنفاس التي تبقيه على قيد الحياة،يغمر الأسى "عليا"، لا من أجل تلك اللحظة، ولكن لكل مشاعر الحنق التي غمرتــه ذات لحظــة تجاه هذا الجسد المسجى، يفتح باب الغرفــة ويــدخل أحــد الأطباء، يرى نظرات "علي" الواجفة، يقول له وعلى وجهــه ابتسامة صغيرة:

ــ إنه بخير رغم مظهره، أعطيناه مهدئا حتى ينام قليلا، كان في حاجة ماسة إلى نوم عميق أكثر مــن حاجتــه إلــى الدواء.

يقول علي حائرا: ولكن كل هذه الأربطة التــي تحــيط بجسده، ماذا حدث؟

ــ جروح، وشرخ بسيط في أحد أضلاع صدره، سوف يصبح أفضل عندما يفيق في الصباح.

ــ ولكن، كيف حدث له كل هذا.

نظر الطبيب إليه قليلا ثم قال في إيجاز:

ـ لقد تلقى العلاج المناسب، هناك في الخارج من سيحدثونك في هذا الأمر.

تركه وخرج، كأنه كان مكلفا فقط بإبلاغ هذه الرسالة، ظل علي واقفا قليلا على أمل أن يستيقظ أباه ويرى وجهه ويعلم أنه ليس وحده، ولكن بلا جدوى، خرج من الغرفة، كان هناك شخص واحد في انتظاره بعد أن انصرف الجميع، لم يكن يرتدي حلة سوداء فقط، ولكن كانت تغطي عينيه أيضا نظارة سوداء، رغم أن الوقت كان ليلا، قال:

ـ أنا الذي أرسلت إليك الرجال لإحضارك إلى هنا، كان يجب أن أتحدث إليك.

قال علي: هل اعتدى عليه أحد؟

أشار له الرجل حتى يذهبا إلى مكان ناء في آخر الطرقة، توقفا بجانب نافذة تطل على ظلمة الصحراء، ظل صامتا لبرهة كأنه يتحسس طريقه للدخول في الموضوع، قال:

ـ لقد ارتكب أبوك خطئا كبيرا.

قال علي وهو يبلع ريقه: أي نوع من الأخطـــاء، هـــل حاول أن يلقي بنفسه تحت شاحنة؟

قال الرجل وقد تبين نبرات السخرية في كلماته:

ــ الأمر جاد وخطير، قد قابلتك خصيصا حتى أقول لك إن هذا الخطأ يجب آلا يتكرر.

ــ لماذا لا تخبرني بكل ما حدث.

ــ لقد حاول أبوك أن يقوم بأمر غريب، لم يكن يليـــق بماضيه العسكري، لقد حاول أن يقتحم منزل الرئيس.

قال علي مذهولا وهو لا يصدق أذنيه:

ــ ماذا تعني أنه اقتحم، وأي رئيس تقصد؟

ــ ربما كانت كلمة اقتحام غير دقيقة بعـــض الشـــيء، ولكن هذا ما فهمه الجميع وما ذكرته التقارير، يبدو أن والدك ــ وأنا على فكرة أقدره كثيرا ــ يمر بفترة مـــن المشـــاعر المضطربة، لقد عرفت من المسئولين في الرئاسة أنـــه قـــد طلب مقابلة الرئيس أكثر من مـــرة، ولكـــن أنـــت تعـــرف، ظروف الرئيس لا تتيح له دوما أن يقابل الجميع، لقد حـــاول "ياوران" الرئاسة أن يقابله ولكن أباك رفض، كان يصر على مقابلة الرئيس فقط.

ـ لماذا؟

ـ كان يقول دوما أنه توجد لديه معلومات يجب ألا يعلمها أحد سوى الرئيس، لا أدري ماهي التفاصيل بالضبط؟ ولا ماذا دفعه إلى هذا التصرف الخطير؟ ولكنه ذهب إلى منزل الجيزة وحاول الدخول بالقوة، وكانت النتيجة أن الحرس قد اشتبكوا معه، يقولون إنه كان عنيفا ورفض أي محاولة للتهدئة، من حسن الحظ أن رئيس الحرس قد تعرف علي شخصيته وإلا كان بقية الحرس قد قتلوه.

كان علي يستمع مذهولا، كأن الرجل يتحدث عن شخص آخر غير أبيه، تخيل وجهه الدامي وهو يتخبط بين أيدي الحرس، وهم يوجهون إليه الضربات واللكمات، سوف يعيش طويلا قبل أن يعرف حقيقة هذا الرجل، أحس علي بالاختناق والمهانة، قال:

ـ لقد كسروا أضلاع صدره، هل كانوا يجب أن يكونوا بهذا الدرجة من العنف بعد أن تعرفوا عليه؟

ـ المهم أن الأمر لم يصل إلى أبعد من ذلك، أبوك مازال على قيد الحياة، وسوف نفترض جميعا أن حالة الجنون هذه كانت مؤقتة.

ـ أبي ليس مجنونا.

ـ من الأفضل أن نعتقد ذلك، لقد سمع الرئيس بما حدث، وأمر بشطب الحادث من السجلات الرسمية.

ـ وماذا يعني هذا؟.

ـ يعني اعتبار أن ما حدث لم يحدث، شريطة آلا يتكرر هذا الأمر، بالطبع لن يكون هناك تحقيق، ولن يتم الإشارة إليه في الصحف.

ـ بدلا من كل هذا، ألم يكن من الأجدى الاستماع إليه؟.

ـ صدقني، أنا أعرف أن أباك كان رجلا مهما، ولكننا في مرحلة لا تسمح لنا بفتح أي من الملفات القديمة، عليه أن يقتنع بذلك، وعليك أيضا أن تقنعه بذلك، لا أحد يدري ماذا يمكن أن يحدث في المرة القادمة.

ـ سوف تقتلونه، أليس كذلك؟

لم يجب، ولم يستطع علي أن يعرف ماذا تقول عيناه المخفيتان خلف النظارة السوداء، مد يده إلى جيب معطفه وأخرج بطاقة، قدمها له وهو يقول:

ـ هذا رقم هاتفي، تحدث إلي إذا حدث أمر ما ولم تقدر وحدك على مواجهته.

استدار، سار بخطى مسـموعة حتـى اختفـى، عـاد الصمت، سار علي إلى حيث يرقد أبوه، جريحا ومهانا، كان قد راهن عليهم مرة أخرى، ومرة أخرى باعوه وأوشكوا أن يقتلوه، وفي النهاية أصبحا وحيدين، لا يوجـد مـن يقـف بجانبهما أو يحاول التخفيف عنهما، بلد واسـع كالصـحراء، خال من الرفقة، جزيرة منعزلة لا يوجـد فيهـا إلا سـرير معدني، وزجاجة للمحاليل، وجهاز لقياس النـبض، وهـاتف صامت.

لا يدري "علي" كيف غلبه النـوم، ولا كيـف أعـادت الكوابيس تشكيل عالمه مرة أخرى، ولكنه استيقظ مفزوعـا ليجد أبيه يحدق فيه بعينين متعبتين، كانت أضـواء الفجـر تتسلل في وهن من خلف الستائر، والغرفة كلها ملفوفة فـي غلالة رمادية، كأنها لحظة غير حقيقية، قال علي:

ــ هل أنت بخير؟

كان يلتقط أنفاسه في صعوبة، وبدا أن حركـة صـدره تسبب له ألما مبرحا، ولكنه قال:

ــ أنت تذكرني بها، عندما كانت تشبهك وهي نائمـة، كنت أحب أن أتأملها دائما في الصباح المبكر.

تأمله "علي" والدموع تكاد تطفر من عينيه،كانت هذه هي المرة الأولي التي يتحدث عنها، رقيقا وحالما، كأنه يستعذب تلك اللحظات الضائعة، قال:

ـ أين هي يا أبي؟

قال الأب وهو يغمض عينيه: لقد زال مفعول المهدئ، استدع الممرضة.

ولكن علي هتف بحده: أين هي؟

قال الأب وهو يضغط على شفتيه محاولا أن يخفي ألمه:

ـ صدقني لا أعرف، كان هذا هو فشلي الأول، فشلي الأكبر، بدا كأنها تبخرت، غادرت البلاد، أو اختبأت في مكان قصي، لم ترد أبدا أن نعثر عليها، أرجوك، استدع الممرضة.

غادر علي وأبوه المستشفى بعد ثلاثة أيام كاملة، ظل خلالها الأب صامتا، لم يحاول أن يعيد رواية ما حدث، بدا كأنه يريد أن يشطبه من ذاكرته، سر آخر يضاف إلى بقية أسراره الغامضة، كان البيت خاليا، والهاتف صامت، كأنما يتحاشاهما الجميع، وظل الأب داخل غرفته لأيام طويلة

متصلة، وحاول "على" الإمساك بآخر أهداب الحياة الطبيعية فقرر أن يعود للانتظام في الكلية:

ـ "رأيت "سلمى جوهر"، أشبه بحلم بعيد كما هو دأبها، جالسة في الصفوف الأولى في محاضرة "الفارماكولوجي"، أوشكت أن أقفز من مكاني وأذهب إليها، أقبل رأسها وأقدم لها كل صنوف الاعتذارات، ولكنها كانت ساهمة، بالغة الشحوب، وشديدة الوحدة، كأن كل ما كان يربطها مع هذا الحشد الموجود في المدرج قد انقطع، في نهاية المحاضرة، ونحن في طريقنا إلى قسم الباثولوجي، وقفت أمامها، تحدثت معها، ولكنها بدت كأنها لا تراني، لا ترى أحدا، تلك الهالة التي تحيط بها، التي تحتويني وتدخلني فيها، قد انطفأت، كانت نائية عني، دون أي رغبة في الاقتراب أو التلاقي، لم تخرج بعد من نفق السجن المظلم، وجهها خال من أي زينة، وشعرها مشدود بقسوة إلى الوراء، تتابع كلماتي وتوسلاتي بعيون فارغة، هل كانت تلومني على سجنها وحيدة؟ أم لابتعادي عنها؟ قالت لي بضع من كلمات،ساخرة وسليطة، وفي النهاية تركتني ومضت، تسألني عن أبي يا "نور الله"، ماذا يمكن أن أقول عنه، هل تعرف

لماذا خلق الله الأباء؟ إنهم غصتنا وشعورنا بالذنب، خاصة وأنت تراهم دوما يرفعون السماء على أكتافهم حتى لا تنطبق علينا، لا يقولون لك صراحة ماذا يريدون منك، ويرفضون أن تمد لهم يد العون حتى يزيدوا من معاناتك".

لم يغادر الأب المنزل لأيام متتالية، غادر حجرته فقط أخذ يتنقل بين أرجاء المنزل، جلس يوما كاملا في الشرفة، ويوما في غرفة مكتبه خلف باب مغلق، ويوم في صالة المنزل محدقا في شاشة تلفزيون لا يوجد عليها أي صورة، فك كل الأربطة التي تحيط بجسده، وبدأ يتنفس ويتصرف بشكل طبيعي، ولكنه ازداد نحولا وتباعدا، كان قد فقد الكثير من ذات نفسه، وكان كل ما يأمله "علي" هو أن ما بقي منه يظل متماسكا.

ذات مساء آخر عاود الاختفاء، عاد "علي" من الكلية فلم يجده، انتظر عودته حتى طغى الليل، هبط على غير هدى وأخذ يطوف في الشوارع ويسأل في المستشفيات القريبة، فكر أن يتصل بالرقم الذي أعطاه له الرجل ولكنه لم يكن مرتاحا لذلك، وفي الصباح عاد الأب، متعبا ومنهكا، مغطى بالطين، تفوح منه رائحة السجائر والخمر الرخيصة، كانت

هناك رضوض وكدمات زرقاء حول رقبته، لم يعط إيضاحا ولا تبريرا، اغتسل سريعا ثم حبس نفسه في غرفته، دق عليه "على" الباب فقال له إنه متعب ويود النوم، كان أشبه بطفل ضخم غير مسئول عن تصرفاته.

كم مرة تكرر الغياب والحضور، كم مرة عاد الأب جريحا ومتسخا ومتعبا، كم تحشاه وتباعد عنه ولم يقدم جوابا شافيا لكل أسئلته، كأن هذا قد أصبح نمط حياتهما الجديد، عالم سري ولكنه سفلي هذه المرة ينسج خيوطه ويباعد بينهما، لم يعد هو نفس الرجل، حاول علي في اللحظات النادرة التي لا يكون فيها هاربا أو متسخا أو متعبا، أن يتحدث معه عن الكلية، وعن "سلمى" التي مازالت تعامله بصمت وجفاء، عن الكتب الضخمة والمحاضرات دخلت في طور مثير وهي تحاول أن ترصد أوجاع الإنسان، ولكنه كان فقط يبتسم في وهن، ويهز رأسه في شرود، ثم ينهض منصرفا إلى غرفته، كانت وحدتهما الممضة تزداد كل يوم، أحس "على" أن مصيرهما معا معلق بخيط واه.

بعد منتصف الليل استيقظ "علي"، كان الليل باردا، وباب غرفة الأب مفتوحا وسريره خاليا، كان علي قد رآه

وهو يأوي إلى غرفته في أول الليل، فهل تسلل بعد أن غلبه النوم؟ هبط الدرج وهو يرتجف، كان نور غرفـــة المكتـــب مضاء والباب مغلقا، طرق علي الباب وتنهـــد فـــي ارتيـــاح عندما سمع صوت همهمته من الداخل، فتح البـــاب وخطـــا داخلا، كان الأب جالسا خلف مكتبه، مرتديا كامـــل ثيابـــه، الحلة الداكنة وربطة العنق، وعلى عينه نظارته الطبية، كأنه يمارس عمله الرسمي، ولكن الذي أثار دهشة علي بحق هو تلك الكومة من الملفات والوثائق التي كانت متنـــاثرة أمامـــه على المكتب، لم يرها من قبل، ولم يعرف أبدا بوجودها فـــي المنزل، كان هناك مصباح مركز على المكتب وهو يفحـــص الوثائق في اهتمام، كان وجهه جادا ولكنـــه راض وســـعيد، ملامح لم تظهر عليه منذ زمن بعيد، بدا أنه حتى لم يشـــعر بدخول علي واقترابه منه، قال علي في توجس:"أبي"، رفـــع الأب رأسه فجأة، وكرد فعل أول حاول أن يخفـــي الأوراق، ثم هدأ عندما رآه، قال "على" مدهوشا:

ــ ما كل هذه الملفات، إنني لم أرها قبل الآن؟

كان الأب نادرا ما يحضر شيئا من عمله إلى المنـــزل، قال الأب في حماس:

ـــ طبعا، كان من المهم آلا يعرف أحد بوجودها أو أنني مازلت أملكها، لقد حانت لحظتها أخيرا.

قال علي في قلق: أبي أنت مريض، يجب عليك ألا ترهق نفسك إلى هذا الحد.

ـــ من قال ذلك؟ أنا في كامل عافيتي، بل أنني وجدت الدليل الذي كنت أبحث عنه، تقارير قديمة من تقارير المتابعة والرصد، لم ننتبه إليها من قبل، كانت الإشارات واضحة والدلائل قائمة ولكننا لم نرها، أو ربما رأيناها ولم نصدقها، لقد عرفت مكان الجاسوس الذي بحثنا عنه طويلا، إنه يشغل منصبا حساسا، أقرب ما يكون إلى الرئيس، من أجل هذا أمروني باغلاق الملفات، ولكني لن أغلقها، وسوف تبقى القضية مفتوحة، الآن أستطيع الذهاب إليه والتحدث معه، لقد أصبحت امتلك الدليل.

أحس علي بالخوف، رأى نذر المأساة وهي تتجمع من جديد، كان الأب ينوي مرة أخرى أن يخوض هذه المغامرة المميتة، تذكر التحذيرات الحازمة التي تلقاها في المستشفى، قال متوسلا:

ــ بالله عليك يا أبي، إنس هذا الأمر، إنس هذه الملفات وهذا الجاسوس، ولا تحاول أن تذهب لتحــذر أحــدا، لقــد تصالحنا معهم، وحتى لو كان هناك جاسوس أو عميل فلــم يعد ما ينقله مهما.

ضرب الأب المكتب بقبضته، كان يرتجف وقد تقلصت ملامحه، صاح:

ــ العدو لا ينقلب أبدا إلى صديق، إنها حرب لن تنتهي، ما يعرفونه عنا سيزيد من أسباب إذلالنا.

ــ هذه الملفات كان يجب ألا تخرج من مكان العمــل، وجودها هنا خطأ، انسها، احرقها، أرجوك، لا نريد المزيــد من الأخطاء.

ــ لم أخطئ، هم الذين أخطئوا في حقي، هذا الجاسوس في مركز العصب ولابد أن أقتلعه من مكانه.

ــ إنهم جادون يا أبي، لقد حذروني، هددوني، لن يستمع إليك أحد منهم.

وضع الأب يده على كتف علي وهو يقول في ثقة:

ــ هذه المرة سوف يستمعون إلي، سوف أرغمهم على ذلك.

بدت عيناه لامعتين، ممتلئتين بدموع متحجرة، لم يعرف "علي" أهي من فرط الحماس أم من الإحساس بالأسى، وجـد نفسه وهو على وشك الانهيار، اختنق صوته وهو يصـرخ فيه:

ــ لن تذهب إليهم يا أبي، لا أريد أن أفقدك، لـم يعـد يربطني بهذا العالم التعس إلا أنت.

أجهش علي بالبكاء، حدق فيه الأب مدهوشا لبرهة، ثـم احتضنه، للمرة الأولى التي يحس فيها علي بعناقه، أن يكون قريبا منه لهذه الدرجة، ترى هل عانقـه يومـا قبـل هـذه اللحظة؟، هل لاعبه عندما كان صغيرا؟ اختلطت دموعهمـا، سمعه وهو يهمهم:

ــ لن أفعل ما يمكن أن يسبب لك الألم.

كانا أشبه بطفلين صغيرين، يبكيان في لحظة بزوغ فجر رمادي، صعدا السلم معا وأوى كل واحد منهما إلى غرفته.

في الصباح لم يجده، رأى أن فراش أيضا لـم يمـس، وكانت غرفة المكتب خالية منه أيضا، لا يوجـد بهـا تلـك الملفات اللعينة، أخل بوعده معه، فأي لعبة يلعبها هذه المرة؟، ركب "على" سيارته الصـغيرة وأخـذ يجـوب الشـوارع

كالمجنون، ذهب إلى البيت الذي يطل على النيل في الجيزة، وإلى الميدان الواسع أمام قصـــر عابـــدين، وأمـــام مجلـــس الوزراء والأمة والمخابرات وحتى الفنية العسكرية، لم يشاهد حركة غير عادية، عاد إلى البيت وجلس متحفـــزا بجانـــب الهاتف، وظل الصمت مخيما على كل شيء.

كان الليل طويلا، ولم يعد الأب مع الصباح، دق رقـــم الهاتف الذي كان بحوزته فلم يجب عليه أحد، ذهب إلى قسم الشرطة القريب يبلغهم على اختفائه، كان في أمس الحاجـــة لمن يساعده، استقبله الضابط في احترام متحفظ، ثم تحـــول إلى الاستهانة والسخرية الخفية عندما عرف فحوى الـــبلاغ، رجل عاقل، عسكري سابق وقائد معروف، لم يفعل أكثر من أنه تغيب عن منزله لليلة واحدة، ربما كان عنـــد صـــديق أو بصحبة امرأة أو أسير نزوة مـــا بعيـــدا عـــن أعـــين ابنـــه الفضولي، لم يكن "علي" يستطيع أن يقول له الكثير، أن يقص عليه مخاوفه الحقيقية وتوقعاته الأسوأ، وأخيرا قال الضـــابط محاولا أن يكون لطيفا:

ــ عد إلينا بعد ٧٢ ساعة، ربما نستطيع أن نقبل منـــك البلاغ، ولا تتوقع الكثير.

خرج علي من قسم الشرطة مخذولا، عاد إلى البيت الخالي من الأب، أحس أنه عار، بلا جدران تحميه، كان قد تخلى عنه فجأة دون أن يوفر له الحماية اللازمة، الحماية التي كان يضيق بها سابقا، أصبح الآن في أمس الحاجة إليها، عاود الاتصال بالرقم الذي أعطاه الرجل الرسمي، وأخيرا أتاه صوته من الطرف الآخر، كان مدهوشا وحائرا هو أيضا في تفسير سبب هذا الاختفاء، لم تكن لديه معلومات غير عادية، ولم يبلغ رسميا بأي شيء، لم يحدثه عن نزوة ما، أو حالة من الجنون المؤقت، ظل متباعدا وحياديا مع وعد غامض أن يقوم بفعل ما يمكنه:

ـ "في ظهيرة اليوم الثالث رن جرس الهاتف أخيرا، انتفضت وأنا أجلس متكوما في ساحة المنزل الصامت، رفعت السماعة مرتعدا، أخذ قلبي يغوص وأنا أسمع صوتا غريبا، صوتا أجشا خشنا، رسمي، يتحدث بلا مقدمات ولا تحية، يردد اسم أبي كاملا، ويتأكد من العنوان، ويسأل إن كان بالفعل متغيبا عن المنزل، وعن درجة قرابتي له، ثم يدعوني للقدوم إلى قسم شرطة المعادي، أهتف في فرح أبله: " هل عثرتم على أبي؟"، يرد علي بنفس اللهجة الرسمية:"

يحسن بك القدوم إلى القسم أولا..." انحدار آخر على حافة السفح، لا يهم، المهم أنه موجود، وبخير، وأنني سوف أعثر عليه ولن أسمح باختفائه مرة أخرى حتى ولو وضعت القضبان على الأبواب والنوافذ، أسرعت على الطريق الدائري كالمجنون، دخلت في تلافيف الشوارع الضيقة المتكسرة التي تكسوها الأشجار، كان القسم عتيقا تطغى عليه رائحة دورات المياه، كان الضابط الذي اتصل بي سمينا، يلتقط أنفاسه بصعوبة، قال لي: هل ستركب معنا عربة "البوكس" أم ستتبعنا بعربتك؟ فضلت أن أسعى خلفه، نظر إلي في شك وهو يقول:" هل تستطيع...؟ " لم أرد أن يرى أحد مدى لوعتي، كنت حتى هذه اللحظة متماسكا، أو بالأحرى عاجزا عن البكاء، أخذت أتخبط وسط شوارع المعادي الضيقة، كانت السماء مختفية خلف الأغصان المتكاثفة، وهم يبحثون عن منفذ يقودهم إلى النهر، دخلوا في سلسلة من المنحنيات الصعبة كأنهم قد ضلوا طريقهم، وظل الجنود الذين يركبون في خلفية العربة يلقون علي نظرات جامدة، كأنهم كانوا يتوقعون أن تتعطل عربتي أو أغير

وجهتي، أخيرا اســتطعنا الإفــلات مــن فخــاخ الشــوارع المتشابكة، ظهر النهر أمامنا هادئا وساجيا وباهت الزرقــة، سرنا على حافة الطريق الإسفلتي الذي يقودنا إلى حلوان، ثم عاودنا الانحراف مرة أخرى منحدرين مــع ضــفة النهــر، أوشك "البوكس" أن يختفي وسط الحشائش البرية التي كانت تواصل الارتفاع، كنت أتبعه مهتديا بالصوت المزعج الــذي يصدر من محركه، توقفنا بالقرب من حافة الميــاه، وقلــت لنفسي هذا النهر يبدو أشد الأنهار غموضا وتكتما، تترقــب مياهه الرمادية خطواتي المرتعدة وأنا أنقلها خلف الضــابط السمين، توقف حتى يمسح عرقه، وتوقف العســاكر أيضــا، نظر إلي أحدهم، كان عجوزا إلى درجة تعتقد أنهم قد نســوا عدد سنوات خدمته، قال لي فــي إشــفاق: هــل تريــد أن أساعدك؟ هززت رأسي متباعدا، لم أكن أريد أي نوع مــن التعاطف، لم أكن أريد أي شيء يمكن أن يوهن قواي، اقبــل من حافة النهر رجال شرطة آخرون، أكثر تعاسـة، كانــت سراويلهم مبللة كأنهم كانوا يخوضون في مياه النهر، ســأل الضابط السمين: " هل حضــر الطبيــب الشــرعي؟"،قــال

الشرطي:" منذ نصف ساعة تقريبا"، تقدم الضابط وهو ينفخ: "دعنا ننتهي من هذا الأمر"، لم يكلمني، كان يكلم الحشـــائش والنهر ولكنه يتجنب النظر إلي، كأنه نســـي الغــرض مــن إحضاري إلى هنا، تصبح الأعشاب أعلى من رءوسنا فأحس بالاختناق، كانت هناك شجرة على حافة النهــر، جــذورها ضاربة في الماء، يقف الطبيب وهو محتقن الوجه، يتحــدث في اهتمام إلى رجل آخر، كنت أبحث عن الرجل الثالث الذي لا يتحدث معهما، أبي كان راقدا على الأرض، مستندا قلــيلا بظهره إلى جذع الشجرة، مبلل الجسد، عار الصـــدر، أزرق الجلد، وقدميه بدون حذاء، كانت أصابعه مغروسة في الطين كأنه يحاول التشبث به، خصلات شعره متموجـــة، ممتزجــة هي أيضا بالطين، وجهه ســـاكن وصـــامت ولكنـــه لـــيس مستسلما، بدا أن الحياة قد انتزعت منه قســـرا، وأن روحـــه كانت عصية، لم تغادر جسده بسهولة، ظللت واقفا صـــامتا، مكتوم الأنفاس لدرجة أن أحدا منهم لم يشعر بوجودي، فهــل شعر بي؟ يبدو بعيدا، متوحدا مع العشب والماء والطين كأنه قد أوغل فيه منذ زمن في الموت، كان الطبيب يحدث الرجل

الآخر الذي يقف بجانبه حائرا:" إذا كان قد مـــات غريقـــا، فلماذا كل هذه الجروح التي تملأ جسده"، تمتم الرجل الآخـــر بكلمات لم أسمعها وهز الطبيب رأسه حائرا، كـــان الجســـد المسجى لا يستطيع أن يجيب عن أسئلته الحائرة، ولا أسئلتي أنا أيضا، من الغريب أن يختار هذا المكـــان النـــائي مكانـــا لموته، وأن يختار الغرق البطيء طريقة لذلك، وهـــو الـــذي كان حازما وباترا، كان هو أبي، ولكنه لا يشـــبهه، الرجـــل الذي عرفته لم يكن يترك جسده هكذا رخوا وشاحبا وملطخا بالعشب والطين، لم يكن ليتركهم يقلبونه ويتفحصون أطرافه وتجويف فمه وأذنيه ثم يغطونـــه بمـــلاءة متســـخة، تاركـــا للآخرين أن يقرروا مصيره، أتعرف ذلك الشعور بالأســـى، إنه شعور لا يعطيك متنفسا لأحزانك، لا يجعلك قادرا علـــى العويل أو التفجع أو الصراخ، إنه يحول كل ذلك إلى موات، موات لخلايا داخل الجسد لا تعود للتجديد مرة أخرى، إنـــه الفقدان، شعور قاس لا يعوض، قال الطبيب:" يجب أن أنقله إلى المشرحة أولا، سأفحص رئتيه لأرى إن كانتا ممتلئتـــين بالماء أم لا؟" همهموا جميعا وهم يهزون رؤوســـهم، رفـــع

الرجل الذي يحدث الطبيب رأسه ورآني، والتفت الضابط السمين وعاود رؤيتي مرة أخرى، قال في إشفاق:" لا بأس عليك، هل هذا هو؟"، أومأت أنا أيضا، قال الضابط: "لقد وجدنا أوراقه الشخصية في جيبه، أتلفها الماء قليلا ولكنها كانت كافية للتعرف عليه، كان يجب أن نتأكد منك"، بحثت طويلا عن صوتي، كنت فقط أريد أن آخذه، أن أنتشله من بين أيديهم، قلت: ماذا سيحدث الآن؟ قال الضابط: "كما رأيت، سننقله الآن إلى المشرحة حتى يأمر وكيل النيابة بدفنه"، قلت: "هل عرفتم كيف مات؟"، نظر الضابط إليهما، أدار الطبيب وجهه، وظل الرجل الآخر صامتا، عاد الضابط يقول: " مبدئيا يبدو أن قدميه قد انزلقتا في الماء"، كنت متأكدا أن هذا لم يحدث، وكنت واثقا أنه لن يقال لي غير ذلك، ظللت واقفا، تأملني الطبيب قليلا، هل كان يريد أن يقول لي شيئا، قلت: أبي ليس بالرجل الذي تنزلق قدماه بسهولة ويغرق هكذا"، نظروا جميعا إلي ساهمين، لم يقل أحد منهم شيئا، عدت أقول:"أنا أريده، أريد أن اغسله وأصلي عليه وأدفنه "، قال الضابط: "لا أملك ذلك الآن، ولكن الأمر

لن يطول كثيرا"، من أعلى ضفة النهر تعالى صوت سـيارة الإسعاف، جاءت لتحمله بعيدا مرة أخـرى، اقتربـت منـه، أفسحوا لي قليلا، انحنيت وقبلته على جبينه، فليرحمك الله يا أبي، فليرحم كل الأباء التي ضلت بهم السبل، أحسست بطعم الماء والملح، وخيل لي أن جلده قد ارتجف تحـت قبلتـي، الموتى لا يغادرون عالمنا، حتـى لـو حملـتهم سـيارات الإسعاف، وحتى لو رقدوا في المشرحة بين جثث الغربـاء، سرت خلف جسده، وحيدا تماما، لن يملأ أحد وحدتي، ولـن يهدئ أحد من روعي، كانت هذه هي لحظاتي الأخيرة معه، لم أفك غموض موته، كما لم أفك غموض حياتـه، وسـوف يبقى فقط ذكرى خاصة بي، مازلت حتى هذه اللحظة أسـأل نفسي هل كان يمكن أن أقوم بشيء يمنع موته، وهل هنـاك شيء يتيح لي أن أعرف قاتله، لقد قصرت معه، كرهته حين كان يجب أن أحبه، واتهمته بالجنون حين كان يجب أن أكون أول من يصدقه، تركته وحيدا فريسـة للقتلـة المحتـرفين، وتركت أدلة حياته وموته تهرب من بين أصـابعي كـذرات

الرمل، كل هذه السنوات وأنا أعيش مع ندم هـذه الأسـئلة، ربما لو إنني عرفت حقيقة موته لارتحت قليلا".

آن لي أن التقط أنفاسي وأتوقـف عـن هـذا الحـديث المضني، من حسن الحظ أن الظلام كان قد هبط على هـذا الكون المتسع، أصبح يغطي الحقول والهضـاب وضـفاف الأنهر، يخفي وجهي وعيوني اللامعة، من العسير أن ترثـي نفسك دون أن يكون هناك من يمنح لك العزاء، أراقب جذوع الأشجار وهي تمرق حولنا، تضيئها أنوار السيارة مثل ذكرى عابرة، يرق الهواء ليصيح باردا، يظل "نـور الله" صـامتا، يترك الفرصة لنفسي حتى تهدأ، لا أدري إلى أين يمضي بنا، وهل مازلنا نسير حثيثا إلى "طشقند" أم أننا نعود أدراجنـا، هل أصبحت أكثر راحة الآن، هل انزاح عبء الذكرى عـن كاهلي، كانت هذه هي المرة الأولي التي أروي فيها كل شيء هكذا، دفعة واحدة، هل كان من المهم أن ارويهـا، أم أنهـا حكاية هامشية أخرى تضاف لبقية حكايـات هـذه الرحلـة الغريبة، يتحدث "نور الله" أخيرا، يقول في صـوت هـادئ، متعاطف بعض الشيء:

ـ من أجل تلك الأسئلة المحيرة قمت بهذه الرحلة؟ كنت تعتقد أن هذا الجنرال الذي ذكرته يمكن أن يذكر لك شيئا لا تعرفه؟ أم أنك كنت تهرب من كل تلك الأسئلة؟

أقول وأنا أحاول أن أبدو منطقيا أمامه:

ـ كان صديق أبي، لم تصل علاقته مع بقية زملائه من العسكريين المصريين إلى ما وصلت إليه، كان من الممكن أن يأتمنه على سر أو يعطيه أي وثيقة.

يتمهل بالسيارة حتى توشك على التوقف، يهتف من أعماقه:

ـ أنت تعذب نفسك وتعيش داخل هذه الحالة أكثر مما ينبغي، فلنفترض أنك عرفت سرا أو حصلت على وثيقة، ماذا ستفعل بها، هل ستلعب دور المنتقم، هل تحسب أن هذا سوف يفيدك؟ لقد مات أباك لأنه كان يجب أن يموت، وأنا دخلت السجن وفقدت مناصبي لأنه كان يجب أن يحدث ذلك، انه قدر مكتوب، من نحن حتى نصنع أقدارنا؟

استمع إليه صامتا، لم أكن مقتنعا، لم اكن راضيا، كان يحاول التسرية عني بطريقة فجة ومكشوفة، تلوح من بعيد أضواء خافتة، إحدى استراحات الطريق، ربما كان المكان

نفسه الذي شاهدنا فيه العرس وبدأت فيه متاعبنا، ابتلع ريقي يواصل هو القول:

ـ عد إلى بلدك، إنس كل اللحظات التعيسة الماضية، وابدأ من لحظة ما، لتكن لحظتك الحالية وعشها كما يجب أن تعاش، الماضي ليس إلا حملا ثقيلا.

أشعر أن اللحظة قد حانت، اللحظة التي أشعلت جذوة هذا الحديث الطويل، أقول في صوت خافت ولكنني أثق انه يسمعني جيدا:

ـ الآن وقد عرفت من أنا كما كنت تقول، هل يمكن أن تجيبني عن سؤالي؟

ـ أي سؤال؟

ـ لا يوجد غيره، أريد أن أسألك عن "طيف"؟

يزفر متنهدا وقد عادت وتيرة التوتر للارتفاع بيننا:

ـ آلا يكفي كل ما حدث؟

ـ أنا لا أعرف ماذا تعني بالنسبة لك، ولكن ما حدث معها، ما حدث بيننا، لم يكن أمرا عابرا، لقد كان بداية لعلاقة أتمنى أن تدوم.

يتوقف بالسيارة فجأة، أرى وجهه بصعوبة وأضواء الاستراحة البعيدة تنعكس عليه، يتأملني في حيرة، يود لو يعرف حقا ماذا اعني، وكيف اندفعت مثل هذه الفكرة المجنونة إلى رأسي، قال وهو يزفر:

ـ أهو الندم؟ لا يجدر بك فعل ذلك، لم يكن ينقصنا إلا هذا.

ـ ليس الندم بالتأكيد، عندما جئت هذه الرحلة لم أكن أدري ماذا كنت أريد بالضبط، كنت أعتقد أنها رحلة من بلد إلى بلد، من مدينة إلى أخرى، ولكن كل شيء قد تغير، لقد رأيت أشياء لم أكن أراها، وفهمت الكثير من الأمور كان من العسير علي أن أفهمها من قبل، هناك شيء ما يجب أن يتغير، ويجب أن يحدث هذا الآن، ربما "سمرقند"و "طيف" قد اعطياني الاجابة عن أسئلتي الحائرة.

ـ ولكن ما أبعد الشقة بين عالميكما، عجيب أمر هذه الدنيا، لا أعرف كيف سارت الأمور إلى هذا الحد، لقد تركت معي رسالة لك، إنها أمامك في درج السيارة.

أحدق فيه مدهوشا، هل كان يتوقع هذه النهاية أم أنه قادني إليها، أمد أصابعي المترددة وأفتح الدرج، أي مفاجأة

أخرى تنتظرني في هذه الرحلة التـــي لا تريـــد أن تنتهـــي، اخرج المظروف الصغير وافتحه، رغم العتمة ألمح الأوراق المالية الموجودة بجانبه، النقود التي ســبق أن أخـــذت مـــن حافظتي، كاملة لم تنقص شيئا، أتطلع إليه مـــذهولا، كانـــت عيناه تحدقان في وجهي، براقتين ولامعتين، ظللنا نحدق في بعضنا البعض عاجزين عن التفوه بأي حرف، وعن القيـــام بأي حركة.

يشق السكون صوت آلة التنبيه، صوت عال ومتصـــل، إحدى سيارات الشرطة تقتـــرب منـــا، أضـــوائها الحمـــراء والزرقاء تضوي وسط الظلمة، يخيم علينا الوجـــوم، تتقـــدم السيارة حتى تقف بمحازاة سيارتنا تماما، تفتح كـــل أبوابهـــا دفعة واحدة ويهبط من جوانبها أربعة من الجنـــود، يقفـــون متحفزين كأنهم جاءوا في مهمة خاصـــة علـــيهم إنجازهـــا، يحيطون بسيارتنا، يتقدم أحدهم ناحيـــة "نـــور الله"، يخـــرج مصباحا كهربائيا ويسلطه علـــى وجهـــه، فـــأرى ملامحـــه بوضوح، كان حزينا، ولكنه لم يكن خائفا، يحاول أن يواجـــه الضوء بثبات دون أن يضطر لإغماض عينيه، قال الشرطي بضع كلمات لبقيتهم، من الواضح أنهم قد عثروا علـــى مـــا

يسعون خلفه، انتهت المطاردة، يغمض "نور الله" عينيه وهو يزفر، يقول شيئا في صوت مكتوم، ينظر رجال الشرطة إلى بعضهم ثم يضحكون في صوت جاف، أشعر بإيقاع التـــوتر وهو يتصاعد رغم أنني لم أكن أفهم شيئا، يصيح الشـــرطي الممسك بالمصباح آمرا، يطرق الشـــرطي الآخـــر الواقــف بجانبي على زجاج السيارة مشيرا لي بالنزول، أتطلــع إلـــى "نور الله" مستغيثا، ولكنه يقول:

ــ إنهم يسعون ورائي، لا يعجبهم ما حدث عند الإمـــام البخاري، من الأفضل أن تهبط وتبتعد، لا شأن لك بما يدور.

يصيح الشرطي الممسك بالمصباح في حدة، يهبط "نور الله" من السيارة، اهبط أنا من الجانـــب الآخــر، يزيحنـــي الشرطي بعيدا، ومن خلال العتمة أسمع صـــوت اصــطكاك المعدن، التفت مفزوعا، على ضوء المصباح أرى ومـــيض القيود المعدنية وهي تلتف حول معصـــمي "نـــور الله"، أراه وهو ينتفض في غضب مثل دب أسير، أصرخ أنـــا أيضـــا محتجا ولكن الشرطي يواصل إزاحتي بعيدا، أكتشـــف أنـــه يمسك في يده قضيبا معدنيا طويلا، يتقدم نحوي وهو يلوح به متحفزا، أتخيل أنه سوف يرفعه ليهوي به على رأسينا، ولكنه

يهوي به فجأة على الزجاج الأمامي للسيارة، على المصابيح التي كانت مضاءة، ينسال من جوفها كل ما فيها مــن ذرات الضوء ويسود ظلام كابي، يصرخ "نور الله" فــي غضـــب، يحاصرونه، يستغلون يده المقيدة ويهوون على بطنه ووجهه باللكمات، أتحرك نحوه، ولكن الشرطي الرابع يلوح بالقضيب المعدني في وجهي، يهتف بإنجليزية متعثرة:

ــ لا شأن لك به..انصرف..

ولكنني لا أستطيع الانصراف وأنا أراه ينطرح أرضـــا، أرفع يدي إلى أعلى وهي تحمل مظروف النقود، أصرخ فيهم جميعا:

ــ نقود...دولارات..

ينفذ سحر الكلمة إليهم، يتوقفون عن ضربه ويلتفتــون نحوي، يرفع الشرطي مصباحه ويسلطه على يدي، يسيرون نحوي في خطوات بطيئة متحفزة، يقول "نور الله" وهو يــئن على الأرض:

ــ احتفظ بنقودك، إنهم لا يساوون شيئا.

ولكني أحرك يدي بالنقود، عرضي ما زال قائما، أتراجع قليلا وهم يواصلون التقدم نحوي، أقول وأنا أشير إلى الرجل الملقى على الأرض:

ــ فكوا قيوده أولا.

يفهمون كلماتي دون حاجة إلى ترجمة، يترددون قليلا ويتبادلون النظرات، أفرد الأوراق المالية أكثر، أتركهم يتمعنون في تفاصيلها، يلقي الشرطي القضيب المعدني من يده، يمد يده لزميله فيناوله المفاتيح ويظل حامل المصباح مسلطا ضوءه على يدي المرفوعة، يفك الشرطي القيود أخيرا وعن "نور الله"، يتقدم مني ويختطف النقود من يدي، يصرخ في وجهي:

ــ انصرفا من هنا فورا...

أتقدم نحو "نور الله" لأساعده على النهوض، يتحامل هو على نفسه وينهض معي، لم يكن يريدهم أن يروه على الأرض أكثر من ذلك، كانت المقاعد داخل السيارة مليئة بالزجاج المتكسر، نزيحه بأيدينا خلال الظلمة، اشعر بوخز

الزجاج في يدي العاريتين، أدرك أنها قد امتلأت بـــالجروح الصغيرة، نجلس أخيرا داخل الســـيارة وتبـــدأ المحـــاولات المستميتة من اجل التحرك، يزفـــرون فـــي غـــيظ، كـــانوا ينتظرون أن نختفي من أمامهم حتى يتقاسموا النقود، تتحرك سيارتنا أخيرا، نبدأ في الابتعاد عنهم، نشعر بالهواء البـــارد وقد بدأ يلفح وجهينا في قوة، في لمحة من الضوء أرى وجهه الذي تغطيه الدموع، كانت مـــرارة الإهانـــة أكثـــر مـــن أن نستطيع مداراتها، ولكننا نواصل الســـير، دون زجـــاج، ولا أضواء وسط الظلام الحالك والسهوب المفتوحة، ولـــم نكـــن نعرف إلى أي مدينة نتقدم.

٣٠/ ٦/٢٠٠٢